اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصـــدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الثالث المجلد الأول مارس ١٩٩٥

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثالث ـ المجلد الأول

مارس ١٩٩٥ م

هـــــذه المجـــلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صـــافية نقية بعيـــدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية ٠

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية ٠

- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعـــد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق ٠

- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة ٠

- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات ٠

- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجـــلة ٠

- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانةالباحث أو درجته العلمية٠

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ أورمان ـ جيزة ـ مصر)٠

المؤرخ العـــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثالث ـ المجلد الأول ـ مارس ١٩٩٥

فى هـــذا العـــدد

- افتتاحية العدد ..... رئيس التحرير
- زيف ما يدعيه حكام العراق من حقوق تاريخية فى أرض الكويت ..... د. حياة محمد البسام
- رحلة سلام الترجمان الى سـد يأجوج ومأجوج .... د. محمد بن فارس الجميل
- الهجرات العربية وانتشار الاسـلام فى بلاد شرق افريقية .... د. غيثان بن على بن جريس
- بعض أضواء على مدينة الأشمونين فى العصر الفاطمى .... د. عبد الحميد حسين حمودة
- العوامل التى انعشت الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول ...... ضيف الله بن يحيى الزهرانى
- صفحة فى تاريخ دولة الروم : العلاقات الاسلاميةالبيزنطية فى فترة حكم النساء وازواجهن (١٢٠٨ ـ ١٠٥٦م) ... أ.د. عليه عبد السميع الجنزورى
- بنو ايلدكز أتابكة أذبيجان وعلاقاتهم بالقـوى المعاصرة (٥٤١ ـ ٦٢٢هـ / ١١٤٨ ـ ١٢٢٥م) .... د. مسفر بن سالم الغامدى
- بعض أضـواء جديدة على وظيفة ناظر البيمارستان المنصورى .... د. ليـلى عبد الجواد
- هبة الله بن ملكا ونظـــرته الى المعارف والعلوم .... د.مريزن سعيد عسيرى
- وثيقة عربية نادرة فى أرشيف البندقية. أ.د. عبد المنعم ماجد
- النشـاط التجارى بالسلط فى القـــرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية ... د. عبد العليم على أبو هيكل
- باب عرض الكتب .... رئيس التحرير
- استدراك حول مقال العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العـــربية فى العصر الفرعونى .... أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- مؤتمر الجمعية العمومية الثانية لاتحاد المؤرخين العـــرب بالقاهرة (نوفمبر ١٩٩٤) .

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

افتتاحية العـــدد

القـــافلة تســير .....

بصدور هذا العدد الثالث من مجلة المؤرخ العربى ، تكون قد انقضت ثلاثة أعوام على مولد اتحـــاد المؤرخين العــرب بالقاهرة ، وما أسرع ما تمر الأعوام وتتوالى الأيام ...

ثلاثة أعوام كاملة انقضت منذ أن كان هــذا الاتحاد مجرد مشروع حمله الى القاهرة لفيف من الاخوة الزملاء العرب الوافدين من شتى البلاد العربية ، بعد أن ثبت فشل اتحاد بغداد وانحرافه عن جادة الطريق ، وانصرافه لتسخير طاقة المؤرخ العربى وامكانات علم التاريخ فى خدمة حاكم استنفد طاقات بلده فى قهر شـــعبه فى الداخل وتهـــديد جيرانه فى الخارج ...

وفى الوقت الذى كان اتحاد بغداد مشغولا بعمل مهرجانات لتأييد سياسة التخريب والعدوان ، وتوزيع (الأوسمة) على لفيف من الانتهازيين الساعين وراء المظهر الخـــداع ... فى ذلك الوقت أحس المؤرخ العربى الشريف أن الكيل قد طفح ، وأن تراثه الناصع قد لوثته أيدى الصغار ، وأن رصيده الحضارى الضخم على مدى خمسة عشر قرنا قد تعرض لعبث العابثين ، فاتجه المؤرخون العرب الى القاهرة ينشدون تصحيح المسار ونفض الغبار عن سمعة المؤرخ العربى ، بعد أن الحق بها اتحاد بغداد العيب والعار ، واصلاح البنيان الذى اقامه الآباء والأجـــداد مما أصابه من تصدع ودمار .



لقد كان يوما مشهودا ، وعيدا مرموقا من أعياد العروبة ، عندما عقد اتحاد المؤرخين العرب جمعيته العمومية الثانية بالقاهرة فى الأسبوع

الأخير من شهر جماد الآخر سنة ١٤١٥ هـ - نوفمبر ١٩٩٤م - . ذلك أن هذا الاجتاع الحافل شارك فيه جمع غفير من المؤرخين العرب ، شيوخا وشبابا ، نحو ثلثمائة مؤرخ عربى وفدوا من شتى الأقطار والبلدان ... الكل مرفوع الرأس ، لم يأت الى القاهرة لينحنى ويرقص أمام حاكم كائنا من كان ، أو يسبح بحمد سيد أو رئيس سعيا وراء أجر أو وسام ، وانما أتى الجميع الى القاهرة ليرفعوا راية العروبة فى ساحة من أشرف ساحاتها ، ويعاهدوا الله على العمل لما فيه خيرها من خلال نافذة التاريخ .. مدرسة الزمان والمكان .

أجل ، ما كان أعظمه من مهرجان حافل ، جلس فى رحابه المؤرخون العرب جنبا الى جنب ، الكل سواء ، لا رئيس ولا مرؤوس ، وانما هى الزمالة والاخوة ، ومن فوقهم ترفرف راية الحرية ... ان حرية الفكر ، وحرية الرأى ، وسمو الهدف ، وأدب النقاش ، هى التى خيمت جميعا على أجواء الجلسات التى عقدها مؤرخو الجيل فى وئام وهدوء ... كل عضو يحس بآدميته ويشعر بكرامته ، ويدرك أنه يسهم فى حمل أمانة ضخمة ، الكل مسئولون عنها أمام الله وأمام ضمائرهم وأمام التاريخ .



وفى هذا الجمع الحافل قدم رئيس الاتحاد تقريره الى الأعضاء ، فناقشوه فقرة فقرة فى حرية تامة وبصراحة متناهية ، لكل زميل الحق فى أن يدلى برأيه ويشرح وجهة نظره حسبما يرى وحسبما يرضى ضميره ... مجال النقاش البناء مفتوح أمام الجميع ، وحرية التعبير متاحة للجميع ، والاتحاد اتحاد الجميع . انه اتحاد المؤرخين العرب ، بكل ما يعنيه مصطلح الاتحاد من قوة ، ويعنيه مصطلح المؤرخ من سمو خلقى ووعى فكرى ، ويعنيه مصطلح العروبة من صفاء ونقاء .

وفى ختام النقاش ، أقر الأعضاء مسيرة الاتحاد فى وضعه الجديد ، وأعرب رئيس الاتحاد عن عزمه على أن يمتثل لكل ما أبداه زملاؤه من

ملاحظات بناءة ، وتعهد بتحقيق رغباتهم والأخــذ بوجهات نظرهم ، فالاتحاد اتحادهم ، وهم أهله وبنيته وأصحابه ٠

هكذا يكون الصراط المستقيم ، فالديموقراطية ليست شعارا أجوفا يتشدق به المستبدون بألسنتهم ، فى حين تمسك أيديهم بالسياط يلهبون بها ظهور من يخالفهم فى الرأى ٠ ان الديموقراطية هى الشورى ٠ انهــا الحرية من أوسع أبوابها : حرية الفكر والرأى ، حرية النقــد البناء ، حرية العمل النافع الجاد ٠٠٠ كل ذلك داخـــل اطار من الخير وسـلامة الهدف وسماحة القصد وأدب المجادلة ٠



وبعد ذلك أتى دور الأستاذ الدكتور أمين صندوق الاتحاد ، فقدم التقرير المالى عن ميزانية الاتحاد ، يتضمن الايرادات والمصروفات على مدى سنوات ثلاث ، معتمدا من مكتب المحاسبة الذى قام بمراجعته بنداً بنداً٠ وهذا المكتب الذى يشرف عليه أحد كبار المحاسبين بالقاهرة ، هو المكتب المتخصص فى مراجعة واعتماد الميزانيات الخاصة بعدد كبير من الجمعيات والاتحادات، من جملتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية٠

وكان تقليداً جميلا حقا أن يوزع التقرير المالى بكافة تفصيلاته على جميع الأعضاء ـ بلا استثناء ـ ليروا بأنفسهم كيف يسير العمل فى جهاز اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، ويقفوا على أوجه الايرادات والمصروفات فى كل ركن من أركانه ، ومدى الدقة فى ايداع كل مبلغ يصل الى الاتحاد ـ مهما يكن بسيطا ـ فى حساب خاص يحمل اسم الاتحاد فى مصرف من أكبر المصارف الحكومية ، ولا يمكن سحب أى مبلغ من رصـــيد الاتحاد الا بصك معتمد يحمل توقيعى أمين الصندوق ورئيس الاتحاد ، ويثبت ذلك فى دفاتر الاتحاد المخصصة للحسابات ٠

وهنا نسجل أن هــذه هى المــرة الأولى التى يكون فيها لاتحاد المؤرخين العرب ميزانية معلنة ، تخضع لاشراف دقيق من جانب أجهزة الدولة المختصة التى اعتمدت الاتحاد واقرت تسجيله واشهاره رسمياً ٠

ورحم الله أيام اتحاد بغــداد الذى لا يدرى أحــد أين كان يدفن المبالغ الطائلة التى حصل عليها من بعض الحكومات العربية تحت ستار الابتزاز والتهديد ، والتى لم يحدث - ولو مرة واحدة - أن قدم رئيسه بيانا أو كشف حساب عنها يتضمن الايرادات والمصروفات . لقد قنع بتوزيع بعض الرشاش على جماعة المنتفعين فى صورة مبالغ سرية أو أوسمة علنية . أما الرصيد الوارد فعلمه عند الله ، وعند رئيس اتحاد بغداد .

ولعل الحكومات العربية التى أسرفت فى العطاء لاتحاد بغداد تحت تأثير الخوف ، والتى تمسك يدها اليوم عن تقديم المعونة لاتحاد القاهرة فى محاولة منها لأن تمسك بالعصا من وسطها تحسبا لتهديد جديد تتعرض له من جانب بغداد ، لعل المسئولين فى هذه الحكومات يدركون الحقيقة قبل أن ينكشف الغطاء ، ويفصح التاريخ عما يكنه من خبايا،نرى الامساك عن ذكرها الآن حرصا على الصالح العام لأمة العرب .



وبعد ، فانه حسب اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أنه استطاع فى هذا المدى القصير ، وفى هذه الســنوات الثلاث المحــدودة ، أن يثبت أقدامه ويشق طريقه قدما ، ليحقق نجاحا لم يسبق للأمة العــربية فى عصرها الحديث أن شهدت نظيرا له فى مجال الدراسات التاريخية .

« وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »

رئيس التحرير

زيف ما يدعيـه حكام العراق
من حقوق تاريخية فى أرض الكويت

د٠ حيـاة محمـد البسـام(*)

مقـــدمة :

كثرت ادعاءات حكام العراق وافتراءاتهم بأن الكويت جزء لا يتجزأ من أراضى العراق ، سلبته منه بريطانيا ٠٠ لكنهم نسوا أو تناسـوا أن الحقائق التاريخية مدونة ومحفوظة ، يمكن الرجوع اليها متى أريد ذلك حتى تظهر الحقيقة جلية للعيان ، وعندئذ يتضح ان كان للعـراق فعلا حقوق فى الكويت أم أن تلك الادعاءات مجرد أطماع سياسية واقتصادية عراقية ، ليكون هذا البلد الذى تطالب حكومة العراق به سنداً لاقتصادها المنهار ٠ ويكفى أن تكون الكويت من أغنى دول الخليج العربى اقتصاديا، فضلا عن موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام ، لكى يسيل لذلك لعاب حكام العراق ٠

وأمام هذه الادعاءات أردت فى هـذا البحث أن أتتبـع الحقائق التاريخية الموثقة لكى ألقى الضوء على ما تدعيه حكومة العراق،لنرى ان كانت لها حقوق فعلا فى أرض الكويت كما تدعى ، أم أن الأمر لا يعدو مجرد أطماع سياسية فى محاولة لتزييف التاريخوتشويه الحقائق التاريخية٠

وقد اعتمدت فى هذا البحث على الوثائق والمصادر التاريخية ، مع اتباع المنهج التاريخى العلمى من حيث النقـد والتحليـل والمقـارنة والترجيح ، حتى أستطيع عرض الحقيقة مجردة من الاهواء ٠

ويكفى أن نشير فى هذه المقدمة الى أن الكويت تأسست فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (الميلاديين) عندما هاجرت مجموعات من قبيلة العتوب من قلب نجد واستقروا فى تلك المنطقة ، ثم

(*) جامعة أم القرى ٠

واصلوا السعى فى تطويرها حتى غدت دولة ذات طابع سياسى،فاستطاعت عقد اتفاقيات مع بريطانيا والدولة العثمانية اللتين اعترفتا بسيادتها واستقلالها الذاتى . ويتضح هذا جليا فى اتفاقية عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) التى وقعت بين بريطانيا والدولة العثمانية وعرفت بالاتفاقية الانجلو - تركية . وكان العراق فى تلك الفترة منقسما الى ولايات تابعة للدولة العثمانية ، وعلى رأس كل ولاية باشا عثمانى يدير شئونها . ولم يظهر العراق كدولة سياسية موحدة الا عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) عندما نصبت عليه بريطانيا الملك فيصل الأول .. ويتضح من هذا أن الكويت ظهرت كدولة مستقلة قبل العراق بسنوات .

نشأة الكويت وتطورها :

قبل الولوج فى دراسة تاريخ نشأة الكويت وتطورها بقيادة حكامها من آل الصباح ، لابد لنا من توضيح أهمية هذه المنطقة من الناحية الجغرافية .

تقع الكويت على بعد ثمانين ميلا (تقريبا) جنوبى البصرة ،وتميل قليلا الى الشرق ؛ وتبعد نحو مائة وثمانين ميلا (تقريبا) الى الشمال الغربى من بوشهر ؛ كما تقع شمالى غربى البحرين .

وتطل الكويت على الساحل الغربى للخليج العربى الذى يعتبر طريقا رئيسيا للوصل بين الشرق والغرب ، وتمتاز بموقع استراتيجى فى جوف خليج عميق يصلح لأن يكون مرسى للسفن العابرة .

أما عن موقع الكويت بالنسبة للبلاد المجاورة : فيحدها شمالا العراق وغربا المملكة العربية السعودية . والكويت امتداد طبيعى لصحراء شبه جزيرة العرب وجزؤ لا يتجزأ منها من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ؛ لذا فان هذا الموقع الاستراتيجى أكسب الكويت أهمية تاريخية كبيرة جعلتها محط أنظار الطامعين(١) .

---

(١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، ص ٩٥-٩٦ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، ج٣، ص ٣ - ١٥ ، القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٩ .

وقبل الخوض فى تاريخ نشأة وتطور الكويت الحديث لابد لنا من القاء نظرة سريعة على جزء من تاريخها القديم وصلا بالحديث حتى وصول العتوب اليها ، لما لهذه الفترة من أهمية تاريخية كبيرة تثبت أن الكويت لم تكن تابعة للعراق فى أية مرحلة من مراحل التاريخ ٠

لقد عرف تاريخ الكويت القديم بعد اكتشاف حجر وجدت عليه بعض نقوش يونانية على حائط صغير يبعد حوالى سبعمائة ياردة الى الجنوب الشرقى لقرية«الزور» التى تقع على الساحل الشرقى لجزيرة فيلكا٠وقد بينت النقوش المكتشفة أن الاسكندر الأكبر ربط عاصمة ملكه «بابليون» بالمناطق التى استولى عليها فى الهند عبر طريق تجارى ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم أخذت سفنه تجوب البحر من الهند الى بلاد فارس ٠ وقد وردت بعض روايات تفيد أن الاسكندر الأكبر طلب من أمير البحر نياركوس القيام برحلة تبدأ من الهند الى بلاد فارس ، وذلك عام ٣٢٥ ق٠م٠ فوصل نياركوس الى المنطقة التى تعرف اليوم بشط العرب واجتمعت القوات البحرية بالبرية ، لكنه ضل الطريق فى منطقة بعيدة عن مصب النهرين ورسا بجانب جزيرة بوبيان ، وهناك تحطمت سفنه بسبب الرياح والعواصف والأمواج العاتية(٢) ٠

وتدل آثار الاغريق فى تلك المنطقة على ما جلبوه معهم من حضارات ومعتقدات تركت بصمات واضحة على هذه الأرض ، فقد اكتشف معبد فى جزيرة فيلكا يعرف بمعبد أكاروس ، وجدت فيه آثار كثيرة من ضمنها بعض قطع نقدية وتماثيل ٠ وكان أن أطلقوا على جزيرة فيلكا اسم « لاريسا »(٣) ٠

وقد دلت النقوش التى تم اكتشافها فى كل من الكويت وجزيرة فيلكا على أنه كان لهاتين المنطقتين شان عظيم فى عصر الاسكندر،نتيجة للموقع الاستراتيجى الذى يربط الهند بالأراضى العربية والرومانية ٠

---

(٢) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة » ، الوثيقة ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٠

(٣) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية ، «الوثيقة» ، ص ١٨٠ - ١٨١ ٠

لكن هذه الأهمية انكمشت اثر احتــلال الامبراطورية الرومانية للأراضى العربية(٤) ٠

أما عن أهمية تلك المنطقة فى العصر الاسلامى فقد اكتسب الخليج عامة أهمية كبيرة ، خاصة فى عهد الخليفة الراشــد أبى بكر الصديق ، حيث دارت فى تلك المنطقة معركة ذات السلاسل الشهيرة بين المســلمين والفــرس ، وكانت الغلبة فيها للمسلمين فتقــدموا لفتح عاصمة فارس « المدائن » القريبة من موقع بغداد(٥) ٠

أما فى عهد الخليفة هارون الرشيد فقد كانت الكويت من المناطق الهامة جدا بسبب موقعها بالقرب من مدينة البصرة ٠ وكانت تعرف باسم « القرين » نسبة الى جزيرة صغيرة تسمى بهذا الاسم تقع على بعد أربعة أميال غربى المدينة الحالية ٠ يزيد على ذلك موقعها على طريق القوافل التجارية ، الأمر الذى ساعد على انتشار الحضارة الاسلامية فيها ٠

وهكذا حتى كانت نهاية القــرن العاشر الهجرى ، الســادس عشر للميلاد فبدأت هذه المنطقة تلعب دورا هاما ـ الى حد ما ـ بعد ظهــور الانجليز والهولنديين فى الخليج العربى عام ١٣٠٢ هـ (١٦٢٢م) لاسيما بعد استيلاء الانجليز على مضــيق هرمز وتدمير المنطقة بعــد خــروج البرتغاليين منها(٦) ٠

أما عن تأسيس الكويت الحديثة فقد اختلفت الروايات حول تحــديد الفترة الزمنية لهذا التأسيس ، لأن تاريخ منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية اعتمد على مصدرين : كتاب ابن بشر « عنوان المجد فى تاريخ نجد » وكتاب ابن غنام « روضة الأفكار » ٠ ولأن هذين المصدرين استقيا المعلومات من مصادر شعبية تفتقر الى التوثيق ، فقد ظهر هذا الاختلاف العام حول تحديد تاريخ تأسيس الــكويت الحــديث ، اذ ذكــر المؤرخ

---

(٤) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية » « الوثيقة» ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠
(٥) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية ، «الوثيقة» ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠
(٦) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، «الوثيقة» ، ص ١٨٢ ٠

عبد العزيز الرشيد فى كتابه « تاريخ الكويت » أن الكويت تاسست فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، فى حين حدد المؤرخ النبهانى فى كتابه « التحفة النبهانية » تاريخ ظهور الكويت بعام ١٠٢٠ هـ (١٦١١م)(٧) .

وامام هذا التباين فى الرأى حول تاريخ تأسيس الكويت نستطيع ان نقول أن الكويت تاسست بين أواخر القرن السابع عشر الميلادى وبداية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكانت فى بادىء الامر حصنا بناه أحد زعماء بنى خالد وجعله مستودعا لتخزين المؤونة والذخيرة ؛ يستخدمه عند غزوه شمالا.وقيل أنه بناه لراحته عند خروجه للصيد ، ومن ثم أتت بعض القبائل العربية البدوية وأقامت حوله . ولم تظهر هذه المنطقة على مسرح الاحداث السياسية كمشيخة الا بعد قدوم فرع من قبيلة عنزة التى هاجرت من الافلاج (فى نجد) واستقرت فى تلك البقعة وعرفوا باسم العتوب(٨) .

اما عن مؤسس هذا الحصن أو تلك المنطقة التى بنى فيها الحصن فقد وردت بعض روايات تاريخية تنسب هذا البناء الى الشيخ براك (أحد زعماء بنى خالد) ، وقد اورد هذه الرواية المؤرخ القناعى فقال : « تاريخ بناء الكويت لا نعلمه بوجه الحقيقة ، والاحرى أنه بنى فى أواخر القرن الحادى عشر من الهجرة ، أما البانى فهو براك أمير بنى خالد »(٩) . لكن المؤرخ أحمد ابو حاكمه حلل هذه الرواية قائلا :

---

(٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ ، القناعى ، يوسف ، صفحات فى تاريخ الكويت ، ص ٥ ، ابو حاكمه . أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ص ٧٢ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ص ٢٧٩ ، دوكاس ، مارتا ، أزمه الكويت ، ص ٦ ، ابو حاكمه ، احمد ، تاريخ الكويت، المجلد الاول – القسم الاول ، ص٩٥-١٠٠.
Dickson, H.Kuwait and Her Neighbours P.26-276.

(٨) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٣٧٩ ، ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٣ ، دوكاس ، مارتا ، أزمة الكويت ، ص ٩ ، قطينة رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، مجلة الوثيقة ، ص ١٨٣ – ١٨٤ .

(٩) انظر القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٥ .

« لو سلمنا برواية القناعى لوجب علينا تقديم تاريخ بناء الكويت حيث أن المؤرخ ابن بشر ذكر أن براك هــــذا حــــكم فى عـــــام ١٦٦٩ الى ١٦٨٢م »(١٠) . أما القناعى كما سبق أن أسلفنا فقد حدد هذا البناء بعام ١٦٨٧م (١١٠٠هـ) .

وأمام هذه الاختلافات حول تحديد تاريخ بنــاء الكويت لا نستطيع أن نتبين من الذى بنى هذا الحصن وحكم تلك المنطقة ؛ ولكن يبدو أنها عاشت فترة من الزمن تحت حكم بنى خالد (حكام الأحساء) .

وعن تسميتها بالكويت(*) : نقول ان « الكويت » تصغير «الكوت» وهو البيت الذى بنى على هيئة قلعة تحيط به البيوت السكنية الصغيرة من كل جانب.وكانت واقعة غرب لماء ، ولم تتحدد نوعية هذا الماء ان كان بحراً أم بحيرة ؛ نهراً أو خليجاً . ومن المعروف أن قبـــائل العتوب التى سكنت تلك المنطقة ـ الكويت ـ كانوا فرعاً من قبيلة عنـــزه التى تعتبر من أكبر القبائل العربية فى شبه الجـــزيرة ، وينتسبون الى فرع جميلة التى كان لها نفوذ كبير فى نجد.ومن العتوب خرجت ثلاث أسر : آل الصباح ، وآل خليفة ، والجلاهمة . وقد خرجوا جميعا من موطنهم الأصلى واتجهوا نحو الخليج . وذكر المؤرخ القناعى فى كتابه « صفحات من تاريخ الكويت » أن تلك الأسر الثــلاث استوطنت بادىء الأمر فى منطقة الزبارة بقطر ، لكن لخــلاف نشب بينهم وبين حكام قطر اضطروا للرحيل على هيئة جماعات انتشرت على ساحل الخليج العربى ، حتى استقر بها المقام فى نهاية الأمر بمنطقة الكويت ، وهناك أخذوا فى تشييد مساكنهم من الأحجار ، وهادنوا بنى خالد حكام تلك المنطقة الذين باركوا قدومهم الى الكويت، مما جعل العتوب يدخلون فى طاعة بنى خالد(١١) .

---

(١٠) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ١٠٠ .

(*) الكويت : تصغير لكلمة الكوت وهى معروفة فى شـــبه الجـــزيرة العربية والخليج العربى .

(١١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمه ، تاريخ الكويت، جـ١ ، القسم الأول ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، جـ٣ ، ص =

وهكذا استقرت تلك الأسر الثـــلاث فى الكويت واشـــتركت فى المسئولية، فتزعم آل الصباح السياسة وآل خليفة الاقتصاد والجلاهمة شئون البحر ٠ وأخذوا فى تنظيم شئون اقامتهم فى تلك المنطقة خاصة بعد أن عرفوا ما لها من أهمية جغرافية بسبب وقوعها على الطـريق التجارى للقوافل المارة بين بلاد وادى الباطن وبلاد ما بين النهـرين ؛ فسـعوا لتطويرها من قرية صغيرة تأوى بعض صـائدى الأســماك الى مشيخة صغيرة ٠ وقد أعجب العتوب بأسلوب حياة بنى خالد فأخذوا يحاكونهم، فتزايدت أعدادهم فى المنطقة ؛ وظلوا يطورونها رغم رضوخهم لسيطرة بنى خالد (حكام الأحساء) فى ذلك الوقت وولائهم وطاعتهم لهم ٠ وفى نهاية العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادى نشب خلاف بين أفراد أسرة بنى خالد حول من يتولى رئاسة المنطقة ، وذلك بعد وفاة سعدون عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢م) وتولى شـقيقه (على) السلطة من بعده ، فدب الصراع بينه وبين ابنى سعدون (دجين ومنيع) مما جعل نفوذهم يأخذ فى الانحسار بسبب هذا التفكك الذى أصـابهم وأضعف وضعهم السياسى ٠ وقابل هـــذا الانحسار فى سلطة بنى خالد امتداد نفوذ آل الصباح بالكويت حيث أخذت المنطقة فى النمو والتقدم الحضارى والتجارى ، وازدادت ثروتها وتمكن حكامها من تثبيت موقفهم السياسى فى تلك المنطقة بشتى السبل ٠ هذا الى أنهم سعوا الى كسب رضاء ومحبة القبائل المجاورة ، عن طريق المصاهرة والقدوة الحسنة التى اتصف بها أفراد تلك الأسرة ، والتى تمثلت فى سماحة الأخلاق والعدل فى الحكم مما أدى الى استتباب الأمن والاستقرار فى المنطقة(١٢) ٠

=

٣ ــ ١٥ ، القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ص ٩ ، الرشيد ، عبدالعزيز، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ٠
Travels in Arabian and other countries in the East, Vol.11,P.103.

(١٢) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٧ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٧ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص٣٩١، اكيلى ، ج٠ب٠ ، بريطانيا والخليج ، جـ١ ، ص ٥٨
Dickson, H., Kuwait and Her Neighbour, P.27, Neibuhr. C., Travels in Arabian and Other Countries in the East, Vol.11,P.1.

وتجدر الاشارة الى أن نمو وتطور الكويت صاحب وجود الهولنديين فى جزيرة خرج ، حيث ذكر لوريمر أن علاقات ودية نشأت بين البارون كنبها وزن - المسئول عن تلك المستعمرة - وشيخ الكويت • وهذا يدل على أن العتوب أخذوا فى الاستقلال التدريجى بعد انتعاش وتطور المنطقة فى ظل النشاط التجارى • وصاحب هذا التقدم الكويتى فوضى واضطراب فى الدول والقوى المسيطرة فى تلك المنطقة • ذلك أن الدولة العثمانية - الحاكمة للعالم الاسلامى آنئذ - كانت فى حروب دائمة مع حكام دولة الفرس الذين كانوا يمثلون القـوة الثانية فى المنطقة • هـــذا فضلاً عن الدعوة السلفية التى أخذت تظهر فى نجد •

أما اقليم نجد نفسه فقد كان منقسماًالى امارات صغيرة دائمةالتناحر ، فكانت تلك الظروف مجتمعة ســبباً فى فتح المجال أمام حكام الكويت للتفوق والظهور وتأسيس امارة مستقلة(١٣) •

وقد اختلفت أقوال المؤرخين حول تحديد أول من حكم الكويت ، فذكر المستر واردن أن أول من تولى زعامة العتوب هو سليمان بن أحمد ، لكن هذا لم يرد له ذكر فى الكتب المحلية • وربما كان ذلك الشيخ الذى لم يذكره سوى واحد من حكام بنى خالد • وقد ذكر النبهانى فى كتابه « التحفة النبهانية » أن العتوب استوطنوا الكويت بعد سماح بنى خالد لهم ، واستمرت سلطة بنى خالد على تلك البلاد حتى وفاة سليمان بن محمد سنة ١١٦٦هـ (١٧٥٢م)(١٤) • ويبدو أن الزعيم الذى ذكره واردن هو زعيم بنى خالد (سليمان بن محمد) الذى حكم حتى عام ١١٦٦ هـ (١٧٥٢م) فورد اسم أحمد بدلا من محمد •

أما أول من حكم الكويت من آل الصباح فقد أورد الرشيد فى كتابه

---

(١٣) أبو حاكمه أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الاول ، ص ٩٥ - ٩٦ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، دوكاس ، مارثا ، أزمة الكويت ، ص ١٠ •

(١٤) النبهانى ، محمد ، التحفة النبهانية ، ص ١٢٢ - ١٢٩ ، الصالح ، نوريه علاقات الكويت ، ص ١٨ •

(تاريخ الكويت) أنه الشيخ صباح الذى أختير من قبل العتوب ووافق على تولى الزعامة شريطة تطبيق الحكم على الجميع،كبيرهم وصغيرهم، عاليهم وسافلهم ، غنيهم وفقيرهم . وكان هذا الزعيم غير معروف قبل انتخابه ، ولم يرد له ذكر فى الكتب التى تكلمت عن تاريخ هذه المنطقة الا بعد اختياره للزعامة التى تقلدها حسب الأعراف القبلية السائدة عندئذ . ثم بدأ فى تثبيت سلطته على البلاد ، والاستقلال بها استقلالا تاما ، وتطويرها حتى غدت محطة تجارية هامة يقصدها التجار والقوافل المحملة بالبضائع الواردة من الهند الى حلب مرورا بالكويت . هذا اضافة الى كونها ميناء ترسو فيه السفن التجارية الكبيرة التى تحمل البضائع لتصريفها فى المنطقة .

وقد بذل حاكم الكويت (صباح) جهداً كبيراً فى عمارتها وحمايتها، فقام ببناء سور حول المدينة لرد هجمات الأعداء عنها ، لأن الكويت كانت تحيط بها فى ذلك الوقت قوى سياسية كبيرة ، خاصة بعد تزايد النفوذ السعودى الذى استطاع أن يضم نجد برمتها تحت لوائه . وقد كون الامام سعود بن عبد العزيز جيشاً نجدياً ذا قوة عسكرية . هذا من جهة نجد ، أما من جهة الشمال فكان هناك شيوخ المنتفك الذين كانوا يمثلون خطراً حقيقياً على تلك البلاد(١٥) .

والواقع ان سنوات حكم الشيخ صباح للبلاد كانت بمثابة السنوات الأساسية لحكم آل الصباح كما كانت الركيزة الأساسية فى تطوير هذه البلاد . واستمرت سنوات البناء حتى وفاته فخلفه ولده عبد الله . وثمة اختلاف حول السنة التى توفى فيها صباح وتولى عبد الله زمام القيادة فى الكويت ؛ فقد ذكر الرشيد أن صباحاً توفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٤م) ، الا أن البعض عارضه فى ذلك . من ذلك أن لوريمر ذكر اعتماداً على سجلات شركة الهند الشرقية أن عبد الله بن الصباح أختير حاكماً على

---

(١٥) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ٢ ، ص ٨٧ ، العقاد ، صلاح التيارات السياسية ، ص ٥٥ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٨٣ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٣٩٣ .

الكويت سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢م) • أما المؤرخ القناعى فاكتفى بقوله ان حكم عبد الله بن الصباح دام ستين عاما • وحدد المؤرخ الرشيد وفاة عبد الله بن الصباح بعام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) • واذا أخذنا بهذين الرأيين وجدنا أن عبدالله بن صباح تولى الحكم عام ١١٥٦هـ (١٧٤٣م) ، وعندئذ نجد تضاربا حول تحديد تاريخ تولى عبدالله لزمام الحكم بعد وفاة والده الذى ذكر ابن الرشيد أنه توفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٤م) • وهذا يعنى أن عبدالله تولى الحكم فى السنة التى توفى فيها والده وبقى فى الحكم حتى وفاته سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) حسبما ذكره الرشيد فى كتابه « تاريخ الكويت » •

ومهما يكن من أمر ، فان عبد الله بن الصباح الذى حكم الكويت بعد وفاة والده كان يتمتع بصفات جعلته جديراً بتلك المكانة القيادية اذ كان شجاعاً ، عادلا ، عاقلا ، كريماً ، حليما ، أنجز فى عهده اصلاحات كثيرة فى البلاد حتى استطاع فى سنوات قليلة أن يمتلك أسطولا بحريا كبيراً ساعده فى ترسيخ أركان ملكه(١٦) •



موقف الكويت من احتلال فارس للبصرة :

وفى الوقت الذى سعت الكويت الى الاستقلال واثبات دورها السياسي عن طريق توثيق صلاتها مع جاراتها ؛ كانت العراق منقسمة الى ثلاث ولايات عثمانية هى ولاية بغداد ، ومتصرفية البصرة ، وولاية الموصل ، يحكم كل واحدة وال من قبل الدولة العثمانية • وكانت تلك الولايات غير مترابطة سياسيا مما جعل بعض الدول المجاورة تطمع فى السيطرة عليها •

ففى عام ١١٩٠هـ(١٧٧٦م) هاجمت دولة فارس متصرفية البصرة واحتلتها • وكان لهذا الاحتلال أثره الفعال فى ازدهار الحياة التجارية فى الكويت ، كما كانت له آثاره الايجابية الأخرى على تلك المنطقة •

---

(١٦) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١١٦ •

وقبل أن نستعرض هذه النتائج لابد لنا من القاء نظرة سريعة على هذا الحدث التاريخى الهام :

كانت البصرة قبل الغزو الفارسى تعانى من انتشـــار وباء الكوليرا الذى قضى على كثير من سكانها · وما أن انقشع هذا الوباء حتى وردت أنباء عن استعداد الفـرس لمهاجمتها ، مما جعـــل المســئولين يعقدون اجتماعات سرية تكاد تكون يومية،وذلك بين سليمان آغا متصرف البصرة وبعض وجهاء البلاد فى حضور المعتمد البريطانى(١٧) ·

وفى سنة ١١٨٩هـ (١٥ يناير من عام ١٧٧٥م) وردت انبـــاء من بوشهر مفادها أن جيشا قويا بقيادة صادق خان شقيق كريم خان (حاكم فارس) قوامه خمسين ألف جندياً يســتعد لمهاجمة البصرة ، فأثار ذلك اضطرابات وفوضى بين الأهالى · وكان من أســباب أطماع الفرس فى البصرة ازدهار مينائها بعد أن نقل البريطانيون نشاطهم التجارى اليها من ميناء بوشهر · يضاف الى ذلك سـبب مذهبى يتمثل فى التعاطف مع أهل البصرة من الشيعة ، وخاصة بعد أن فرض والى بغداد على حجاج الفرس رسوما باهظة عند زيارتهم كربلاء(١٨) ·

وكان أن زحف الجيش الفارسى فى يوم ١٦ مارس من نفس العــام حتى وصل الى بلدة الصوان فحاصرها قرابة ثلاثة أشـــهر ، استسلمت المدينة بعدها · وقد تحالف مع هذا الجيش العرب الموجودون فى تلك المنطقة ، كذلك انحاز اليهم عـــرب بنو كعب وأمدوهم بمـــا استطاعوا من قـــوة ·

أما الذين تعاونوا مع الدولة العثمانية فى مواجهة ذلك العـــدوان

---

(١٧) لوريمر ، ج·ج· ، دليل الخليج ، جـ٣ ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٢ ·

(10)L,P&S/20/C.189, Hand book Persian Gulf, June 1919,P.52.

(١٨) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٣ ·

فهم قبائل المنتفك الذين عملوا على ايصال المؤنة الى داخل مدينة البصرة ، والأسطول العمانى الذى شارك فى محاولة فك هذا الحصار عن المدينة. يضاف الى ذلك المعونة التى قدمتها سفن بحرية بومبى، وانضمام الوكلاء التجاريين وطرادات شركة الهند الشرقية(١٩) .

أما القوتان الأخرتان فى الخليج العربى - وهما (القواسم وآل الصباح) فلم يكن لهما نشاط ملحوظ فى هذه الاحداث . فالقواسم لم يكن لهم دور يذكر فى فك الحصار على الرغم من تفوقهم البحرى . وقد تبين أن تأخرهم فى عدم الاشتراك كان بسبب انشغالهم بالحروب المستمرة مع سلطان مسقط . وأما آل الصباح - العتوب - فقد اتخذ حاكمهم حيال هذه الأزمة جانب الحياد حتى لا يفقد صداقة أى طرف من الأطراف . وتمثل ذلك فى ارسال المساعدات لقائد الجيش الفارسى (صادق خان) اذ أمده بمائتى رجل لمساعدته . ومن جهة أخرى فانه سمح للسفن العثمانية بالرسو فى ميناء الكويت لاصلاحها . وبهذا كسب حاكم الكويت رضاء الطرفين حتى يتضح الموقف(٢٠) .

وكان للاحتلال الفارسى للبصرة آثار بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الكويت وتطورها فى كافة النواحى ، خاصة الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك أن موقف حكام الكويت (آل الصباح) حيال هذه الأزمة اتصف بالحكمة والتروى ، ففضلوا جانب الحياد حيال القوتين المتنازعتين مما ساعد فى نمو علاقة سياسية واقتصادية مع بريطانيا العظمى ، فنقلت الأخيرة مركز بريدها الصحراوى الذى كان موجودا فى الزبير الى الكويت ، ثم نقلت مركزها التجارى من البصرة الى الكويت بصورة مؤقتة(٢١) .

---

(١٩) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٤ ، قطينه رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، مجلة الوثيقة ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢٠) ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ١٢٦ ، كيلى ، ج.ب. ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ٣٣ .

(٢١) كيلى ، ج.ب. ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ٣٣ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٨ ، دوكاس ، ماوثا ، أزمة الكويت ، ص ١٠ .

وهذه الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا كانت بمثابة بداية علاقة مباشرة بينها وبين حكام الكويت عن طريق وساطة مندوبى شركة الهند البريطانية التى حلت الكويت مشكلتها فى تصـــدير بضائعها الى أسواق الشرق الأوسط • وقد حاول الانجليز استمرار وقوف الكويت على الحياد حتى تستطيع شركة الهند الانجليزية أن تجد مخرجا لمواصـــلة أعمالها التجارية •

وهكذا أدت العلاقات الكويتية ـ الانجليزية الى تطـور الاقتصـاد الكويتى،فازدادت قوة الكويت البحرية لحماية السفن المارة فى مياهها • وكانت هذه الزيادة مطلبا ضروريا بعد تزايد الصراع على منطقة الخليج التى أصبحت مطمعا للدول الأجنبية الأخـــرى ، فغدت كل واحدة منها ترغب فى تحقيق نفوذ لها فى المنطقة وعلى مياهها •

وأمام انتعاش الحياة الاقتصادية فى البلاد كان من الطبيعى أن تبرز أهمية الكويت السياسية ، فبدأ حكام الكويت يولون السياسة اهتماما بالغا، ونشأت علاقات مباشرة مع الدول والامارات المجـــاورة للكويت مثـــل السعودية والبحرين وقطر ، ومن ثم واصل حكام الكويت سياستهم التى انتهجوها فى اطار السماحة والعدل فى الحكم ، مما جعل للكويت كياناً معروفاً ليس فقط فى منطقة الخليج بل على الصعيد الدولى(٢٢) •



تطور العلاقات الكويتية البريطانية وموقف الدولة العثمانية منها :

كان احتلال الفرس للبصرة نقطة تحول فى سياسة بريطانيا تجاه الكويت ، فقـــد أسلفنا أنهـــا نقلت مقـــر شركة الهنـــد الشرقية وبريدها الصحراوى من البصرة الى الكويت • وكان هذا بداية ظهور عـــلاقات كويتية بريطانية لأن بريطانيا وجدت فى الكويت الميناء الذى يصلح لرسو سفنها والأرض الآمنة لنشاطها التجارى • هذا بالاضافة الى أن العلاقات

(٢٢) لوريمر ، ج•ج• ، دليل الخليج ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، شرقى الجزيرة العربية ، ص ١٣٢ •

الودية مع حاكم الكويت أخذت تزداد بعدما بادر المستر مانيستى ممثل الوكالة البريطانية فى البصرة الى اخطار الشـــيخ عبدالله آل الصـباح ـ حاكم الكويت ـ بما كان ينوى القيـــام به الوالى العثمانى فى بغداد (سليمان باشا) حيال الكويت . وكانت الكويت قد أجارت كلا من الشيخ توينى (شيخ قبائل المنتفك) ومصطفى آغا (متسلم البصرة) الذين هـربا اليها بعـــدما حاول مصطفى آغا الاســتقلال بالبصرة عن الدولة العثمانية ، مما جعل والى بغداد يعد جيشاً لتأديبه . وقد اشتبك هذا الجيش وهو فى طريقه الى البصرة بقبائل المنتفك وألحق بها هـــزيمة اضطر على أثرها شيخها للهرب الى الكويت . واما مصطفى آغا فكان عندما سمع بخبر هذا الجيش وعدته وعتاده،قد قرر الفرار الى الكويت لأنه لا يستطيع مواجهته ، فطالبت الدولة العثمانية حاكم الكويت تسليم الفارين ، لكنه رفض وأشار على مصطفى آغا والشيخ توينى بالفرار الى نجد بما معهما من أموال(٢٣) .

وبالاضافة الى اطراد نمو العلاقات الكويتية البريطانية التى كانت بمثابة مؤشر لاستقلال الكويت استقلالا تاما ، هناك عاملان هامان كانا بمثابة الدافع القوى نحو تحقيق هذا الاستقلال:أولهما سقوط حكم بنى خالد فى الاحساء عام ١٢٠٨هـ (١٧٩٣م) على أيدى السعوديين ، الأمر الذى له أثره فى انطلاق الكويت نحو مرحلة هامة من مراحل الاستقلال والتقدم. والعامل الآخر هو تولى الشيخ جابر الصباح مقاليد الحـكم فى البـــلاد ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) بعد وفاة شيخها السابق (عبدالله) . وقد عـــرف جابر هذا بالكرم وحب الانفاق حتى سمى بجابر العيش ، واتصف عهده بتحسن العلاقات الكويتية العثمانية ، فرفع العلم العثمانى على السفن الكويتية . لكن هذا لا يعنى أن الكويت دخلت ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية وانما كان أمراً صورياً فقط ، لأن الخلافة العثمانية كانت تمثل الزعامة الدينية للمسلمين وصار من واجب أى مسلم أن يرفع علمها بوصفها

---

(٢٣) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ١٧٦ .
CF Brydges, Haford James. N.Account of the Transaction of his Majesty's Mission of Persia, p.p.1810-1.

مسئولة عن رعاية مصالح المسلمين(٢٤) ٠

وكان أن حرصت الدولة العثمانية على كسب ود أمير الكويت ، فلم تلزمه بدفع جزية الا خلال سنوات قليلة ٠ ويعـــود هذا الى أن الدولة العثمانية كانت فى أمس الحاجة الى مساعدات مشيخة الكويت التى تمتلك أسطولا بحريا كبيرا اعتمدت عليه الدولة العثمانية فى حماية شط العرب، كما كان للكويت قوة بحرية يمكنها أن تسهم فى حماية النفوذ العثمانى فى المنطقة ، الأمر الذى حدا بالدولة العثمانية أن تعفى أمير الكـــويت من الجزية ٠ ولم تكتف بذلك بل دفعت له معونة سنوية مقابل ما يقدمه لها من خدمات دفاعية(٢٥) ٠

والواقع ان الدولة العثمانية كانت تعتمد على الكويت عسكريا لصد بعض هجمات القبائل العربية على متصرفية البصرة ٠ ففى عام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) أغارت مجموعة من قبـــائل بنى كعب على مدينة البصرة ، فاستنجدت الأخيرة بالكويت التى أمدتها عسكريا بعدد من السفن الحربية المحملة بالسلاح والرجال ، مما قوى جانب الدولة العثمانية وجعلها تضرب حصارا حول البصرة حتى استطاعت أن تقضى على هذا التمرد وعادت البصرة مرة ثانية تحت الحكم العثمانى(٢٦) ٠

وجدير بالذكر أن الكويت رفضت رفع العلم البريطانى رغم تهديدات بريطانيا لها بعدم التعاون معها ، الأمر الذى جعل الدولة العثمانية تصدر فرمانا يمنح الكويت مائة وخمسين كارة من التمر سنويا ، مما يدل على حرص الدولة العثمانية على كسب صداقة وود حكام الكويت الذين تحملوا عبء حماية شط العرب من أى معتد خارجى ٠ وبذلك استقلت الكويت

---

(٢٤) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٠ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٦ ٠

(٢٥) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤ ـ ١٥ ، قاسم، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٧ ، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، ص ٩٤ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج العربى ، جـ٣ ، ص ١٥١٣ ٠

(٢٦) قاسم ، جمال ، دراسات لتاريخ الامارات العربية ، ص ١٤٧ ٠

استقلالا ذاتيا على الرغم من أن السـفن الكويتية كانت ترفع العـلم العثمانى(٢٧) ٠

وقد استمرت العلاقات فى تحسـن مسـتمر بين الكويت والدولة العثمانية حتى عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) حين تولى مقاليد الحكم الشيخ مبارك آل صباح الذى وصل الى الحكم بعد أن تخلص من أخويه (محمد وجراح) ، ثم أعلن نفسه حاكما على البلاد ٠ وقد ذكر الرشيد أن هناك بعض الأسباب دفعت مبارك الى فعلته هذه :

أولا : ان مباركا كان بطبيعته يميل الى اظهار القوة والباس ويعشق الطعن والنزال على خلاف أخويه (محمد وجراح) اللذين كانا لا يتفقان معه فى ذلك ٠

ثانيا : حاول أخـواه محمد وجراح ابعـاده وتقـريب يوسف آل ابراهيم(٢٨) وتسليم مقاليد الأمور اليه حتى اوشك يوسف هذا أن يكون الحاكم ، وكان مباركا لا يمت لهما بصلة ٠

ثالثا : قام محمد وجراح بتضييق الخناق على مبـارك خاصة من الناحية المالية ٠

وتحت تأثير العوامل السابقة وما صاحبها من ظروف قـرر مبارك التخلص من أخويه ، ثم أعلن نفسه حاكماً على البلاد ، ففر أبناء محمد وجراح الى البصرة برفقة يوسف آل ابراهيم الذى سعى لتصعيد القضية

---

(٢٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، ص ٩٨ ، القناعى ، يوسف، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤٠ ، العقاد صلاح، التيارات السياسية ، ص١٨٠٠
Tome,/XVII, 1903, Cinquiem Periode Seedso Whighan The Persian Problem, P.P.102-103, Ravire, La question de galfe Persique: CF le Reglement des questions des mascale et de Kuweit Revue des Decx, Mandes, P.P.370-371 (1.0)&S/C239,Affairs of Kuwait.

(٢٨) كان يوسف آل ابراهيم هذا أحد الأثرياء وملاك الأراضى فى ولاية البصرة ، وتربطه صلة قرابة بأبناء محمد وجراح من ناحية الأم ٠ أنظر : الصالح ، نورية ، علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ ٠

لدى والى البصرة حمــــدى باشا فسمح له بالالتجاء والحماية ، هو ومن معـــه(٢٩) ٠

واستمر يوسف فى محاولاته حتى أستطاع اقناع حمدى باشا بتأليب السلطان العثمانى على الشيخ مبارك ، لكن الأخير لم يستسلم للأمر فقام بتوضيح الحقائق لوالى بغداد وبين له ما قام به والى البصرة (حمدى باشا)٠وكان أن اقتنع والى بغداد، ووقف فى صفه،وأخذ فى تحذير الدولة العثمانية من التدخل فى شئون الكويت الداخلية ٠ وصدر فى عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) أمر سلطانى بتعيين الشيخ مبارك قائمقام للكويت ٠ ومنـذ ذلك التاريخ بدأ اسمه يرد فى المكاتبات الرسمية التى تصدر من البصرة ، ومنح راتبا قدره (١٥٠) كارة من التمور فى السنة ، ثم تحول بعد ذلك الى راتب سنوى يقدر بـ (٣٠٠) جنيه ٠ وهذا هو الخيط الذى تحاول حكومة العراق أن تمسك به لتدعى أن الكويت تابعة لولاية البصرة دون أى سند تاريخى حقيقى(٣٠) ٠

لقد فات هؤلاء الطامعين أن البصرة عندئذ لم تكن ولاية عـــراقية مستقلة وانما كانت تابعـــة للدولة العثمانية ويحـــكمها والى عثمانى ، فالتبعية هنا ان كان لها وجود تبعية للدولة العثمانية وليست لدولة غيرها٠

وقد رضى الشيخ مبارك بهذه التبعية غير الرســـمية أمام الظروف الداخلية التى كانت تمر بها الكويت ٠ يضاف الى ذلك خوفه من ضايع ممتلكاته وممتلكات أسرته وحرصه على المحافظة على جزيرة الفاو ، فوجد أنه من الأفضل الموافقة على طلب الدولة العثمانية بأن يكون قائمقام ، لكنه لم يرض بأن يكون تابعا لوالى البصرة العثمانى الذى سعى لاخضاعه

---

(٢٩) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٥٧ ، ابراهيم ، عبد العــزيز ، السلام البريطانى ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٢، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ ٠

(٣٠) لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، جـ٣ ، ص ١٥٢٧ ــ ١٥٢٨ ، قاسم ، جمال، الخليج العربى ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ ٠

لسلطانه . وحدا هذا بالشيخ مبارك للعمل على كسب ود الدولة العثمانية وضمان وقوفها الى جانبه ضد والى البصره ويوسف آل ابراهيم الذى كان يطمع فى تولى حكم الكويت بمساعدة الوالى العثمانى (حمدى باشا) هذا الى أن الشيخ مبارك أراد أن يضفى على حكمه الصبغة الدينية بذلك الرباط الواهى الذى ربطه بالخلافة الاسلامية(٣١) .

على أن تلك الأحداث لم تلبث أنغيرت نظرة الدولة العثمانيةللكويت، بحيث تحولت الى أطماع سياسية خاصة بعد أن لمست أهميتها الجغرافية وقوتها البحرية . وكان ان بدأت تعمل لبسط سلطانها عليها ، مما جعل الشيخ مبارك يفكر فى طريقة أخرى لانقاذ بلاده من أطماع العثمانيين ، فقرر عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) أن يلجأ الى قوة أخرى تحميه من المطامع العثمانية وطلب حماية الحكومة البريطانية التى كانت تسيطر عندئذ على معظم الممرات المائية فى الخليج. وكانت بريطانيا آنذاك قد ربطت غالبية مشايخ الخليج باتفاقيات حماية ماعدا الكويت وقطر(٣٢) .

وفى تلك المرحلة أخذت مخاوف بريطانيا تزداد لظهـور المطامع التوسعية الروسية والألمانية ، فحاولت روسيا مع الباب العالى الحصول على حق تزويد سفنها بالفحم من ميناء الكويت ، فى حين سعت ألمانيا للسماح لها باقامة محطة بالكويت لنهاية سكة حديد بغداد . وقد فكرت حكومة الهند البريطانية فى وسيلة تستطيع أن توقف بها هذه الأطماع فأصـدرت تعليماتها الى المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل ميـد (Mead) بالتوجه الى الكويت وكسب صـداقة أميرها ومنحه مبلغ (١٥ر٠٠٠) جنيه استرلينى كمكافأة له . وكان أن طلب الشيخ مبارك من ميـد (Mead) وعدا بحمايته وحماية بلاده مقابل التوقيع على اتفاقية حماية . وبعد مفاوضات دامت مدة طويلة تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة الحماية التى من بنودها :

---

(٣١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٥٦١ ، النجار ، مصطفى ، التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٦ .

(٣٢) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٥ ، بوشى بريتون ، كوبر ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(أ) الزام شيخ الكويت بعدم تأجير أراضيه الى أية دولة أخرى دون موافقة بريطانيا ٠

(ب) يتعهد الشيخ مبارك وذريته بعدم استقبال وكلاء أو ممثلين لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية ٠

وقد وقع الطرفان هذه الاتفاقية عام ١٣١٧هـ (يناير ١٨٩٩م) ٠ وعلى الرغم من أنها وقعت فى سرية تامة الا أن الاخبار تسربت الى الدولة العثمانية التى أعلنت رفضها التام لها ، وبدأت تحشـــد قواتها فى ولاية البصرة لضرب الكويت ٠ وشـــجع الدولة العثمانية على ذلك أن واليها (حمدى باشا) كان يسعى الى ضمها لممتلكاته ٠ وما أن علمت بريطانيا بذلك حتى سارعت بارسال سرب بحرى بريطانى لمياه الكويت ، وكلفت سفيرها فى الآستانة « آوكوتور » بابلاغ الباب العالى عن قلق بريطانيا ازاء هذا التصرف الذى قام به والى البصرة(٣٣) ٠

وفى تلك الأثناء علم « راسلو » Wratslaw القنصل البريطانى بأن ألمانيا جادة فى مساعيها لمد الخط الحديدى ، كما علم بأن الفريق الألمانى فى طريقه الى الـكويت ٠ وكانوا يرون أن نجاح المشروع يعتمـــد على عاملين هامين :

أولا : ان تكون نهاية الخط فى الكويت وليست فى البصرة ٠

ثانيا : أن تقوم الدولة العثمانية بدعم المشروع مادياً ٠

وقد أوصى الفريق الألمانى الشركة بمناقشة المشروع مع الســلطان العثمانى وليس مع الشيخ مبارك ، مما أغضب الحكومة البريطانية فى الهند ، فشعرت بأن أى اتفاق مع السلطان مباشرة يضعف موقفها فى المنطقة ، لذا رأت أن تقف فى وجه السلطات العثمانية لعدم اكمال هذا

---

(٣٣) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ، جـ٢ ، ص ٩٣ ـ ٩٤، ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن لحكومة الهند ، ص ٨٨ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة ، ص ١٨ ٠

الخط ، وأخذت تضغط على الشيخ مبارك من أجل أن يمنع أية جهة أجنبية من استخدام أراضيه(٣٤) ٠

وكان أن رأت بريطانيا أن تعلق الآمال على المعاهدة التى وقعت مع شيخ الكويت والتى بموجبها تصبح الـكويت دولة ذات سيادة تحت الحماية البريطانية ٠ لكن هذا أغضب الدولة العثمانية التى سعت لجعل الكويت جزء من امبراطوريتها ، ولم تكن ترى أى حق لشيخ الكويت فى ابرام أية معاهدة دون الرجوع الى الدولة العثمانية وأخذ موافقتها مسبقا٠ غير أن سفير بريطانيا فى الآستانة (السير نيقولا أوكونور) الذى أزاح الستار عن هذه المعاهدة أكد أن بريطانيا التى تربطها بالـكويت روابط ودية لا تنوى من خلال هذه المعاهدة احتلال الكويت لكنها لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أى تدخل أجنبى يمس مصالحها هناك ٠ وتأكيدا لذلك قام اللورد كيرزن (Cuirzon) حاكم الهنـد بزيارة للـكويت عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) واستقبل استقبالا حافلا ، وتباحث مع أمير الكويت حـول مشروع سكة حديد بغداد ، وأسفرت محادثاتهما عن اتفاق الطرفين على رفض هذا المشروع(٣٥) ٠

وقد رأى الشيخ مبارك فاعلية الحماية البريطانية لأراضيه عنـدما تعرضت الكويت لمواجهة عسكرية من دولة آل رشيد الحاكمة لنجد فى ذلك الوقت ٠ وفى هذه المواجهة منيت الكويت بهزيمة أتاحت للدولة العثمانية فرصة مناسبة لمعاودة الكرة مـرة ثانية على الكويت ، فأرسلت بارجة لتنفيذ هذا الغرض ٠ غير أنها تراجعت عن ذلك بعـد ظهور الأسطول البريطانى فى مياه الخليج لمنع أى اعتداء على الكويت ٠ ونتيجة لهـذا

---

(٣٤) سعيد ، أمين ، الخليج العربى ، ص ٨٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت ، ص ٧٣ ، نوار ، عبد العزيز ، تاريخ العرب المعاصر ، ص ٢٤٠ ، الشناوى، عبد العزيز ، الدولة العثمانية دولة اسلامية ، ج٣ ، ص ١٤١٢ ٠

Abu-Hakima, A Modern History of Kuwait,p.118.

(٣٥) Aitohison, C., Collection of Treaties Vol.XI,P.P.265-266. Hurewitz, J., Diplomacy in the near ..., Vol. II,p.4,Busch, B., Britain and the Persian Gulf ...,p.p.225-226.

الموقف وقع أمير الكويت معاهدة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) بعدم التنازل عن أى جزء من أراضيه لأية جهة كانت ، وبقيت هـــذه الاتفاقية سرية كسابقتها التى وقعت عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)(٣٦) ٠

وفى الوقت الذى ازدادت مطامع بريطانيـا فى الخليج انشـــغلت الدولة العثمانية عن هذه المنطقة بحروب البلقان(*) وطرابلس(*)٠وكان القلق يساورها من انشاء الخط الحديدى الألمانى الذى يستهدف الوصول الى الكاظمة فى الكويت٠ولم يكن باستطاعتها الوقوف بمفردها فى وجه انشاء هذا الخط بعد أن كسبت ألمانيا موافقة فرنسا وروسيا على الاستمرار فى هذا المشروع ٠ ولذا أخذت تولى هذه القضية كل اهتمامها حتى تستطيع الوقوف فى وجه هذا المشروع وابعـــاده عن الكويت لتكون نهايته ميناء البصرة(٣٧) ٠

وبعد أن يئست بريطانيا من عرقلة مشروع هذا الخط أخذت تسعى الى عقد اتفاق مع الدولة العثمانية لوضع حل لمشاكلها،وأهمها مناقشة وضع كل من الكويت والبحرين اللتين تعتبران مستقلتين عن الدولة العثمانية ، لتمتعهما بالحمـــاية البريطانية ٠ ودارت مباحثات طويلة حـول هـــذا الموضوع حتى توصل الطرفان الى توقيع الاتفاقية البريطانية - العثمانية عام ١٣٣٢هـ (٢٩ يوليو ١٩١٣م) والتى من أهم بنودها البنـــد الذى يتناول وضع الكويت وقطر والبحرين ، فضلا عن وضع الملاحة فى الخليج العربى ومسألة شط العرب ٠ وقد حرصـــت بريطانيا على توقيع هـــذه

---

(٣٦) العقاد صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ٠

(*) حروب البلقان هى التى دارت بين دول البلقان والدولة العثمانية واستمرت من عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧م) حتى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وانتهت بهزيمة الدولة ٠ أنظر: رونوفن ، بيير ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ - ٢٨ ٠

(*) حرب طرابلس هى التى دارت بين ايطاليا والدولة العثمانية حول طرابلس « ليبيا » عندما رأت ايطاليا احتلالها فى عام ١٣١٩هـ (١٩١١م) ٠ أنظر : الدسوقى ، كمال ، الدولة العثمانية ، ص ٣٢٦ ٠

(٣٧) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، جـ٣ ، ص ١٩٣ ، نوار ، عبد العزيز ، المصالح البريطانية ، ص ٢١٩ ، عمر ، عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربى ، ص ٤٠١ ٠

الاتفاقية لترسيخ نفوذها فى منطقة الخليج العربى(٣٨) ٠

وكان الشك يساور بريطانيا فى أن بحـــرا من النفط يسبح تحت صحراء الخليج العربى ، فأحكمت قبضتها على تلك المنطقة ٠ أما وضع الكويت فى ظل الاتفاقية المشار اليها فقد قبلت الدولة العثمانية بعـــدم التدخل فى شئونها الداخلية ، كما قبلت أن يكون الحكم وراثيا فى آل الصباح ٠ كذلك أعلنت عدم نيتها فى احتلال أى جزء من تلك البلاد ، وأوكلت لأميرها مهمة تعيين وكلاء يرعون مصالح الرعايا الكويتيين فى الولايات العثمانية ، واعترفت بأن الكويت مشيخة مستقلة لها سيادتها مع رفع العلم العثمانى مضافا اليه كلمة (الكويت)٠ كذلك تعهدت باحترام أملاك أمير الـكويت فى البصرة ، ومنح الـكويت جـزء من الضرائب ٠ أضف الى ذلك موافقة الدولة العثمانية على الامتيازات البريطانية فى الكويت ٠ ومن الناحية الأخرى تعهدت بريطانيا بعدم احتلال الكويت مادامت الاتفاقية سارية المفعول(٣٩) ٠

ثم ان هذه الاتفاقية حددت حدود الكويت التى تبدأ من الساحل عند مدخل خور الزبير فى الشمال الغربى وتمر مباشرة الى الجنوب من أم قصر،وصفوان، وجبل سنام ــ تاركة لولاية البصرة هذه الأماكن وآبارها ــ حتى اذا وصلت لحفر الباطن تبعته نحو الجنوب الغربى فتتركه جانب الكويت ٠ وفى تلك المنطقة يتجه الخط الى الجنوب الشرقى ممتدا الى آبار الصفاة والقرع وانابه ، والوريه ، والأنطع ، ويصل البحر بالقرب من فيفا ، أى أنها تمثل دائرة مركزها الكويت ، وتمتد الى خور الزبير فى أقصى شمالها ، والقـــرين فى أقصى جنوبها ٠ ويدخل ضـــمن الخط الأحمر كل من جزر وربه وبوبيان ومشاجات وفيلـكه وعواد الكبار وقار والمقطع وأم المرادم ، فضلا عن كل الجزر الصـغيرة الواقعة داخل الخط

---

(٣٨) الشملان ، سيف ، من تاريخ الكويت ، ص ٢١٨ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، السلام البريطانى فى الخليج ، ص ١٤٤ ، العايد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، ج٢ ٠

(٣٩) المنصور ، الخترش ، تاريخ العلاقات السياسية ، ص ٨٣ ، العقـــاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ٠

الأحمر(٤٠) ٠

وتعد هذه الاتفاقية التى وقعت عليها الدولة العثمانية دليلا واضحا على أن الكويت غدت دولة مستقلة عن اطار الدولة العثمانية،وأن حدودها قد حددت تماما فى هذه الاتفاقية ، وعلى جميع الدول المحيطة احترامها بعد الاعتراف بها ٠

وعند نهاية الحرب العالمية الأولى اعتبرت بريطانيا الكويت منطقة خاضعة لبنود معاهدة سيفر التى بمقتضاها تخلت الدولة العثمانية عقب هزيمتها فى الحرب العالميـــة الأولى عن جميع ممتلكاتها الواقعة خارج نطاق تركيا الأوربية ، مما مهد لظهور دولة العراق فى شكل مملكة جمعت بين ولايات البصرة وبغداد والموصل ٠

وما أن حل عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) حتى اعترفت بريطانيا بالحدود التى وضعت بين الكويت ومملكة العراق ، اذ اعترف المنـــدوب السامى البريطانى على بغداد بأحقية الكويت بالمطالبة بحدودها التى نصت عليها اتفاقية ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ٠ يضاف الى ذلك أن نورى الســـعيد ـ رئيس وزراء العراق آنئذ ـ وافق عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) على هذه الحدود التى تمتد من تقاطع وادى العوجا بالباطن فى اتجاه شمال خط الباطن الى نقطة جنوبى خط عرض صفوان تماما ، ومنها شرقا تمر بجنــوب آبار صفوان وجبل سنام وأم قصر الى العراق ٠ وهكذا حتى مفترق خور زبير وخور عبدالله ٠ وتكون جـــزر وربه وبوبيان ومسكان وفيلكة وعوهة وكبر وقاروم وأم المرادم من نصيب الكويت(٤١) ٠

★ ★ ★

وقد بقيت هذه الاتفاقية سرية ، اذ حرصت حـكومة العراق على اخفائها والادعاء بأن لها حقوقا تاريخية فى الكويت ٠ ومن الواضح بعد

---

(٤٠) مسودة المعاهدة الأنجلو ـ تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج٠س٠ هيروتيز الدبلوماسية فى المشرقين الأدنى والأوسط ، مســجل وثائقى ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ، برستون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ٠

(٤١) دوكاس ، مارثا . أزمة الكويت ، ص ١٢ ـ ١٣ ٠

دراسة هــذه الحقائق التاريخية أنه ليس ثمة أى دليل يثبت أن الكويت كانت فى يوم من الأيام تابعة للعــراق • وربما كانت العـلاقات الودية التى سادت آنذاك بين شيخ الكويت ومتسلم البصرة هى التى حـــدت بحكومة العراق لافتعال تلك المزاعم • أما شيوخ العتوب فقد اتبعوا سياسة الصــداقة والمودة مــع القـــوى المحيطة بهم فى المنطقة دون تبعية أو خضوع لأحد •

الخـــاتمة :

ان الحقائق والأحداثالتاريخية لم تشر الى أن الكويت منذ ظهورها وحتى وقتنــا الحاضر كان جــزء مـــن ولاية البصرة ، وانمـــا كانت الكويت مشيخة لها استقلالها فى نطاق الدولة العثمانية ، ورفع أميرها العلم العثمانى لأن أسلافه من أمراء المنطقة ساروا على هذا النمط ، ولأن الدولة العثمانية هى القوة الاسـلامية التى هيمنت عندئذ على العـــالم الاسلامى(٤٢) •

وما تدعيه حكومة العراق من تبعية الكويت للبصرة لا أساس له من الصحة ، لأن الكويت ظلت محتفظة بكيانها المستقل ، فضلا عن أن التبعية كانت لولاية عثمانية ، ومحدودة بفترة زمنية قصيرة •

وكما استقل العراق وصار دولة ذات سيادة ، كذلك استقل الكويت وغدا دولة مستقلة يحمل سكانها الجنســية الكويتية ، وان كان استقلال الكويت قد سبق استقلال العراق بسنوات • وهكذا فان موضوع الحقوق التاريخية التىاعتمدت عليها حكومة العراق فىالمطالبة بضم الكويت معيار غير صحيح•ولو أخذنا بهذا الحق لصار لتركيا اليومأنتطالب بضمالعراق بأكمله ، ولطالبت ايران بضم البصرة بل بضم العراق بأكمله لأنها فرضت سلطتها عليه فترة من الزمن ، ولطالبت بلاد الشام بضم الموصل اليها لأنها

---

(٤٢) مسودة المعاهدة الانجلو ــ تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج•س• هور منتيز ، الدبلوماسية فى الشرقين الادنى والاوسط ، مسجل وثائقى ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٢ ، برستون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) •

(1.0)L,P&S/18/B. 18. British Relations with Turkey in, P.G. 1 Dec. 1910.

تعتبر تاريخيا جزء من الشام٠وقد ورد فى اتفاقية سايكس بيكو التىوقعت عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) لتقسيم الدولة العثمانية الى مناطق نفوذ ، ورد أن الموصل لفرنسا باعتبارها جزء من بلاد الشام ٠ فهل يرضى العـــراق اليوم بتطبيق ذلك المبدأ بناء على أحكام التاريخ ؟

ان الكويت دولة مستقلة ذات سيادة منذ القرن الثامن عشر الميلادى؛ ومن حقها توقيع الاتفاقيات مع أى دولة سواء العثمانية أو غيرها ، وذلك فى الوقت الذى كان العراق مجرد مسمى جغرافى لولايات عثمانية موزعة سياسيا ٠ يحكم كل ولاية وال عثمانى ٠ ولم يظهر العراق كقوة سياسية ودولة لها كيان على مسرح التاريخ الحـديث الا بعد قيام الحرب العالمية الأولى ٠



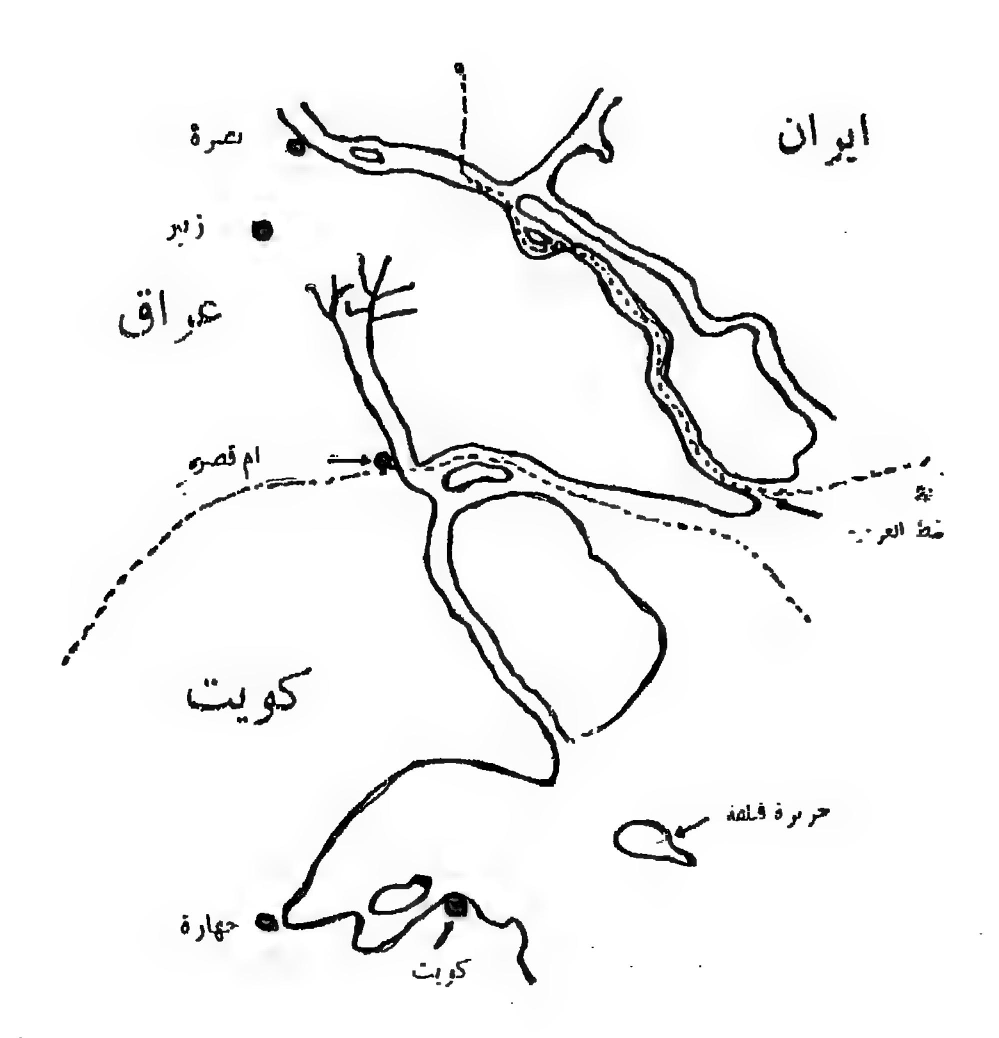
وبعد ، فاننا نخلص من هـــذا البحث بأن الدولة العثمانية سلكت جميع السبل لضم الكويت تحت سيادتها لكنها لم تفلح ، واستمرت الكويت ذات سيادة مستقلة ، تربطها روابط شكلية بالدولة العثمانية ٠

ان ادعاء العراق بأن الكويت كانت فى فترة من الزمن تابعة للواء البصرة ادعاء كاذب لأن التبعيـــة كانت اســمية فقط ، ثم انها كانت للدولة العثمانية وليست للعراق ، لأن العراق كان هو الآخر تابعاً لهـــده الدولة وخاضعا لسلطتها ، ولا يمثل دولة ذات كيان مستقل بعكس الكويت الذى كان يتمتع بالاستقلال والحكم الذاتى ٠

لقد أثبتت الاتفاقية البريطانية ـ العثمانية التى وقعت عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) اعتراف الدولة العثمانية باســـتقلال الكويت الذاتى وبينت الحدود التى تقع تحت حكم أمير الكويت مباشرة ٠ واعترفت بهذا الدولة العثمانية المهيمنة فى ذلك الوقت على معظم البلاد العربية والاسلامية ٠

أما رفع حكام الكويت للعـــلم العثمانى فلم يكن يعنى التبعيـــة السياسية للدولة العثمانية ، بل كان مظهرا من مظاهر الاحترام للخلافة الاسلامية ، ولا شأن للعراق أو لحكومة العراق بذلك ٠

(خريطة الحدود الكويتية ـ العراقية)





الكويت في الخرائط التاريخية

Nicolas Sanson نيكولاس سانسون
عام 1652

R. and J. Ottens الأخوان أوتنز
أمستردام 1737

C. Ritter كارل ريتر
برلين 1818

ظهرت الكويت دولة محددة السيادة منذ اوائل القرن الثامن عشر الميلادي ويؤكد ذلك أن الحدود بين إقليم الكويت وإقليم العراق كانت واضحة ومرسومة منذ البدايات الأولى للأعمال الكارتوغرافية وتتمثل تلك الحدود في الخط الفاصل بين العراق وشبه الجزيرة العربية حيث كانت الكويت على الدوام داخلة في إطار شبه الجزيرة العربية ثم تجلى ذلك في عدد من الخرائط التي ظهرت في القرن التاسع عشر حيث تظهر فيها الكويت منطقة متميزة في حدودها مستقلة عما حولها.

وهكذا يمكن القول بأن أحد المبادئ الدولية الأساسية في تعيين الحدود هو استقرارها تاريخياً، وهذا ما تؤكده مجموعة كبيرة من الخرائط العالمية، التي تبقى بلا أدنى شك حق الكويت العادل الذي من أجله وقف العالم أجمع معها فلهم الشكر والتقدير ولهم الثناء الدائم

جمعية نشر المعلومات
النافعة لندن 1840
The Society for the Diffusion

قائمة المصادر والمراجع التى أعتمد عليها البحث

(أ) المصادر والمراجع العربية :

ــ مسودة المعاهدة الانجلو ـ تركية حول منطقة الخليج العربى
كما نشرت فى ج٠س٠ هيروتيز : الدبلوماسية فى الشرقين (الأدنى والأوسط) ، سجل وثائقى بريستون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ٠

ــ ابراهيم ، عبد العزيز عبد الغنى
سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج العربى (١٨٥٨ ـ ١٩١٤م)، الرياض ١٩٨٢/١٤٠٢م ٠

ــ السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٣١٧ ـ ١٣٦٧ هـ (١٨٩٩ ـ ١٩٤٧م) دراسة وثائقية ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٠

ــ أبو حاكمه ، أحمد مصطفى
تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، نشأة وتطور الكويت والبحرين ، ترجمة محمد عبد الله ، بيروت ، بدون تاريخ ٠

ــ تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، الكويت ، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م الكويت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ٠

ــ بوش ، بيروينتون كوبر
بريطانيا والخليج الفارسى ١٣٠٢ ـ ١٣٣٣هـ (١٨٨٤ ـ ١٩١٤م)، كاليفورنيا ، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) ٠

ــ الدسوقى ، كمال
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ (١٩٧٦م) ٠

ــ دوكاس ، مارثا
أزمة الكويت ، العلاقات الكويتية ـ العراقية ١٣٨١ ـ ١٣٨٣ هـ (١٩٦١ ـ ١٩٦٣م) ، بيروت ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ٠

ــ الرشيد عبد العزيز
تاريخ الكويت ، ج١ ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ٠

ـــ رونوفن ، بيير
تاريخ القرن العشرين ، ١٣١٨ ـ ١٣٦٨ هـ (١٩٠ ـ ١٩٤٨م) ، تعريب د. نور الدين حاطوم ، دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

ـــ سـعيد أمين
الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـــ الشملان ، سـيف
من تاريخ الكويت ، الكويت ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

ـــ الشناوى ، عبد العزيز
الدولة العثمانية دولة اسـلامية مفتـرى عليهـا ، ج٣ ، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

ـــ الصالح ، نورية
علاقات الكويت السياسية بشرقى الجزيرة العربية والعراق العثمانى ١٢٨٣ ـ ١٣٢٠هـ/١٨٦٦ ـ ١٩٠٢م ، الكويت ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م .

ـــ العـابد ، فؤاد
سياسـة بريطانيا فى الخليج العـربى ١٢٧٠ ـ ١٣٣٣هـ/١٨٥٣ ـ ١٩١٤م ، ج٢ ، الكويت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ـــ العقـاد ، صـلاح
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـــ عمر ، عبد العزيز
تاريخ المشرق العربى ١٣٣٥ ـ ١٣٤١هـ/١٩١٦ ـ ١٩٢٢م ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ـــ قاسـم ، جمال
دراسـات لتاريخ الامارات العـربية ١٢٥٦ ـ ١٣٣٣هـ/١٨٤٠ ـ ١٩١٤م ، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- الخليج العــربى
دراسات لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

- القناعى ، يوسف بن عيسى
صفحات من تاريخ الكويت ، دمشق ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ٠

- كيــلى ، ج٠ب٠
بريطانيا والخليج العــربى ١٢١٠ - ١٢٧٥هـ/١٧٩٥ - ١٨٥٨م ، لندن ١٩٦٨م ٠

- لوريمر ، ج٠ج٠
دليل الخليج ، ج٣ ، قطر ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ٠

- النبهانى ، محمد بن خليفة
التحفة النبهانية فى امارات الجزيرة العربية ، بغــداد ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م ٠

الدوريات العــربية :

- قطينة ، رنده مصرى
الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة ، مجلة الوثيقة ، العـــدد الثانى ، السنة الأولى ، البحرين ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ٠

رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج

د. محمد بن فارس الجميل(*)

يستهدف هذا البحث القاء الضوء على رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج ، وذلك من خلال ما جاء عن تلك الرحلة فى المصادر الأولى وما جاء عنها كذلك فى الدراسات الحديثة ، بغية التعرف على وجهات النظر المختلفة بشأن تلك الرحلة وأبعادها الحقيقية .

وقبل التعرض للروايات المتعلقة بأمر الرحلة لابد من الحديث عن الخلفية التاريخية لها،لأن جميع المصادر التى تطرقت الى رحلة سلام الى « السد » لم تشر – فيما نعلم – الى خلفيتها التاريخية . ذلك أنها لم تتعرض الى ما ورد فى السنة النبوية عن سد يأجوج وماجوج ، كما أنها فى ذات الوقت لم تشر الى ما قيل عن محاولات سابقة ، للوصول أو لاكتشاف « السد » . وما من شك فى أن الوقوف على ما كان متداولا بين المسلمين من معلومات عن سد يأجوج ومأجوج قبل رحلة سلام الترجمان اليه ، ومقارنة ذلك بما جاءت به بعثة سلام من معلومات عن أمر السد ، سيمكن الباحث من تكوين رأى خاص حول تلك البعثة وما رافقها من حماسة وما أذاعته عن السد وأهله من معلومات .

الواقع ان الاهتمام بالسد وبأمر يأجوج ومأجوج لدى المسلمين انما هو اهتمام مرتبط بما جاء عنه فى القرآن الكريم والسنة النبوية . فمما جاء عن السد فى القرآن الكريم قوله تعالى : (حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا يذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) (الكهف : ٩٣ – ٩٤) وجاء فى نفس السورة اشارة الى السد بمعنى الردم ، فقال تعالى على لسان ذى القرنين (فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) (الكهف : ٩٥) .

(*) قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الملك سعود .

أما فى السنة النبوية فقد وردت بعض الاشارات الى السـد والى يأجوج ومأجوج ، حيث جاء فى الحديث أن رجلا قال للنبى ﷺ : رأيت السد مثل البرد المحبر ، قال : « رأيته » ؛ أى أن النبى ﷺ وافق الرجل وصدق رؤيته للسد وصفته(١) .

ولدينا رواية أخرى ربما تكون وثيقة الصلة بالرواية السابقة ان لم تكن ايضاحا لها ، جاء فيها أن رجلا قال :

[انطلقت الى أرض ليس لأهلها الا الحديد يعملونه ، فدخلت بيتا فاستلقيت فيه على ظهرى وجعلت رجلى على جداره ، فلما كان عند غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت ، فقال لى رب البيت : ... هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد ، أفيسرك أن تراه ؟ قلت : نعم . قال : فغدوت اليه فاذا لبنته من حديد كل واحدة مثل الصخرة واذا كأنه البرد المحبرة ، واذا المسامير مثل الجذوع ، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فقال : « صفه لى »

فقلت : كأنه البرد المحبرة ، فقال ﷺ :

« من سره أن ينظر الى رجل قد أتى الردم فلينظر الى هذا»](٢)

وأشارت مصادر الحديث مرة أخرى الى الردم كما تضمنت الاشارة الى يأجوج ومأجوج . قالت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها [أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا يقول « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق باصبعه الابهام والتى تليها](٣) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد بيده تسعين(٤) . أى حلق اصبعه .

كذلك روى أبو هريرة فى مناسبة أخرى أن رسول الله ﷺ ذكر مرة يأجوج ومأجوج، وما يلقونه من نصب وعنت فى سبيل الخروج من

السد ، فقال : « ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعودون اليه أشد ما كان ... »(٥) .

هذا مجمل الروايات عن السد أو الردم وعن يأجوج ومأجوج ، التى كانت متداولة فى عصر الرسول ﷺ .

أما فى عصر الخلفاء الراشدين ، وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ت : ٢٥هـ/ ٦٤٤م) فلدينا رواية تعود الى أحداث فتح أذربيجان (٢٢هـ/٦٤٢م) مفادها أن صاحب أذربيجان ، شهر براز ، أخبر الفاتح العربى عبد الرحمن بن ربيعة عن السد بقوله :

[أيها الأمير : أتدرى من أين جاء هذا الرجل ؟ بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه فانتهى الى الملك الذى السد فى ظهر أرضه ... قال : فلما انتهينا فاذا جبلان بينهما سد مسدود ، حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما واذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده ...(٦)] .

أما فى العصر الأموى وبالذات فى عهد معاوية بن أبى سفيان (ت : ٦٠هـ/٦٧٩م) فاننا نجد فى أحد المصادر المتأخرة ما يشير الى أن معاوية أرسل بدوره بعثة تتألف من خمسة وعشرين رجلا الى سد ياجوج ومأجوج ينظرون كيف هو ، وكتب الى ملك الخزر يجوزهم الى من خلفه ، وأهدى اليهم هدايا ، ففعل حتى انتهوا الى الجبلين ، واذا بينهما مثل البصيص وهو بريق الصفر فى الحديد ، وسمعوا جلبة من داخل السور ورأوا درجا يرقى فيه الى أعلاه فصعد فيه رجل منهم . فلما بلغ وسطه تحير فسقط فمات ، وانصرفوا بقطعة مسحاة وجدوها عند السد ...(٧) .

أما الحلقة الأخيرة المتعلقة بالخلفيةالتاريخية لرحلة سلام الترجمان الى السد فيمكن ربطها بما رواه ابن النديم فى الفهرست حيث يعزو أحد أسباب شغف الخليفة المأمون (ت . ٢١٨هـ/٨٣٣م) بعلوم وثقافة

اليونان الى ما رآه فى منامه من مقابلة لأرسطاليس حكيم اليونان ، وما دار بينهما من أسئلة حول الحكمة وغيرها(٨) ٠

وبهذا الخبر الأخير تبلغ الخلفية التاريخية لرحلة سـلام ذروتها حيث أنه بعد تسع سنوات تقريبا من رحيل الخليفة المأمون ، قيل أن الخليفة الواثق (ت : ٢٣٢هـ/ ٩٤٣م) رأى فى المنـام أيضا أن سـد يأجوج ومأجوج مفتوح ففزع لذلك أشد الفزع وأمـر بتجهيز بعثة علمية لتقصى حقيقة الأمر (!)(٩) ٠

ونلاحظ عن رحلة سلام الترجمان أن الكثير من المصـادر الأولى ـ خاصة التاريخية والأدبية ـ لم تشر اليهـا ، على الرغم من أهميتها نظرا لما لها من علاقة بأمر قوم من خلق الله ورد ذكرهم فى القرآن وفى السنة النبوية وهم « يأجوج ومأجوج » ٠

ولعل كتب الجغرافية والرحلات هى المصـادر التى تفردت بأمر تلك الرحلة ؛ كما شاركها هذا الاهتمام أحيـانا بعض المصـادر الأدبية المتأخرة ٠ ويبدو أن كافة المصادر اعتمدت على ما ذكـره ابن خرداذبة فى كتابه : (المسـالك والممالك) ، وفيمـا يلى النص حسـب رواية ابن خرداذبة الشخصية نقلا عن سلام الترجمان ، حيث قال :

[فحدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لمـا رأى فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فطلب رجلا يخرجه الى الموضع فيستخبر خبره ٠ فقال أشناس ما هاهنا أحد يصلح الا سلام الترجمان ، وكان يتكلم بثلثين لسـانا ٠ قال فدعا بى الواثق وقال : أريد أن تخرج الى السد حتى تعاينه وتجيئنى بخبره ٠ وضم الى خمسين رجلا شباب أقوياء ، ووصلنى بخمسة آلاف دينار ، وأعطانى ديتى عشرة آلاف درهم ٠ وأمر فأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة ٠ وأمر ان يهيأ للرجال اللبابيد وتغشى بالاديم ٠ واستعمل لهم الكستبانات بالفراء والركب الخشب ٠ وأعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء ٠ فشخصنا من سر من رأى بكتاب من الواثق بالله الى اسحاق بن اسماعيل صـاحب أرمينية ـ وهـو بتفليس ـ فى انفاذنا ،

وكتب لنا اسحاق الى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير الى ملك اللان ، وكتب لنا ملك اللان الى فيلان شاه ، وكتب لنا فيلان شاه الى طرخان ملك الخزر . فاقمنا عند ملك الخزر يوما وليلة حتى وجه معنا خمسة أدلاء ، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما ، فانتهينا الى أرض سوداء منتنة الرائحة . وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة ، فسرنا فيها عشرة أيام . ثم صرنا الى مدن خراب ، فسرنا فيها عشرين يوما ، فسالنا عن حال تلك المدن ، فخبرنا أنها المدن التى كان ياجوج وماجوج يتطرقونها فخربوها . ثم صرنا الى حصون بالقرب من الجبل الذى شعبة منه السد . وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ، لهم كتاتيب ومساجد ، فسالونا من أين اقبلنا فاخبرناهم انا رسل امير المؤمنين ، فاقبلوا يتعجبون ويقولون امير المؤمنين ؟ فنقول نعم ، فقالوا شيخ هو أم شـــاب ؟ فقلنـــا شـــاب فعجبوا ايضا ، فقالوا اين يكون ؟ فقلنا العراق فى مدينة يقال لها سر من راى ، فقالوا ما سمعنا بهذا قط . وبين كل حصن من تلك الحصون الى الحصن الاخر فرسخ الى فرسخين أقل وأكثر . ثم صرنا الى مدينة يقال لها ايكة ، تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها ، وفيها مزارع وارحاء داخل المدينة ، وهى التى كان ينزلها ذو القرنين بعسكره ، بينها وبين السد مسيرة ثلثة أيام ، وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير الى السد ، فى اليوم الثالث . وهو جبل مستدير ذكروا أن يأجوج ومأجوج فيه وهما صـــنفان ، ذكروا أن يأجوج أطـــول من مأجوج ، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع الى ذراع ونصف وأقل وأكثر . ثم صرنا الى جبل عال عليه حصن ، والسد الذى بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع ، وهو الطـــريق الذى يخرجـــون منه فيتفرقون فى الأرض ، فحفر أساســه ثلثين ذراعا الى أسفل ، وبنـــاه بالحديد والنحاس حتى ساقه الى وجه الأرض . ثم رفع عضادتين ، مما يلى الجبل من جنبتى الفج ، عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا ، فى سمك خمسين ذراعا ، الظاهر من تحتهما عشر أذرع خارج الباب . وكله بناء بلبن من حديد مغيب فى نحاس ، تكون اللبنة ذراعا ونصفا فى ذراع ونصف فى ســـمك أربع أصابع ، ودروند حـــديد طرفاه على العضادتين ، طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين على كل

واحدة مقدار عشر أذرع فى عرض خمس أذرع • وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد فى النحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر ، يكون البناء فوق الدروند نحوا من ستين ذراعا • وفوق شرف حديد فى طرف كل شرفة قرنتان تنثنى كل واحدة منهما على الاخرى ، طول كل شرفة خمس أذرع فى عرض آربع اذرع ، وعليه سبع وثلثون شرفة • واذا باب حديد مصراعين معلقين ، عرض كل مصراع خمسون ذراعا فى ارتفاع خمس وسبعين ذراعا فى ثخن خمس أذرع ، قائمتانهما فى دوارة على قدر الدروند • لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقه • وعلى الباب قفل طوله سبع آذرع فى غلظ باع فى الاستدارة • والقفل لا يحتضنه رجلان ، وارتفاع القفل من الارض خمس وعشرون ذراعا • وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل ،وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان • وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف وله اثنتا عشرة دندانكة كل دندانكة فى صفة دستج الهواوين • واستدارة المفتاح أربعة أشبار ، معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق• وعتبة الباب عرضها عشر أذرع فى بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمس اذرع ، وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء • ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مائتى ذراع • وعلى باب هذين الحصنين شجرتان ، وبين الحصنين عين عذبة ، وفى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد ، على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون • وهناك بقية من لبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ• ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم أثنين وخميس ، وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة ، يجيء راكبا ومعه ثلثة رجال على عنق كل رجل مرزبة ، ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة فى أول النهار فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنابير ثم يخمدون • فاذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى ويصغى باذنه ألى الباب فتكون جلبتهم فى الثانية أشد من الأولى ثم يخمدون • فاذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجون مثل ذلك ، ثم يقعد الى مغيب الشمس • ثم ينصرف • الغرض فى قرع القفل أن يسمع من وراء الباب ،

فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء ان هؤلئك لم يحدثوا فى الباب حدثا ، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ فى عشرة فراسخ تكسيره مائة فرسخ .

قال سلام : فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون هل عاب من هذا الباب شىء قط ؟ قالوا : ما فيه الا هذا الشق . والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق . فقلت : تخشون عليه شيئا ؟ فقالوا : لا ان هـذا الباب ثخنه خمس اذرع بذراع الاسكندر يكون ذراعا ونصفا بالاسود، كل ذراع واحدة من ذراع الاسكندر . قال : فدنوت واخرجت من خفى سكينا فحككت موضع الشق فاخرج منه مقدار نصف درهم وأشده فى منديل لاريه الواثق بالله . وعلى فرد مصراع الباب الايمن فى اعـلاه مكتوب بالحديد باللسان الاول [فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا] وننظر الى البناية واكثر ه مخطط ساف اصـفر من نحاس وساف أسود من حديد . وفى الجبل محفـور الموضع الذى صب فيه الابواب ، وموضع القدور التى كان يخلط فيها النحاس، والموضع الذى كان يحلى فيه الرصاص والنحاس ، وقدور شبيهة بالصفر لكل قدر ثلث عـرى ، فيها السلاسل والكلاليب التى كان يمد بها النحاس الى فوق السور . وسألنا من هناك هل رأيتم من ياجوج وماجوج أحدا ، فذكروا أنهم رأوا مرة عددا فوق الجبل ، فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبهم ، وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبرا ونصفا . والجبـل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غـير ذلك ، وهو جبل مسلنطح قائم أملس أبيض .

فلما انصرفنا أخذ الادلاء بنا الى ناحية خراسان، وكان الملك يسمى اللب . ثم خرجنـا من ذلك الموضع وصرنا الى موضع ملك يقـال له طبانوين ، وهو صاحب الخراج، فأقمنا عندهم أياما . وسرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند فى ثمانية أشهر ووردنا على اسبيشاب،وعبرنا نهر بلخ ، ثم صرنا الى شروسنة والى بخارا والى ترمذ ، ثم وصلنا الى نيسابور . ومات من الرجـال الذين كانوا معنـا ومن مرض منهم فى الذهاب أثنان وعشرون رجلا ، من مات منهم دفن فى ثيابه ، ومن مرض

خلفناه مريضا فى بعض القرى . ومات فى المرجع أربعة عشر رجلا . فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلا . وكان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا . ثم صرنا الى عبد الله بن طاهر فوصلنى بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل معى بخمس مائة درهم ، وأجرى للفارس خمسة دراهم وللراجل ثلثة دراهم فى كل يوم الى الرى . ولم يسلم من البغال التى كانت معنا الا ثلثة وعشرون بغلا . ووردنا سر من رأى ، فدخلت على الواثق فأخبرته بالقصة ، وأريته الحديد الذى كنت حككته من الباب ، فحمد الله وأمر بصدقة يتصدق بها ، وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار، وكان وصولنا الى السد فى ستة عشر شهرا ورجعنا فى اثنى عشر شهرا وأيام .

فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ، ثم املاه على من كتاب كان كتبه للواثق بالله (١٠)] .



ومن المهم جدا أن يدرك الباحث أن جميع المصادر الأولى التى اهتمت بأمر رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج قد نقلت معلوماتها عن مصدر واحد لا غير ، هو ابن خرداذبة الذى ذكرنا فيما سبق روايته عن الرحلة .

ويطبيعة الحال جاء نقل بقية المصادر عن ابن خرداذبة بدرجات متفاوته ، فمنها ما نقل عنه حرفيا ، ومنها مانقل عنه جزء من التقرير، ومنها ما اكتفى بايراد المعنى دون الخوض فى التفاصيل . وهى فى جملتها حين تنقل عن ابن خرداذبة لا يسلم نقلها من بعض الزيادة أو النقص فمثلا :

من الذين اهتموا بأمر السد ورحلة سلام اليه ، الثعلبى (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) فى كتابه المعروف : عرائس المجالس . وقد نقل فى كتابه أخبار الاسكندر ، (ذو القرنين) وبناءه للسد ويأجوج ومأجوج ، كما أورد رواية ابن خرداذبة مختلفة بعض الشىء فى بعض التفاصيل الصغيرة(١١) .

أما أبو عبد الله الادريسى ، (ت : حوالى ٦٥٠هـ/١١٦٤م) فقد تناول فى كتابه : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، رواية ابن خرداذبة وبعثة سلام الترجمان اليه . ولم ينكر من أمرها شيئا ، بل أنه أضاف اليها ما يفيد عن الطريقة التى انتشر بها الاسلام بين الأقوام المجاورة للسد ، اضافة الى بعض الاختلافات الطفيفة عما جاء عنـــد ابن خرداذبة عن موضوع الرحلة(١٢) .

ويلاحظ على القزوينى وهو متأخر نسبيا ، (ت : ٦٨٢هـ/١٢٢٣م) فى كتابه : آثار البلاد وأخبار العباد، أن رواية ابن خرداذبة تعرضت على يديه لقدر من الحذف والاضافة والتحريف أحيانا . فعند حديثه عن سد يأجوج ومأجوج تعرض بطبيعة الحال الى رحلة سلام الترجمان وأورد التقرير المنسوب اليه كاملا تقريبا ، الا أنه فى آخر التقرير قال على لسان سلام حين تحدث عن يأجوج ومأجوج : « فهبت ريح ســوداء فالقتهم الينا ...»(١٣) وكما هو واضح فان هذه الاضافة تغير معنى ما جاء عنـــد ابن خرداذبة تغييرا تاما حيث قال : « فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبهم »(١٤) أى الى داخل السد .

يضاف الى ذلك ما جاء عند القزوينى من اختلاف حول المدة الزمنية التى قضتها البعثة فى رحلتها(١٥) .

والقزوينى فى مصدر آخر لا يكتفى بما جاء عند ابن خرداذبه عن التقرير المنسوب الى ســـلام الترجمان . ففى كتابه : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، يضيف اليه بعض الفقرات التى لم ترد أصلا عند ابن خرداذبه وينسب تلك الاضافات الى أبى حامد الأندلسى فى كتابه العجائب ، نقلا عن سلام الترجمان .

ومن ذلك قوله أن سلاما الترجمان قال : « أقمت عند ملك الخزر أياما ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا وجذبوها بالحبال فانفتحت أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حســـنة الصورة أخرجوها الى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح . وقد خلق الله فى وسطها نشاء (غشاء ؟) كالثوب الصفيق ، من سرتها الى ركبتها كانه ازار مشدود على وسطها فأمسكوها حتى ماتت»(١٦) .

أما الحميرى (ت : ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ، صاحب الروض المعطار ، فلعله من أكثر الجغرافيين عناية بأمر رحلة سلام الترجمان ، فقد تتبع ما جاء عن السد فى القرآن والسنة ، وندين له بالمعلومات القيمة التى زودنا بها عن بعض الرحلات التى يقال أنها نفذت الى السد قبل بعثة الواثق بأكثر من قرن من الزمان(١٧) ٠

والحميرى كغيره من الجغرافيين نقل خبر رحلة سلام الى السد عن المصدر الأول لها وهو ابن خرداذبه ، الا أن نقله لم يسلم من الزيادة والنقصان وان لم يغير من جوهر الرواية(١٨) ٠



هذا ما جاء عن رحلة سلام الترجمان الى السد أو الردم فى المصادر الجغرافية والأدبية الأولى ٠ وكما أوضحنا من قبل فان تلك المصادر تناقلت رواية واحدة مصدرها واحد وهو ابن خرداذبه ، الا أنه من اللافت للنظر أن كل تلك المصادر المشار اليها آنفا تقبلت الرواية بقبول حسن فلم تقف منها موقف الرافض أو على الأقل المتشكك ولو فى بعض جزئياتها ٠

ولدينا طائفة أخرى من الجغرافيين وقف بعضهم من أمر الرحلة موقف الرافض٠وبعضهم شكك فى ما جاءت به من أخبار ٠ وأما البعض الآخر فلم يكن متحمسا لما ذاع عن الرحلة من معلومات ٠

ويأتى على رأس هؤلاء الجغرافيين ابن رسته (توفى بعد ٢٩٠هـ/٩٠٣م) فبعد أن أشار بصورة مقتضبة الى الواثق وما طلب من سلام القيام به ، قال : « وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخطيط والتزييد لأن مثل هذا لا تقبل صحته فوجدته موافقا »(١٩) ٠

كذلك تحدث ياقوت الحموى (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) عن يأجوج ومأجوج بشىء من التفصيل،وتطرق كذلك الى بعثة سلام الترجمان،ونقل معظم ما جاء فى رواية ابن خرداذبه عن أمر البعثة وان لم يشر صراحة الى مصدره (!) ووقع فى روايته بعض الاختلافات الطفيفة عما ورد لدى ابن خرداذبه(٢٠) ، لكن المهم أن الحموى شكك فيما جاء عن البعثة من

أخبار السد ، فقال : « .... قد كتبت من خبر السد ما وجدته فى الكتب ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه ، والله اعلم بصحته ... »(٢١) .

ويلاحظ كذلك أن اهتمام ابن الفقيه (توفى بعد : ٢٩٠هـ/٩٠٣م) بالسد وبناء الاسكندر له كان أكثر من اهتمامه بخبر رحلة سلام الترجمان وما تمخض عنها من معلومات ، فقد أشار الى خبر تلك البعثة اشارة عابرة لم تتجاوز بضع كلمات(٢٢) . ولعل ذلك يعكس عدم مصداقية الخبر بالنسبة له .

أما المقدسى (توفى حوالى : ٣٩٠هـ/١٠٠٠م) ، فقد نقل رواية ابن خرداذبه فيما يتعلق بصفة السد ورحلة سلام الترجمان اليه . وهو الآخر لم يسلم فيما نقله من بعض الأخطاء(٢٣) . وملاحظته الوحيدة حول خبر الرحلة هى أنها صححت بعض ما كان لديه من معلومات عن موقع سد يأجوج ومأجوج ، حيث كان يظن أنه فى بلاد الأندلس بينما بعثة سلام أثبتت أنه فى مكان آخر(٢٤) .



ولعل ما يثير قدرا كبيرا من الشك فى صحة خبر بعثة الواثق وما جاءت به من أخبار عن صفة سد يأجوج ومأجوج هو عدم اهتمام كبار المفسرين بأمرها ، حيث يلاحظ أنهم لم يشيروا اليها فى معرض تفسيرهم لسورة الكهف ، ولم يتحدثوا عن التفاصيل الدقيقة لبناء السد والتى يزعم أن البعثة جاءت بها عنه .

فالطبرى (ت : ٣١٠هـ/٩٢٢م) ناقش فى تفسيره لسورة الكهف أخبار ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وبناء السد(٢٥) ، لكنه لم يشر اطلاقا لبعثة الواثق ولا لما أورده ابن خرداذبه من أمرها . ويظن أنه لو ثبت لديه ذلك وتحقق من صحة الخبر لما تردد فى الاستفادة من أخبار تلك البعثة فى تفسيره العظيم (!) .

أما الرازى (ت : ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) فقد أشار فى تفسيره بصورة

مقتضبة الى رواية ابن خرداذبة حول بعثة سلام الترجمان · وكان من الواضح أنه لم يعرها أدنى اهتمام، حيث أنه لم يشر فى تفسيره الكبير الى المعلومات التى كان سلام الترجمان قد جاء بها عن السد وعن يأجوج ومأجوج(٢٦) ·

وكذلك القرطبى (ت : ٧٦١هـ/١٢٧٣م) ، فقد ذكر فى تفسيره تفاصيل كثيرة عن يأجوج ومأجوج وعن ذى القرنين وأمر السد ، لكنه لم يتطرق لرواية ابن خرداذبه ولا الى بعثة الواثق(٢٧) ·



أما بالنسبة للدراسات الحديثة ، فقد اهتم العلماء الروس منذ وقت مبكر أكثر من سواهم بأمر رحلة سلام الى سد يأجوج ومأجوج · ومبعث ذلك الاهتمام يعود الى أن الرحلة ذات أهمية بالنسبة لبلاد السوفييت(٢٨) ·

وعلى الرغم من أن بعض علماء الروس أمثال : غريغورييف Grigoriev ومينورسكى Minorsky قد شككا فى أمر الرحلة ورأيا فيها تضليلا مقصودا ، وحكاية خرافية تنتشر فيها بعض أسماء جغرافية(٢٩) · فان دى خوية De Goeje منذ عام ١٨٨٨م اعتبر الرحلة واقعة تاريخية لاشك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء · وقد أيده فى ذلك خبير ثقة فى الجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomaschek (٣٠) ·

ويرى كراتشكوفيسكى Krachkovski أن سلاما الترجمان فى طريق رحلته قد اتجه شمالا خلال أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، الى بلاد الخزر ثم اتجه من هناك شمالا الى بحر قزوين فوصل الى بحيرة بلخش Balkhash وزنغاريا Zhungaria وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دربند (٣١) ·

ولا يستبعد كراتشكوفسكى أن يكون سلام قد وصل الى سور الصين العظيم(٣٢) ·

أما المستشرق الفرنسى كارادى فان Carra De Van فيرى أنه من المحتمل أن هذه الرحلة كانت الى الحصون الواقعة فى جبال القواقاز وعلى مقربة من دربند أو باب الأبواب(٣٣) ٠

وقد اهتم الدارسون العرب المحدثون مثل غيرهم برحلة سلام الى سد يأجوج ومأجوج ، فكانت لهم وجهات نظر متباينة حول البعثة ٠ فمثلا حسين فوزى ، اهتم ببعض الأساطير المنسوبة الى تقرير سلام الترجمان والتى لم ترد أصلا فى المصدر الأساسى وهو ابن خرداذبه ، بل نقلت عن مصادر ثانوية متأخرة(٣٤) ٠ وهو على كل حال لم يناقش أمر البعثة الى السد ٠

وكذلك فان زكى محمد حسن ، تحدث عن سلام الترجمان ضمن الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، ويرى أن رحلته الى سور الصين الشمالى قد تكون حقيقة تاريخية ، وأن الباعث عليها أشبه بأسطورة خيالية(٣٥) ٠

والملاحظ أن زكى حسن استمد مادته عن رحلة سلام من مصادر متأخرة نسبيا كالادريسى وياقوت الحموى ، ولم يرجع الى ابن خرداذبه وهو المصدر الأول عن الرحلة ٠

ويرى على محسن مال الله ، أن الباعث وراء الرحلة التى أمر بها الواثق قد يكون باعثا سياسيا ، يقصد من ورائه اظهار هيمنته على تلك الأقطار التى مر بها سلام(٣٦) ٠

وهو يرى كذلك أن الرحلة واقعية رغم ما تسرب اليها من الأساطير(٣٧) ٠

ومن الذين أشاروا الى رحلة سلام الترجمان، أحمد رمضان أحمد، الذى من خلال عرضه الوجيز للرحلة يظهر أنه لم يطلع على ابن خرداذبه باعتباره المصدر الأساسى لرواية بعثة الواثق ، بل حذا حذو حسين فوزى حين اكتفى بما جاء لدى الادريسى وياقوت الحموى ، وبذلك لم يضف شيئا جديدا لمادة البحث(٣٨) ٠

أما حسين فهيم ، فقد أشار الى رحلة سلام اشارة مقتضبة ورأى فيها رحلة تكليفية ، رسمية ، ولم يدخل فى تفاصيلها(٣٩) .

الخاتمـــة

من العرض السابق للروايات المتعلقة برحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج يتبين للباحث أن مصدر الخبر عن الرحلة واحد لا غير، ألا وهو ابن خرداذبه وأن بقية المصادر المعاصرة له واللاحقة به اعتمدت على ما جاء فى روايته مع اختلاف يسير فى النقل بزيادة أو نقصان .

وكان للمصادر الأولية ثلاثة مواقف متباينة بشأن الرحلة :

(أ) بعض تلك المصادر اتخذ موقفا محايدا حيث نقل عن ابن خرداذبة أمر الرحـــلة وأخبارها ولم يعلق على ذلك بشىء ، كالادريسى والقزوينى والحميرى والمقدسى والثعلبى .

(ب) أحد المصادر وهو ابن رسته رفض تقريبا خبر الرحلة ورأى فيه تزيدا وتخليطا .

(جـ) الموقف الثالث ويمثله ياقوت الحموى والذى يرى أن هناك روايات كثيرة ومختلفة بشأن الرحلة ويشكك فيما جاء عنها من أخبار .

أما بالنسبة للدراسات الحديثة والتى كثيرا ما ناقشت رحلة سلام بايجاز ملحوظ فانها تكاد تتخذ مواقف متشابهة .

فالدارسون الروس والغربيون يرون أن البعثة ربما حدثت وان كان الباعث عليا خياليا ، وقد يكون سلام قد شاهد جزء من ســـور الصين العظيم أو بعض المنشآت المائية الكبرى كسد القوقاز . كما يرون أنه ربما يكون ما شاهده سلام فى تلك الأصقاع وما سمعه هناك من الاســـاطير الشعبية حول السد ويأجوج ومأجوج مضافا اليه خبر السد فى القرآن ؛ كل ذلك دفع بسلام الى رسم تلك الصـــورة عن الســـد وعن قوم يأجوج ومأجوج(٤٠) .

أما الدارسون المحدثون من العـــرب فيبدو واضـــحا أنهم تابعوا زملاءهم السابقين من الغربيين فى استنتاجاتهم وما ذهبوا اليه ، ولذلك فانهم لم يأتوا بجديد حول الموضوع .

والذى يخلص اليه الباحث هنا، هو أن البعثة قد تكون حدثت فعلا، ولكن ليس بالضرورة الى سد يأجوج ومأجوج . وقد يكون سلام شـاهد بعض المنجزات المعمارية كالسد أو شبيه به فى الأصقاع الشمالية ، ولكن الأمر الذى يظل مشكوكا فيه هو ما جاءت به البعثة من أخبار عن السد ومن حوله .

ولعل ما يقوى الشك فى تلك الأخبار هو :

(أ) اغفال المؤرخين المسلمين لذكر حادثة الرحلة برمتها ، حيث لا نجد لها أثرا فى كتاباتهم سوى ما جاء عند بعض المؤرخين اللاحقين كابن كثير وابن خلدون ، وهم لا يضيفون شيئا جديدا بل يرددون ما جاء عند ابن خرداذبه .

(ب) أن المفسرين الكبار كالطبرى والرازى والقرطبى لم يشيروا الى رحلة سلام ولم يستفيدوا من أخبارها عن سد يأجوج ومأجوج ، وهم الذين أبدوا فى تفاسيرهماهتماما خاصا بأمة يأجوج ومأجوج وبناء السد.

(جـ) من الملاحظ أن كتب التراجم المعـــروفة جميعها تقريبا لم تتطرق لسلام الترجمان ، على الرغم من كونه صاحب الريادة فى اكتشاف ووصف سد يأجوج ومأجوج(!) ، علما بأن كتب التراجم هذه قدمت لنا معلومات دقيقة ومفصلة عن حياة أناس أقل شـــأنا وخطرا من ســـلام الترجمان .

يضاف الى ذلك أن ابن خرداذبه وجميع من جاؤوا بعده ونقلوا عنه خبر رحلة سلام قد أهملوا جميعا تحديد السنة التى تمت فيها تلك الرحلة وهذا أمر يبعث على الدهشة والغرابة .

وأخيرا فان الباحث يرجو أن تكون هذه الدراسة الموجزة قد نجحت

فى الكشف عن الخلفية التاريخية لرحلة سلام الترجمان،حيث أنها لم تكن الأولى بل سبقتها عدة محاولات ٠ ويرجو كذلك أن يكون من خلال هذه الدراسة قد نجح فى اثارة بعض التســاؤلات عن حقيقــة ما جاءت به البعثة من أخبار عن سد يأجوج ومأجوج ٠

الحواشى والتعليقات

١ ـ محمد بن اسماعيل البخارى ، **صحيح البخارى** ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليمامة ، ١٤١٠هـ) .

٢ ـ كمال الدين محمد بن موسى الدميرى ، **حياة الحيوان الكبرى** ، ويليه : **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** ، لزكريا بن محمد القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٩٨هـ) ، ٤٣٢/٢ ؛ شهاب الدين بن محمد الأبشيهى ، **المستطرف فى كل فن مستظرف** ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٤٠١هـ) ، ص ٣٦٥ .

٣ ـ البخارى ، ١٢٢١/٣ ؛ مسلم بن الحجاج القشيرى، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣هـ) ، ٢٢٠٧/٤ ـ ٢٢٠٨ ، وقارن : محمد بن عيسى بن سورة الترمذى،**سنن الترمذى**،تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٨٩هـ)، ٤٨٠/٤ ؛ محمد بن يزيد القزوينى ، ابن ماجة ، **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : المكتبة العلمية ، د:ت)، ١٣٠٥/٢ .

٤ ـ البخارى ، ١٢٢١/٣ ، وانظر : مسلم ، ٢٢٠٨/٤ .

٥ ـ أحمد بن حنبل ، **المسند** ، (القاهرة : مؤسسة قرطبة ، د : ت)، ٥١٠/٢ ـ ٥١٨ ؛ محمد بن جرير الطبرى ، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن** ، الطبعة الثانية (القاهرة ، مطبعة الحلبى ، ١٣٧٣هـ) ، ٢١/١٦ ؛ محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة : مطبعة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠هـ) ، ٦٢١١ ـ ٦٣ .

٦ ـ محمد بن جرير الطبرى، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق أبوالفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة (القاهرة : دار المعارف ، د : ت) ، ١٥٩/٤ ـ ١٦٠ ؛ أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، **البداية والنهاية** ، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وزملاؤه (بيروت : دار

الكتب العلمية ، د : ت) ، ١٢٧/٤ ـ ١٢٨ ؛ محمد بن عبدالمنعم الحميرى ، **الروض المعطار فى خبر الأقطار** ، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م) ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، وانظر : عبد الرحمن بن خلدون **المقدمة** ، (القاهرة : دار الشعب ، د : ت) ، ص ٧٤ ٠

٧ ـ الحميرى ، ص ٣١٠ ٠

٨ ـ محمد بن اسحاق النديم الوراق ، **الفهرست** ، تحقيق رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : م ، دار المسيرة ، ١٩٨٨م) ، ص ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ٠

٩ ـ انظر : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، **المسالك والممالك ويليه نبذ من كتاب الخراج** لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغدادى ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن سنة ١٨٨٩م (بيروت: دار صادر ، د : ت) ، صص ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

١٠ ـ ابن خرداذبه ، صص ١٦٢ ـ ١٧٠ ٠

* الواثق : هارون بن محمد المعتصم ، يكنى أبا جعفر ، وهو الخليفة العباسى التاسع ، دامت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وبضعة أيام (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) ٠

١١ ـ أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى ، **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس** ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار الرائد العربى ، د : ت) صص ٣٦٤ ـ ٣٦٧ ٠ والاختلافات لديه عما جاء فى الرواية الأصلية لابن خرداذبه ، كبيرة الشبه بما لدى الادريسى ٠

١٢ ـ انظر : أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسى ، **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ) ، ٩٣٥/٢ ـ ٩٣٦ ٠

ومن الاختلافات الواردة فى رواية الادريسى عما جاء لدى ابن خرداذبه : قوله أن الواثق أمر لسلام الترجمان وأصحابه بمائة بغل بدلا من مائتين ، ٩٣٤/٢ ، وقوله كذلك ان أمير سمرقند عبدالله بن طاهر وصل سلام بمائة ألف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمسة آلاف درهم ٠ بينما الذى جاء عند ابن

خرداذبه أن ابن طاهر وصل سلام بثمانية آلاف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمس مائة درهم . ومن الاختلافات كذلك قول الادريسى أن الواثق أمر لكل واحد من أصحاب سلام الترجمان بخمسين ألف درهم بدلا من ألف ٩٣٤/٢ .

أما شهاب الدين أحمدبنعبدالواحد النويرى - وهو مصدر متأخر - فانه ينسب خبر بعثة سلام الى الادريسى صاحب نزهة المشتاق(!) وينقل عنه بشىء من الحذف والاضافة . انظر : **نهاية الأرب فى فنـــون الأدب** للنويرى (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢هـ) ، ٣٧٤/١ - ٣٧٨ .

١٣ - زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، **أثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ) ، ص ٥٩٨ .

١٤ - ابن خرداذبه ، ص ١٦٨ .

١٥ - القزوينى ، آثار البلاد ... ص ٥٩٩ ، ذكر القزوينى فى روايته أن مدة البعثة فى الذهاب من سرمن رأى والعودة اليها ثمانية عشر شهرا ، ص ٥٩٩ ، بينما الذى جاء عند ابن خرداذبه ان الرحلة استغرقت ثمانيـــة وعشرين شـــهرا وأيام . انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

١٦ - القزوينى ، عجائب المخلوقات ... ، ٩٦/٢ ، بخصوص ما جاء عن الجارية التى خرجت من أذن السمكة . انظر : الأبشيهى ، حيث ينسب هذه الأسطورة الى الشيخ أبى العبـــاس الحجازى نقلا عن أحد التجار ، ص ٣٦٧ .

أما ما ينسبه القزوينى فى عجائب المخلوقات .. الى أبى حامد الأندلسى الغرناطى فى الكتاب المنسوب اليه والمعروف بكتاب : **العجائب** ، فلم نعثر على ذلك الكتاب حتى نتمكن من مقـارنة ما جاء فيه ، ولكن عثرنا على كتاب آخر ينسب لأبى حامد وهو كتاب : **تحفة الألباب** ، للشيخ محمد بن عبد الرحيم المعـــروف بأبى حامد الأندلسى الغرناطى الملقب بشيخ عبد الله . نشره فى باريس سنة ١٩٢٥م غابريال فيران **Gabriel Ferrand** . انظـر فى نفس الكتاب ص ١١٩ للتعرف على أصل أسطورة الجارية التى خرجت من أذن السمكة حيث أن أبا حامد الغرناطى لا ينســب

الأسطورة الى سلام الترجمان كما جاء عند القزوينى فى كتاب عجائب المخلوقات ... بل ينسبها الى أحد التجار .

وبالنسبة لكتاب : **تحفة الألباب** ، انظر ما جاء عنه لدى : أنخل جنثالث بالنثيا فى : **تاريخ الفكر الأندلسى** ، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتب النهضة المصرية ، ١٩٥٥م) حيث يرى بالنثيا أن اسم كتاب أبى حامد الغرناطى هو : **تحفة الأصحاب ونخبة الاعجاب** . انظر ص : ٣١٢ ، بينما الأبشيهى وهو من رجال القرن التاسع الهجرى (ت: ٨٥٠ هـ) تقريبا يشير فى مواضع متفرقة من كتابه المستطرف ... الى الشيخ عبد الله صاحب كتاب : **تحفة الألباب** .انظر الصفحات ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ . وهذا ما يقوى الاحتمال بأن مسمى : **تحفة الألباب** ، أقرب الى الصواب مما يذهب اليه السيد بالنثيا ، وهو : **تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب** . سيما وأن الكتاب المتداول الآن يحمل العنوان الذى أورده الأبشيهى (!) .

وبالنسبة لترجمة أبى حامد الغرناطى ، فالمعلومات عنه مضطربة والمصادر لا تكاد تتفق على معلومات ثابتة عنه ، وبالأخص سلسلة نسبه . انظر : عبد الكريم بن محمد السمعانى ، **الأنساب** ، تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ) ، ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ ، أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨هـ) ، صص ٣٢٦ - ٣٣٠ ؛ عبد الرحمن حميدة ، **أعلام الجغرافيين العرب** ، الطبعة الثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ) ، صص ٢٢٩ - ٣٠٦ .

١٧ - الحميرى ، صص ٣٠٨ - ٣١٠ .

١٨ - ينقل الحميرى عن ابن خرداذبه ، أن عبدالله بن طاهر وصل سلام الترجمان بمائة ألف درهم ووصل كل رجل معه بخمسة آلاف درهم.ص٣١١، بينما الذى جاء عند ابن خرداذبة : ان ابن طاهر وصل سلام بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل كان معه بخمس مائة درهم .. انظر ابن خرداذبه، ص١٦٩، ويذكر الحميرى أيضا أن الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها استغرقت ثمانية عشر

شـهرا وعشرين يوما ، ص ٣١١ ، والصواب أنها ثمانية وعشرون شهرا وبضعة أيام ولعل هذا الخطأ مرده الى تصحيف وقع فيـه بعض النساخ ٠

١٩ ـ أبو على أحمد بن عمر بن رسته ، **الأعلاق النفيسة** ويليه كتاب **البلدان لليعقوبى** ، نسخه مصـــورة عن طبعة ليـدن ، ١٨٩٣م (بيروت : دار صادر) ، ص ٤٩ ٠

٢٠ ـ ياقوت بن عبدالله الحموى ، **معجم البـــلدان** ، (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦هـ) ، ٢٠٠/٣ ، ومن الاختــــلافات الواردة لدى ياقوت عما جاء لدى ابن خرداذبه قوله على لسان سلام الترجمان: « فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبنا » ، ٢٠٠/٣ والصــحيح فالقتهم الى جانبهم » أى الى جانب من هم خلف السد أى يأجوج ومأجوج ٠ وكذلك قول ياقوت على لسان ســـلام الترجمان أن الرحــــلة استغرقت مثانية عشر شــــهرا فى الذهاب والاياب ، ٢٠٠/٣ ، والصواب حسب ما جـــاء لدى ابن خرداذبه ثمانيــة وعشرين شهرا وأيام ٠

٢١ ـ ياقوت الحموى ، ٢٠٠/٣ ٠

٢٢ ـ أبو بكر بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** (ليدن : ١٣٠٢ هـ) ، صص ٢٩٨ ـ ٣٠١ ٠

٢٣ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى المقدسى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، تحقيق د٠ محمد مخـــزوم (بيروت : دار احياء التراث العربى ، ١٤٠٨هـ) ، ص ٢٧٧ ٠

٢٤ ـ المقدسى ، ص ٢٧٩ ٠

٢٥ ـ محمد بن جرير الطبرى ، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن** ، ١٥/١٦ ـ ٢٥ ٠

٢٦ ـ محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازى ، **التفسير الكبير** ، **الطبعة الأولى (القاهرة د : ت)** ، ١٦٣/٢١ ـ ١٧١ ٠

٢٧ ـ القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ٥٢/١١ ـ ٦٥ ٠

٢٨ ـ انظر : كراتشكوفسكى ، ص ١٥٦ ٠

٢٩ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ٠

٣٠ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ٠

٣١ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ ، وانظر كذلك الآراء المتضاربة حول الرحلة فى العرض الشـيق الذى قـدمه كراتشكوفسكى عنها . صص : ١٥٧ ـ ١٥٩ .

٣٢ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ .

٣٣ ـ انظر : زكى محمد حسن ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٤٠١هـ) ، ص ١٧ .

٣٤ ـ حسين فوزى ، **حديث السندباد القديم** (بيروت : دار الكتاب اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) ، ص ١٣٤ .

والجانب الذى ناقشه فوزى فى كتابه وأشار فيه الى رحلة سـلام الترجمان هو : أسطورة الجارية التى خرجت من أذن السمكة ، حيث نقلها فوزى عن القزوينى فى كتابه : **عجائب المخلوقات**... حول نسبة هذه الرواية الى سلام ، انظر هامش ١٦ ، وعن رأى فوزى وتفسيره لأسطورة الجارية والسمكة راجع كتابه : حديث السندباد ... ص ١٣٥ .

٣٥ ـ زكى محمد حسن ، ص ١٥ ، ويلاحظ أن المؤلف يورد أسطورة السمكة والجارية وكذلك تفسير حسين فوزى لها ، صص : ١٧ ـ ١٨ . وهو يرى : أنه من المحتمل أن يكون سلام سمع من بعض العامة فى بلاد الخزر حديث السمكة فعلقت بذهنه ونسـبها الى مشاهداته الخاصة . ص ١٨ .

٣٦ ـ على محسن مال‌الله ، **أدب الرحلات عند العـرب فى المشرق** (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨م) ، ص ٣١ .

٣٧ ـ مال الله ، ص ٣٥ ، وقد أخطأ السيد مال الله فى تقديره لمدة الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها حيث قال : انها ثمانية عشر شهرا ، ناقلا ذلك من ابن خرداذبه ويبدو أنه لم يكن دقيقا فيما نقله ، انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

٣٨ ـ أحمد رمضان أحمد ، **الرحلة والرحالة المسلمون** (جـدة : دار البيان العربى ، د : ت) ، صص ٣٩ ـ ٤٠ ، فى الحقيقة ان الدكتور أحمد رمضان فى حديثه الوجيز عن رحلة سلام كان يردد ما جاء عند حسين فوزى وزكى حسن خاصة ما جاء عن أسطورة الجارية والسمكة وله رأى فى ذلك حيث قال : « على أننا نرى

غير ما ذهب اليه الأستاذان حسين فوزى وكذا الدكتور زكى ، من أن القصة خرافية [الجـارية والسـمكة] بل هى حقيقة ، فهناك أسماك تسمى عروس البحر تشبه الى حـد كبير الأنثى الآدمية وهى معروفة فى المتاحف ... » ص ٤٠ (!) .

٣٩ _ حسين محمد فهيم ، **أدب الرحـلات** ، سلسـلة عالم المعـرفة (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩هـ) صص : ٩٠ _ ٩١ .

٤٠ _ انظر : كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ .

المصادر والمراجع

- الأبشيهى، شهاب الدين بن محمد، **المستطرف فى كل فن مستظرف**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٩٨١م).

- أحمد ، رمضان أحمد **الرحلة والرحالة المسلمون** (جدة : دارالبيان العربى ، د : ت) .

- الادريسى ، أبو عبدالله محمد بن محمد ، **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ) .

- بالنيثا ، أنخل جنثالث ، **تاريخ الفكر الأندلسى** ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م) .

- البخارى ، محمد بن اسماعيل ، **صحيح البخارى** ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليمامة ، ١٤١٠هـ) .

- الترمذى ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، **سنن الترمذى** ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٨٩هـ) .

- الثعلبى ، أبو اسحاق أحمد بن محمد النيسابورى ، **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس** ، الطبعة الرابعة (بيروت (بيروت : دار الرائد العربى ، د : ت) .

- حسن ، زكى محمد ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٤٠١هـ) .

- حميدة ، عبد الرحمن ، **أعلام الجغرافيين العرب** ، الطبعةالثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ) .

- الحميرى ، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار فى خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م) .

- الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، **معجم البلدان** (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦هـ) .

- ابن حنبل ، أحمد ، **المسند** (القاهرة : مؤسسة قرطبة، د : ت).

- ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله ، **المسالك والممالك** ويليه نبذ من **كتاب الخراج** لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغداد ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن١٨٨٩م (بيروت : دار صادر،د:ت).

- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **المقـــدمة** ، (القاهرة : دار الشعب، د : ت) .

- الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، **حياة الحيوان الكبرى** ، ويليه **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٩٨هـ) .

- الرازى ، محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين ، **التفسير الكبير** ، الطبعة الأولى (القاهرة ، د : ت) .

- ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر ، **الأعلاق النفيسة** ، ويليه كتاب البلدان لليعقوبى ، نسخة مصـــورة عن طبعة ليـــدن ، ١٨٩٣م (بيروت : دار صادر ، د : ت) .

- السمعانى ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ، **الأنساب** ، تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعـــة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ)

- الطبرى ، محمد بن جرير **جامع البيان عن تأويل آى القـرآن** ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٧٣هـ) .

- **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة (القاهرة : دار المعارف ، د : ت) .

- الغرناطى ، أبو حامد الأندلسى الغرناطى ، محمد بن عبد الرحيم، **تحفة الألباب** ، نشرة غابريال فيران (باريس ، ١٩٢٥م) .

- ابن الفقيه ، أبو بكر ، أحمد بن محمد الهمذانى ، **مختصر كتاب البلدان** (ليدن : ١٣٠٢هـ).

- فوزى ، حسين ، **حديث السندباد القديم** (بيروت : دار الـكتاب اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) .

- فهيم ، حسين محمد ، أدب الرحـــلات ، سلسلة عالم المعـــرفة (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩هـ).

- القرطبى ، محمد بن أحمد الأنصارى ، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠هـ) .

- القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود ، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ) .

- **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** ، بذيل **حياة الحيوان الكبرى** للدميرى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الباب الحلبى ، ١٣٩٨ هـ) .

- كراتشكوفسكى ، اغناطيوس يوليانوفيتش ، **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨هـ) .

- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم وزملاؤه (بيروت : دار الكتب العلمية ، د : ت) .

- ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزوينى ، **سنن ابن ماجة** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : المكتبة العلمية ، د : ت).

- مال الله ، على محسن ، **أدب الرحلات عند العرب فى المشرق** (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨م) .

- مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيرى ، **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣هـ).

- المقدسى ، أبو عبدالله محمد بن أحمد البشارى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، تحقيق د. محمد مخزوم (بيروت : دار احياء التراث العربى ، ١٤٠٨هـ) .

- ابن النديم ، محمد بن اسحاق النديم الوراق ، **الفهرست** ، تحقيق رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : ذ ، دار المسيرة ، ١٩٨٨م) .

- النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الواحد ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** (القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢هـ) .

« الهجرات العربية وانتشار الاسلام فى بلاد شرق افريقية فى العصور الوسطى »

د٠ غيثان بن على بن جريس(*)

اثبتت الكشوف والبحوث التاريخية والأثرية وجود صلات قديمة ومستمرة ذات صبغة اقتصادية أو دينية بين شعوب شرق افريقية والعالم الخارجى ، وذلك منذ أقدم العصور التاريخية ٠ ومن بين البلاد التى كانت لها صلات بشعوب الساحل الشرقىلافريقية نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الصين والهند ومصر القديمة وبلاد الرافدين ٠ على أن العرب كانوا أهم تلك الشعوب التى اتصلت ببلاد الساحل الافريقى منذ القدم ، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، ونظام الرياح الموسمية الذى ساعد الملاحة فى بحر العرب وتوجيه السفن بحذاء الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية فى اتجاه الشاطىء الشرقى لافريقية(١) ومن الثابت أن العرب تقدموا فى فنون الملاحة منذ القدم على أيام دول معين وسبأ وحمير ٠ وكان للمعينيين بصفة خاصة نشاط بحرى واسع امتد الى بلاد بعيدة فى الشمال ، والخليج العربى فى الشرق ، وسواحل شرق افريقية ٠

وبعد معين تتابعت الدول فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية، فحملت دولة سبأ ثم دولة حمير لواء النشاط البحرى التجارى ؛ ونهضت هاتان الدولتان بدور كبير فى الوساطة التجارية بين شواطىء شرق افريقية من جهة والعالم الخارجى من جهة أخرى(٢) وتشير المصادر الى أنه فى العصر الحميرى الأول (١١٥ ق٠م – ٣٠٠م) ، نزحت جماعات من اليمن وحضرموت الى الساحل الأفريقى ، ووضعوا أساس الحضارة التى لم تلبث أن ازدهرت فى بلاد الحبشة ، وظلت

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ – كلية التربية – أبها – جامعة الملك سعود ٠

تغذيها هجرات عربية متعددة . ويرجع تأسيس دولة اكسوم الحبشية فى القرن الأول للميلاد الى هذه الجماعات العربية المهاجرة ، حتى غدت أكسوم نواة الدولة الحبشية فيما بعد . ولم يقتصر نفوذ العرب الجنوبيين على الحبشة ، بل توغلوا الى جنوب وادى النيل الأوسط(٣) .

وبخصوص علاقة بلاد العرب ببلاد شرق افريقية قبل الاسلام ، يمكن أن نجمل القول بأن هذه العلاقة أتخذت محورين ، الأول هو علاقة العرب ببلاد الحبشة ، والثانى ، هو اتصال العرب بشعوب أرض الزنج المطلة على المحيط الهندى(٤) أو بحر الهند .

أما عن اتصال العرب ببلاد الحبشة قبل الاسلام ، فتدل المعلومات التى أوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (اثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من افريقية غربا الى آسيا ، وهى المنطقة التى تسكنها عناصر من ذوى البشرة المحترقة أو السمراء أو الزيتونية اللون . أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهو اللفظ الذى صار فى اللغات الأجنبية (Abyssinia) فيرجع أصلها الى قبيلة عربية هى «حبشت» الساميه التى عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب ، واستقرت فى افريقية(٥) . ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد . والغالب أن الموطن الأصلى لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن قد حققت قدرا كبيرا من التقدم والعمران فى ظل ملوك سبأ ، فان هذه القبيلة لاشك كانت أرفع حضارة واسمى مدنية من أهل البلاد الأصليين على الساحل الافريقى ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت أن حققت لنفسها السيادة فى موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التى تميزت بها . غير أن أهل البلاد الأصليين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا الى سيادة هؤلاء الأغراب.ومع ذلك لم يكد يستهل القرن الرابع للميلاد حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التى استوطنتها ، وعلى أهل البلاد أنفسهم ، فغدا الجميع احباشا ، وأصبحت كلمة الحبشة ترادف أثيوبيا(٦) . أما الحدود القديمة لهذه المنطقة فكانت تمتد من النيل

غربا الى بحر القلزم شرقا ، ومن النوبة شمالا الى ما وراء خط الاستواء جنوبا . وبمعنى آخر فأن الحبشة أو اثيوبيا شملت فى ذلك الدور ما هو معروف حاليا باسم بلاد السودان والحبشة وارتيريا والصومال(٧) .

أما المحور الثانى فيدور حول علاقة العرب بالزنج . ومن المرجح أن بلاد الزنج كانت فى المصطلح العربى تشمل المنطقة الممتدة من رأس جوردافوى فى شمال الصومال الى رأس دلجادو فى موزمبيق أو سوفالا فى روديسيا . وبعبارة أدق فان هذه المنطقة تحتل مساحة كبيرة فى شرق افريقية ، وتمتد بين خطى عرض ٥ شمالا و ١٠ جنوبا . وكان العرب من أهم الأمم التى اتصلت بالزنج منذ القدم وابقاهم أثرا فى تلك البقعة، وذلك فى الفترة السابقة على ظهور الاســلام بقرون . ويبدو أن العامل الاقتصادى والسعى وراء الحاصلات والثروات الموسمية لنقلها الى العالم الخارجى ـ كما سبق القول ـ كان من أهم العوامل التى شجعت العربعلى ارتياد تلك البلاد . فلما ظهر الاسلام نشطت الدعوة الاسلامية فى بلاد شرق إفريقية ، وتعاقبت بعد ذلك الهجرات العربية والاسلامية التى كان لها الفضل الكبير فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى تلك البــلاد . وهكذا تعددت دوافع الهجرات العربية الى الحبشة وأرض الزنج ما بين دينية وسياسية ، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان بارزا فى جميع الأحيــان(٨) .

والواقع ان الدعوة للدين الاسلامى نشطت فى اثيوبيا منذ ظهور الاسلام . ويمكن أن يؤرخ لدخول الاسلام فى اثيوبيا بهجرة المســلمين الأولى.واظهار النجاشى ارماح (اصمحه) للاسلام . وبعد ذلك كثر توافد المسلمين لتحقيق مصالح تجارية بعد أن توحدت بلاد العرب ، وأضحى العرب المسلمون يتحكمون فى طــرق القوافل داخل الجــزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء . ولم يلبث أن أسهم المسلمون بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق بحر القلزم . وكان أن عبرت جماعات من تجار العرب الى بلاد الساحل الغربى لبحر القلزم ، بل ان بعضهم اجتاز الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج داخل بلاد الحبشة . كذلك استطاع العرب المسلمون بنشاطهم أن يتحكموا

فى ميناء عدوليس Adulis وهو ثغر الحبشة ، مما أدى الى حرمان الحبشة من استخدامه ، والى قطع صلاتها بالعالم الخارجى الا عن طريق العرب الذين فرضوا حصارا على تجارة الحبشة الخارجية ، حتى انتهى الأمر بالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية وتناقص عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة اكسوم(٩) ٠

وفى الوقت الذى أخذت مملكة اكسوم تسير فى طريق الانحطاط ، كان الاسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل الى الداخل ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء ارتيريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى ، كما انتشر فى جزء من قبيلة البلين وفى معظم قبائل البحر كالبنى عامر والهدندوة ٠ كذلك انتشر الاسلام بين كل القبائل المتفرقة المسماة «الجبرته» فى ارتيريا ، وفى قبيلة الدناقل (الدناكل) فى اثيوبيا والصومال ٠ وتكونت على أثر ذلك مراكز استقرار عربية اسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقية،امتدت من سواكن على الساحل الغربى لبحر القلزم الى مقديشو ومركه وبراوه (فى الصومال)، وممبسة ومالندى (فى كينيا حاليا) ، وزنجبار وكلوه (تنزانيا حاليا) على المحيط الهندى(١٠) ٠

أما فى داخل اثيوبيا فقد امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، وأخذ الاسلام ينتشر تدريجيا ، فاعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرق بلاد الحبشة ، كما امتد الى مناطق السيدامو وشوا الشرقية فى جنوب الحبشة(١١) ٠ ولقد ساعد فى سيطرة العرب المسلمين على تلك الجهات ، أنهم تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية فى بحر القلزم وبحر العرب ، ومن أهم تلك المناطق مجموعة جزر الدهلك التى استولى عليها المسلمون زمن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ٥٦ - ٩٩هـ ٧١٥ - ٧١٨م) ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكيارى ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة كبرى جزر هذه المجموعة(١٢) ٠ كذلك تمكن العرب من احتلال جزر مافيا ويمبا وزنجبار فى المحيط الهندى(١٣) ٠ ومن المناطق الهامة التى استقر فيها

العرب ، ونشروا فيها الاسلام ، منطقة البجه على الساحل الغربى لبحر القلزم . ومن البجه الذين اعتنقوا الاسلام وتحمسوا له قبيلة بنى عامر وقبيلة الهدندوة والبشاريين والأمرار . وقد كثر المسلمون فى بلادهم بسبب غنى منطقة البجه بمعادن الذهب والزمرد والفضه والنحاس والرصاص والحديد .وامتزج العرب بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجه فى الاسلام . وهكذا تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين فى منطقة المعادن بالبجه . وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، الا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين(١٤) .

وفى داخل الحبشة ، تأسست مملكة اسلامية ، عرفت باسم شوا ، نسبة الى المنطقة التى سادت فيها وهى شوا الشرقية . وقد أشارت المصادر الى أن تلك المملكة قامت فى نهاية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) ٢٨٢هـ = ٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية تنتسب الى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب اليها خالد بن الوليد . ويقال أن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب برئاسة ود بن هشام لتستقر هناك فى منطقة من أخصب مناطقها وهى منطقة شوا(١٥) . كذلك قامت فى الحبشة مشيخات اسلامية أخرى فى مناطق عدال (Adal) وموروا (Mora) وهويات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) . غير أن هذه الوحدات جميعا لم تعمر طويلا نظرا للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلا عن أن جهودها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، لذا سرعان ما طوتها أقوى الامارات الاسلامية فى الوطن الحبشى وهى امارة أوفات(١٦) .

وتقع الفترة البارزة فى التوسع الاسلامى فى اثيوبيا بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثانى عشر الميلاديين) وتمثل هذه الفترة عصر التوسع الهادىء المنظم للاسلام دينا ودولة ، سواء من ناحية نشر العقيدة الاسلامية ، أو دعم سلطان الممالك الاسلامية ، ولو على

حساب بعضها البعض داخل الحبشـــة • وفى تلك الفترة دخلت منطقة نهر جوبا فى الاسلام حوالى عام ١١٠٨م ، وبذلك امتد نفوذ العرب حتى منطقة البحيرات العظمى(١٧) •

وهكذا امتدت الرقعة الاسلامية داخل الحبشة ، امتدادا واسعا . فأصبحت تحيط بالحبشـــة من الناحية الشرقية فى افريقية ، وتواجه اليمن فى الجزيرة العربية • لذلك وصف المؤرخون تلك المنطقة باقليم الطراز الاسلامى « لأنها على جانب البحر كالطراز له »(١٨)• واشتهرت فى منطقة الطراز الاسلامى سبع ممالك هى : أوفات ، دوارو ، أرابينى ، هديه ، شرخا ، بالى ، وداره(١٩)• وارتبطت هذه الممالك الاسلامية بالعالم الاسلامى الخارجى ، وتوطـــدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم والاتصال بالفقهاء فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية • وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة اسلامية قامت فى اثيوبيا بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قـــوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب • وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركةالجهاد ضد الحبشةالمسيحية(٢٠)•ويمكن القول أن الرقعة الاســلامية فى الحبشة فاقت فى مساحتها أراضى مملــكة الحبشــة المسيحية ، الأمر الذى أدى الى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ، ولا سيما بعد استيلاء العرب على ميناء عدل قرب مصوع (فى ارتيريا حاليا) ، وهو مخرج اثيوبيا الوحيد الى بحر القلزم أو البحر الأحمر ، مما أدى الى تدهور أحوال الحبشة(٢١) ، كما سبق أن أوضحنا •

أما عن أهم العوامل التى أدت الى انتشار الاســـلام فى اثيوبيا ، فالمعروف أن اثيوبيا تواجه جزيرة العــــرب ولا يفصل بينهما الا البحر الأحمر • والملاحة فى البحر الأحمر سـهلة طـــول العام ، فلا تهب به زوابع وأعاصير الا بضعة أيام فى السنة ولا تستمر هذه الرياح طويلا • يضاف الى ذلك ظروف الحياة القاسـية فى جزيرة العـــرب ، فهى بلد صحراوى اعتمد أهلها على الرعى ونقل التجارة ، بينما كانت الحياة

على الساحل الغربى انعم وأهدأ لخصب الأرض وكثرة المطر واشتغال عدد كبير من السكان بالزراعة(٢٢) . وكانت اثيوبيا منذ القدم المهجر الطبيعى لسكان الجزيرة العربية . يضاف الى هذه العوامل عامل آخر وهو كثرة الحروب فى الجزيرة العربية مما دفع بالمغلوبين الى الهجرة حيث الامان والحرية . وكانت اثيوبيا أحد الأسواق الهامة التى يقصدها العرب لحمل التجارة منها واليها ، فازدحم البحر الأحمر بالسفن التى تنقل تجارة اثيوبيا الى المراكز العربية التجارية ، وكانت اليمن أهمها، ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية الى الشـــام والعراق وفارس والهند . وبفضل هجرة المسلمين الى الحبشـــة زمن الرسول (ﷺ) ، استمرت العلاقات التجارية قائمة ومستمرة بين اثيوبيا وجزيرة العرب، اذ حمل المهاجرون والتجار الجدد اسلامهم معهم ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى اثيوبيا ويتغلغل صحبة هؤلاء التجار . ثم تقدمت الحضارة وازدهرت فى الدولة الاسلامية تحت حكم الأمويين فالعباسيين ، فنشطت الحركة التجارية ، ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها ، والذين توغلوا فى الداخل فى طلب الحاصلات الافريقية ، فازداد عدد العرب المسلمين . وثمة عامل هام أدى الى انتشــار الاســلام فى اثيوبيا ، وظهور الامارات الاسلامية فيها ، هو أن الأحـــداث المتتالية التى تعرضت لها الدولة ، سواء أكانت أحداثا سياسية أو اقتصادية دعت كثيرين الى الهجرة . وأول تلك الأحـــداث التى تعرضـــت لها الدولة الاسلامية فى فجر تاريخها هى حركة الردة . وكان اليمنيون والحضارمة أول هؤلاء المهاجرين الى اثيوبيا نتيجة لحروب الردة وقد حمل هؤلاء اسلامهم معهم ولم يرتدوا عنه . وفى أيام الأمويين هاجــرت جماعات عربية كبيرة الى ساحل شرق افريقية،أهمها جماعة الزيدية ــ التى سيرد تفصيلها ــ الأمر الذى جعل الأمويين يستولون على جزر الدهلك لمراقبة الجماعات العربية التى قصدت اثيــوبيا وغيرها فـــرارا من بطش بنى أمية(٢٣) . ولما حل العباسيون محل الأمويين فى الخـلافة والحكم ، هاجر الأخيرون واتباعهم الى مناطق مختلفة ، بعضهم الى شرق افريقية، فأستقرت جماعات منهم فى بلاد النوبة ، وواصل بعضهم السير الى أعالى النيل ، وذهب آخرون الى مصـــوع ، واستقر اخـــوان لهم فى اثيوبيا والصومال(٢٤) . وأدت الفتن التى انتشرت خـــلال حـــكم العباسيين

كالصراع بين الأمين والمأمون والنزاع بين الشيعة والعباسيين من جهة ، والعباسيين والخوارج من جهة أخرى ، الى هجرة بعض القبائل العربية الى اثيوبيا حيث الأمن والاستقرار بالاضافة الى الخصب ووفرة الموارد . وقد نمت العلاقات بين مسلمى الحبشة والعواصم الاسلامية الكبرى فى ذلك الوقت . وأخذ مسلمو الحبشة يبعثون أبناءهم الى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها لطلب العلم على أيدى كبار الفقهاء المعاصرين. وساعد على انتشار الاسلام فى اثيوبيا فى بعض المناطق عدة عوامل، منها انسحاب الاثيوبيين المسيحيين الى الداخل وتخليهم عن بعض المناطق الساحلية الصحراوية الجافة الحارة ليحتلها المسلمون . وهكذا انتشر الاسلام عن رضى وعقيدة واقتناع ، ولمس كثيرون فى الاسلام المساواة والحرية ، فضلا عن أن الاسلام شكل لهم خلاصا من الرق ودرعا يحميهم من الوقوع فى أيدى تجار الرقيق . ويفسر ذلك وقوف كثيرين من أهالى البلاد بجانب العرب دعاة للدعوة الاسلامية وحملة للواء الثقافة الاسلامية(٢٥) .

أما الجزء المعروف بأرتيريا والصومال فالراجح أنه عرف الاسلام فى حياة الرسول (ﷺ) اذ أشارت بعض الروايات الى أن جعفر بن أبى طالب حينما خرج مهاجرا أسس فى طريقه مراكز للدعوة فى ارتيريا والصومال ، بمساعدة القبائل العربية المستوطنة هناك . ولم يلبث أن صار الصوماليون من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الاسلامية بل ان الصومال غدا بلدا اسلاميا منذ فجر الاسلام ، وبداية انتشاره(٢٦) ومنذ ذلك الحين ، ومع ازدياد قوة العرب المسلمين وتفوقهم البحرى ، وسيطرتهم على الملاحة فى بحرى العرب والهند ، توافدت على ساحل الزنج الافريقى مجموعات ضخمة من دعاة المسلمين العرب ، فأنشأوا المراكز العربية للتجارة ونشر الدعوة . ومن أهم هذه المراكز مقديشو وممبسة وبراوة ومركه ومالندى وكلوه وزنجبار . وكانت الهجرات العربية التى حدثت أيام الفتنة الكبرى وفى اعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان وخلافة على بن أبى طالب من أهم الهجرات العربية التى استقرت على ساحل شرق افريقية . والراجح أن المهاجرين فى تلك المرحلة كان معظمهم من الخوارج الذين هزمهم على بن أبى طالب فى موقعة

النهروان . وفى أيام دولة بنى أمية هاجرت جماعات عربية من بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، وأسسوا لهم دولة صغيرة بالقرب من لامو (فى الصومال) . وكانت تلك انهجرة فى خلافة عبد الملك بن مروان . وهكذا يبدو ان معظم الهجرات العـــربية الى افريقية فى تلك المرحلة جاءت نتيجة للاضطرابات التى سادت البلاد الاسلامية وخاصه بسبب خروج عبد الله بن الزبير،وحركة الخوارج،وحركة عبدالرحمن بن الاشعث الملقب بأسد الفرات . وقد أرسل عبد الملك بن مروان فى اعقاب تلك الهجرات الى شرق افريقية فرقة عربية يقودها أخوه حمزة . وقد نجحت تلك الفرقة فى تأسيس مدن تطورت وأصبحت امارات عـــربية هامة مثل بيت ومالندى وممبسة وزنجبار ، وقامت بدور كبير فى نشر الاسـلام بين القبــائل الافريقية التى كان من أهمها البــانتو والزولو والبوشمن(٢٧) .

كذلك نسمع فى زمن عبــد الملك بن مـــروان (٦٥هـ - ٨٥هـ) (٦٨٥ - ٧٠٥م) عن هجرة سليمان وسعيد الجلندى ، وهما شــيخان عربيان من عمان من العبادية من قبيلة الأزد وهما من شــيوخ العـرب الذين ثاروا فى وجه الخليفة عبد الملك . وقد وصل هؤلاء المهاجرون الى أرخبيل لامو (على ساحل الصومالى) الذى يتمتع بخصائص هامة،منها خصوبة الأرض ، وصلاحية مينائه العظيم للرسـو والاقــلاع ، بجانب الوفرة فى منتجات تلك البلاد المتمثلة فى العاج والذهب والصوف والجلد والتوابل والأخشاب ، بالاضافة الى عنصر الرقيق(٢٨) . ولم نلبث أن أصبحت منطقة أرخبيل لامو من أهم مناطق الدعوة الاسلامية على طول الســاحل الافريقى ، ومن ثم الى الداخــل فى كينيــا وأوغنـــده وتنجانيقا(٢٩) .

ومن الهجرات العربيةالهامة التى ساعدت على نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى أرض الزنج الاسلامية على الساحل الأفريقى الشرقى، هجرة العرب الزيدية التى حدثت فى آواخر أيام الدولة الأموية ، زمن هشام بن عبــد الملك بن مروان . وهؤلاء الزيدية هم أتبــاع زيد بن على زين العابدين الذى تصدت له جيوش الأمويين زمن خلافة هشام بن عبد الملك

١٠٥ ـ ١٢٥هـ (٧٢٤ ـ ٧٤٣م) ، حتى انتهى الأمر بمقتله عام (١٢٢هـ)، وفرار أتباعه الى جهات كثيرة من أهمها ساحل شرق افريقية • وبوصول هذه الجماعة الى مقديشو ، تمكنوا من بسط نفوذهم على منطقة بنادر ثم كونوا لهم دوله عاشت على الساحل اكثر من مائتى سنة • وكانت لهم جهود كبيرة فى نشر الاسلام وزراعة الأراضى بعد أن استفادوا فائدة كبيرة من مياه نهرى جوبا وشبيلى • على أن الظروف اضطرتهم بعد ذلك الى الانسحاب من الساحل الى الداخل بسبب مجىء هجرة عربية أخرى ، ـ هى هجرة الاخوة السبعة ـ من ساحل الاحساء ، فرارا من أعمال القرامطة الوحشية فى الجزيرة العربية ،فجاء الاخوة السبعة الى ساحل افريقية الشرقى ـ وهم شافعية المذهب ـ فاصطدموا عام ٩١٣م بجماعة الزيدية الشيعة الذين حلت بهم الهزيمة وانسحبوا الى الداخل الافريقى، حيث رحبت بهم جماعات افريقية فى داخل الصومال وكينيا ، هى جماعات قبائل الجالا التى اعتنقت الاسلام على أيديهم(٣٠) •

وقد حدثت هجرة الأخوة السبعة فى خلال العصر العباسى الثانى، وهى من الهجرات العربية الهامة الى ساحل شرق افريقية • وكانت بداية حركتهم فى مستهل القرن التاسع فى حوالى عام ٣٠١هـ (٩١٣م) من الاحساء عاصمة دولة القرامطة ، الذين نشروا الرعب فى انحاء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق • وتمكن الأخوة السبعة فى فترة وجيزة من الاستيلاء على معظم أجزاء الساحل ، وعلى الأخص ساحل بنادر الذى يشمل معظم بلاد الصومال المطلة على بحر الهند • وامتد نفوذ هذه الجماعة العربية الى جنوبى ممبسة ، كما وصلوا الى جزيرة مدغشقر • ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ساحل الصومال شافعيا على المذهب السنى(٣١)• وهكذا تمكن الأخوة السبعة من تكوين دولة قوية عاصمتها مقديشو استمرت من عام ٩١٣ ـ الى عام ٩٧٥م ، عندما وصلت جماعة اسلامية أخرى قضت على تلك الدولة • وكانت الجماعة الجديدة فارسية، كونت لها دولة استمرت منذ ذلك التاريخ حتى ظهور البرتغاليين على الساحل الافريقى فى عام ١٤٩٧م(٣٢) •



ومن خلال هذا العرض السريع لموجات الهجرات العربية المتلاحقة فى اثيوبيا وارض الزنج يمكن أن نقول أن الاسلام واللغة العربية ، قد حققا نجاحا كبيرا فى تلك البلاد ، الامر الذى أدى الى تقدمها وتطورها تحت مظلة الاسلام . هذا الى أن الاسلام أدى الى تهذيب عادات السكان وطور احوالهم . وظلت المدن والمراكز والامارات التى أمها أو أسسها المسلمون فى شرقى افريقية طوال قرون عديدة مراكز نشاط ومدنية ، وقواعد لنشر الثقافة الاسلامية بين القبائل الافريقية على الساحل وفى داخلية البلاد . وقد تطورت هذه المدن والمراكز الاسلامية بفضل نشاط العلماء والفقهاء الذين وفدوا اليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية . وأدى هذا كله الى تجاوز شهرة بعض هذه المدن الاسلامية الزاهرة حدود الساحل الافريقى أمثال : زيلع ومقديشو وبراوه ومركه ولامو وممبسه ومالندى وكلوه وسوفالا . يضاف الى ذلك جزر زنجبار وبميا ومافيا، التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية ، وغلبت عليها الصبغة العربية طوال فترة العصور الوسطى . ذلك أن العرب فى تلك البلاد أسهموا بالآداب فى اشاعة جو حضارى ظهرت آثاره فى بقية المجتمعات التى تعيش على هذا الساحل الافريقى فضلا عن داخلية البلاد . وقد ظلت الحضارة الاسلامية قائمة حتى ولى نفوذ العرب السياسى بمجىء البرتغاليين الى الساحل الافريقى فى ختام القرن الخامس عشر للميلاد (٣٣) .

ولابد من القول أن أعلام المسلمين فى أثيوبيا وبلاد ساحل الزنج، فكروا بالعقلية العربية الاسلامية ، وكتبوا باللغة العربية ، وهم فى انتاجهم ونشاطهم انما يعبرون عن حضارة عربية واسلامية . ولا غرابة فى ذلك وهم الذين نبتوا فى ظل الاسلام وتعاليمه (٣٤) .

وقد قامت المدن التى أسسها العرب المهاجرون على الساحل الافريقى بجهود مضنية فى نشر الاسلام بين قبائل الدناقل والجالا والبانتو الوثنية . ووجدت اللغة العربية فى تلك البلاد تربة خصبة للانتشار ، وظلت كذلك حتى عصر الاستعمار البرتغالى . وعندما وصل فاسكو داجاما الى الساحل الافريقى الشرقى عام ١٤٩٧م ، وجد معظم أهل هذه

البلاد يتكلم اللغة العربية ، كما وجد القرآن الكريم شريعتهم . ورأى البريطانيون والاوربيون عددا كبيرا من المدارس التى تلقن القرآن الكريم واللغة العربية فى مقديشو وممبسه وكلوه وريلع . كذلك وجد البريطانيون ومن اعقبهم من المستعمرين الاوربيين ، جماعات من القبائل الافريقية تتقن اللغة العربية ، وتعنى بانشــاء المكاتب والمدارس الخاصة لتعليم القرآن الكريم ولغته . ورغم الجهود التى بذلها الاوروبيون للقضاء على اللغة العربية فى تلك الجهات ، وتحويل أنظــار الافريقيين عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة وبغـداد وغيرها من عواصـم العالم الاسلامى الكبرى ، فانهم فشلوا فشلا ذريعا ، اذ كان المســلمون والمستعربون من الافريقيين يعمدون الى انشــاء مدارسـهم ومؤسساتهم الثقافية فى المناطق الوثنية النائية وبخاصة فى زنجبار وكينيا وتنزانيا . ولا تزال الى اليوم الاف الكلمات العربية تستعمل فى بلاد شرق افريقية فى شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفى الحــرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية ، حتى أسماء بعض النباتات والمدن والحيوان والاعلام(٣٥) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم الاسلامية فى شرق افريقية بعهود الامارات الافريقية الاسلامية ، فقد غدت اللغة العربية ، اللغــة الرسمية السائدة ، التى استخدمت فى شتى الأغراض ، كما استخدمت فى مجال الحكم والادارة والقضاء . ويكفى أنها غدت لغة المكاتبات الرسمية المتبادلة مع العالم الاسلامى الخارجى. ووجدت فى ديوان الانشاء بمصر زمن سلاطين المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة حكام تلك البــلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها . كذلك كانت اللغة العربية هى السائدة فى تسجيل شواهد القبور ، وقد عثر على عــدد كبير منها فى المقابر فى مقديشو ولامو وبراوة(٣٦) . وهكذا غدا القلم العربى هو القلم المعروف فى بلاد الساحل الافريقى دون غيره وذلك قبل ظهور الاستعمار . كما صار الدين الاسلامى أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية(٣٧) .

ولا يفوتنا أن نشــير الى أن الازدهار والرخاء التجارى كانا من العوامل الأساسية التى ساعدت على قيام نهضة علمية وثقافية اسلامية

شامخة . وكان أن كثرت الخلاوى وانتشرت على طول الساحل ، وعقدت فيها حلقات الدرس . هذا ولم تقتصر العلوم الدينية على الرجال ، وانما امتدت لتشمل النساء أيضا ، فقد نلن حظهن من تعلم القــرآن الكريم والعلوم الدينية واللغة العربية(٣٨) .

وبعد ، فانه يتضح من هذا العرض السريع ، أن دور العــرب كان بارزا فى كافة أوجه الحياة العامة فى بلاد شرق افريقية حتى أصبحت هذه البلاد اسلامية خالصة .



الهوامـــش

(١) للمزيد من التفصيلات أنظر ، جورج فاضلو حورانى • **العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة** • (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٣١ ، ٣٤ ـ ٣٥ ،

R.Reusch. **History of East Africa** (New York 1961) PP.11ff.
R.Coupland. **East Africa and its Invaders,** (Oxford 1938) P.P. 15-18.

(٢) أرض الزنج ممتدة من رأس جوردافوى شمالا جنوبى باب المندب بقليـل ، على مقربة من الصومال الشمالى التى عرفها المؤرخون والجغرافيون فى العصور الوسطى بأسم بلاد بونت Paunt ، وتمتد أرض الزنج هذه الى بلاد سوفالا فى موزمبيق أو روديسيا •••• وبونت Paunt أو بنـــت Punt ، مشتقة من أصول سامية تعنى أرض الجنوب الأقصى ، ويعتقد أن سكان بونت كانوا ينتشرون حتى رأس حافون بالقرب من سوفالا فى أقصى جنوب شرق أفريقية (روديسياحاليا) • وقد أشار المسعودى الى هذه المنطقة ببلاد جفونى • أنظر أبو الحسن على بن الحسين المسعودى : **مروج الذهب ومعادن الجوهر** • (القاهـــرة ، ١٣٨٤هـ/١٩١٤م) جـ١ ، ص ١٠٧ ؛ حمدى السيد - الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ٣٦ ،
Reusch, Ibid, pp.11 ff.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى • **معجم البـــلدان** (بيروت ، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) حـ٣ ، ص ٣٤٣ وما بعدها ؛ عبد المجيـد عابدين : **بين الحبشـــة والعرب** • (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٤ ، أحمد فخرى : **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، جواد على • **المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام** (بغداد ، ١٩٧٧م)جـ١ ، ص ٤٤ ـ ٤٦ ؛ غيثان على جريس • « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الاسلام » **مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية** (العدد الثامن ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ٤١٢ وما بعدها •

(٤) حسن ابراهيم حسن : **انتشار الاسلام فى القارة الافريقية** • (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦ ـ ٢٧ ،

C.N.Stigand. **The Land of Zing** (London, 1913) pp.29 ff. See also, Coupland, Op. Cit., pp.18 ff & Reusch pp.11-12, 13-14; A. Alwi Haji Hassan. "The Arabian Commercial Background in Pre Islamic time" **Islamic Culture** Vol. LXI-No-2 (1987) pp.78 ff.

(٥) ورد فى بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان ابن حام بن نوح · انظر معلومات أكثر فى ، جلال الدين السيوطى : **أزهار العروس فى أخبار الحبوش** . مخطوط ، ومصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم(٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ؛ عبد الرحمن بن الجوزى ، **تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش** · مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفلم رقم (٢٩) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ؛ الشاطر بوصيلى عبد الجليل : **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٧ ، الجفنى القنانى : **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة) ، عبد الحميد العبادى : « أحابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا » **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة** (١٩٣٣م) جـ١ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ؛ غيثان على جريس · **بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية** · تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) جـ١ ، ص ١١ وما بعدها ·

Patricia Crone. **Meccan Trade and the Rise of Islam** (Oxford, 1987) pp. 124 ff.

(٦) المسعودى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨١ ، الشاطر بوصيلى ، المرجع السابق ، ص ٧ وما بعدها ، يوسف فضل حسن : **دراسات فى تاريخ السودان** (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ١ ، ص ٣ وما بعدها ، السر أحمد العراقى · « الاسلام ومراكز الثقافة الاسلامية فى أثيوبيا والصومال » **ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم فى الحضارة الاسلامية** · الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو / تموز (١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٦٤ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين ، **المرجع السابق**، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ ،

Sir E.A.W. Budge: **A History of Ethiopia & Abyssinia**. Vol.1,pp. 120.

(٧) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا (١٩٠٢) بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربى وحدودها الشمالية الشرقية ارتيريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب افريقية الشرقية البريطانية ·

See, Budge, Op.Cit, pp.122 ff; J.S.
Trimingham. **Islam in Ethiopia** (London, 1962) pp.6-7.

(٨) حمدى السيد ، **المرجع السابق** ، ص ٣٦ ، جورج حورانى ، **المرجع السابق**، ص ٣١ وما بعدها ، مصطفى محمد مسعد · **الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٥ وما بعدها ، السر أحمد العراقى « أرض الزنج الاسلامية فى العصور الوسطى » **مجلة كلية الآداب بجامعة أم درمان الاسلامية** (العدد (٢) ،

١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ص ١٥٩ وما بعدها غيثان على جريس : العـــرب فى مقديشـــو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الاسلام » مجـــلة المؤرخ العـــربى (القاهرة ، ١٩٩٣م) العدد الأول ، ص ١٢٩ وما بعدها ٠

Stigand, Op.Cit, pp. 29 ff; Reusch, Op.Cit, pp.11ff.

(٩) الشاطر بوصيلى ، المرجع السابق ، ص ٩ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين، المرجع السابق ، ص ١٦ ـ ١٧ ، مصطفى مسعد ، المرجع السابق ، ص ١٦ ومابعدها انظر كذلك :

H.R. Hall.**The Ancient History of the Near East** (London,1954) p.246; **Encyc., of Islam, Art.** "Abyssinia". p.99.

(١٠) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال الى الجنوب وآخرها سوفالا فى أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفى جنوبى نهـر زمبيزى ٠ وللمزيد من التفصيلات انظر : يوسف فضل « انتشار الاسلام فى سودان وادى النيل » **ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة الاسلامية (الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليـــو / تموز ١٩٨٣م)** (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٢٥ وما بعدها ، السر العراقى ٠ « الاسلام ومركز الثقافة » ص ١٥٩ ،

Coupland, Op.Cit, pp.22-25.

(١١) أنظر ، المسعودى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، السر العراقى « أرض الزنج الاسلامية ٠٠٠ » ص ١٥٨ وما بعدها ،

Stigand, Op.Cit,pp.30 ff; Trimingham, Op.Cit, pp.51-60.

(١٢) وللمزيد من التفصيلات ، الحفنى القنائى ، المصدر الســـابق ، ص ٩ وما بعدها ، المقريزى : **الالمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام** (القاهرة ، د٠ت) ص ٢٢ ـ ٢٣ ، عبد الشافى غنيم عبد القادر « البحر الأحمر طريقا للدعوة الاسلامية» **البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ابحاث الأسبوع العلمى ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩م** (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها ٠

(١٣) انظر محمد حبيب : **كتاب المنمق فى اخبار قريش** ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق ، (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص ٣١ وما بعدها ، غيثان على جريس «العرب فى مقديشو ٠٠٠ » ص ١٢٨ وما بعدها

Reusch, Ibid, PP.153ff; J.S. Trimingham. **Islam in East Africa** (London, 1964) PP.18-19; Enricu Ceruli. **Encyc. of Islam, Art.** "Makadishu". Vol. III, P. 165.

(١٤) للمزيد من التفصيلات أنظر محمد بن جرير الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (بيروت ، د٠ت) جـ ٢ ، ص ٥٩٨ وما بعـــدها ، عبد الرحمن بن عبد الحكم ٠**كتاب فتوح مصر وأخبارها** (ليدن ، ١٩٢٠م) ص ١٧٣ ـ ١٧٤ . ١٨٨ ، أحمد البلاذرى : **فتوح البلدان** ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة، د٠ت) ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، عبد الرحمن بن خلدون : **تاريخ بن خلدون** (بيروت ، د٠ت) جـ٢ ، ص ٨٤ ـ ٩٠ ، ١١٤ ـ ١١٥ ، المسعودى ٠ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٨٩، أبو العباس أحمد القلقشندى : **صبح الأعشى فى صـــناعة الانشــــاء** (القـــاهرة ، ١٩٠٦م) جـ ٥ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ٠

(١٥) حمدى السيد ، **المرجع الســابق** ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، عبد الرحمن زكى : **الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية** (القاهرة ، ١٩٦٥م) جـ ١ ، ص ٧٧ ، انظر كذلك:

Trimingham, **Islam in Ethiopia** pp. 50-51.

(١٦) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٥ ص ٣٢٤ ، السر أحمد العراقى ، « الاسلام ومراكز الثقافة ٠٠٠ » ص ١٥٨ وما بعدها ، غيثان على جريس ٠ **بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية** ، جـ١ ، ص ١١ وما بعدها ، ٢٦٠ ومابعدها ٠

Trimingham, Ibid, PP.62-3.

(١٧) Trimingham, Ibid, PP. 62-3.

(١٨) القلقشندى ، **المصدر السابق** ، جـ٥ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، عبد الرحمـــن زكى ، **المرجع السابق** ، ص ٧٧ وما بعدها ٠

(١٩) انظر ابن فضل الله العمرى : **مسالك الابصار فى ممالك الامصار** (القاهرة، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) جـ١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ٠

(٢٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ابن بطوطة ٠ **تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار** (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) جـ٢ ، ص٧٣ ـ ٧٤ ٠

(٢١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها ، انظر أيضا ٠

Budge, Op. Cit, pp. 273-4; Trimingham, **Islam in Ethiopia**, PP.47-8.

(٢٢) أنظر ،

Trimingham, , **Islam in Ethiopia**, PP. 33-43; Budge, PP. 140 190-191.

(٢٣) المسعودى ، **المصدر السابق** ، جـ١ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، **المقريزى** ، **الالمام من بارض الحبشة** ، ص ٢٢ ، الحفنى القنائى ، الجواهر الحسان ، ص ١٥ ـ ١٦ ٠

Trimingham, **Islam in Ethiopia**, PP.51-60.

(٢٤) الحفنى القنائى ، **الجواهر الحسان** ، ص ١٥ وما بعدها ، أنظر كذلك ، المقريزى ، الخطط (طبعة القاهرة ، د٠ت) ص ١٩٤ — ١٩٥ ، المسعودى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٨٩ ، **صبح الأعشى** ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ٠

(٢٥) وللمزيد من التفصيلات أنظر ، توماس آرنولد ٠ **الدعوة الى الاسلام** ٠ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧ ، عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٧ ومابعدها ٠

Encyc. of Islam. Art "Makadishu" PP. 165-166.

(٢٦) أنظر ، راشد البراوى : **الصومال الكبير حقيقة وهدف** (القاهرة،١٩٦١م) ص ١٠ ، ١٠ — ٢٠ ، توماس آرنولد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٨٧ ومابعدها ، أنظر أيضا ، سيد أمير على : **مختصر تاريخ العرب** (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ — ٢٦٦٠ غيثان على جريس العرب فى مقديشو ٠٠٠ ، ص ١٢٨ ومابعدها ٠

(٢٧) المصادر نفسها ٠

(٢٨) وللمزيد من التوضيحات أنظر :

Marsh & Kingsnorth :-An Introduction to the History of East Africa (London, 1966) PP.7-8; M.L. Dames & Hakyut The Book of Daurte Barbosa (London, 1918) Vol.3 (1) PP.6-10.

(٢٩) للوقوف على تفصيلات أكثر أبو عثمان الجاحظ : **التبصر بالتجارة** ٠ تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٢٤ وما بعدها ؛ شمس الدين المقدسى ٠ **أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم** (لبدن ، ١٨٧٧م) ، ص ٧٩ وما بعدها ، أنظر أيضا ، **Reusch, Hist. of East Africa, PP.153 ff.**

(٣٠) قبائل الجالا من أكبر القبائل فى الصومال فى الوقت الحاضر ، أنظر ٠ حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠ ، كذلك أنظر : —

Trimingham, Islam in East Africa, PP. 4-5.

(٣١) سيد أمير على ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦١ — ٢٦٦ ٠

(٣٢) المقصود بتلك الدولة الاسلامية التى استمرت فى الازدهار حتى مجىء البرتغاليين للساحل عام (١٩٤٧م) هى امبراطورية الزنج الاسلامية التى تعرف فى المصادر أيضا بأسم سلطنة كلوة الاسلامية التى أسسها الشيرازيون بزعامة على ابن حسن الشيرازى عام (٩٧٥م) فى كلوة (تنزانيا حاليا) ٠

(٣٣)
Freeman & Grenville. **The East Africa Coast** (Clarendon-Press, 1962(PP.36-7.

(٣٤) حسن ابراهيم حسن · **انتشار الاسلام فى القارة الافريقية** ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ . صلاح العقاد · زنجبار (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١ – ٢٢ ، أنظر أيضا : –
Reusch, Op.Cit, PP. 219-220.

(٣٥) توماس آرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٤٩ · كذلك انظر : –
Duffy James. **Portuguese Africa** (London, 1961), PP. 31-34; M.L.Dames. **The Voyage of Pedro al-Vares Cabral To Brazil and India.** (London, 1938). PP. 78ff; R.Sidney & P.D.J.P. Welch. **Portuguese Rule and Spanish Crown in South 'Africa 1581-1641.** (Cape Town and Johannsburge, 1950) PP.1681 ff.

(٣٦) حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ ·

(٣٧) حسن ابراهيم حسن · المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، حمدى السيد ، المرجع نفسه ٣٤٦ ·

(٣٨) شهاب الدين عرب فقيه : **فتوح الحبشة (تحفة الزمان)** ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية (رينيه باسيه ، حققه فهيم محمد شتلوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص ٧٥ وما بعدها · حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ الى ٣٥٣ · انظر كذلك ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى : **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (القاهرة ، ١٣٥٣هـ) جـ١ ، ص ٢٣٢ ، وانظر ايضا ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : **المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى** ، تحقيق أحمد نجاتى (القاهرة ، ١٩٥٦م) جـ١ ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى، **المصدر السابق** ، ص ١٨٣ – ١٨٥ · المقريزى ، **الالمام** ، ص ٩ · محمد بن على الشوكانى · **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** (القاهرة ، ١٣٨٤ هـ) جـ٢ ، ص ٤٠٢ ، عبد القادر شيخ عبد الله · **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقديشو، ١٩٧٨م) ص ٢١ – ٢٢ ·

بعض أضواء على مدينة الاشمونين
فى العصر الفاطمى

د٠ عبد الحميد حسين حمودة(*)

١ ـ الموقع الجغرافى :

تقع مدينة الأشمونين على الضفة الغربية لنهر النيل ، بالصعيد الأوسط(١) وهى من الأقسام الادارية القديمة منذ عهد الفراعنة ، وعرفت باسم اونو وقاعدته فمونو الأشمونين»٠ ولها عدة أسماء قديمة ، من جملتها اسمها الدينى Hat Khmoumou ، اذ كانت هذه المدينة المركز الرئيسى لديانة الاله توت المسمى خمنو ، ومن اسم هذا الاله سميت المدينة بالقبطى Chmnon ومنه اشتقت اسمها القديم شمون(٢) أو أشمون ٠

على أنه يوجد فى بعض البرديات القديمة اسمان لمدينتين قديمتين تحملان اسم أشمون ، أحداهما أشمون الأولى وتقع على النيل ، وقد هجرها أهلها عند قدوم حملة قمبيز الفارسى لغزو مصر والتجأوا الى المدينة الثانية التى اقاموها على مقربة منها ، وقد اطلق البطالمة على

(*) مدرس التاريخ الاسلامى بكلية التربية ـ الفيوم ـ جامعة القاهرة ٠

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ١١٥ ٠

ينقسم صعيد مصر الى ثلاثة اقسام ، القسم الأول : الصعيد الأسفل ويشمل الآ محافظات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، القسم الثانى الصعيد الأوسط ويشمل محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج ، والقسم الثالث الصعيد الأعلى ويشمل محافظتى قنا وأسوان ٠ محمود محمد الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠م ص ٧ ٠

(٢) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٨م ص ١٧ صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ١٠٦ ٠

المدينة الأولى اسم كليوبتريس ، وكانت ميناء على النيـــل وتحمل الآن أسم الروضة وتبعد ستة كيلو مترات عن المدينة الأصلية(٣) ٠

وفى العصر الرومانى صارت أشمون قاعدة القسم الخامس عشـر بالوجه القبلى ، ثم سمت بالأشومنين بعد الفتح العربى لمصر(٤) ٠

وفى ذلك العصر الأخير،التحقت بالأشمونين منية ابن الخصيب(٥) انتى تنسب الى الخصيب (٦)بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد(٧) ٠

وقد أشار الادريسى(٨) الى منية ابن الخصيب بقوله « قرية عامرة لها جنات وأراضى متصلة العمارات وقصـــب وأعشاب كثير ومنتزهات ، ومبان حســـــان ، وهى على الضـفة الشرقية من النيل(٩) » وأحتوت

---

(٣) زبيدة محمد عطا : اقليم المنيا فى العصر البيزنطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٤ ٠

محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٥٩ ٠

(٤) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، ص٥٠٩

(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، الطبعة الثانية ، دار العـرب ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣٢ ٠

(٦) أورد لنا ابن بطوطة حكاية غريبة عن خصيب « أن أحد الخلفاء من بنى العباس غضب على أهل مصر فأراد أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصدا لاذلالهم والتنكيل بهم ٠ وكان خصيب أحرقهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالاذية لما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز ٠ فلما أستقر خصـــيب بمصـــر سار فى أهلها أحسـن سيرة ٠٠٠٠٠ » انظر ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٤م ، ص ٣٧ ٠

(٧) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٠٥ ٠

الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ، ص ٦١٠ ٠

(٨) نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافةالدينية، القاهرة د٠ت ، ص١٢٤٠

(٩) قوانين الدواوين لابن مماتى ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، منشـــورات الجمعية الملكية الزراعية صفحات متفرقة ٠

الأشمونين فى العصر الفاطمى على عدة كور ذكرها ابن مماتى (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ - ١٢١٠م) فى كتابه قوانين الدواوين (انظر ملحق رقم (١)) .

٢ - الوضع الاقتصـــادى :

(أ) الخــــراج :

كان للأشمونين نشاط اقتصادى واضح فى العصر الاسلامى ، وقد عثرنا على عدد من وثائق البردى عبارة عن ايصالات مقابل دفع الخراج، منها ايصال مؤرخ فى شعبان سنة ١٠٣هـ/٧٢١ - ٧٢٢م موجه الى دافعى الضرائب(١٠) ، وايصال من العصر العباسى عبارة عن أخطار رسمى يحمل تاريخ عام ١٥٠هـ/٧٦٧م(١١) وايصال ثالث خاص بدفع خراج مؤرخ بسنة ٢٢٣هـ/٨٣٧ - ٨٣٨م(١٢). كذلك عثرنا على وثيقة عبارة عن أمر ادارى موجه من نائب الوزير الفتح بن خاقان الى أحد أهالى ضيعة الأمير يحمل تاريخ ٢٤٢ - ٢٤٧هـ(١٣) . ويحتفظ أرشيف وثائق البردى العربية بايصال من العصر الفاطمى مؤرخ بسنة ٤٠٥هـ/١٠١٤ - ١٠١٥ من ورثة عكاشة لمتولى الخراج(١٤) .

ولاشك فى أن هذه الايصالات وغيرها من الوثائق تعبر عن نشـــاط اقتصادى واسع المدى كان للأشمونين وبخاصة فى العصر الفاطمى ، حتى أن متحصل خراج الأشمونيين بلغ فى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ١٢٧٦٧٦ ديناراً(١٥) وهو مبلغ ضخم .

---

(١٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الثالث ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١٥ .

(١١) نفسه ، ص ١٦٨ .

(١٢) نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٣) نفسه ، ص ١٣٩ .

(١٤) نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(١٥) أبو صالح : تاريخ كنائس وأديرة مصر ، طبعة أكسفورد ١٨٩٥ ، ص١٢ .

(ب) الزراعـــة :

ثم ان كثرة الايصالات المتعلقة بالخراج ، وضخامة المبالغ المتحصلة من الخراج ، كل ذلك يعبر دون شك عن نشاط كبير فى ميدان الزراعة. واعتمدت الزراعة فى الأشمونين على ميــــاه النيل - كما هو الحال فى سائر انحاء مصر على حد قول الجغرافيين العرب(١٦) « وزروعهم بماء النيل فتعم المزارع من حد أسوان الى حد الاسكندرية .... » .

والواقع ان الفاطميين اهتموا بالزراعة اهتماما كبيرا . ومن مظاهر هذا الاهتمام العناية باقامة الجسور . وقد ذكر ناصر خسرو أنهم اقاموا جسرا من التراب ، يمتد من أول الديار المصرية الى اخرها ليسير عليه النـــاس . وأعتمـــدت الدولة لصيانة ذلك الجسر عشرة آلاف دينــــار سـنويا(١٧) .

وكان بمصر نوعان من الجسور السلطانية والبــلدية . وكان هناك مشرف عام لمتابعة الجسور يسمى كاشف الجسور(١٨) ، فكان يوجد على كور مصر مائة وعشرون ألف رجل معهم المســـاحى والآلات سبعون ألفا للصيعد وخمسون ألفا لأسفل الأرض مهمتهم حفر الخليج وأقامة القناطر وشق الترع(١٩) .

وانقسمت الدورة الزراعية فى الأشمونين - شانها شان سائر البلاد الزراعية فى مصر - الى قسمين : المحاصيل الصيفية والمحاصيل الشتوية:

وكان قصب السكر من أشهر المحاصيل الصيفية التى انتشرت زراعتها

---

(١٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٤٠ .

- ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٣٨ .

- الادريسى : نزهة المشتاق ، ط ، ص ٣٢٤ .

(١٧) ناصر خسرو : سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م،ص٤٣.

(١٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٤٤ .

(١٩) الكندى : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم احمد العدوى وآخرين ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبه ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ٥٩ - ٦٠ .

فى الأشونين ، وهو يزرع فى نصف برمهات على أثر البرش ، وتبرش أرضه سبع سكك(٢٠) ، وفى أول طوبة تشق الأرض للقصب(٢١) ثم يعزق ثلاث مرات فى شهر بشنس .

ويحتاج القصب الى أرض جيدة ومياه متوفرة للرى ثم تنظف الأرض من الحشائش وتحول الى أحواض ويلقى فيها القصب قطعتين مثناة وقطعة مفردة ، ويسقى القصب فى أول التربيع مرة فى الأسبوع(٢٢) .

وتشير وثائق البردى العربية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الى كثرة زراعة القصب فى الأشمونين « .. ذكر محمد ابن ذيال ان الذى وصل اليه من القصب مائتى حزمة الا اثنا عشر حزمة ، وبعد ذلك وصلت مائتى حزمة ... »(٢٣) .

كذلك انتشرت مزارع النخيل فى الأشمونين(٢٤) ، فكان يزرع من أول يناير الى أول حزيران ، ويحفر للنخيل حفرة فى الأرض قدر ذراعين وتملأ بالتراب ، وتوضع النواة فى وسط الحفرة ، ثم ينهال عليها بالتراب ، ويسقى كل يوم حتى ينمو فينقل الى مكان آخر(٢٥) .

أما المحاصيل الشتوية فى الأشمونين فكان أهمها القمح(٢٦) ،

---

(٢٠) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، مراجعة يوسف راغب ، المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٤ .
ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٢٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص١٠٢ .

(٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٧٥ .

(٢٢) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، ص ٤ . المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٢ .

(٢٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٦ .

(٢٤) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤١ . ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٥٨
- ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الأول ، بيروت د.ت ، ص ٢٠٠ .
- على بهجت : قاموس الامكنة والبقاع، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٦م، ص٢٥

(٢٥) ابن العوام : كتاب الفلاحة ، مدريد ١٨٠٢م ، ص ٣٤٤ .

(٢٦) اليعقوبى : البلدان ، ليدن ١٩٦٧م ، ص ٣٣١ .

ويحتاج الفدان منه فى زراعته الى ويبتين ، ويزرع فى نصف بابه وآخر هاتور ، ويحصد فى شهر بشنس ويزرع القمح على أثر الكتان والشعير ، ويتباين مقدار ما يتحصل من فدان القمح من مكان لآخر حسب جودة الأرض من أردبين الى عشرين أردبا(٢٧) .

وتحفل وثائق البردى العربية بالكثير من الطلبات والأوامر المرسلة من أصحاب الضياع الى وكلائهم القائمين على زراعة الأرض فى الأشمونين ، بالتعجيل لارسال القمح نظرا لحاجتهم الشديدة اليه(٢٨) .

وكان خراج الصعيد يحصل عينا من الحبوب ، وفرضت على القمح فى العصر الفاطمى ضريبة مقدارها ثلاثة أرادب على كل فدان . وفى العصر الأيوبى خفض صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦ - ١١٧٧م هذه الضريبة الى أردبين ونصف لكل فدان(٢٩) . كذلك كان الشعير يزرع فى الأشمونيين حيث ورد ذكره فى وثائق البردى المؤرخة فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، ونستدل على ذلك من كشف حساب تاجر غلال « ... الطحاوى شعير أربعة وعشرة أقداح الكيل ستة الا ثلث، الطلاع شعير خمسة ويبات ... الثمن دينار(٣٠) ... » ويزرع الشعير عزاقا فى الأرض الرطبة، وتتقدم زراعته على القمح وكذلك حصاده(٣١) .

وانتشرت زراعة الكتان فى الأشمونين(٣٢) فى الأرض البرش .

---

(٢٧) ابن ماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٨ .
- المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ .

(٢٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢، ٤٣ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ .

(٣٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ٥ ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣١) المخزومى : المنهاج ، ص ٢ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ .

(٣٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤١ . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢٥٨ .

وتبدأ زراعته فى شهر هاتور ويحصد فى شهر برمودة(٣٣) ، وطريقة زراعته تقتصر على القاء البذور فى الحفائر أو على الماء(٣٤) ٠

ويتحصل من الفدان حوالى ثلاثين حبلا ؛ ومن البذور من ثلاثة أرادب الى ستة ٠ أما قطيعة الخراج فلم تكن ثابتة فتختلف من موضع لآخر ، وكانت بحكم الديوان ثلاثة دنانير(٣٥) ٠

كذلك نالت الأشمونين شهرة واسعة فى زراعة الفواكه(٣٦) ، وخشب اللبخ الذى يستعمل فى صناعة السفن ، ويبلغ ثمن اللوح الواحد خمسين ديناراً(٣٧) ٠

٣ ـ الصناعة :

اشتهرت الأشمونين بصناعة المنسوجات الكتانية(٣٨) ، وفرش القرمز(٣٩) ٠

وصنعت فى سمالوط من ضواحى الأشمونين المنسوجات المعروفة بالسمالوسيات من شعر الماعز ٠ وامتدح أبو صالح الأرمنى(٤٠) هذا الصنف من المنسوجات بقوله أنه « لا مثيل له فى العالم » ٠ كما راجت صناعة السكر بالأشمونين بسبب وفرة قصب السكر ٠ وقد ورد فى وثائق البردى التى

---

(٣٣) المخزومى : المنهاج ، ص ٣ ٠ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ٠

(٣٤) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٦٣ ٠

(٣٥) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

(٣٦) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص ١٢٤ ٠

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٢٦٦ ٠

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ ٠

ـ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٦٢ ٠

(٣٩) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٤٨ ٠

(٤٠) تاريخ كنائس واديرة مصر ، طبعة أكسفورد ١٨٩٥م ، ص ٣٦ ٠

ترجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين حساب أسبوعى بسكر موزع « يوم الأحد لتسعة خلون منه خمســـة عشر ابلوجة(٤١) ، يوم الاثنين لعشر خلون منه خمسة عشر ابلوجه ... »(٤٢) .

٤ ـ التجـــارة :

نشطت حركة التجارة فى الأشمونيين بفضل موقعها الجغرافى على الطريق النهرى التجارى القادم من أسوان وقوص الى القاهرة(٤٣) .

وكان هذا الطريق يسلكه الحجاج(٤٤) عندما تعرض الطريق البرى الذى يربط مصر ببلاد الحجاز والشام والعراق عبر سيناء للخطر الصليبى بسبب الغارات المستمرة التى كان يشنها صاحب حصن الكرك على قوافل المسلمين(٤٥) .

وحفلت الأشمونين بالأسواق ، فكان يوجد بها سوق للبن وســـوق للعطر(٤٦) ، وشاهد ابن جبير(٤٧) أسواق منية ابن الخصيب العامرة.

---

(٤١) الابلوجة تعادل تسع قنطار ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٧٣ .

(٤٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٩ م ، ص ٣٧٨ .

(٤٤) المقريزى : الخطط ، الجزء الأول ، بيروت د٠ت ، ص ٢٠٢ .

يقول المقريزى « أعلم أن الحاج المصرى والحاج المغربى ، أقاموا نحو ما بين سنتين ثم يتوجهون الى مكة من صحراء عيذاب فيركبون من النيل من ساحل مدينة الفسطاط،يركبون أبايل ـ أبل من قوص الى صحراء عيذاب ولاتزال عامرة بما يصدر ويورد اليها من قوافل التجارة والحجاج ولم نزل صحراء عيذاب مســـلك الحجاج ذهابا وايابا من سنة خمس وأربعمائه الى سنة ستين وخمسمائة » .

(٤٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، الطبعة الأولى، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٤١ .

(٤٦) الوطواط : مناهج الفكر ومناهج العبر ، تحقيق عبد العال الشـــامى ـ الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١م ، ص ٩٠ .

(٤٧) رحلة ابن جبير ، القاهرة ، ص ٥٦ .

كذلك حظيت أسواق الأشمونين بشهرة واسعة فى تجارة القمح ، فكان للتجار الذين يقيمون فى القاهرة وكلاء بالأشمونين يقومون بنقل القمح الى دكان السمسار الذى يتولى بيعه نظير أجرة معلومة « ووصل كتابك، ووصل القمح ، وقد شلناه الى دكان السمسار يوم كتابى هذا اليك ، وهو يوم الأربعاء وأرجو أن سهل الله لبيعه أروح عندك بالخير ... »(٤٨).

وهكذا غدت الأشمونين من مستودعات القمح بمصر ، فكانت تمد القاهرة فى العصر الفاطمى بما تحتاجه من القمح . ونستدل على ذلك من الخطابات المرسلة من التجار الى وكلائهم والتى وردت فى وثائق البردى(٤٩) . أما عن التعامل التجارى فى أسواق الأشمونيين ، فاستخدموا العملة الفاطمية من الدنانير والدراهم التى كانت سائدة بمصر ، لأن المصادر التاريخية لم تشر الى وجود دار لضرب النقود بالأشومنين كما هو الحال فى قوص حاضرة الصعيد الأعلى أو غيرها .

وكان الأهالى يستعملون رطل منية ابن الخصيب فى موازينهم والذى بلغ مقداره ١٤٤ درهما(٥٠) .

وهكذا نلمس ملامح الازدهار الاقتصادى للأشمونين فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة .

البنـاء الاجتماعى :

تعد دراسة الحياة الاجتماعية للمدن الاسلامية التى تبعد عن حاضرة البلاد ، كالأشمونيين من الأمور الشاقة لندرة المادة التاريخية .

لذا سأقتصر فى دراستى للحياة الاجتماعية على البنية الاجتماعية لبعض عناصر السكان كالعرب والقبط،مع الاشارةالى حياتهم الاجتماعية:-

---

(٤٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين - دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٤٢ .

(٤٩) نفسه ، ص ٤١ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٥٠) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٣٩ .

أما عن العرب فمن المعروف أن عددا من القبائل العربية وبطونها هاجروا الى الامصار التى فتحها المسلمون وانتشروا بين ربوعها • وكانت مصر مقصدا لعدد كبير من القبائل العربية ، فضلا عن الصحبةوالتباعين• وقد إنتشرت قبائل العرب فى الوجهين البحرى والقبلى وازدادت اعدادهم فى أواخر العصر الأموى عندما اشتد ضغط القوى المناوئة لهم ، وبخاصة العباسيين•ومن هؤلاء كانت جماعة من بنى أمية — من قريش — نزحوا الى الصعيد ليكونوا بعيدين عن خصومهم • وفى بوصير بالصعيد قتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد(٥١) •

وكان يطلق على الأشمونين بلاد قريش ، وسكنت قريش بجوار قبيلة جهينة ، وحدث بينهما سوء تفاهم ، مما أدى الى خلافات كبيرة بين القبيلتين ، حتى تمكنت قريش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة الى أخميم(٥٢) •

كذلك إستقرت بالأشمونين جماعة من بنى زهرة بن كلاب بن مرة(٥٣) • وكذلك بنو عروة وهم بطن من الزبير بن أسد بن عبد العزى من قريش•وعروة هذا من التابعين واعيانهم وهو أحد فقهاء المدينة السبعة من التابعة وكان مقامهم بناحية تندة من الأشمونين(٥٤) •

وهناك البكريون وهم بطن من تيم بن مرة من قريش من

---

(٥١) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، دار الكاتب العربى القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٧١ •

(٥٢) القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٢٢ •

المقريزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الطبعة الاولى ، عالم الكتب ١٩٦١م ، ص ٣٢ — ٣٣ •

عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، الجزء الأول ، المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩م ، ص ١٠٥ •

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جا ، ص ٣٥٥ •

(٥٤) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٣٦٠ •

العدنانية(٥٥)،وهم بنو أبى بكر الصديق ، وكانوا يمثلون بنى تيم فى مصر . وأول من نلقى من البكريين هؤلاء هو محمد بن أبى بكر الذى كان من زعماء حركة اغتيال عثمان فى المدينة سنة ٣٥هـ/٦٥٥ - ٦٥٦م. ثم ولى مصر من قبل على بن أبى طالب سنة ٣٧هـ / ٦٥٧ - ٦٥٨م وظل بها حتى خاض المعركة الفاصلة - موقعة المسناة - بينه بوصفه قائدا لأنصار على - وبين عمرو بن العاص قائد أنصار معاوية، فهزم وقتل سنة ٣٨ هـ/٦٥٨ - ٦٥٩م(٥٦ . كذلك هاجر الى الأشمونيين من البكريين بنو اسحاق ، وهم بطن من البكريين ، وبنو طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ابن بكر(٥٧) .

أما كنانة(*)فهى قبيلة عربية كبيرة تستمد أهميتها من أن قبيلة قريش والنبى (ﷺ) بالتالى ينسبون اليها . وبعد منتصف القرن الرابع الهجرى هاجرت كنانة بصورة واسعة من الحجاز - ومعها جماعة من اخلاط العرب الى مصر(٥٨) .

وفى الأشمونين استقر بنو فراس أحد بطون كنانة ، وهم بنو ضمرة ابن بكر بن عبد مناة ، ومنهم عمرو بن أمية الضمرى صاحب الرسول (ﷺ) (٦٠) وبنو الليث بن كنانة بن طلحة(٦١) .

---

(٥٥) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٢٠ .

(٥٦) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨١ .

(٥٧) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .

- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ٣٢٤ .

- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ١ ، ص ٢٠ .

(*) كنانة بكسر الكاف وفتح النون ، وكسر النون الثانية ، تشير الى عدة قبائل منها كنانة قريش .. انظر السمعانى : الانساب ، جـ٥ ، ص ٩٨ .

(٥٨) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، القلقشندى : قلائد الجماية ، ص ١٣٥ .

(٦٠) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٣٢٠

(٦١) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٧١ .

أما العلويون وهم ذرية على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ فقد نزح بعضهم الى مصر فرارا من الاضطهاد الذى حل بهم على أيدى الأمويين ثم العباسيين ٠ ومن هـؤلاء من الذين نزحـوا الى بـلاد الأشمونين كان السلاطفة من بنى الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويعرفون بأولاد جحيش ، والقيادة فيهم لبنى تغلب ٠

وهناك أيضا الجعافرة الذين ينسـبون الى جعفر بن أبى طالب الطيار ـ رضى الله عنه ـ ابن عم الرسول (ﷺ) (٦٤) وقد نزحت منهم عدة بطون الى الأشمونين هم أولاد عز العرب ، وبنو أدريس وبنو صالح(٦٥) ، وبطن من بنى هاشم بن جعفر الصادق(٦٦) ٠ وتفرع منهم عدة بطون منها الزيانية الذين سكنوا بين منفلوط وسمالوط(٦٧) ٠

كذلك نزح الى الأشمونين بطن من بنى أمية هم بنو ابان بن عثمان ابن عفان بن خالد(٦٨) بن يزيد ، وقد قدمت جماعة من أبنائه وأقامت مع سائر بنى أمية وقريش فى منطقة تندة بالأشمونين(٦٩) ٠

أما بنو مسلمة وهم بنو مسـلمة بن عبد الملك ت ١٢٢هـ/٧٣٩ ـ ٧٤٠م الذى تتابعت غـزواته من سنة ٨٦هـ/٧٠٥م حتى سـنة ١٢٢هـ /

---

(٦٢) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩١ ٠

(٦٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٨ ٠

ـ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ٢ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ ٠

(٦٤) السمعانى : الانساب ، جـ٢ ، ص ٦٦ ٠

(٦٥) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٣٩ ٠

(٦٦) على مبارك :

ـ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ١ ، ص ١٩١ ٠

(٦٧) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٨ ٠

(٦٨) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ ٠

ـ القلقشندى : قلائد الجمان ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية دار الكتاب المصرى ـ القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٢ ٠

(٦٩) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ ٠

ـ عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨٧ ٠

٧٣٩ ـ ٧٤٠م فكانت مساكنهم مع قومهم بنى أمية بتندة وما حولها من بلاد الأشمونين(٧٠) ٠

ومن بطون بنى أمية بنو حبيب بن الوليد بن عبد الملك،وبنو عسكر الذين يزعمون ـ على حد قول المقريزى ـ أنهم من بنى أمية ٠ وكان أبوهم مولى عبد الملك بن مروان ، ونزل بنو خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان أرض دلجة عند أشمون(٧١) ٠

فاذا انتقلنا الى القبائل القحطانية التى نزحت الى الأشمونين فاننا نصادف بنى جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة وكانت منازلهم الأولى بأطراف الحجاز من جهة الشمال(٧٢)٠

ومنهم عقبة بن عامـر بن عبس الجهنى الذى شـهد فتح مصر ، واحفظ بها وولى الجند بمصر لمعاوية بن أبى سفيان سـنة ٤٤هـ / ٦٦٤ ٦٦٥م(٧٣) ٠

أما قبيلة جهينة فقد نزحوا الى الصعيد ، واستقروا فى الأشمونين الى جانب قريش٠وحدث بينهما سوء تفاهم الىأن تمكنت قريش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة الى أخميم(٧٤) ، كما سبق أن ذكرنا ٠

هذا عن القبائل والبطون العربية التى نزحت الى اقليم الأشمونين واستقرت به ٠ والى جانب هؤلاء وجدت جالية من القبط وهم أهل البلاد الأصليين الذين اختاروا البقاء على ديانتهم ولم يدخلوا فى الاسـلام ٠ وكانت لهؤلاء كنائسهم التى اشار اليها المقريزى فى خططه(٧٥) ، ومنها

---

(٧٠) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ ٠
ـ التلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ ٠
(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٨ ٠
ـ على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨ ، ص ٢٤٨ ٠
(٧٢) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ ٠
(٧٣) السمعانى : الانساب ، جـ٢ ، ص ١٣٤ ٠
(٧٤) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ ٠
(٧٥) الخطط ، جـ٢ ، ص ٥١٨ ٠

كنيسة بطرس ، وكنيسة ميكائيل وكنيسة الفتية الثلاثة ، فضلا عن كثرة بيع النصارى فى منية ابن الخصيب ٠

وقد بلغ عدد النصارى بطحا - من كور الأشمونين - فى العصر الفاطمى حوالى خمسة عشر ألف شخص(٧٦) ، ويبدو أن هـذا الرقم مبالغ فيه ٠ وكانت غالبية سكان سمالوط فى سنة ٥٣١هـ/١١٣٦ - ١٣٣٧ من طائفة الأرمن النصارى(٧٧) ٠

★ ★ ★

ثالثا : الحياة الاجتماعية لعناصر السكان :

أما عن الحياة الاجتماعية لعناصر السكان بالأشمونين فلم يرد لها ذكر فى المصادر سوى أشارات عابرة ومتفرقة لا تكفى لرسم صورة واضحة المعالم ٠

وسأحاول رسم صورة لحياتهم من خلال تلك الأشارات المتناثرة عن الطعام والشراب والملبس والزواج ٠

كان الخبـز - ومايزال - هو العنصر الرئيسى للطعام عند أهـل الأشمونين - كما هو الحـال فى سـائر انحاء مصـر ، بسبب وفـرة القمح(٧٨) ٠ ولذلك حرصت الدولة الفاطمية على جودة الخبز عن طريق الاشراف الحكومى للمحتسب وأعوانه حيث فرضوا شروطا صارمة على الطحانين والخبازين لمنع الغش(٧٩) ٠

أما موائد الطعام فقد حفلت باللحوم الضأن، ولحوم الأغنام والماعز التى كانت تربى هناك بكثرة حيث ورد ذكر العديد منها فى قوائم حسابات

---

(٧٦) أبو صالح : تاريخ كنائس وأديرة مصر ، ص ٩٨ ٠

(٧٧) نفسه ، ص ٢٦ ٠

(٧٨) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣١ ٠

(٧٩) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٥٢ ٠

أوراق البردى(٨٠) ٠

وأعتمد أهل الأشمونين فى شربهم على ماء النيل بملىء الاوانى الفخارية التى تكفى لسد احتياجاتهم ، شأنهم فى ذلك سائر أهالى المدن المصرية ٠

وفيما يختص بملبس أهل الأشمونين فقـــد ارتدوا الملابس الكتانية المصنوعة بها(٨١) ، الى جانب المنســـوجات المصنوعة من شعر الماعز المعروفة بالسمالوسيات(٨٢) ٠

وقد حفلت الحياة العائلية بالعديد من مناسبات الفـــرح ، أهمها – كما هى العادة – أفراح الزواج ٠ وقد عثر على عدة عقود ترجع الى القرن الثالث الهجرى فى الأشمونين وهى تشابه العقود التى تم الكشف عنها فى مصر وتتفق معها فى طابعها الاسلامى والقومى العام ٠ ووفقا للاوضاع السائدة عندئذ كانت عملية الزواج تبدأ بالتعرف على أهـــل الزوجة ثم الخطوبة والاتفاق على المهر ، وهو الصداق الذى جاء ذكره فى أوراق البردى ٠ وفى عقد من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، جاء ما نصه « هذا ما أصدق يحنس شنوده الساكن مدينة أشـــمون دور ابنت شنودة ٠٠٠ » (٨٣) ٠

وبعد ذلك تاتى مرحلة كتابة عقد الزواج الذى يوقع عليه الشهود(٨٤) من الذين حضروا حفل الزفاف ٠ وكان يتم الاحتفال بزفاف العروســـة بالطبل والمزمار فى موكب يختـــرق وسط البلد حتى تصـــل الى بيت الزوجية ٠

---

(٨٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج٤ ، ص ١٧٣ ٠

(٨١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٥٨ ، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص٦٢ ٠

(٨٢) أبو صالح : تاريخ كنائس واديرة مصر ، ص ٢٦ ٠

– سلام شافعى محمود : أهل الذمة فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٤ – ١٥٥ ٠

(٨٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج١ ، ص ٨٥ ٠

(٨٤) نفسه ، ص ١١٤ ٠

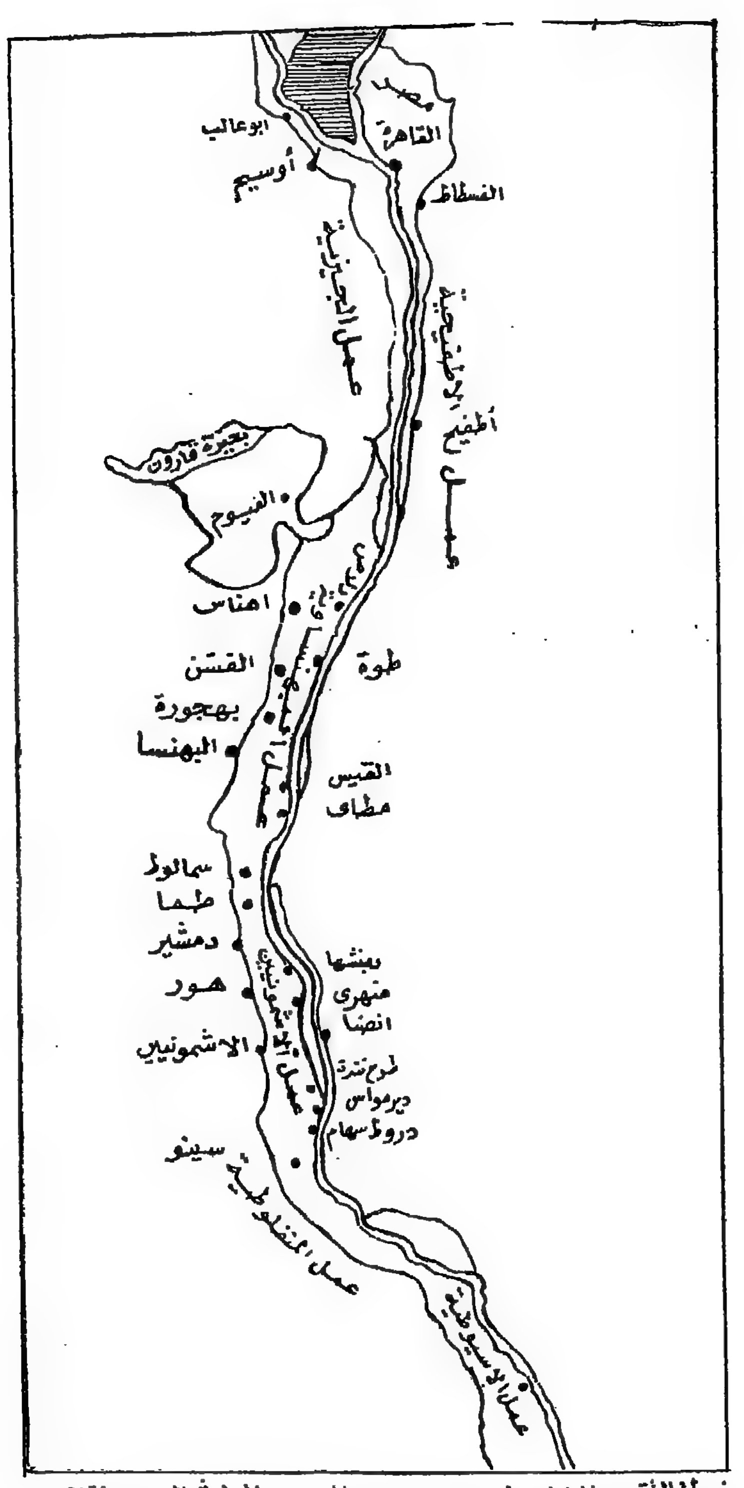
ملحـــق

(١) كور الأشمونين فى العصر الفاطمى

امشول ، انصنا ، والجزيرة الوسطانية من حقوقها، ابشاده ،ابوان عطية،اتليدم ، اطسا المدينة ، ابيوهة ، الكدية ، الدير المعروف ، بدير بهيو ، الطيبة وهى طيبة واحفار القمدير العرامة ، القلمتين وجزيرتها، السقاية ، المعصرة وهى معصرة بنى نصر ، الســرير مونيين البرجاية ، الداودية ، البرقا ، ابيهو ، القلندونيات ، المطاولات الحمام ، البركورات وادفا اوسية بو السرى ، البدرمان ، العرين تلا ، تنوف تنيه ، جزيرة بنى حماد ، جزيرة البوصية،جزيرة طوق ، جزيرة حمام ، حصة بلشها، دوط سربام ، ديسر طحنشها ، دمشار وسلول ، دلجة وكفورها ، دير العسل ، ديونجيم وهو دير أسود ، دمشا وهاشم ، دير باهور ، دير بانوب دير ماواس ، دمشير ، دشـــلوط ديمى ، دروط اشمون ريده ، رمجوس ، سفط الحماره ، سنبو ، سلو ، سفط المهلبى،سمالوط، ساقية موسى ، سرقنا ، سمو ، سنفليج ، سجرج طحنشها ، طوخ تنده،وسنجرج من حقوقها طوه ، طحا مجموعة مع أبشاق ، قبالة التلادة من حقوق سملوط ، قوص قام ، قلبه ، قلونة قرى جرى ، كفر باويط ، منفيس ، منهرى ، ملوى وجزايرها ، منية بنى خصـــيب ، منتوب وكفورها ، ميروكفورها ميسارة مقمص ، منشية العز نواجه ، نواى وحصتها هور هفوره ، طهما ، ظهر الجمل(٨٥) .

---

(٨٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، صفحات متفرقة من ص ١٠٣ الى ض ٢٠٠ ، ص ٣٧٢ .



خريطة التقسيم الإداري لصعيد مصر في القرن العاشر الهجري نقلا عن حسين مؤنس : أطلس تاريخ الاسلام ، ص ٣١٧ (خريطة ١٥٠)

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

١ - أبن الاخوة : (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ) « معالم القربة فى أحكام الحسبة » تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م .

٢ - الادريسى : (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤) « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت .

٣ - الاصطخرى : أبو القاسم ابراهيم بن محمد (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
«المسالك والممالك» تحقيق محمد جابر عبدالعال القاهرة ١٩٦١م.

٤ - ابن بطوطة : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩ هـ) « مهذب رحلة ابن بطوطة» الجزء الأول، تحقيق أحمد العوامرى وآخرين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٤م .

٥ - ابن جبير : (أبو الحسن بن أحمد ت ٦١٤هـ) « رحلة ابن جبير» القاهرة د.ت .

٦ - جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، تحقيق : حسن ابراهيم وآخرين - الجزء الثالث ، تحقيق : حسن ابراهيم حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ . الجزء الجزء الرابع - الجزء الخامس ، تحقيق عبد الحميد حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م .
الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٤ .

٧ - ابن حوقل : (أبو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) « صورة الأرض » بيروت ١٩٧٩م .

٨ - السمعانى : (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ) « الانساب » الأجزاء الثانى والخامس تقديم وتعليق : عبد الله عمر البارودى ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٨م .

٩ - ابن شاهين : (غرس الدين خليل الظاهر ت ٨٧٣ هـ) « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » تصحيح بولس روايس ، باريس ١٨٩٤م .

١٠ - أبو صالح : (الشيخ أبو صالح الارمنى توفى فى أوائل القرن السابع الهجرى « تاريخ كنائس واديرة مصر » طبعة اكسفورد ، ١٨٩٥م .

١١ - ابن ظهيرة : (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن أبى بكر ت ٩٨٦هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م .

١٢ - ابن العوام : (أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد) : « كتاب الفلاحة » مدريد ١٩٨٠م .

١٣ - أبو الفداء : (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ) « تقويم البلدان » باريس ١٨٤٠م .

١٤ - القلقشندى : (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن على ت٨٢١هـ) « صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » ١٤ جزء دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٩م .

١٥ - ــــــــــــ : (نهاية الارب فى معرفة انساب العرب » تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠م .

١٦ - ــــــــــــ : « قلائد الجمان » تحقيق : ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى القاهرة ١٩٨٢م .

١٧ ـ الكندي : (أبو بكر بن محمد بن يوسف المتوفى بعد ٣٥٥هـ) « فضائل مصر » تحقيق : ابراهيم أحمد العدوى مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧١م ٠

١٨ ـ المخزومى : (أبو الحسن على بن عثمان ت ٥٨٥ هـ) « المنتقى من كتاب النهاج فى علم خراج مصر » تحقيق : كلود كاهن ، مراجعة يوسف راغب ٠ المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦م ٠

١٩ ـ المقريزى : (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية » جزءان بيروت د٠ت ٠

٢٠ ـ ــــــــــ: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق : عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، عالم الكتاب ، القاهرة ١٩٦١م ٠

٢١ ـ ابن مماتى : (الأسد الخطير شرف الدين أبى المكارم أبى سعيد ت ٦٠٦هـ) ، « قوانين الدواوين » تحقيق : عزيز سوريال عطية الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة ، ١٩٤٣م ٠

٢٢ ـ ناصر خسرو : (علوى الفارسى ت ٤٧٦ هـ) « سفر نامة » تحقيق: يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م ٠

٢٣ ـ الوزان : (أبو الحسن بن محمد الوزان) « وصف افريقيا » ترجمة : عبد الرحمن حميدة ومراجعة على عبد الواحد ٠

٢٤ ـ الوطواط : (جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراقى الكتبى ت ٧١٨ هـ) « مناهج الفكر ومناهج العبر » تحقيق : عبد العال الشامى ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١م ٠

٢٥ ـ ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦ هـ) « معجم البلدان » الجزء الأول ، بيروت د٠ت ٠

٢٦ ـ اليعقوبى : (أحمد أبى يعقوب بن جعفر ت ٢٧٤ هـ) « البدان » ليدن ، ١٩٦٧م ٠

ثانيا ـ المراجع :

١ ـ حسين مؤنس : (دكتور)
« أطلس تاريخ الاسلام » مكتبة الزهراء ، القاهرة .

٢ ـ راشد البراوى : (دكتور)
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » الطبعة الاولى دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م .

٣ ـ زبيدة محمد عطا : (دكتورة)
« أقلم المنيا فى العصر البيزنطى » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م .

٤ ـ سلام شافعى محمود : (دكتور)
« أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والايوبى » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م .

٥ ـ صلاح أحمد هريدى : (دكتور)
« دور الصعيد فى مصر العثمانية » دار المعارف ، القاهرة١٩٨٤م.

٦ ـ عبد الله خورشيد البرى : (دكتور)
« القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ».
دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧م .

٧ ـ على بهجت : « قاموس الأمكنة والبقاع » الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٦م .

٨ ـ على مبارك : « الخطط التوفيقية » الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠ .

٩ ـ عمر رضا كحالة : « معجم قبائل العرب » الجزء الأول ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٤٩م .

١٠ ـ محمد رمزى : « القاموس الجغرافى باسماء البلاد المصرية »

القسم الثانى ، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٥٨م . - القسم الثانى، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٣م .

١١ - محمود محمد الحويرى : (دكتور)
« أسوان فى العصور الوسطى » الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م .

بواعـــث ازدهار النشـــاط
الاقتصادي فى العصر العباسى الأول
(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ / ٧٤٩ ـ ٨٤٧م)

د. ضيف الله يحيى الزهرانى(*)

شهد قيام الدولة العباســية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م اكتمال بناء الدولة الاسلامية التى امتدت من الأندلس وبحر الظلمات غربا حتى الهند وجوف القارة الآسيوية شرقا. وكان أن أفاد المسلمون من ذلك الموقع الفريد فى قلب العالم المعروف ، وتلك الموارد الاقتصــادية الضــخمة التى فاضت بها خزائنهم فى بناء أكبر صرح حضارى عرفه العالم فى العصور الوسطى.. ومن المعروف أن الاقتصاد يمثل عماد أية قوة سياسية أو نهضة حضارية ، ولذا أهتم الخلفاء العباســيون الأوائل برعاية الأوضاع الاقتصــادية ، وتكاتفت عدة عوامل لتجعل ذلك النشاط الاقتصادى دعامة قوية استندت اليها الدولة فى تحقيق أسباب القوة والعظمة الحضارية .

والملاحظ فى الدراسات التاريخية الحديثة أنها فى الكلام عن النشاط الاقتصادى فى العصر العباسى الأول،وجهت معظم اهتماماتها نحو مظاهر هذا النشاط ، دون التطرق الى العــوامل التى ساعدت على ازدهاره والقوى ـ الظاهرة والباطنة ـ التى ساعدت على نجاحه وانتعاشــه . ولذا رأينا فى هذا البحث أن نحاول القاء الأضــواء على **العوامل التى ساعدت على انتعاش النشاط التجارى والصناعى بوجه خاص** ، حيث أن النشاط الزراعى حظى بدراسات عديدة من نواحى اصلاح الأرض وتوفير الماء ، وبناء السدود والقناطر ، وحفر الترع ومراعاة العدالة فى جمع الخراج وغير ذلك ....

وفى هذه المقدمة لا يفوتنا أن ننوه أن الله عز وجل امتدح التجارة

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى .

الحلال ، وأن الرسول ﷺ أمتدح التاجر الأمين ، وفى الوقت نفسه حث الاسلام على العمل ـ بأوسع معانيه ـ بما فيه العمل الفكرى واليدوى وغير هذا أو ذاك . فالله عز وجل يقول محلا التجارة الخالية من الربا (وأحل الله البيع وحرم الربا)(١) ، وأما الرسول ﷺ فقد سئل ، أى الكسب أفضل أو أطيب ؟ فقال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرر »(٢) ، وقال الله تعالى فى المجال الصناعى والمواد الأولية التى تستخدم فى الصناعة (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)(٣) وهكذا نشطت التجارة والصناعة فى الدولة الاسلامية لفضل ما تهيأ لها من عوامل عدة ، وأصبحت تفوق التجارات والصناعات العالمية ، حيث عنى الخلفاء بتنظيم أمورهما ، والاشراف المباشر عليها من أجل منع الغش فى التجارة والصناعة والانتاج ، ومنع التحايل والتدليس فى المعاملات(٤) ، والمتأمل فى صادرات الدولة وواردداتها يدرك قوة الازدهار التجارى فى ذلك العصر ، كما أن المتأمل فى عدد المصانع فى بغداد وحدها ، يدرك قوة الازدهار الصناعى ، فقد قدر عدد الطواحين بـ (٤٠٠ رحى) مائية ، و (٤٠٠٠) معمل لصنع الزجاج و (٣٠ر٠٠٠) معمل لصنع الخزف(٥). هذا الى أن الحرف والمهن التى أوردتها كتب الحسبه(٦) ، والتى تعج بعديد الصناعات المتنوعة تدل على قوة الصناعة وتطورها . وقد خص كل أهل تجارة أو صناعة أو حرفة بسوق خاص، مما أدى الى كثرةالأسواق وتنوعها وبالتالى الى ازدهار النشاط الاقتصادى .

أما عن العوامل التى ساعدت على هذا النشاط والازدهار ـ وهى موضوع دراستنا ـ فنستطيع أن نجملها فيما يلى :

أولا : الموقع الجغرافى :

كانت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول تمتد امتدادا شاسعا وتضم العديد من الشعوب ذات الأصول المتباينة والجذور المختلفة ، فضلا عن الأقاليم ذات الموارد الاقتصادية المتنوعة . وحسب هذه الدولة عندئذ أنها امتدت من حدود الصين شرقا حتى سواحل بحر الظلمات أو البحر المحيط أو المحيط الأطلسى غربا ، ومن أواسط بلاد النوبة جنوب حتى حدود دولة الفرنجة وشاطىء بحر بنطش أو البحر الأسود شمالا ،

وبذلك اطلت هـــذه الدولة على محيطات وبحار وخلجان عدة ، حتى غدت الدولة الاسلامية تمثل سرة العالم القديم وحلقة الوصل بين أجزائه وأطرافه ، وصار العراق مركز الخلافة يكون « جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب ، والجزيرة العربية ، والشام ومصـــر والمغرب من الجانب الآخر »(٧) ، ولا شك أن هـــذا الموقع الجغرافى الفريد ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادى فى ميادين التجارة والصناعة.

ثانيا : سهولة التعامل النقدى :

كانت الدولة العباسية تتبع نظام المعدنين Bi-Metallic System أى تتعامل بالدينار الذهب ، والدرهم الفضة فى جميع معاملاتها الرسمية والتجارية(٨) . ولعل سبب شيوع التعامل باحد المعدنين أو بهما معا كان يتوقف على مدى توافر الذهب أو الفضة آنذاك،وبقيمتهما فى السوق. والذى لابد من معرفته هنا هو أن هناك أقاليم فى العصر العباسى الأول شاع فيها استخدام احدى العملتين نظرا لتوافر المعدن الخام بتلك الأقاليم ، ولكن هذا لا يعنى الغاء استخدام العملة الأخرى ، بمعنى أن العملتين سارتا جنبا الى جنب فى جميع المبادلات التجارية ، فمثلا : كان الدينار الذهب يسود فى أقاليم مصر وشمال افريقية وبلاد الشام ، وكان الدرهم الفضة سائدا فى أقاليم العراق وايران ووسط وشرق آسيا(٩) وعد خلفاء العصر العباسى الأول كلا من الدينار والدرهم قاعـــدة للنقد معمولا بها رسميا حتى لا يضار أحد من تجار الدولة سواء فى افريقية أو فى مصر أو فى الشام أو فى العراق أو غيرها من الاقطار .

ثالثا : كثرة الأموال وارتفاع مستوى المعيشة :

يستدل بالنظر الى قوائم الايرادات التى اعتمـدت لميزانية العصر العباسى الأول على كثرة الأموال والثروات الطائلة التى كانت سببا مباشرا للازدهار الاقتصادى المتعدد الوجوه ، وقد ورد ذكر ثلاث قوائم مالية لعهود بعض الخلفاء العباسيين هى : -

أولا : قائمة الجهشيارى (١٠) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة

هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٨م) وكان مقدارها (٥٣٠،٣١٢،٠٠٠) درهم .

ثانيا : قائمة ابن خلدون(١١) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨٢٣ - ٨٣٣م) وكان مقدارها (٣٩٤،٢٥٤،٠٠٠) درهم .

ثالثا : قائمة قدامة بن جعفر(١٢) ويرجح أنه عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٨٣-٨٤٢م) وكان مقدارها (٤١١،٢٣١،٠٠٧) درهم .

ومن هذه القوائم يستدل على ضخامة الثروة ووفرة العملة والنقود . وهذا فى حد ذاته خير مشجع على المشاركة فى النشاط الاقتصادى مـ يؤدى الى دفع مسيرة ذلك النشاط .. ولا شك فى أن كثرة الأموال أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة بين أفراد المجتمع ، وهو أمر جاء مصحوبا بقدر من حياة البذخ والترف .

رابعا : وفرة الأسواق وتنظيماتها :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعدد كبير من الأسواق مثل أسواق (مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وصنعاء ، ودمشق، وبغداد ، والاسكندرية ، والكوفة ، والبصرة والفسطاط ، والقيروان) ومن الواضح أن كثرة الأسواق وتعدد أنواعها تعتبر عاملا هاما فى تنشيط المعاملات الاقتصادية ومظهرا لحيوية المدن واتساع نطاق النشاط الاقتصادى فيها(١٣) ، ونظرا لأهمية الأسواق فقد كان يخطط لها مع تخطيط المدن(١٤) ، وقد وصل أمر تنظيم الأسواق أن خص أهل كل تجارة بسوق خاص ، منفردة ، « وكانت المدن بصورة عامة أسواقا لما يحيط بها من قرى وأرياف ، فهى مخازن لانتاجها ، ومراكز تبيع لها ما تحتاج اليه من مواد »(١٥) ، لذا نجد أن الأسواق قامت بالدور الايجابى المميز فى ازدهار الأنشطة التجارية والصناعية .

خامسا : العناية بطرق التجارة :

تنقسم طرق التجارة الى قسمين كبيرين :

أولا : طرق مائية (بحرية أو نهرية) ، وكانت البحار التى تشق عبا بها مراكب المسلمين هى : بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) وبحر الهند (المحيط الهندى) وبحر العرب ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر الروم (البحر المتوسط) ، فضلا عن البحار الداخلية مثل : الخليج العربى ، وبحر بنطش (الأسود) ، وبحر الخزر (قزوين)، أما الأنهار فقد تميزت منها ثلاثة أنهار رئيسية هى (النيل ودجلة والفرات) ،وقد قامت هذه البحار والأنهار بدور كبير فى النشاطالتجارى اذ غدت طرقا مألوفة للسفن التجارية ، وأسهمت أسهاما واضحا فى النشاط التجارى ، سواء التجارة المحلية الداخلية ، أو التجارة الاقليمية أو العالمية ، ووجدت محطات على امتداد الطرق البحرية والنهرية لجباية الضرائب ، فضلا عن حراسة المراكب(١٦) ٠

أما القسم الثانى : فنعنى به الطرق البرية التى كانت تمثل شبكة داخلية وخارجية واسعة،سهلت على التجار نقل بضائعهم وتسويقها(١٧)٠ وقد ارتبطت بغداد حاضرة الخلافة بشبكة من الطرق البرية على النحو التالى :

١ ـ الطريق الشرقى الى حلوان ثم أواسط آسيا ٠
٢ ـ الطريق الشمالى الى الموصل والجزيرة ٠
٣ ـ الطريق الجنوبى الى واسط ثم البصرة ٠
٤ ـ طريق جنوبى غربى الى الكوفة ثم الى الجزيرة العربية حيث ينتهى باليمن ٠
٥ ـ طريق غربى الى الرقة ثم الى الشام ومصر(١٨) ٠

واقيمت على امتداد هذه الطرق خانات للمسافرين وللتجارة يرتاحون فيها ويحفظون فيها تجاراتهم ٠ وكانت تعقد فيها الصفقات التجارية وعمليات البيع والشراء(١٩) ، ولا شك فى أن وفرة الطرق والعناية بها وتعبيدها وتوفير وسائل الراحة للمسافرين على أمتدادها ٠٠٠

كل ذلك شجع على الرحلة ، وبالتالى على نقل البضائع وسفر التجار من اقليم الى آخر . هذا بالاضافة الى حرص الخلفاء على توفير الأمن للمسافرين والضرب بشدة على أيدى المعتدين والعابثين ، بحيث غدت الدولة الاسلامية تمثل واحة كبيرة يسودها الأمن والسلام مما أدى الى ازدهار النشاط الاقتصادى بوجه عام والتجارى بوجه خاص .

سادسا : تجنب الأساليب التجارية المحرمة :

حرص المسلمون فى معاملاتهم الاقتصادية على الالتزام بالحلال وتجنب الحرام ، فاعرضوا عن كل ما نهى عنه الدين ، وقامت الدولة بتطبيق احكام الشريعة ومراقبة النشاط الاقتصادى فى الأسواق والمحطات التجارية والمدن . وكان أهم ما تجنبه المسلمون فى معاملاتهم هو : -

(أ) الربا : وهو الزيادة غير المشروعة . قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا)(٢٠) ، وقد حرم الربا لعلة فى ذاته ، لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته . ولما كانت بعض جذور الربا راسخة عند التجار من أهل الذمة وخاصة فيما يتعلق بصرف النقود وتسعيرها(٢١) ، فقد كان يتم التعامل معهم فى نطاق ضيق يشوبه الحذر الشديد .

(ب) الاحتكار : وهو احتجاز السلعة لغرض تأخير بيعها حتى يرتفع السعر . قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون »(٢٢) والهدف من تحريم الاحتكار هو كشف الضرر عن عموم الأمة الاسلامية ووقايتهم من المحتكرين فى حبس الأقوات وغيرها من ضرورات الحياة ومنعواستئثارهم بتوزيعها دون سائر المنتجين والموزعين للحيلولة دون التحكم فى أسعارها كما يشاؤون(٢٣) .

ولما كانت المحافظة على حرية التجارة والصناعة هى الهدف السامى الذى من خلاله تتحقق المحافظة على مستوى الحياة الاجتماعية فاننا لم نجد أى ذكر للاحتكار خلال فترة هذه الدراسة .

سابعا : تنشيط العلاقات الاقتصادية مع الدول الأخرى :

تمتعت الدولة العباسية فى عصرها الأول بعلاقات تجارية مميزة مع جيرانها كان لها أكبر الأثر فى ازدهار التجارة والصناعة ٠ ومن الدول والبلاد التى كانت لها علاقات اقتصـادية مع الدولة العباسـية نذكر ، (بلاد الصين ، والهند ، وشرق افريقية، وأوروبا)(٢٤)٠ وهذه العلاقات ساعدت على الانتعاش الاقتصادى ، فكانت الدولة الاسلامية تصدر الى العالم الخارجى : (الأقمشة القطنية والمنسوجات الحريرية والتمور وماء الورد،وبعض أنواع الحبوب والعسل والموازين والصابون والزيت والاقلام والخيل العربية الأصيلة(٢٥) ٠٠٠ الخ) ٠ هذا بالاضافة الى ما يمكن أن نسميه (تجارة المرور) وهى البضائع والغلات التى كانت تمر بأرضى الدولة الاسلامية ، بمعنى أنها ترد اليها لتصدر منها الى بلاد أخرى ٠ وكانت ترد الى أسواق الدولة فى العصر العباسى الأول الكثير من التجارات الخارجية مثل : (التوابل والأسـلحة ، والأحجار الكريمة والعطـور والرصاص وأنواع السجاد(٢٦) ٠٠٠ الـخ) ٠ وبعض هـذه المنتجات كالتوابل والعطور والبخور والحديد كان يعاد تصديرها ٠

ولا يخفى علينا ما للعلاقات الاقتصادبة من آثار ايجابية فى الدولة العباسية وخاصة فى المجالات التالية : -

(أ) تنشيط حركة الموانىء الاسلامية ٠
(ب) ازدهار بعض المدن ، وخاصة الساحلية وبعض الثغور ٠
(جـ) توسع المؤسسات المصرفية ٠
(د) زيادة ايرادات الدولة ٠
(هـ) التنوع فى عناصر السكان ٠

يضاف الى هذه الايجابيات انتشـار الاسـلام فى كثير من البقاع والأصقاع عن طريق النشاط التجارى الكبير الذى مارسه التجار المسلمون٠

ثامنا : وفرة اعداد الحرفيين والمهنيين :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعـدد وافر من

عمال الحرف والمهن ، وهذا العدد لم يكن متوافرا بتلك الكثرة قبل حركة الفتوحات الاسلامية • ذلك أن الدولة الاسلامية كانت على قدر كبير من الحنكة والسياسة فى معاملة أهالى تلك البلاد المفتوحة حيث أنها عملت على رعايتهم والاهتمام بهم كل فى مجال تخصصه • كذلك سمحت لهم بممارسة نشاطهم الحرفى فى حرية تامة • وأدى ذلك الى أن تتلمذ كثير من أبناء المسلمين على أيدى أرباب الحرف الفنية وأتقنوها(٢٧) يضاف الى ذلك أن الخلفاء العباسيين [عملوا على استقدام كثير من الأيدى الفنية الماهرة من البلاد الأخرى المجاورة(٢٨) ، وخاصة أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ/٧٥٤ - ٧٧٥م)] ، وهذا يعنى (أيضا) كثرة الأيدى العاملة من ذوى الخبرة والمهارة فى الصناعات بجميع أنواعها•

تاسعا : توافر المواد الخام :

أدى اتساع الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول الى تنوع الثروات ومواردها الأولية ،وذلك لتباين طبيعة الاقاليم التى ضمتها تلك الدولة • ومن أهم هذه الثروات والموارد :

(أ) الثروة المعدنية ، مثل الذهب ، الفضة ، الحديد ، النحاس ، الرخام ، الكبريت ، الرصاص ، النفط ، الزئبق ، الكحل ، الملح طين الختم(٢٩) ، النشادر ، العقيق ، العنبر ، اللؤلؤ •

(ب) الثروة الزراعية ، وخاصة القطن •

(جـ) الثروة الحيوانية ، وخاصة الصوف ، والجلود(٣٠) •

(د) الثروة البحرية وخاصة الاصداف واللؤلؤ والأسماك وغيرها •

هذه الثروات هى التى شكلت كيان العديد من الصناعات المتباينة • هذا بالاضافة الى أن توافر المواد الخام خلق مجالات صناعية متعددة كان لها أكبر الأثر فى ازدهار النشاط الصناعى أولا ثم النشاط التجارى (مجال التسويق) ثانيا •

عاشرا : تشجيع الدولة ورعايتها للتجارة والصناعة :

كان لدعم خلفاء الدولة العباسية الأولى أثره الواضح والبين فى

ازدهار التجارة والصناعة،ذلك أنهم شجعوها بكل الوسائل المتاحة،فعملوا على بناء الأسواق وتنظيمها ، وفرضوا عليها الرقابة المستمرة من قبل المحتسب(٣١) ، للوقوف على جودة السلع ونظافتها ومدى مطابقتها لحاجات المجتمع .

يضاف الى ذلك ما سبق أن أشرنا اليه من حرص الدولة على توفير الأمن والحماية للتجار والصناع ، فكان للأمن أثره الواضح فى تحقيق الازدهار الاقتصادى ، وأسندت الى الشرطة مهمة المحافظة على الأمن الداخلى لئلا ترتكب المحرمات والمخالفات والمحظورات(٣٢)، كذلك أسند الى جند الثغور المحافظة على الأمن من الاعتداءات الخارجية ، وبذلك غدا للأمن الداخلى والخارجى أثره فى استقرار التجارة والصناعة ، فنشطت حركة السفن والقوافل التجارية .

احدى عشر : رقى الصناعات وتطورها نتيجة للنشاط التجارى والعكس :

لقد نال قطاع الصناعة كل رعاية واهتمام من خلفاء العصر العباسى الأول ، الأمر الذى نتج عنه ازدهار صناعات عديدة فى مجالات مختلفة على النحو التالى :

(أ)صناعة المواد الغذائية وصناعةالأدوات الزراعية وأدوات البناء.

(ب) صناعة النسيج بمختلف أنواعه .

(جـ) صناعة الفخار وأوانى حفظ المياه .

(د) الصناعات المعدنية مثل ، صناعة الأسلحة ، والحدادة والرصاص ... الخ .

(هـ) صناعة أدوات الزينة مثل صناعة العطور والكحل والحلى بمختلف أنواعها .

(و) صناعات أخرى متنوعة مثل ، صناعة الورق والأقلام وصناعة الصفارين(٣٣) .

وهذا التطور الصناعى كان له أكبر الأثر فى تنشيط التجارة الداخلية

والخارجية فقد وجدت أسواق خاصة ببعض الصناعات مثل سوق الشماعين وسوق السلاح وسوق الجوخيين وسوق الصاغة وغيرها(٣٤) ، ومن خلال العرض الذى سبق فى رقم (٧) نتبين من خلال الصادرات مدى قوة نشاط الدولة فى صناعتها وتجارتها. وهذا يقودنا الى أمر مهم ، وهو استقلالية الصناعات من جهة ، ومن جهة أخرى ارتباط الصناعات بمناطق وجود المواد الخام من جهة أخرى(٣٥) .

الثانى عشر : توافر الحرية :

ان الاسلام دين السماحة والعدالة ، فهو يدعو الى المنافسة الحرة الشريفة التى تستهدف الخير لكل من البائع والمشترى . ولم يفرق الاسلام فى المعاملة بين المسلمين وغيرهم فى الأنشطة الاقتصادية،لذا كانت حرية العمل الشريف متاحة للمسلمين وغيرهم.ومع ذلك فان بعض الحرف غلب عليها غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . ويعود ذلك الى عامل الوراثة والظروف الاجتماعية، وأحيانا الى طبيعة العقيدة والدين . وكان الناس أحرارا فى اختيار المهنة التى يريدون(٣٧) . من ذلك أن أهل الذمة عندما عملوا فى الأنشطة التجارية والصناعية ، أحترفوا الحدادة وصناعة الحرير والزجاج والدباغة والصباغة ، بالاضافة الى احترافهم مهنة الصرافة(٣٧) .

وقد كفل لهم الاسلام حرية التجارة بين بلدان العالم الاسلامى والخارجى وكانت لهم تجارتهم المميزة ، وبخاصة فى (الفراء ، والسيوف ، والغلمان ، والجوارى ، والديباج ، والعود ، والكافور ، والمسك) ، وكلها تجارات ثمينة .

وهكذا فان حرية الحركة والعملكفلت - بلا شك - الازدهار التجارى والصناعى ، بحيث لم يكن ذلك النشاط مقصورا على أبناء الأمة الاسلامية وحدهم ؛ الأمر الذى يؤكد سماحة الاسلام وعظمته .

ثالث عشر : مرونة أساليب التعامل الاقتصادى :

صاحب نشاط التجارة والصناعة تطبيق بعض الأساليب التى كان

لابد منها من أجل تسهيل مرونة الحركة التجارية والصناعية • ومن هده الأساليب نذكر ما يلى : ـ

(أ) انتشار الصيرفة : وهى حرفة قديمة جدا ، كان الغرض منها :

١ ـ تقييم النقود من حيث الجودة والوزن •
٢ ـ تحويل النقود أو صرفها لأغراض تجارية(٣٨) •

وكان للصيارفة علاقات مباشرة مع الدولة التى يهمها « الاحتفاظ بسمعة سلامة النقود وتوفيرها للتداول فى الأسواق »(٣٩) •

وكان للصيرفة نشاط ملحوظ فى العصر العباسى الأول نظرا لجودة النقود م نجهة ثم لازدهار التجارة من جهة أخرى • وأدى اتساع أعمال الصيرفة الى التوسع التجارى والصناعى بشكل طبيعى • ومع ما يتطلبه هذا التعامل مع هؤلاء الصيارفة من الحذر الشديد نظرا لتعاملهم بالربا ، الا أن التجار المسلمين تعاملوا معهم وفقا لنضوابط الشرعية فىهذا الشأن•

(ب) السفتجة : هى « أن يعطى رجل مالا لآخر وللآخذ مال فى بلد المعطى فيوفيه اياه ، فيستفيد أمن الطـــريق »(٤٠) فهى وســـيلة للأمان ، استعملها التجار لحفظ أموالهم ، وتسهيل حركتهم التجارية ، سواء عن طريق تسوية الديون أو تصفية الحسابات • وقد وجـــدت فى العصر العباسى الأول منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور(٤١) •

(جـ) الصك : الصك الكتاب ، فارسى معرب والأصل (جك) ، والصك الذى يكتب فيه للعهدة(٤٢) ، وهو وســـيلة من وسائل الائتمان القديمة كان يستخدم لدفع الأرزاق والاعطيات لوقت مؤجل(٤٣) ، ولعل أول اشارة نحصل عليها فى استخدام الصكوك فى العصر العباسى الأول ظهرت فى عهد الخليفة هارون الرشيد(٤٤) (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/٧٨٦ ـ ٨٠٨م) ، وقد اتسع استخدامه نظرا لحاجة التجار والصناع ، والدولة على حد ســـواء ، وكان عـــادة يصرف من بيت المـــال أو المصارف الخاصة(٤٥) •

(د) انشاء الشركات : ذلك أن حركة التجارة ولدت أنواعا مختلفة من الشركات ، وان كان الأمر ليس بجديد فى عصر هذه الدراسة ٠ ولكن توسع التجار والشركاء فى انشاء الشركات خـــدمت قطاعى التجـــارة والصناعة على حد سواء وكانت على النحو التالى :

١ ـ شركة الأموال ، وهذه تتطلب دفع مبالغ مالية من كل شريك٠

٢ ـ شركة الأعمال ، وهذه تتطلب جهودا ذهنية وبدنية ٠

٣ ـ شركة الوجوه ، وهذه تتطلب الثقة بين الشركاء والمتعاملين معهم نظرا لعدم وجود مبالغمالية لتأسيس شركاتهم لأنهم يأخذون بتأجيل ويبيعون ويتقاسمون الربح ٠

٤ ـ شركة المضاربة ، وهذه تتطلب العمل من الشركاء أو احدهم مقابل جزء من الربح(٤٦) ٠

(هـ) انشاء النقابات المهنية ، التى كان شـــعارها « الصـــناعة نسب »(٤٧) ٠ والنسب كما نعلم يجمع على التحاب والتناصر ، وهـــذا بدوره أدى الى تعاون أبنـــاء الصنف الواحـــد ، وشـــعورهم بالارتباط الوثيق مع بعضهم(٤٨) ، فكان لكل حرفة شعارها ومراسيمها ولكل صناعة نقيبها ٠



من خلال العرض السابق للأساليب التجارية ندرك أن التوسع فى وسائل الائتمان وكثرة المؤسسات المصرفية قـد ســـاعد على خلق أجواء متناسبة ومتفاعلة مع الأنشطة التجارية والصناعية ٠



وبعد ، فانه يتبين لنا مما ســـبق أن الازدهار التجارى والصناعى الذى شهدته الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول لم ينبع من فراغ وانما هناك عوامل عدة اسهمت فى تحقيقه وساعدت على رقيه ٠

الهوامش والتعليقـــات

(١) سورة البقرة ، آية (٢٧٥) ٠

(٢) السيوطى : الدر المنثور ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٣) سورة الحديد ، آية (٢٥) ٠

(٤) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٩٧ ٠

(٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ ٠

وقد يلوح لنا أن هذه الأرقام فيها شيء من المبالغة وان كان كذلك الا أنها تدل فى المقابل على قوة الاقتصاد العباسى ٠

(٦) من كتب الحسبه نذكر : نهاية الرتبه فى طلب الحسبه للشيزرى ، ونهاية الرتبه فى طلب الحسبه ، لابن بسام ، ومعالم القربة فى أحـــكام الحســـبه ، لابن الأخوة القرشى ٠

(٧) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١١٩ ، وهذا الموقع المميز للعراقيين جعلهم وسطاء فاعلين فى تجارة العالم المتمدن ٠

(٨) الصابى : تحفـة الأمـــراء ، ص ١١ ، مســـكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٨ ، التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢٦ ٠ ابن الأثيـــر : الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، ص ٤٢ ٠

(٩) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٠٩ ٠

(١١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ٠

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ ٠

(١٢) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابه ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ٠

(١٣) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٣٢ ٠

(١٤) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ ٠

(١٥) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٣٣ ٠

(١٦) ابن خرداذبه : المسالك و والممالك ، ص ١٥٤ ٠

(١٧) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٥ ٠

(١٨) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٤٣ ٠

(١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ص ٧ ، ص ٢١٥ ٠

(٢٠) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ ٠

(٢١) الجهشياري · الوزراء والكتاب ، ص ١٠٠ ، ٢٢٠ ·

(٢٢) رواه مسلم في صحيحه ، جـ٣ ، ص ٣١٢ ·

(٢٣) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادى الاسلامى ، ص١٥٩ ، على عبدالرسول: المبادىء الاقتصادية في الاسلام ، ص ٦٣ ·

(٢٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٥٢ ·

(٢٥) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٧٥ ·

(٢٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ ·

(٢٧) زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ٨٧ ·

(٢٨) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٢٨ ، الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٤٢ ·

(٢٩) طين الختم : هو الطين السيرافى ، نوع من التراب ، يعجـــن بالماء ، ويستخدم في ختم الرسائل ، وهو البديل عن الشمع الأحمر اليوم ، انظر ضيف الله الزهرانى ، موارد بيت المال ، ص ١٧٢ هامش (*) ·

(٣٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ · أنور الرفاعى : النظم الاسلامية ، ص ٢٥١ ·

(٣١) المحتسب ، نوعان : محتسب متطوع يقوم بالعمل من تلقاء نفسه ، ومحتسب مكلف من قبل ولى الأمر للقيام بمهام الحسبة ، التى تعنى « الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله » ·
انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧ ·

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ·

(٣٣) لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على رسائل اخـــوان الصفا ، جـ١ ، ص ٢١٩/٢٢٠ · الجاحظ ، التبصر بالمتاجرة ، ص ٣٣/٣٢/٢٤ ·

(٣٤) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ٢ ، ص ٩٤ وما بعدها ·

(٣٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ ·

(٣٦) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٩٢ ·

(٣٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ ·

(٣٨) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٦٥ ، أحمـــد الشرباصى : المعجم الاقتصادى الاسلامى ، ص ٢٥٨ ·

(٣٩) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص٢٩٦·

(٤٠) ابن منظور : لسان العرب ، جـ٣ ، ص ١٢٣

(٤١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٨٩/١٠٩/١١٠ ٠

(٤٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج١٠ ، ص ٤٥٧ ٠

(٤٣) المصدر السابق نفسه ، ج١٠ ، ص ٤٥٧ ٠

(٤٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٩٦ ٠

(٤٥) الصابى : الوزراء ، ص ٢٣٥ ٠

(٤٦) لمزيد من التفاصيل عن الشركات انظر : السرخسى : المبسوط ، ج١١ ، ص ١٥٢/١٥٦/١٧٣/١٧٩ ٠ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصـــادى ، ص ١٢٦ ـ ١٣٠ ٠

(٤٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٧ ٠

(٤٨) صباح الشيخلى : الاصناف فى العصر العباسى ، ص ١٣٣ ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصـــادر :

القـــرآن الكريم

— ابن الأثير : عز الدين ، أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت٦٠٣هـ)
« الكامل فى التاريخ » ، نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، لبنان، طبعة بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

— ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) .
« المسالك والممالك » ، نشر : مكتبة المثنى ببغـــداد ، باعتنـــاء دى خويه ، ليدن ١٩٨٩م .

— ابن خلدون : ولى الـدين ، أبو زيد ، عبـــد الرحمن بن محمـــد (ت ٨٠٨هـ) .
« المقدمة » ، مطبوعات ومنشورات دار الشعب بالقاهرة .

— ابن منظور : جمال الدين ، أبو الفضل ، محمد بن جـــلال الدين المصرى (ت ٧١١هـ) .
« لسان العرب » ، دار صادر ، ودار الفكر ، بيروت .

— التنوخى : أبو على ، المحسن بن أبى القاســم على بن محمـــد (ت ٣٨٤هـ) .
« جامع التواريخ ، المسمى ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » تحقيق : عبود الشالجى ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

— الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) .
« التبصر بالتجارة » ، نشره ، حسن حسنى عبد الوهاب ، المطبعة الرحمانية ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م .

— الجهشيارى : أبو عبدالله ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ) .
« الوزراء والكتاب » ، تحقيق : مصطفى السقا وابراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شـلبى ، طبعـــه ونشره ، مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ/١٩٣٨م .

- السرخسى : أبو بكر محمد بن أبى سهل (ت ٤٩٠هـ) .
« المبسوط » ، طبع ونشر : دار المعارف ، بيروت .

- السيوطى : جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ) .
« الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ، دار القلم بالقاهرة .

- الصابى : أبو الحسن ، هلال بن الحسن بن ابراهيم الحرانى (ت ٤٤٨هـ) .
« تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

- قدامة بن جعفر ، (ت ٣٣٧هـ) .
« الخراج وصنعة الكتابه » ، تحقيق : طلال رفاعى ، طبع ونشر : مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- القلقشندى : أبو العباس ، أحمد بن على (ت ٨٢١هـ) .
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- الماوردى : أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ) .
« الأحكام السلطانية والولايات الدينية » طبع ونشر : مصطفى الحلبى وأولاده ، مصر ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

- مسكويه : أبو على ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ) .
« تجارب الأمم » ، نشر ، مكتبة المثنى ، ببغداد ، باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٨٧١م .

- مسلم بن الحجاج القشيرى (ت ٢٦١هـ) .
« صحيح مسلم » ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ، دار احياء التراث العربى .

- المقدسى : محمد بن أحمد ، المعروف بالبشارى ، (ت ٣٨٠هـ) .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشر مكتبة المثنى ببغداد، باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٩٠٦م .

ثانيا : المراجع

— أحمد الشرباصى ، « المعجم الاقتصادى الاسلامى » دار الجيل ، ١٤٠١هـ .

— أنور الرفاعى ، « النظم الاسلامية » ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

— حسن ابراهيم حسن ، « تاريخ الاسلام ، السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م .

— زكى محمد حسن ، « فنون الاسلام » طبع ونشر : دار الفكر .

— صالح أحمد العلى ، « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى » ، طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م .

— صباح ابراهيم الشيخلى ، « الأصناف فى العصر العباسى ، نشأتها وتطورها » نشر : وزارة الاعلام العراقية ، طبع : دار الحرية ، بغداد ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— ضيف الله بن يحيى الزهرانى ، « موارد بيت المال فى الدولة العباسية » طبع ونشر : المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

— عبد العزيز الدورى ، « تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » طبع ونشر : مكتبة المشرق ، والمكتبة الشرقية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م .

— على عبد الرسول ، « المبادىء الاقتصادية فى الاسلام ، والبناء الاقتصادى للدولة الاسلامية» طبع ونشر : دار الفكر العربى١٩٦٨م .

العلاقات الاسلامية البيزنطية
فى
فترة حكم النساء وأزواجهن

(١٠٢٨ ـ ١٠٥٦م = ٤١٩ ـ ٤٤٨هـ)

أ٠د٠ علية عبد السميع الجنزورى(١)

كان للعلاقات الاسلامية البيزنطية على امتداد تاريخ العصور الوسطى دور بارز فى تكييف تاريخ العالم ككل ، وتاريخ المسلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص ٠

والواقع أن أغلب حلقات تلك العلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الاسلامى أو من الجانب البيزنطى ، ولكن بقيت بعض الجوانب القليلة التى لم يركز عليها الضوء الا قليلا ٠ وقد آثرت أن أتناول أحد تلك الجوانب لالقاء بعض الضوء على العلاقات بين الطرفين فى فترة حكم زوى Zoe وثيودورا Theodora ابنتى الامبراطور قنسطنطين الثامن Constantine VIII (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م/٤١٦ ـ ٤١٩ هـ) ، الذى ينتهى باعتلائه العرش البيزنطى العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية ٨٤٣ ـ ١٠٢٥م(٢)/ ٢٢٩ ـ ٤١٦هـ ٠

أما عن قنسطنطين الثامن هذا ، فهو ـ آخر الذكور فى الأسرة

---

(١) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات ـ جامعة عين شمس ٠

2. Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p.210.

المقدونية - وكان شريكا فى الحكم Co-Emperor (٣) لأخيه باسل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م /٣٦٥ - ٤١٦هـ) لمدة نصف قرن تقريبا ، الا أنه كان شريكا ضعيفا ، فظل خامل الذكر الى جوار شقيقه القوى . وعندما تقدم به السن صار امبراطورا بالاسم فقط ، فقضى معظم وقته فى حضور مآدب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات المسرح التى أنفق وبدد فيها - بطيش واهمال - الايرادات المالية الضخمة للامبراطورية التى كان باسل الثانى قد جمعها . ولذا وصف بأنه كان امبراطورا فاسقا مسرفا(٤) .

هذا هو رأى المصدر البيزنطى فى قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السريانى فينقله لنا - ابن العبرى - الذى انفرد وحده بالرأى القائل بأنه كان « لطيفا مهذبا دمث الأخلاق وكان رجـــلا ذا نفس عظيمة »(٥) ، وبتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس(٦) .

---

(٣) كان لنظام الامبراطور المشارك فى الدولة البيزنطية اهمية خاصة فى الحفاظ على نظام توريث العرش فى الأسر الحاكمة الشرعية . ولم يكن هذا النظام يخضع للقانون فى بيزنطة كما كان الحال فى روما ، وعليه فقد اخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا فى اختيار خليفتهم المرغوب فيه بتعيينه امبراطورا مشاركا ، وذلك فى فترة حكمهم وقبل وفاتهم.وكان هذا الامبراطور يلبس التاج ويمنح اللقب الامبراطورى، بل ان صورته كانت تظهر غالبا جنبا الى جنب مع الامبراطور الفعلى على النقود، وكان اسمه يدرج فى المراسيم الامبراطورية. وعند وفاة الامبراطور الفعلى ، يحل الامبراطور المشارك محله ويتمتع بكامل ســـلطات الامبـــراطور ، وبذلك يحفظ حق بقاء العرش فى داخل الأسرة الامبراطورية ويدعم استمرارية الدولة . ولقد استمر اختيار الامبراطور المشارك من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعـــدة على عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م/٣٠١ - ٣٤٩هـ) عندما عين والد زوجته رومانوس ليكابينوس فى ديسمبر ٩٢٠م/٣٠٨هـ امبراطورا مشاركا له . مما كان له أثره فى خروج العرش من الأسرة الشرعية الى أسرة غير شرعية .
(Ostrogorsky : Ibid, P.P. 107,264).

4. Ostrogorsky: Ibid, P.P.298, 302

5. Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. 1,P.191.

(٦) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب اسحق أرملة السريانى ، بيروت١٩٨٦ ، ص ٨٣ .

ومهما يكن الأمر ، فقد توفى قنسطنطين الثامن فى ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور(٧) وترك ثلاث بنات فقط(٨) ، كانت أكبرهن وهى ايودوكيـــا Eudocia مشوهة الوجه من أثر مرض الجدرى ، لذا اختارت حياة الرهبانية(٩) . وعلى ذلك لم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هى التى «ملكها الروم»(١٠) عليهم بعد والدها .

واذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد أشارت الى أنه بوفاة قنسطنطين (ملك الروم) انتقل ملك الى بنت له ، وقام بتدبير الملك والجيوش زوجها وهو ابن خالهـــا»(١١) أو أنه أوصى بالملكة « حين احتضاره لابن أخيه رومانوس » أو « صهره زوج ابنته »(١٢) ، فان المصادر والمراجع الغربية تشير الى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الامبراطور قنسطنطين الثامن على فراش الموت ، حاول أن يزوج احدى بناته - أى احدى الأميرتين المسنتين(١٣) - وبحث عن زوج مناسب.وفى اللحظات الأخيرة قبل وفاته وقع اختياره على رئيس المدينة رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus الذىكان ممثلا بارزا للارستقراطيةالوطنية فى العاصمة ، وكان يشرفه انتماؤه الى أسـرة بيزنطية عريقة . هـــذا

---

7. Ostrogorsky: Op.cit, P.321.

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ١٩٨٠ ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ؛
Ostrogorsky: Op.cit, P.321

9. Ibid, P.321.

(١٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشـــندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ .

(١١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتـــب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ . وغالبية المصادر العربية تطلق على امبراطور الروم اسم ملك الروم .

(١٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ .

(١٣) كانت زوى وثيودورا قد ودعتا سن الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضـاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما ان تلعبا دورا مهما فى التاريخ البيزنطى خلال السنوات التالية .
Ostrorsky: Op.cit, P. 321.

بالاضافة الى وظيفته السامية . ذلك أن وظيفة رئيس المدينة Eparch of the City كانت باستمرار ـ خاصة بالنسبة للقسطنطينية ـ وظيفة كبرى . وقد زادت مكانتها فى القرن الحادى عشر ، بعد ان وصف كتاب المراسيم Book of Ceremonies فى القرن العاشر الرئيس أو الابرش بأنه (أبو المدينة) ، بل قيل ان تلك الوظيفة كانت من المناصب الامبراطورية الرفيعة ، وأن صاحبها لا يفرقه عن الامبراطور شىء سوى لبس الأرجوان(١٤) .

وكان أن تزوج رومانوس من زوى فى ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م/٢٢ شوال ٤١٩هـ ، وكانت العروس آنذاك فى الخمسين من عمرها . وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قنسطنطين الثامن ارتقى رومانوس العرش باسم رومانوس الثالث أرجيروس(١٥) وامتد حكمه من ١٠٢٨ الى ١٠٣٤م(١٦)/٤١٩ ـ ٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة والنضج ، اذ كان عند زواجه فى الستين من عمره . أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت ضعيفة تماما ، لكنه « حاول أن يحذو حذو الشخصيات البارزة فى الماضى ، والتى كانت أطيافها تسبح باستمرار أمام عينيه »(١٧) .

---

14. Ostrogorsky: Ibid, P.321; Hussey (J.M.) Cambridge Medieval History, vol. IV,The Byzantins Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P.195.

ويذكر رنسيمان أن رئيس المدينة كان مسئولا عن الشرطة والأمن وضبط النظام وتوزيع جرايات الخبز وغير ذلك . (رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) .

15. Ostrogorsky: Op.cit, P.P.321-322.

كان لابد لرومانوس أرجيروس من أن يطلق زوجته السابقة ، فتحولت الى سلك الراهبات رغم معارضة الكنيسة ، وذلك كى يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل الى الحكم ويلبس الأرجوان .

(Previte Orton; The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P.273, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Chapter V, P.195)

16. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

17. Ostrogorsky: Op.cit, P.322.

أما زوجته الامبراطورة زوى ، فكانت الابنة الوسطى للامبراطور الراحل قسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذى شهد به بعض المؤرخين المعاصرين ، وعلى رأسهم (بسيلوس Psellus) وثمة صورة رائعة رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيفساء فى كنيسة سانت صوفيا فى صالة العرض الخاصة بالنساء . وكانت بسبب شدة جمالها تثير الانتباه - حتى فى كهولتها - وذلك ببشرتها الصافية الناعمة وباهتمامها بأناقتها ومظهرها(١٨) . ولكنها كانت طموحة ، ساذجة ، تعتقد بشدة فى كلام العرافين والمشعوذين . ولم تكن لديها أية دراية بفن الحكم(١٩) . هذا الى أنها كانت تتصف بالانانية والتهور والتبذير(٢٠) .

هكذا حكم رومانوس الثالث الامبراطورية البيزنطية شريكا للامبراطورة زوى(٢١) وهو الذى أشار اليه المصدر العربى باسم (أرمانوس) (٢٢) .

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوى من رومانوس ، ولمدة

---

18. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol.IV,Part1, ChapterV,P.194

هنا قد يتساءل البعض عن سر بقاء تلك الامبراطورة دون زواج حتى سن الخمسين رغم جمالها وأناقتها وحسن مظهرها ؟ الا أن الاجابة تستنتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد اخفاقها فى حبها الأول . فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الامبراطور الغربى الشاب أوتو الثالث Otto III منها ، الا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت الى ايطاليا فى يناير ١٠٠٢م/٣٩٢هـ لتلقى العلم فوجئت بخبر وفاة خطيبها وهو فى ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها الى مدينة (بارى) الايطالية .

(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. vol. IV, .Chapter V, P.P 184-187).

19. Hussey: Ibid, P.194.
20. Previte Orton: Op.cit, V.1,P.273.
21. Previte Orton: Ibid, P.273, The Encyclopedia Americana, International Edition, V.29, 788.

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٢٨ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٧٠ .

عدة سنوات ، كان هناك حاجز واضح بينهـــا وبينه ، فبمجرد اعتــلاء رومانوس العرش البيزنطى ، نبذ زوى الامبراطورة الكهلة وتركها كما مهملا . هذا بالاضافة الى أنه ضيق عليها فى المصروف(٢٣) .

وبخصوص العلاقات الاسلامية البيزنطية فى عهد رومانوس وزوى نجد أن المراجع الغربية اشارت اليها فى شىء من الاقتضاب، حيث قالت « ولسوء حظ رومانوس أرجيروس فانه هزم فى بلاد الشام » . وقـــد تعرضت العاصمة القسطنطينية فى عهـده لعدة كوارث منها الطاعون ، والجراد ، المجاعة والزلزال(٢٤) . أما المصـــادر العــربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب أكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى .

من ذلك ما يقوله ابن الأثير من أن «ملك الروم » - أى الامبراطور البيزنطى - خرج الى بلاد الشام فى ٤٢١هـ/١٠٣٠م(٢٥) بجيش يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل ، وتوجه الى حلب التى كانت بيد شـــبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس(٢٦) وعسكروا بالقرب منها« فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصـــحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه »(٢٧) .

وفى ذلك الموقف الصعب أشار رومانوس على من معه بالتريث حتى يسقط المطر وتتوافر الميـــاه ، لكن « ابن الدوقس » - وهــو من أكابر الروم - رفض تنفيذ هذا الرأى وأشار بالاسراع فى الحركة « قصرا لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان قد دبره عليه » ورافقه ابن لؤلؤ فى عشرة آلاف

23. Ostrogorsky: Op.cit, P.323, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 196.
24. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .
والمقصود بملك او امبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيرس لأن ذلك كان فى فترة حكمه .

(٢٦) قامت أسرة صالح بن مرداس فى حلب ٤١٤هـ/١٠٢٣م واستقلت بالأمر فيها حتى ١٠٧٩م (حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥) .

(٢٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .

فارس وسلكوا طريقا آخر.عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه واعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلا ، هو احدهم،على الفتك به . وعندئذ خاف رومانوس « ورحل من يومه راجعا »(٢٨) .

ولم يلبث أن لحق به ابن الدوقس وسأله عن سبب رجوعه ،فأرجع ذلك الى اجتماع العرب عليهم وقربهم سنهم . ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ، ورحل الامبرطوار راجعا فتبعه « العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون »(٢٩) .

ويقال أيضا ان سبب عودة الامبراطور الى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية « فظن الروم أنها كبسة » فاحتاروا فيما يصنعون ، حتى ان ملكهم « لبس خفا أسودا .وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر » عندئذ انهــزم البيزنطيون وغــنم المســلمون جميع ما كان معهم (٣٠) .

أما ابن العبرى فيعطينا تفسيرا دينيا انفرد به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشيء من الحيدة والحذر ، وذلك حين يقول : « ان الملوك الســابقين لرومانوس ، نجحــوا فى التخلص من اضــطهاد المؤمنين لهم ، لذلك ازدهــروا فى كل مكان . لكن هــذا الملك بدأ يضــطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النفى البطــريرك المقــدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته ، وذلك اتباعا للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم المخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم»(٣١) .

---

(٢٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ ـ٤٠٥ .

(٢٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ .

(٣٠) نفس المصدر والجزء والصفحة .

31. Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P.191.

اما مترجم ابن العبرى فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالى : « ان الملوك السابقين لرومانوس كان النصر حليفهم فى الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبثون بالمسائل الدينية . أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس ابن عبدون (١٠٠٤ـ ١٠٣٠م/٣٩٤ ـ ٤٢١هـ) وأساقفته ونفاهم جاريا على عادة اليونان المكارين القدماء، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم » . (ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣).

وقد أوضح المؤرخ ابن الأثير خسائر البيزنطيين فى ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم.فقال انها كانت : « أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا » الى جانب هلاك كثير من البيزنطيين من شدة العطش ، ولم ينج الا الملك وحده « ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شىء البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا »(٣٢) .

أما المصدر السريانى،فيذكر أن خسائر البيزنطيين كانت «سبعين بعيرا محملة نقودا وآنية ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد فى حلب بدينارين » . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل « خيمة أو كأس يشرب بها ماء »(٣٣) .

ثم كان أن حدث سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م أن استولى البيزنطيون على مدينة الرها من المسلمين . وتفصيل ذلك أن الرها كانت بيد عطير النميرى ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهز من قتل عطيرا حاكم الرها . فشفع صالح بن مرداس حاكم حلب الى نصر الدولة أن يعيد الرها الى ابن عطير والى ابن شبل مناصفة ، فقبل شفاعته وسلمها اليهما وذلك فى سنة ٤١٦هـ/١٠٣٣م)(٣٤).وكان فى الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير . وظلت المدينة معها حتى تلك السنة ٤٢٢هـ ، فراسل ابن عطير الامبراطور البيزنطى رومانوس وباعه حصنه بعشرين ألف دينار . هذا بالاضافة الى عدة قرى من بينها أرية سن ابن عطير . وتسلم البيزنطيون البرج الذى كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه ، وهرب منه أصحاب ابن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخربوا المساجد(٣٥) .

---

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٥ .

(٣٣) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٨٣ ـ ٨٤

Bar Hebraeus: V,1, P.192.;

(٣٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٥) ابن الأثير . الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة وابن شبل هو ابن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا الى الرها ، فحاصرها « وفتحها عنوة » واعتصم من بها من الروم بالبرجين ، واحتمى النصارى بالبيعة الخاصة بهم، « وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة »، فحاصرهم المسلمون وأخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ٠ وبقى البيزنطيون فى البرجين ، فسار اليهم جيش بيزنطى عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم أصحاب ابن مروان أمامهم ، وعندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج « وحمل اليهم خراجا » عنهما(٣٦) ٠ وقد أشار ابن الأثير فى موضع آخر الى استيلاء البيزنطيين على الرها فى عهد الامبراطور رومانوس بشىء من الايجاز بقوله : « وهو الذى ملك الرها من المسلمين »(٣٧) ٠

وفى تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ/١٠٣١م استولى البيزنطيون على قلعة أفامية بالشام ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن الخليفة الفاطمى الظاهر(٣٨) أرسل وزيره الدزبرى(٣٩) الى الشام فملكه ٠ ثم قصد

---

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ ٠

(٣٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ ٠

(٣٨) هو أبو الحسن على بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة ٠ بويع له يوم عيد الأضحى سنة احدى عشرة وأربع مئة ٠ (ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٦ ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص ٣١٣) ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، جـ ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٢٤ ٠

(٣٩) الدزبرى أو التزبرى هو الأمير المظفر أمير الجيوش ، عدة الامام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى أبو منصور أنوشتكين ، مولده بلاد ما وراء النهر فى بلد الترك فى البلد المعروف بختل ، وسبى منه وحمل الى كاشغر ، وهرب الى بخارا وملك بها وحمل الى بغداد ثم الى دمشق سنة ٤٠٠هـ فاشتراه القائد تزبر بن أونيم الديلمى ٠ ثم انتقل الى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣ هـ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سديد الدولة ذى الكفايتين الضيف فى العسكر الى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى

=

حسان بن المفرج الطائى ، وألح فى طلبه فهرب منه ،ودخل الى الأراضى البيزنطية « ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب » ويصحبته جيش كبير ، فسار الى أفامية وباغتها واستولى عليها، وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم » . وعندئذ أرسل الدزبرى يستنفر الناس للغزو(٤٠) .

وفى ١١ أبريل ١٠٣٤م(٤١)/جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث فى الحمام ، نتيجة لمؤامرة دبرت بالاتفاق بين زوى وعشيقها ميخائيل البافلاجونى Michael the Paphlagonian للتخلص منه .

وقد تباينت الآراء فى المصادر والمراجع العربية والأجنبية حول كيفية التخلص من رومانوس منها :

ان زوى وميخائيل أعملا الحيلة فى قتله ، فمرض « فادخلاه الحمام كارها وخنقاه » وأظهرا أنه مات فى الحمام(٤٢) . ومنها أن زوى دست ميخائيل عليه فقتله(٤٣) ، أو أنه توفى نتيجة لدفع زوى وعشيقها له بالقوة تحت الماء . ومهما يكن الأمر فان زوى بعد أن شاع خبر وفاته اكتفت بأن دخلت الحجرة التى يرقد فيها وألقت عليه نظرة واحدة ثم انصرفت(٤٤) .

=

بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقل فى الوظائف حتى انتهى الى ولاية دمشق . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١ ـ ٧٥ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٣٢ حاشية (١) للمحقق د. محمد حلمى محمد أحمد) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٢٠ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٨ .

(٤١) Ostrogorsky: Op. cit P.323.

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

44. Hussy: Op.cit Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V, P 196.

ولم تلبث زوى أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشاب ميخائيل البافلاجونى ، رغم المعارضة الشديدة التى تعرضت لها(٤٥) . وكان أن ارتقى ميخائيل العرش البيزنطى باسم ميخائيل الرابع Michael IV ١٠٣٤ - ١٠٤١م(٤٦)/٤٢٥ - ٤٣٣هـ « على كره من الروم » على قول ابن الاثير(٤٧) .

وكان ميخائيل من أصل وضيع(٤٨) اذ كان ابنا لأحد فلاحى بافلاجونيا(٤٩) ، وهو الذى أشار اليه ابن الاثير بقوله أنه « رجل صيرفى ليس من بيت الملك وانما بنت قسطنطين اختارته »(٥٠) .

ويدين ميخائيل الرابع بارتقائه العرش لأخيه John the Orphantrophus وهو أحد الخصيان ذوى النفوذ والسطوة فى القصر الامبراطورى ، فأحضره للقصر وصمم على أن ينتزع له العرش - الذى كان محروما منه لأنه خصى - وعندئذ وقعت الامبراطورة العجوز فى حبه وتزوجته(٥١) .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع(٥٢) ، الا أنه كان يعانى من مرض خطير(٥٣) ، فقد « أصابه الصرع ودام

---

45. Ibid: P.196.
46. Ostrogorsky:Op.cit, P. 323. The Encyclopaedia V. 29, P.788.

(٤٧) ابن الاثير . الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٩ .

48. The new Encyclopaedia Britanica, vol VI, P. 858, The Encyclopaedia Americna, V. 19, P. 11.
49. Ostrogorsky: Op.cit, P.323.

(٥٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٨ .
وربما خلط القلقشندى بينه وبين أخيه حنا عندما ذكر أن زوى زوجة رومانوس مالت « الى التحكم فى دولته » (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٤٠٠).

51. Ostrogorsky:Op.cit,P.323; The New Encyclopaedia Britannica, vo. VI, 1768, P.858.
52. Ostrogorsky: Op.cit, P.324
53. Ibid : P. 324: Previte Orton : Op. cit, P. 273; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General =

به »(٥٤) . ولذا ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصى حنا(٥٥).

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى تلك الفترة ، فقد تردد فى المصادر ، أن الروم أستولوا فى ٤٢٥هـ/١٠٣٤م على قلعة بركوى وكانت متاخمة لبلاد الأرمن ، تحت حكم ابن الهيجاء ابن ربيب الدولة ابن أخت دهسوذان بن مملان ، فاختلف هو وخاله ، فبعث الأخير الى البيزنطيين وأغراهم بالاستيلاء عليها . وبالفعل أرسل الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا استطاع الاستيلاء عليها . ولما وصل الخبر الى الخليفة القائم بأمر الله « أرسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة » فاصطلحا بالفعل . لكنهما لم يتمكنا من استعادتها رغم انضمام عدد كبير من المتطوعين اليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لثبات أقدام الأخيرين فيها(٥٦) .

وفى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميرى جيشا كبيرا من العرب واستنجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها « فسار معه منهم جيش كثيف»، وهاجم ممتلكات نصر الدولة ابن مروان، ونهب وخرب . عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه ، مما دفعهم للتراجع . وكان أن أرسل ابن مروان الى امبراطور الروم «يعاتبه على نقض الهدنة،

=

Editor: Marcel Dunan Honorary Foreword by A. Toyenbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريفيت أورتون سبب ذلك المرض الى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة اشتراكه فى قتل رومانوس الثالث .

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ .

55. Previte Orton: Op. cit P.273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, p. 12.

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٧ .

كان الخليفة العباسى آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذى ولد فى نصف ذى القعدة سنة احدى وتسعين وثلثمائة . ولى الخلافة عند موت أبيه فى يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان ولى عهده فى الحياة ، وهو الذى لقبه بالقائم بأمر الله . (السيوطى : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص٤١٧).

وفسخ الصلح الذى كان بينهما » . وأرسل يستنجد بحكام الأطـراف ، « فكثر جمعه من الجنـد والمتطوعة » وعزم على التوجـه الى الرها ومحاصرتها ، فقدمت رسل الامبراطور البيزنطى تفيد بأنه « يعتـذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان».ثم أرسل الامبراطور الى قواته التى بالرها والى قائدهم يستنكر ما قاموا به . وفى نفس الوقت أهدى الى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عـزم عليه من غـزوهم وفرق القوات المجتمعة معه(٥٧) .

وفى نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ/١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية الى ولاية حلب فخرج اليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فاقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم الى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما(٥٨) .

أما فى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميرى ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعديين الى « (سويرك) وهى للـروم ودوخها » وقتل من أهلها ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان . ثم زحف الى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة. وعندما ضاق الأهالى بالحصار سـلموه المدينة ، فانهـزم البيزنطيون وتحصنوا فى برج المدينة،فقاتلهم المسلمون وفتكوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الاستيلاء على البرج ، « فنهبوا المدينة » وعادوا . ويقال ان عدد الفتيات والفتيان الذين سبوهم كان ثلاثة آلاف نسمة(٥٩) .

ومن ناحية أخرى ، فانه حدث خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوى ، التى استمرت سبع سنوات ، أن عقدت الامبراطورية البيزنطيـة معاهدة مع الخلافة الفاطمية فى مصر وأحـرزت انتصارات مؤقتة فى

---

(٥٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٣ . وهو يسمى الامبراطور البيزنطى هنا (ملك الروم) .

(٥٨) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٦ .

جزيرة صقلية(٦٠) ٠

ففى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله(٦١) ٠ وفى رجب ٤٢٧هـ/مايو١٠٣٦م تحالف كل من ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا قواتهما،وأمدهما نصرالدولة ابن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع الى السويداء ٠وكان البيزنطيون قد أعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون « وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا » ، ثم توجهوا الى الرها وحاصروها « وقطعوا الميرة عنهـــا » حتى غلت الاسعار بها غـــلاء شـــديدا ، وعندئذ خرج « البطريق » الذى بالمدينة متخفيا الى الامبراطور، وإخبره حقيقة الأمر، فأنجده خمسة آلاف فارس عاد بهم٠ولما علم ابن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنا لهم، فلما اقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عـــدد كبير من البيزنطيين وأسر مثلهم ، كما أسر البطريرك أيضا وحمل الى باب الرها،وخيروا أهلها اما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتـــلوا انبطريرك والأسرى الذين معـه « ففتحوا البلد للعجز عن حفظه »٠ وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، فدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها « وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى وأكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب الى آمـد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى » ٠ وعندئذ سار حسان بن الجراح الطائى بجيش يقدر بخمسين ألف فارس « من العرب والروم نجدة لمن

---

60. The New Encyclopaedia Britannica, vol VI, (1768), p.p. 857-858.

(٦١) عندما توفى الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن أبى على المنصور الحاكم فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ/يونيه ١٠٣٦م ، متأثرا بداء الاستسقاء الذى ظل يلازمه مدة عشرين سنة عنذ صباه ، تولى بعده ابنه أبو تميم معد ، ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة ، وفى أيامه كانت قصة البساسيرى وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة ٠ وكان الحاكم فى دولته بدر بن عبد الله الجمالى الملقب بالأفضل أمير الجيوش ٠ (ابن الأثير : الكامل، ج٩ ، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨) ؛ اما ابن العبرى فيذكر أن الظـــاهر خليفة مصر توفى فى ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ٠

(Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, p. 196.

بالرها»، فسمع ابن وثاب بذلك فسار مسرعا لملاقاته قبل وصوله.وعندما خرج البيزنطيون الموجودون بالرها الى حران قاتلهم أهلها . وفى نفس الوقت عاد ابن وثاب مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فانقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد المنهزمون الى الرها(٦٢) .

أما فى ٤٢٩هـ(٦٣)/١٠٣٨م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، تم فيها الاتفاق على أن يطلق الامبراطور البيزنطى سراح خمسة آلاف أسيرا مسلما ، على أن يسمح للامبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة . وبالفعل أطلق الامبراطور سبيل الأسرى ، ووجه أحد خبراء العمارة الى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد أن أمده بالأموال الوفيرة ، حتى أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها « كما كانت من قبل »(٦٤) .

أما عن صقلية فقد تم الاستيلاء على مسينا ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وعلى سيراكوزا ٤٣٢هـ/١٠٤١م ولكنها كانت انتصارات مؤقتة(٦٥) .

والواقع ان الجبهة الشرقية كانت محك العلاقات بين المسلمين والروم فى تلك الحقبة . وقد ذكر ابن العبرى أنه حدث فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) أن هاجم الأتراك الغز أرمينية أكثر من مرة « وقتلوا

---

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٦٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ ؛ د .محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربى (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م) ص ٢٤٥ ؛ ويذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان فى ٤٢٧ هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة الظاهر وميخائيل الرابع . أما ما ذكره Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 196. وابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيختلف فى السنة فقط حيث يذكران أنها كانت ٤٢٧هـ .

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . أما ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين ألفا وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين فى مصر . والراجح أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة بذلك الشكل تكون لمصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

65. The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

خلقا كثيرا من أكرادها وعربها » واستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورميه بأذربيجان فانحدر أكراد الجبل واشتبكوا معهم وانتصر الغز، « وأجهزوا على عدد وافر منهم »(٦٦) ولما وجد الأمير صالح بن وثاب النميرى حاكم حران وأرمينية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين والأتراك فى وقت واحد،عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلى لهم عن الرها،فاستولوا عليها وزاد عددهم فيها(٦٧) . عندئذ عمر البيزنطيون الرها « العمارة الحسنة وحصنوها » فخاف المسلمون على حران منهم(٦٨) .

واذا كان ابن العبرى قد ذكر أنه حدث فى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م أن زحف البيزنطيون على بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشتكين بجوار حماه وتغلب عليهم وأسر ابن عم الامبراطور « وقتل خصيا كبيرا »(٦٩). فالراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة ، اذ نرجح نحن أنها ٤٣٢هـ استنادا لما دونه ابن الأثير ضمن أحداث تلك السة الأخيرة ، اذ ذكر أنه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين « كانت الوقعة بين عسكر المصريين - سيّره الدزبرى - ، وبين الروم ، فظفر المسلمون »(٧٠) . ويعنى بالمصريين هنا الفاطميين .

وقد رأينا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ ، لكن لم تمر سوى سنوات قليلة ، الا وتمت مراسلات سنة ٤٣٢هـ (١٠٤١م) بين الامبراطور البيزنطى وابن صالح بن مرداس . ذلك أن الامبراطور

---

(٦٦) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩

Bar Hebraeus: Op.cit V. 1, P. 198;

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ، ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 198; ويذكر مترجم كتاب ابن العبرى أن الأمير ابن وثاب كان صاحب سورية وأرمينية .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ .

(٦٩) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٩٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 199,

ويذكر مترجم ابن العبرى أن الذى قتل كان حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch) كما ورد فى الأصل .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩١ .

ميخائيل أرسل الى ابن صالح « يستميله » ، وراسله صالح ليتقوى به على الدزبرى ، خوف أن يأخذ منه الرقة . لكن عندما وصلت أخبار تلك الاتصالات الى الدزبرى ، هدد ابن صالح ، فاعتذر الأخير . ثم ان جمعا من عربان بنى جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية وقاتلتهم وهزمتهم وشتتت شملهم . وعندما أرسل حاكم حلب الى الدزبرى فى نفس السنة (٤٣٢هـ) يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد « وأن القوم على التجهز لقصد البلاد » ، جهز الدزبرى جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته ، فتقابلوا مع الجيش البيزنطى بين مدينة حماه وأفامية « واشتد القتال بينهم ، ثم ان الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين » . وهكذا دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر ابن عم الامبراطور فافتدوه بمبلغ ضخم من المال ، وباطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين . وقد توقف خطر البيزنطيين بعد ذلك ، «وانكف الروم عن الأذى بعدها »(٧١) .



أما عن الامبراطورة زوى فانها بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطأت تقدير الأمور مرة اخرى . ذلك أن ميخائيل أهملها كلية ، وفرض قيودا على حريتها الشخصية وتحركاتها ، وجعل من أخيه رقيبا عليها ، وذلك حرصا منه على الا يتعرض للمصير الذى سبق أن تعرض له سلفه رومانوس أرجيروس(٧٢) .

والواقع أن المستفيد الحقيقى من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، اذ خطط بدهاء لاستمرار الحكم فى أسرته ، وأخذ فى اعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه ، فحصل على موافقة ميخائيل الرابع ،وكذلك أقنع الامبراطورة زوى ـ بتبنى ابن أخته المسمى ميخائيل أيضا ، والذى منح لقب قيصر(٧٣) .

---

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ .

72. Ostrogorky: Op. cit, P. 323.

73. Ibid, P.326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V,P. 198.

وكان أن تم لحنا تنفيذ مخططه ، فقد حدث بعد عودة ميخائيل الرابع من احدى حروبه ضد البلغار ، ان اشتد عليه المرض ، فانسحب الى أحد الأديرة - بعد أن تبنى ميخائيل ابن أخته - الا أنه توفى فى نفس اليوم ١٠ ديسمبر ١٠٤١م(٧٤)/١٤ ربيع الثانى ٤٣٣هـ(٧٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خلفه ابن أخته ، وتوج باسم ميخائيل الخامس Michael v (٧٦) .

والحقيقة أن حكم ميخائيل الخامس الملقب بالجلفاط(٧٧) The Calker, Calaphates ، أدى بعهد الأسرة البافلاجونية الى نهاية غير متوقعة(٧٨) ، وبمعنى آخر « أدت مطامع البلافلاجونيين الدنيئة وكراهيتهم الى تدميرهم »(٧٩) ذلك أن ميخائيل الخامس قابل احسان خاله اليه بالجحود فقبض عليه ونفاه، دون أن يرتفع صوت واحدا لحماية ذلك الخصى الذى كان مكروها من الجميع(٨٠) ثم ان ميخائيل الجلفاط اظهر مزيدا من الرعونة بعد ذلك فاتجه الى معاقبة الامبراطورة زوى أيضا . ويبدو أنه رأى منها على حد تعبير (بسللوس) - مصدر ازعاج شديد له ، لذلك استمر فى مراقبتها مراقبه صارمة ، كما كان الحال فى عهد ميخائيل الرابع ، ثم أتبع ذلك بمحاولة رادعة لابعادها عن حقل السياسة بعد اتهامها بمحاولة سم الامبراطور . وبالفعل حدث فى يوم عيد الفصح ١٠٤٢م أن نفيت زوى الى جزيرة برنسبو Principo

---

74. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The Encyclopaedia Britannica, vol VI, p.p. 857-858.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

76. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, 1, Chapter V.P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا أخطأ ابن الأثير ، جـ ٩ ، ص ٥٠٢ فى القول بأن ميخائيل الخامس كان ابن شقيق ميخائيل الرابع وليس ابن أخته .

77. Previte Orton: Op.cit, P.274; The Encyclopaedia Ameriana, V. 19, P. 12.

والجلفاط هو الذى يسد شقوق السفينة .

78. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
79. Previte Orton· Op.cit, P. 274.
80. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

فى بحر مرمرة ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة(٨١) ٠

ولا عبرة هنا بما جاء فى بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله ٠ فقد ذكر القلقشندى أنه « أحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تخلع نفسها عن الملك فأبت فنفاها الى بعض الجزر واستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ »(٨٢) ٠

وربما كان ابن الأثير أقرب الى الحقيقة عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله « وطلب منها أن تترهب وتنزع نفسها عن الملك فأبت ، فضربها وسيرها الى جزيرة فى البحر »(٨٣) ٠

على أن ميخائيل الخامس لم ينعم بانتصاراته سوى فترة وجيزة(٨٤) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضمت المخلصين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاط « الذى تجرأ برفع يده ضد من ولدت فى الأرجون بالعزل » ثم سملت عيناه فى أبريل ١٠٤٢م(٨٥) شعبان ٤٣٣هـ ، وقيل انه سملت عينا خاله أيضا(٨٦) ٠

---

81. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chaper V,P. 198. Psellus عن

بالنسبة لعيد الفصح ، يقال أن المسيح عليه السلام ارتفع بين تلاميذه الى السماء فى هذا اليوم ، ووعدهم بارسال روح القدس ٠ ويأتى هذا العيد يوم افطارهم بعد صيام أربعين يوما ٠ (الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٨٠-٢٨١) ٠ وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح «عبور» (د٠ حسين سعيد : الموسوعة الثقافية، دار المعرفة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) ٠

(٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ٠

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ٠

84. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
85. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
86. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثل وجهة النظر العربية عن أسباب الثورة التى أطاحت بأبناء الأسرة البفلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر أنه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الامبراطورة زوى زوجة ميخائيل الرابع الى جزيرة فى البحر « عزم على القبض على البطرك والاستراحة من تحكمه عليه ، فانه كان لا يقدر على مخالفته »(٨٧) . فطلب منه أن يعمل له طعاما فى دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطريرك الى الدير لينفذ ما طلبه الامبراطور . وعندئذ أرسل الامبراطور « جماعة من الروس والبلغار » ، بعد أن اتفق معهم على قتل البطريرك سرا ، فقصدوه ليلا وحاصروه فى الدير ، فاستمالهم اليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا « وقصد البيعة التى يسكنها وضرب الناقوس » فاجتمع الروم حوله ، فدعاهم الى عزل الامبراطور ، فأجابوه الى مطلبه وحاصروا ميخائيل الخامس أو الجلفاط ، فأرسل الأخير الى (زوجته)(٨٨) وطلب منها أن تبرأه فرفضت « وأخرجته الى بيعة يترهب فيها »(٨٩) .

ثم يستكمل ابن الأثير روايته بقوله : « ان البطريرك والروم « نزعوا زوجته(٩٠) من الملك » ، ومنكوا أختا لها صغيرة — اسمها (تذورة)(٩١) — وجعلوا معها خدم أبيها يدبرون الملك ، وكحلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتذورة والبطرك ، فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم »(٩٢) .

---

(٨٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٨٨) أخطأ ابن الأثير فى كتابه الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أرسل الى « زوجته وأحضرها من الجزيرة التى نفاها اليها » لأن التى نفيت هى زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الاسمين متشابهين تماما أى ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس .

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٩٠) المقصود زوى زوجة خاله لا زوجته هو .

(٩) المقصود ثيودورا .

(٩٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .

نعود مرة أخرى الى وجهة النظر الاخرى لنتابع ما دون فى المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الامبراطورة زوى برزت للجماهير فى نفس اليـــوم الذى تم فيه سمل عينى الامبراطور ميخائيل الخامس وخاله،وهى فى ثياب الراهبات،لا فى ثيابها الامبراطورية(٩٣) وكان أن أسرعت الجماهير الى دير Petrion وانتزعت منه أخت زوى الصغرى - ثيودورا - التى كانت قد ترهبت » وجروها رغم ارادتها الى كنيسة سانت صوفيا كى ينادوا بها امبراطورة بالاشـــتراك مع زوى »(٩٤) . وقيل ان ثيودورا كانت قد حجبت وفقا لطلب زوى(٩٥) .

ومرة أخرى نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على شخصية ثيودورا . فنجد أنها الابنة الصغرى للامبراطور قسطنطين الثامن ، وكانت طويلة القامة مثله ، جافة ، سريعة فى لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت تقية وفى نفس الوقت اتصفت بالبخـــل . هـــذا بالاضافة الى أنها كانت على غير وفاق باستمرار مع أختها زوى(٩٦) حتى قيل ان زوى كانت شديدة الغيرة منها، وانها كانت تفضل معاملة ميخائيل السيئة عن مشاركة أختها ثيودورا فى الحكم(٩٧) .

وباعتبار الأختين الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية، انتقل اليهما الحكم معا(٩٨) . ولو أن زوى أصرت على أن تكون لهـــا الأسبقية على أختها(٩٩) .

---

93. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
94. Idem, P.199.
95. OstrogorsKy: Op.cit, P. 326.
96. Hussey: Op.cit, Cam. Mad. Hist, vol. IV, Part, 1, Chapter V, p.p. 193-194.
97. Idem, P.199.
98. Ensslin (W): The Govermment and administrion of the Byzantine Empire, Cam. Med. vol. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.
99. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chaper V. P. 199.

وهكذا حكمت الأختان « المتبابنتان الشخصية تماما الامبراطورية البيزنطية »(١٠٠) . ورغم أنهما كانتا المثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية الا أنه كان يعوقهما عن مواصلة السهر على شئون الامبراطورية شيئان ، أولهما : أنهما كانتا فى ذلك الوقت امرأتين طاعنتين فى السن، وكان من الصعب عليهما توجيه الامبراطورية الى الطريق المستقيم ، مما مكن العسكريين والمدنيين خلال فترة حكمهما القصيرة من الاتحاد والعمل معا بانسجام ، بحيث كان الجميع يغتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم(١٠١) وثانيهما : أن العداوة بين الاختين كانت متأصلة حتى أصبح من الضرورى العثور على رجل قوى ليمسك بزمام الحكم(١٠٢) .

أما (بسللوس Psellus فيعلق على حكم زوى وثيودورا القصير بأنه « يمدنا بمثال فريد للحكم المشترك والمشاركة فى السلطة العليا »(١٠٣) .

وهكذا اتضحت حاجة الامبراطورية الملحة الى وجود رجل قوى على رأس الحكومة . ولتحقيق هذا الغرض كان لابد من زواج احدى الاختين الكهلتين . « وكانت ثيودورا لا ترغب فى الزواج »(١٠٤) ، أما زوى فقد شرعت فى البحث مرة أخرى ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها،رغم أنها كانت قد بلغت الرابعة والستين من عمرها(١٠٥). وبالفعل وجدت ضالتها فى « الفارس الوسيم » قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١٠٦) ، الذى كان أحد أعضاء مجلس

100. Previte Orton: Op.cit, P. 274.
101. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V,P. 199.
102. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
103. Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, PartII Chapter XX, P. 5.
عن Psellus.
104. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
105. Idem, P. 326.
106. Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P.297, The Encyclopaedia Americna, V. 7, P. 650.

السناتو البارزين ، فاتخـــذته زوجا ثالثـــا لها فى ١١ يونيه ١٠٤٢م/ ٤٣٣هـ(١٠٧) .

والواقع ان ابن الأثير كان أقرب الى الحقيقة حين أوضح فى أحداث سنة ٤٣٣هـ « أن الروم افتقروا الى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك فى رقاع ، ووضعوها فى بنادق طين وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها ، فخرج اسم قسطنطين ، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة ، واستنزلت أختها الصغيرة تدورة عن الملك بمال بذلتها لها »(١٠٨) .

وثمة عبارة فى هذه الفقرة أخذت عن الترجمة العـــربية (للأب اسحق) مترجم كتاب تاريخ ابن العـــبرى الى العـــربية والذى ســـماه (تاريخ الزمان) ، وهذه الترجمة مليئة بالأخطاء التاريخية واللغوية . ذلك أنـــه أورد فى أحـــداث ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م ما نصـــه : « توفى ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتولى شـــئون المملـــكة ابنتاه زواى وثيودورا ثلاثة أشهر . ثم عقـــد الأقطاب المشـــورة وانتقوا منهم ثلاثة أشخاص كفوئين ، وكتبوا أسماءهم فى أوراق وضـــعوها فى صـــندوقة ختموها بالشمع وأحضروا صبيا مـــد يده واستخرج أحدها وبها اســـم مونوماخوس فزفرا اليه ثيودورا المذكورة ونادوا به ملكا باسم قسطنطين. وأسنت ثيودورا لأختها زواى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك »(١٠٩) .

---

107. Ostrogorsky · op.cit.P.326.

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٠٠ .

(١٠٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

هنا يورد ابن العبرى زواى باســـم Zoai أو Zai ، ثودورا باســـم Theodora . وبمراجعة ترجمة النص من الأصل لابن العبرى تجد فيه عـــدة أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وانتقوا منهم ثلاثة = وانتقوا من بين أبنائهم ، كفوئين = يصلحون للحكم ، وأسنت ثودورا لأختها = وأعطت ثيودورا أختهـــا .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1,P. 200.

وعندما تناول هذا النص بالتحليل والنقد ومقارنته فى نفس الوقت بتاريخ ابن العبرى الأصلى نلاحظ ما يلى :

أولا : يتفق ابن العبـرى والمترجم على أنه فى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م سملت عينا ميخائيل الخامس وأبعد الى أحد الأديرة كما مر بنا ، ولا نعلم ان كان قد توفى فى تلك السنة أم لا .

ثانيا : كيف يكون ميخائيل قد توفى دون عقب ، ثم تتولى ابنتاه ، زواى وثنودورا - كما سماهما المترجم - شئون المملكة ؟ وهنا نجد الرد ببساطة على تساؤلنا فى أن المترجم أخطأ فى ترجمة without sons أى (دون أبناء ذكور) فجعلها (دون عقب) .

والواقع أن ابن العبرى خلط هنا بين ابنتى قسطنطين الثامن وبين ابنتى ميخائيل المزعومتين هنا .

ثالثا : أن ثيودورا (ثنودورا) لم تتـزوج وأن التى تزوجـت من قسطنطين مونوخوس هى زوى ابنة قسطنطين الثـامن لا أختها ثيودورا ، وأنها اعتلت العرش الى جانبه ، كما سـنرى . وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن « ثنودورا أسنت لأختها زوى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك » لا محل لها من الصحة .

أما قسطنطين مونوماخوس فكان ينتمى الى أسرة عريقة(١١٠) ، اتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء فى عطائه(١١١) وكانت ثقافته عالية ، الا أنه كان فاسقا خليعا(١١٢) . وقد توج امبراطورا فى اليوم التالى لزواجه من زواى ١٢ يونيـه ١٠٤٢م(١١٣)/شوال ٤٣٣هـ باسـم

110. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hisl, vol. IV. Part1, Chapter, V, P. 199.

هنا يذكر نفس المرجع أنه كان قد حبس فى مدينة ملطية كأحد المشكوك فيهـم سياسيا فى عهد ميخائيل الرابع .

(١١١) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200 .

112. Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

113. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, 199.

قسطنطين التاسع مونوماخوس . وعند هذا الحد لا تكون تلك الفتـــرة الفاصلة من الحكم النسائى(١١٤) التى استمرت حوالى ثلاثة أشهر ، قد انتهت .

وقد اختلفت الآراء فى وضع قسطنطين التاسع عنـــدئذ ، فالبعض ذكر أنه بتوليه العرش الامبراطورى « تخلت له الســـيدتان عن السيادة بصورة آلية .»(١١٥) فى حين أوضح رأى آخر أنه أصبح حاكما مشاركا لزوى وثيودورا(١١٦) وأنه لم يحاول أن يضع أى نوع من القيود على شريكتيه فى الحـــكم(١١٧) « فتمتعت الأختان مع الامبراطور العـاشق المحب للملذات ، بتبديد الأموال العامة »(١١٨) .

★ ★ ★

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى فترة حـــكم قنسطنطين التاسع وزوى،فأول ما تسعفنا به المصادر التى بين أيدينا - فى حوادث ٤٣٥هـ(١١٩)/١٠٤٤م(١٢٠) هو طـــرد الغـرباء المسلمين والنصارى الموجودين فى العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص . وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة فى العاصمة بأن قسطنطين قتل زوى وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن ، وعنـدئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فى البلد ، فبرز لهم قسطنطين وسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين . فلما رآهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء فى القطسطينية هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بابعادهم ، فنودى « أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة

114. Ensslin (W): Op.sit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part XX,5.

(١١٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

116. The New Encyclopaedia Britannica, V.III, P. 102.

117. Ostrogorsky: Op.cit,P.327.

118. Idem: P.327.

(١١٩) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٥١ .

(١٢٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ .

أيام كحل » - أى سملت عيناه - لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية أكثر من مائة ألف مسلم ونصرانى « ولم يبق بها أكثر من اثنتى عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم »(١٢١) .

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين فى مصر . يدل على ذلك تلك الهدية القيمة التى أرسلها قسطنطين التاسع مونوماخوس فى ثامن ذى الحجة/يونيه من تلك السنة ، الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وقد اشتملت على « ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والابريسم والعمائم المعلمة مالا يقدر على مثله »(١٢٢) . وقد رد المستنصر بالله على الامبراطور البيزنطى بهدية مثلها « من الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه »(١٢٣) .

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين فى٤٣٩هـ/ ١٠٤٧ - ١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة « بين صاحب مصر وبين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة »(١٢٤) . لكن حدث فى نفس السنة السابقة أيضا - ٤٣٩هـ - أن سير المعز باديس صاحب أفريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد(١٢٥) .

---

(١٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١ ؛
كذلك ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ . أما ابن كثير : البداية ج ١٢ ، ص ٥١ فيذكر أن « ملك الروم » أى الامبراطور نفى من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة .

(١٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ . هنا يذكر المقريزى أن القنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومئتان دينار . أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية) .

(١٢٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ .

(١٢٤) ابن الأثير . الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤١ .

(١٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ .

أما من ناحية الجبهة الشرقية فكان الوضع على عكس ذلك ، بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا عنى العـــراق من بلاد ما وراء النهر.وكان تحمسهم للاسلام وللمذهب السنى على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم . وقد وجدوا فى بلاد العراق الخصبة وما حولها ، وفى الهيمنة على الخلافة العباسية ماحملهم على التفكير الجدى فى التوسع غربا، فقام زعيمهم طغرلبك١٠٣٨م/٤٣١هـ باحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان . ومازال السلاجقة يواصـــلون حركتهم التوسعية حتى دخلوا بغداد فى ١٠٥٥م/٤٤٦ - ٤٤٧هـ. وكان من الطبيعى أن يحتك السلاجقة المتحمسون للاسلام بالامبراطورية البيزنطية ، فأخذ السلاجقة فى الاغارة على أطرافها فى البلاد الأرمينية(١٢٦) .

من ذلك أنه حدث سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨ - ١٠٤٩م اذ عبر جمع غفير من الأتراك الغز من بلاد ما وراء النهر الى بلاد ابراهيم ينال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك وأشار عليهم بأن « تمضوا الى غزو الروم ، وتجاهدوا فى سـبيل الله وتغنمـــوا ، وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم » عندئذ تقدموا الى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو فى اثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا (قيليقية) ،حتى بلغوا طرابزون، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخار، يقدر بحوالى « خمسين ألفا » . ودارت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة « وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين » فقتلوا عددا كبيرا من البزينطيين ، وأسروا « جماعة كثيرة من بطارقتهم . وممن أســر قاريط (فاريط) ملك الأبخار » فحاول أن يفدى نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض ابراهيم اينال .« ولم يزل يجوس فى تلك البلاد وينهبها ، الى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمســة عشر يوما» واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا مافيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبغـــال والغنائم والأموال مالا يحصى . وقيل أن الغنائم حملت على عشر آلاف عجلة وأن

---

(١٢٦) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٣٠ - ٣١ .

فى جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع(١٢٧) ٠

ومع كل ذلك اختـــار الامبراطـــور قسطنطين التاسع أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين ٠ وخير دليل على ذلك أنه أرسـل الى السلطان طغرلبك هدية عظيمة فى ٤٤١هـ/١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرلبك على ذلك ؛ بشرط تعمير مســجد القسطنطينية ، واقامة الصلاة والخطبة فيه لطغرلبك(١٢٨) ٠ هـــذا بالاضافة الى احتفاظ الامبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية، والتى تمثلت فى تلك الرسالة التى أرسنها فى ٤٤٣هـ/١٠٥٢م الى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية الى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها، وقد رقمت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية(١٢٩) ٠

والواقع أنه بتقدم زوى فى السن صارت أكثر تسامحا(١٣٠) وظلت كذلك حتى توفيت فى ٢٦ مـــايو ١٠٥٠م أول المحـــرم ٤٤٢هـ(١٣١) « وودعت بذلك حياتها الخيالية الغريبة »(١٣٢) ٠

وفى ١١ ينـــاير ١٠٥٥ م/ ٩ شـــوال ٤٤٦هـ توفى قســـطنطين التاسع(١٣٣) ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش٠

---

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٤٦ أحداث ٤٤٠هـ ٠

وأبخار بالفتح ثم السكون والحاء معجمة والف وزاى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهى جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها تجاور بلاد اللان ٠ (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما يثالثهما) ٠

(١٢٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٦٩ ٠

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ولقد وردت السنوات فى الأصل على النحو التالى ٤٤٣/١٠٥١م

130. Ostrogorsky: Op.cit, P.327.
131. Idem: P.616: Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.
132. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.
133. Ostrogorsky: Op.cit, P.337; Hussey: Op.cit, Cam. Med.Hist, V. IV, ChapterV, P.204.

هنا أخطأ ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤ !.
Bar Hebraeus : op.cit, V.1, P.207.

وتم الأمر دون علم ثيودورا ، المثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدونى • وعندما سمعت ثيودورا بما حدث عادت الى القصر وسيطرت على الحرس الامبراطورى، وفى الحال تقلدت الأطلال الباقية للحكم »(١٣٤) وعادت الى كامل سلطانها(١٣٥) وهكذا باشرت ثيودورا السلطة الامبراطورية بمفردها حتى توفيت فى آخر أغسطس ١٠٥٦م(١٣٦) أو بداية سبتمبر ١٠٥٦م(١٣٧) / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨هـ •

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة تتصف بالعزم التام على ادارة دفة الحكم • حقيقة أنها لم تتخذ زوجا لكنها اختارت وزيرا لها هو (Leo Paraspondylus) وكان « واقعيا عنيدا جادا فى مواصلة العمل، فعنى بالسياسة الاقتصادية فى الداخل وعمل على اقرار السلام فى الخارج »(١٣٨) •

ويعقب (استروجورسكى) على نهاية الأسرة المقدونية بقوله « وبوفاة ثيودورا انتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة حقا لتلك الأسرة البيزنطية التى جاهدت بشدة كى تدعم نفسها • وفى النهاية تماسكت بعناد لتواصل البقاء ، وذلك على مدى الثلاثين سنة الأخيرة ، وبذلك مضت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى دون أن يتغنى بها »(١٣٩) •

ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، فى القول بأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من ثيودورا ابنة قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من زوى لا ثيودورا • والراجح أن الثانى أخذ عن الأول هذا الخطأ •

134. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, ,Part 1, Chapter V P.204.

(١٣٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ •

136. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V, P.205.

حيث ذكرت هسى نقلا عن Scylitzes-Cedrenus أن وفاتها كانت فى ٣١ أغسطس ، أما هى فتقول أنها كانت فى ٢١ أغسطس •

137. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

138. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P.204.

139. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

اما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية، فأهم ما يلاحظ فيها بالنسبة للجبهة الشرقية ، أن طغرلبك أنهى الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين ونقدم فى أواخر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م الى أرمينية ثم الى ملازكرد التابعة للبيزنطيين فحاصرها وضيق على أهلها ونهب ما جورها من البلاد وخربها • وعندئذ دخل نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر فى طاعته وأرسل اليه الهدايا الكثيرة والقوات كى تحارب البيزنطيين تحت لوائه(١٤٠) • وكان أن أوغـل طغرليك فى أراضى البيزنطيين وأحرز عليهم انتصارات باهرة ونهب بلادهم وقتـل وسبى العديد منهم(١٤١) « وبلغ فى غزوته هذه الى أرزن الروم » ثم عاد الى أذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء(١٤٢) •

وأما عن العـلاقة مع الفاطميين ، فثمة رأى يذكـر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى استغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسـل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح • وقد أظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطورة ثيودورا ، فاشترطت لمعونة مصر أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى على بلادها أى معتـد • غير أن المستنصر رفض هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال الى مصر(١٤٣) •

---

(١٤٠) ابن الأثير • الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ •

(١٤١) المصدر السابق نفس الجـزء والصفحة ؛ أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٦٥ •

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ •

143. Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter XVII, P.726.

جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ •

وقد زاد الوضع تعقيدا بين البيزنطيين والفاطميين عندما أراد الخليفة المستنصر أن يرد اعتبار الفاطميين بارسال جيش فاطمى لمحاربة البيزنطيين ، بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو والجهاد(١٤٤) . وكان أن تنقل الجيش الفاطمى فى أجزاء مختلفة من بلاد الشام حتى استقر به المطاف أخيرا عن أنطاكية ، وعندئذ أرسلت الامبراطورة ثيودورا أسطولا الى أنطاكية مكونا من ثمانين قطعة « وخرج دوقس انطاكية وبطركها فى جماعة فظفروا بشينيين للمسلمين معهما الغنائم »(١٤٥) . وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين وأسر منهم عدد كبير(١٤٦) وقتل من الفريقين عدد كبير وعاد الأسطول البيزنطى الى اللاذقية(١٤٧) .

وكان أن أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، الى الامبراطورة ثيودورا ، على رأسها أبو عبد الله القضاعى(١٤٨) . ولكن نوايا الروم تجاه الدولة الفاطمية اتضحت عندما سمحت الامبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، أثناء وجود أبى عبد الله القضاعى سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ/١٠٥٥م(١٤٩) . وقد علل أحد الأساتذة المحدثين هذا الاتجاه بقوله : « أنه لا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون كثيرا من الصعاب فى مصر »(١٥٠) .

وكان رد الخليفة المستنصر على تلك الاساءة التى لحقت بسفيره بل

---

(١٤٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٣١ . والشوانى مركب حربية بها مائة وأربعون مجدافا ، وكانت تعد اكبر سفن الأسطول (حاشية عن دوزى ، قوانين الدواوين) .

(١٤٦) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(١٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٤٨) علية الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ .

(١٤٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ٢ ، حوادث ٤٤٧هـ ؛ المقريزى : إتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٥٠) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة(١٥١) » فأحاط بما فى قمامة وأخذه وأخرج البطرك منها الى دار مفردة(١٥٢) هذا بالاضافة الى اغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته الرهبان بها عن أربع سنوات(١٥٣) وقد أدت كل تلك الاجراءات الى التوتر الشديد فى العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين(١٥٤) .



ولم يلبث أن ضغط حـزب البـــلاط على الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦م/٤٤٨ - ٤٤٩هـ كى تختار من يخلفها فى الحكم . فوقع اختيارها على البطـــريرك ميخائيل Michael ، المعـــروف باسـم العجـــوز أو (ستراتيوتيكوس Stratioticus) . فلما ماتت ثيودورا فى بداية سبتمبر ١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، خلفها ميخائيل على العرش باسم ميخائيل السادس Michael VI . ولم تتجاوز مدة حكمه ســنة واحدة ، تألفت أثناءها جبهة لمقاومته محورها الجيش المرابط فى آسـيا الصغرى ، وهو الذى نادى بالقائد اسحاق كومنين Isaac Comnenus امبراطورا(١٥٥) .

وهكذا طويت فترة عصر الحكم النســائى وهى فترة لا تخلو من أحداث جسام فى الداخل والخارج ، وبخاصة فيما يتعلق بالعـلاقة مع المسلمين ، فضلا عما زخـرت به تلك الفتـــرة من اتجاهات تلقى بعض الضوء على ما كان يجرى داخل البلاط البيزنطى .

---

(١٥١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(١٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٥٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(١٥٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ جمـــال سرور : سياســة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ .

155. Ostrogorsky: Op.cit, P. 338; Larousse Encyclopaedia of Ancient andMedieval History, P.297.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١ - ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م)
أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٢ - ابن أيبك الدوادارى : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

٣ - ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)
جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، جـ٤ ، (د.م ، د.ت) ، جـ٥ ، من سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

٤ - ابن العبرى : (ت ٦٨٥/١٢٨٦م)
أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله الى العربية الأب اسحق أرملة وصدر تباعا فى مجلة الشرق (١٩٤٩ - ١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فييه فى المناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦ - ١٩٨٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .

٥ - ابن القلانسى : (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)
أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .

٦ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثانى عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .

٧ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)
أبو عبد الله تاج الدين محمد بن على بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثانى ، مصر ١٩١٩ .

٨ ـ أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
عماد الدين اسماعيل : المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثانى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ٠

٩ ـ السيوطى : (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ٠

١٠ ـ القلقشندى : (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، الجزء الخامس ، بيروت ١٩٨٠ ٠

١١ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
تقى الدين أحمد بن على : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور حلمى محمد أحمد ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ٠

١٢ ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت ٠

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ - حســـن حبشى :
الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨ .

٢ - رنســيمان : ستفن :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكى على ، من سلســلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضـــة المصرية ، ١٩٦١م .

٣ - علية عبد السميع الجنزورى :
المرأة فى الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

٤ - محمد جمال الدين سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفـكر العـــربى ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Bar Hebraeus:
The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of AAron the HebrewPhysician, the First Part of His Political History of the world, Translated from Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford University Press, London, 1932.

— Canard (M.):
Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.

— Encyclopaedia Americana, V.19.

— Ensslin (W.):
The Government and administration of the Byzantine Empire Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire Part II, Government, Church and Civilization, Chapter XX.

— Hussey (J.M.):
The Later Macedonians, the Comneni and the Angeli 1025-1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V.

— Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by Arnold Toynbee.

— Ostrogorsky (G.):
History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

— Previte Orton (C.W.):
The Shorter Cambridge Medieval History, V.1, Cambridge University Press, 1977.

— The New Encyclopaedia Britannica, V.V1, 1768.

بنو ايلدكز أتابكة أذربيجـــان
وعلاقاتهم بالقوى المعاصرة

(٥٤١ ـ ٦٢٢هـ = ١١٤٨ ـ ١٢٢٥م)

د٠ مسـفر بن سـالم الغامدى(*)

كانت وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ايذانا ببروز نظام جديد على مسرح الأحداث فى الشام ، والعراق ، وايران ، وأرمينية ، وأذربيجان(١) ٠ ونعنى بهذا النظام نظام الأتابكيات(٢) الذى أخذ فى التنامى والظهـور نتيجة صـــغر سن بعض أمـــراء البيت السلجوقى من جهة ، وحرص رجال البيت السـلجوقى على ايجاد قائد من القادة العسكريين الكبار يقوم بتربية الأبن أو الأمير السلجوقى الصغير وتلقينه الفنون العسكرية والادارية من جهة أخرى ٠

(*) أستاذ مساعد التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التـــاريخ بكلية الشريعة ـ جامعة أم القرى ٠

(١) اذربيجان : اقليم جبلى واسع بشمال ايران يضم العديد من المدن كتبريز والمراغة وخوى وسلماس وأرمية وأردبيل ومرند وغيرها ، والغالب على أرضها الجبال تكثر بها العسائيه والمياه ، ولغة أهلها اللغـــة الأذرية ٠ وأقليم أذربيجان فتح زمن الخليفة عمر بن الخطاب عندما كانت أردبيل عاصمتها ٠ وأذربيجان كانت تعرف باسم أذربايكان وبالفارسية تعرف أذربيجان باسم آزربيجان ٠ وقد صحف اليونان هذا الاسم الى Arropatena ، وأذربيجان احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى المنحل التى استقلت حديثا وهى مطلة على برفزون ٠ انظر : ياقوت ، معجم البـــلدان ، جـ١ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٩٣ والحاشية رقم ١ بنفس الصفحة ، حسين قاسم عزيز : انتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية ، ص ٤٦ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ق٢ ، ص ٥٧٢ تعليق المحقق يحيى عباره ٠ ولمزيد من التفصيل عن أذربيجان انظر صابر دياب ، المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ص ٤٦ حاشية رقم ١ ٠

(٢) أتابك : لقب تركى يتكون من كلمتين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، انظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ٤ ، ص ٦٠ وما بعدها ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه الى أن كثيراً من القادة أو الأتابكة كان مجبراً على الزواج من أمهات الأمراء السلاجقة الصغار المطلقات أو الأرامل(٣) .

وأدى هذا الزواج فى نهاية الأمر الى وجود علاقة وطيدة بين الأمير وأتابكه ، أشبه ما تكون بين الابن وأبيه ، مما أضفى على نظام الاتابكيات طابعا خاصا مميزاً . وعلى الرغم من أن هذا النظام قد سلب سلاطين السلاجقة بعض حقوقهم وهيمنتهم العليا على أجزاء الدولة، فقد أدى الى المحافظة على كيان دولتهم فترة زمنية طويلة . فالاتابك عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود مثلا كان لهما الأثر الكبير والواضح فى المحافظة على نفوذ السلاجقة بالشام والجزيرة،بالاضافة الى الدور الرائد والبارز فى جهاد الصليبيين فى الفترة من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى حتى أواخر العقد السابع من القرن السابع الهجرى(٤) . على أنه من المبالغة أن نتصور كافة الأتابكيات وقد لعبت دوراً ذا أهمية فى الحفاظ على هيمنة السلاجقة ، والحفاظ على ثغور المسلمين ، اذ أن بعض هذه الأتابكيات قامت بدور سلبى أدى الى اضعاف جانب السلاجقة، فضلا عن اضعاف الخلافة العباسية نفسها .

واذا ما القينا نظرة على أتابكية أذربيجان بزعامة بنى ايلدكز (سنة ٥٤١ - ٦٢٢هـ/١١٤٨ - ١٢٢٥م) فانه يتضح أن هذه الأتابكية وبخاصة فى عهد زعمائها الكبار،تدخل فى قائمة القوى التىعملت بجد واخلاص لا فى الحفاظ على كيان السلاجقة فحسب ، بل أيضا فى جهاد الكرج الجورجان(٥) ثم المغول(٦) فيما بعد . ذلك أن زعماء هذه

---

(٣) على الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٣١٠ .

(٤) للمزيد من الدراسة عن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود انظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى ، عليه الجنزورى : عماد الدين زنكى ، عماد الدين خليل : نور الدين محمود الرجل والتجربة ؛ مسفر الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين قبل قيام الدولة الايوبية ؛ محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها.

(٥) الكرج : عن التعريف بالكرج . انظر فايز نجيب اسكندر ، الكرج والأتراك السلاجقة ، مقال فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد الأول سنة ١٩٩٣م ، ص ٢٥٢ وما =

الأتابكية تمكنوا من فرض سيطرتهم على بعض مـــدن ايران والجبـل وآران(٧) ، وكانت لهم علاقات مع القوى الكبيرة فى المنطقة ، كالكرج والســلاجقة والعباسيين والخوارميين والمغــول والزنكيين فى الموصل والأيوبيين زمن صـــلاح الدين (٥٦٩ ـ ٥٨٩) . وفيما يلى يمـكن أن نستعرض تاريخ هذه الأتابكية منذ قيامها وعلاقاتها بالقوى المشار اليها أعلاه . بالاضافة الى علاقة زعماء هذه الأتابكية ببعض الامارات الصغيرة فى منطقة الجزيرة وأرمينية .

تنسب أتابكية أذربيجان الى مؤسسها شمس الدين ايلدكز(٨) وهو مملوك تركى من مماليك الوزير كمال الدين السميرمى(٩) وزير السلطان

=

بعدها . وقد أشار فايز اسكندر الى ان وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م كانت بداية ازدهار مملكة الكرج فى عهد ملكهم داود الثانى الذى استغل فيما بعد انشغال المسلمين بجهاد الصليبيين فى الشام فرفض دفع الجزية للسلاجقة ، وتمكن فيما بعد من الاستيلاء على تفليس سنة ٥١٦هـ من المسلمين ، (ص ٢٦١ ـ ٢٦٢) وكذا انظر ، القارفى ، تاريخ مياخارقين ، ص ٩٧ حاشية رقم ٣ .

(٦) عن التعريف بالمغول وتحديد موطنهم الأصلى انظر كتاب سعد الغامدى ، سقوط الدولة العباسية ، ص ٥٣ ـ ٥٦ .

(٧) الجبل أو الجبال : اسم يطلق على البلاد المعروفة باسم العجم بالعراق وهى ما بين أصبهان الى رنجان وقزوين وهمـــذان والرى . ياقوت ، معجـــم البـلدان ، ج٢ ، ص ٩٩ .

وأران : أقليم مشهور بأذربيجان وأرمينية وبهذا الاقليم جنزه التى تكتب أحيانا باسم كنجه . انظر ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٥٣ من جهد المحقق يحيى عباره . ولمزيد من التفصيل عن أران ، انظر : محمد شيت خطاب ، ارمينية بلاد الروم، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٨) جاء فى بعض المصادر أن لقبه شمس الدين المسعودى نسبة الى السلطان مسعود ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٢١ .

(٩) السميرمى : كمال الملك أبو الحسن على بن أحمد السميرمى ، تولى الوزارة السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٣هـ ، وظل بها حتى توفى سنة ٥١٦هـ ، كان كما قيل ظالما مجاهرا بالظلم والفسق ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٧٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٥٠ ؛ حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٣٠ .

محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/١١١٧ - ١١٣١م) . ويقال أن ايلدكز هذا أشترى من بلاد القفجاق(١٠) . وبعد مقتل الوزير السميرمى سنة٥١٦هـ/١١٢٢م انتقل شمس‌الدين ايلدكز الى خدمة السلطان محمود ، ثم من بعده الى السلطان السلجوقى غياث الدين مسعود بن محمود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/١١٣٢ - ١١٥٢م) حيث مكث يعمل كنديم ومضحك للسلطان ، وأخذ يترقى فى بلاطه حتى أكتسب ثقة السلطان وثقة معاصريه فزوجه السلطان مسعود من أرملة أخيه الملك طغرل بن محمود ، وبذلك غدا أتابكاً لأرسلان شاه بن طغرل.وكان طغرل قد توفى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م(١١) .

أما عن اقليم أذربيجان مركز الأتابكية موضوع دراستنا ، فقد كان محل نزاع بين الكرج الجورجان من جهة وبين السلاجقة وكبار الأمراء الأتابكة من جهة أخرى،خصوصاً بعد سقوط تفليس بيد الكرج سنة ٥١٦هـ/١١٢٢(١٢) . وقبل بروز أسرة بنى ايلدكز بأذربيجان كان يحكمها الأمير قرا سنقر الاحمديلى الذى وافاه أجله بمدينة أردبيل(١٣) . فانتقل الأمر الى‌الأمير جاولى الطغرلى الذى ظل حاكماً لأذربيجان وبلاد

---

(١٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ص ٧٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٧ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ٨٧ .

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٢٩١ ؛ الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٢٠ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٧ . وكان السلطان مسعود واليا على أقليم الجبل وآران وأذربيجان قبل توليه السلطنة ، ولذلك وجد أن خير من يقوم بهذا الأمر هو الأتابك ايلدكز فعينه واليا عليه .

(١٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٥٧ . وتفليس : مدينة فى جمهورية جورجيا تقع على خط عرض ٥٢° شمالا و ٤٤°طولا وهى بأرمينية الأولى ، والبعض يقول بآران . وهى مدينة أزلية . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٢، ق٢، ص ٧٧٢ من عمل المحقق يحيى عباره .

(١٣) أردبيل : احدى مدن أذربيجان ، كانت عاصمتها عندما فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وهى فى أعالى نهر أندراب، عليها سور ، وبها العديد من الأسواق ، كانت قصبة أذربيجان فى المائة الرابعة . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١، ص ١٤٥ ، لـ ليسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

الجبل حتى وفاته سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م(١٤) . وبوفاة جاولى فى السنة المذكورة تولى الأمر بصورة حقيقية الأتابك شمس الدين ايلدكز . وعلى الرغم من أنه ربيب السلطان مسعود(١٥) فانه خامر على السلطان فى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واجتمع بكثير من الأمراء ، وأعلنوا عصيانهم عليه . ولم يكتفوا بالعصيان بل قصدوا بغداد بهدف النيل من الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله (٥٣٢ - ٥٥٦هـ/١١٣٦ - ١١٦٠م) . فلما بلغوا حلوان(١٦) أرسل الخليفة العباسى اليهم من يعظهم ويمنعهم من دخول بغداد ، ولكنهم رفضوا وعاثوا فى البلد فساداً ، وكان بصحبتهم الملك محمد بن محمود السلجوقى(١٧) .

أما السلطان مسعود فقد كان مقيماً عندئذ ببلاد الجبل، ومعه الأمير خاصبك الذى كانت علاقته بايلدكز غير طيبة . وكان الأمير خاصبك من أسباب خروج ايلدكز على السلطان مسعود(١٨) . ولم ترق هذه الحوادث التى ارتكبت فى حق ايلدكز والخليفة العباسى ببغداد للسلطان سنجر كبير البيت السلجوقى (٥١١ - ٥٥٢هـ/١١١٧ - ١١٥٧م)، ولذلك فانه لم يحجم عن توجيه عتاب شديد للسلطان مسعود الذى كان قد أنزعج هو الآخر من فعل ايلدكز والملك محمد بن محمود ، وما أحدثوه فى بغداد . وكان أن توجه السلطان مسعود الى بغداد سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م لتطييب خاطر الخليفة المقتفى لأمر الله.فكان موضع ترحيب،وأحسن الوزير ابن هبيرة استقباله فى رمضان من السنة المذكورة(١٩) .

---

(١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٥ .

(١٥) السلطان مسعود : أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه ، أصبح سلطانا سنة ٥٢٨هـ وتوفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص١٦٨ .

(١٦) حلوان : مدينة على سفح جبل مطل على العراق ، وهى من بلاد الجبل ، تكثر بها أشجار الفواكه بأنواعها . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣١٤ .

(١٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢١ - ٢٢ ، ويشير صاحب المنتظم الى أن دخول ايلدكز بغداد انما كان هربا من السلطان مسعود . ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٣٢ .

(١٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ١٤٥ ؛ والوزير ابن هبيرة : أبو المظفر =

ولم يمكث السلطان مسعود طويلا فى بغداد ، بل عاد أدراجه الى همذان . ولكن أجله لم يمهله كثيرا فقد توفى فى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وبوفاته أنتهت على ما قيل سعادة البيت السلجوقى فى العراق(٢٠) .

وعلى الرغم من أن السلطان مسعود السلجوقى كان مشغولا بالفتن الداخلية،فان الكرج لم يتمكنوا ولم يجرأوا على الاعتداء على بلاده فى حياته،ولكنهم استغلوا وفاته فقاموا فى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م بالهجوم على أرمينية،وتمكنوا من انزال الهزيمة بصاحب آرزروم، وغنموا من المسلمين غنائم كبيرة(٢١) .

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م برز الأتابك ايلدكز على مسرح الأحداث فى الدولة السلجوقية ،وخصوصاً بين سلاجقة العراق والخلافة العباسية من جهة،والكرج من جهة أخرى . وكان أول معاد برز لأيلدكز فى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م هو الأمير اياز قفجان أحد أكابر أمراء العجم،اذ استغاث بالزنكيين بالموصل من جور وظلم ايلدكز،فجهزوا معه العساكر ، وسار باتجاه أذربيجان، وحتى وصل الى سلماس(٢٢) حيث والتقوا بايلدكز واصلحوا الحال بينه وبين اياز(٢٣) .

=

يحيى بن محمد سعيد عون الدين بن هبيرة ، كان عالما باللغة والادب ، والحديث . ولد سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م وتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م انظر : مريزن عسيرى ، الحياة العلمية فى العراق ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ١ .

(٢٠) أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ١٤٧ ، السيوطى ، تاريخ الخلفا ، ص ٤٣٩ ؛ الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٩٩ .

(٢١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٣ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٥ ، وارزروم : وقيل أرزن الروم ، هى مدينة جليلة بارمينية ، وتعرف عند الأرمن باسم Karin وعند الروم باسم Theodosio Polis كى ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٩ .

(٢٢) سلماس : مدينة بأذربيجان بين تبريز وأرميه ، يوجد فيها مياه معدنية ، انظر : القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩١ .

(٢٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٠٦ .

وعندما أخذت قوة ايلدكز تزداد،استغاث به الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله فى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ضد السلطان محمد بن محمود ، فتوجه ايلدكز الى همـــذان واســتولى عليهــا(٢٤) . وكان لذلك أثره فى نفس السلطان محمد بن محمود السلجوقى ، فرفع الحصار عن بغداد،وعاد الى ايران.ولكنه لم يغفر لايلدكز هذا العمل فقام بحملة تأديبية ضده بآران، وتمكن من انزال هـــزيمة ساحقة به ، تمكن عقبها من الاســتيلاء على نخجوان . على أنه قبل اعتذار ايلدكز وأخذ عليـه المواثيق والعهـــود بألا يعود الى العصيان عليه(٢٥) .

وفى مجال التدخل فى شئون السلاجقة والخلافة العباسية ، وجـد ايلدكز الفرصة سانحة له بوصفه أتابكاً لربيبه السلطان أرسلان شـــاه بن طغرل للتدخل مباشرة فى شئون سلاجقة العـــراق والخلافة العباسية فى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٣م . وكان أن سار من أذربيجان الى همذان بقصد منع سليمان شاه بن محمد السلجوقى من احتواء السلطنة هناك . وقد تمكن ايلدكز وأرسلان من الاستيلاء على همذان واجلاس أرسلان شاه على عرش السلاجقة بالعراق(٢٦) .

وسرعان ما جنى شمس الدين ايلدكز ثمار هذه الخطوة الجريئة ، فقد أصبح أتابكاً لسلطان السلاجقة فى ايران والعـــراق ، وتلقب بلقب «الأتابك الأعظم »(٢٧) ، ويعلق أحد الباحثين على ذلك فيقول ان

---

(٢٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، النويرى ، نهـــاية الارب ، جـ ٢٥ ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ، أبو الفدا المختصر ، جـ٣ ص ٣٠ .

(٢٥) الأصفهانى : زبدة التواريخ ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ الراوندى ، راحة الصدور، ص ٣٨٣ .

ونخجوان أو نقجوان مدينة تقع الى الشمال من نهر فرس من أعمال أذربيجان انظر : كى ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠١ .

(٢٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١٩٦ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٨ . وقد أورد هذا الخبر فى حوادث سنة ٥٥٦هـ ؛ أحمد الســـعيد سليمان ، تاريخ الدولة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ .

(٢٧) الأصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٢٧١ ، ويشير الدكتور حسن الباشا =

وظيفة الاتابك الأعظم أرفع قدراً وأوسع نفوذاً من وظيفة الأتابك ، لأنها تهيىء لصاحبها أن يشرف على الجيش وأعمال الوزراء(٢٨) ٠

أما الخليفة العباسى المقتفى لأمر اللـه فانه لم ينس تلك الأعمال التى قام بها ايلدكز فى العراق سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، ولذلك فانه لم يوافق على اعلان الخطبة فى بغداد باسم السلطان أرسلان شاه فى السنة التالية ٥٥٦هـ/١١٦١م ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان رسول ايلدكـز الى الخلافة أهين « وأعيد اليه على أقبح حلة »(٢٩) ٠

ولما كان اعلان السلطنة فى بغداد باسم أحد امراء البيت السلجوقى يعتمد على نفوذ هذا الأمـــير أو ذاك ، أو على ما يدفع لبطانة الخليفة وأصحاب النفوذ عليه،فان أرسلان شاه لم ينل رضى الوزير ابن هبيره ، وهو الوزير الذى كان يرغب فى اعلان السلطنة بأصفهان وغيرها باسم السلطان السلجوقى سليمان شاه بن محمد ، وذلك بعد وفاة ملكشاه بن محمود بن محمد ٠ ولكن وفاة سليمان شاه سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م افحست المجال أمام ايلدكز لفرض نفوذه على الأمراء المأجورين له ، من أجل تدعيم مركزه ومركز السلطان أرسلان شاه ، حتى أصبحت شخصية ايلدكز من أكبر الشخصيات بفارس والعراق ، وصار هو الحاكم الفعلى ٠ أما أرسلان شاه فلم يبق له غير الاسم(٣٠) ٠

ولم يكتف شمس الدين ايلدكز بما حصل عليه،اذ غدا الأتابك الأعظم

=

الى أن الأتابكة قد تلقبوا بألقاب مضافة الى « الدين » ، حســـن الباشـــا ، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٥ ٠

(٢٨) عبد النعيم حسنين : دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ ٠

(٢٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٧٣ ؛ انظر ايضا ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

(٣٠) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ أ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٦٧ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ ؛ حسن الباشا، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٤ وقد أشار المؤلف الى أن كثيرا من الأتابكيات فى العصر السلجوقى « لم تكن تدين للسلطان السلجوقى بأكثر من الطاعة الاسمية » ٠

بأذربيجان وهمذان ، وأصفهان لأرسلان شاه، كما غدا ابنه البهلوان محمد صاحب السلطان،بل لقد أخذ فى مكاتبة الأمراء بقصد أخذ الولاء والطاعة منهم للسلطان أرسلان شاه الجديد ، فمنهم من وافق ومنهم من رفض . لذلك لم يجد ايلدكز بداً من شن حرب على بعض خصومه ، كصاحب الرى اينانج(٣١)، وهى الحرب التى أسفرت فى النهاية عن عقد صلح بين الطرفين ، وعن زواج محمـــد البهلوان من ابنـــة اينانج المسـماه قتيبة خاتون(٣٢) .

وعلى الرغم من أن هـــذه المناورات التى قام بها ايلدكز وربيبـه أرسلان شاه قد منحته نوعاً من الهيبة والهيمنة على الأمراء المجاورين له، فان خلافة بغداد لم تكن راضية عنه،بسبب عدم تصديه للكرج الجورجان، الذين استغلوا تلك الأوضاع فقاموا فى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م بالهجوم على مدينة آنى ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها . وعلى الرغم من محاولة شاه آرمن بن ابراهيم بن سكمان القطبى صاحب خلاط التصدى للكرج ، الا أن المسلمين لقوا هزيمة منكرة « وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم »(٣٣) .

وفى ظل الأوضاع المتردية للمسلمين فان الكرج بزعامة ملكهم جورج الثالث Georga III (٥٥١ ـ ٥٨٠هـ/١١٥٦ ـ ١١٨٤م) لم يقنعوا بما استولوا عليه من أراضى المسلمين بل تمكنوا من الاستيلاء على مـــدينة

---

(٣١) اينانج بك سنقر صاحب الرى ، قتل سنة ٥٦٥هـ بتدبير من وزيره سـعد الدين أسعد الذى وزر فيما بعد لشمس الدين ايلدكز . الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ .

(٣٢) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧١ . وقتيبة خاتون هى التى كان قزل أرسلان قد تزوجها عقب وفاة البهـــلوان ، وهى والدة اينانج محمود بن البهلوان . انظر المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ أ .

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٧٧ . انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦١ .

اما عن أسرة سقمان القطبى بخـــلاط فانظـــر زامبـــاور ، معجم الأنســـاب والأسرات الحاكمة ، ص ٣٤٨ .

دوين(٣٤) باقليم أذربيجان،وفعلوا بأهلها الأفاعيل القبيحة،بحيث أسروا الرجال،وأخذوا النساء سبايا بعد تعريتهن واقتيادهن حفاة عراة،كما خربوا الجوامع والمساجد . وقد أثار هذا العمل الشنيع بنساء المسلمين استنكار نساء الكرج اللاتى قلن «ان مثل هذا العمل سيدفع المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثلما فعلتم بنسائهم(٣٥)». ويعلل بعض المؤرخين توسع الكرج على حساب المسلمين عندئذ بالأعمال القبيحة التى أرتكبها ايلدكز وأرسلان شاه فى حق سكان أصفهان ، وبانتشار قوات ايلدكز وأرسلان شاه فى حروب كثيرة بايران وفارس(٣٦) .

وقد أزعج عدوان الكرج على المسلمين - شمس الدين ايلدكز - وهو بهمذان.ولكنه ادرك أن لاطاقة له بملاقاة الكرج على انفراد،فطلب المساعدة ضدهم من شاه أرمن صاحب خلاط(٣٧) ، وأقسنقر الأحمديلى صاحب مراغة(٣٨) ، فاجتمعوا - فى عسكر - زاد عدده على خمسين ألفاً ، متناسين ما بينهم من خلافات . وساروا الى بلاد الكرج والابخاز(٣٩) فى صفر سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م بقصد استعادة ما استولى عليه الكرج من مدن . وفى طريقهم نهبوا البلاد،وسبوا النساء والصبيان،واسروا الرجال ،حتى لقيهم الكرج،فاقتتلوا أكثر من شهر.وكان النصر فى النهاية حليف المسلمين بسبب الخطة العسكرية الناجحة التى اتبعها المسلمون فى تقسيم الجيوش

---

(٣٤) دوين : مدينة تقع بالقرب من آران على حدود أذربيجان . وهى قريبة من تفليس ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ، ص .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٨٠ .

(٣٦) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٢ .

(٣٧) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ، وهى قصبة أرمينية الوسطى ، فتحت على يد القائد عياض بن غنم ، بها بحيرة مشهورة : حكمت من قبل الأيوبيين ، ودخلها الكرج والمغول . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٢٤ .

(٣٨) مراغه : مدينة فى بلاد أذربيجان ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٧٦.

(٣٩) الأبخاز : أمة من النصارى يسكنون فى ناحية جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وبلادهم جبال صعبة المسالك وعرة ، لا مجال للخيل فيها . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

الى عدة أقسام،بناءاً على مشورة أحد رجال الكرج،وكان قد أسلم حديثاً، فالتف بفرقة عسكرية خلف الجيوش الكرجية وغدر بهم ، فانهزموا وكثر فيهم القتل والأسر • وعاد المسلمون الى بلادهم منصورين قاهرين بعد أن استولوا على غنائم كثيرة(٤٠) •

وكان أن أدت هذه الانتصارات على الكرج الى كسر شوكتهم مؤقتاً والى ارتفاع الروح المعنوية عند شمس الدين ايلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه ، وعلو صيتها فى البلاد ، مما أدى الى خضوع بعض أمراء الأطراف لهما،مثل صاحب نيسابور(٤١) المسمى المؤيد ، وهو الذى أعلن فى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م خضوعه وطاعته للسلطان أرسلان ببلاد فارس ، وذلك بعد سيطرة أرسلان شاه على قومس بخراسان(٤٢) •

وعلى الرغم من هذه المكانة المرموقة التى حظى بها شمس الدين وربيبه أرسلان شاه بين معاصريهم من القوى الاسلامية،فانهما لم يستغلا هذه الانتصارات التى حققاها على الكرج فى القيام بحركة جهاد شاملة ضد الكرج للاستيلاء على العاصمة تفليس • لذلك عاود الكرج كرتهم مرة أخرى فى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م،واستولوا على مدينة آنى•على أن ايلدكز لم يغفل عن عمل الكرج هذا فتمكن من استعادتها ، ودخلها وأعاد الى حكمها الأسرة الشدادية(٤٣) •

---

(٤٠) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة ١٩٤ أ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧٩ ـ ٨٠ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٤ ؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦١ ؛ الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٧٢ •

(٤١) نيسابور : مدينة عظيمة من أشهر مدن خراسان ، فتحت أيام عمر رضى الله عنه ، على يد الاخنس بن قيس • يقول أحد الشعراء فى أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغتربا   الا وحبلك موصول بسلطان

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٣٢ •

(٤٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٢ •

(٤٣) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة ١٩٦أ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٦٢ ، وعن الأسرة الشدادية انظر زامباور ، معجم الأنساب والأسر الحاكمة ، ص ٢٨٣ •

ولم يتوقف الكرج عن غزو بلاد المسلمين،بل قاموا بحركة واسعة فى سنة ١١٦٦/٥٦١م ، فخرجوا من بلادهم فى جموع كثيرة وتمكنوا من الاستيلاء على كثير من بلاد المسلمين،حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة كنجه « فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا مالا يحصى »(٤٤) ٠ وعلى الرغم من قوة ايلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه،فانهما لم يواجها الكرج هذه النوبة بسبب انشغالهما بأمور داخلية ومنافسات اقليمية ضيقة مع بعض القوى الاسلامية فى فارس ، حتى أنهما قاما فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م بارسال حملة عسكرية بقيادة البهلوان الى مراغة ضد صاحبها أقسنقر الأحمديلى ، لا لسبب الا لأنه طلب من الخليفة العباسى المستنجد بالله (٥٥٦ - ٥٦٣هـ) أن يخطب على منابر بغداد لابن السلطان محمد شاه الذى كان عنده ٠ وقد أسفرت هذه الحملة عن مداهمة مراغه وهزيمة صاحبها والتنكيل به(٤٥) ٠

ولم يقف ايلدكز عند هذا الحد من اقحام نفسه فى نزاعات مع القوى الاسلامية فى فارس ، بل قام فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م بهجوم على الرى،حيث تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة بسبب عصيان صاحبها أقسنقر الأحمديلى عن دفع الأموال المطلوبة منه(٤٦) ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد أدى هذا النشاط الحربى الى زيادة شهرة ايلدكز وعلو مكانته ، لا فى ايران وأرمينية فحسب ، بل حتى فى منطقة الجزيرة الفراتية، ففى سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م استنجد به الأمير فخر الدين

---

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٩٤ ٠ وكنجه : مدينة عظيمة تعتبر قصبة بلاد آران ، ويطلق عليها فى بعض كتب الأدب جنزه ، وتقع بين خورستان وأصبهان٠ انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٤٨٢ ٠

(٤٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص٩٨ ؛ ابن الجوزى، المنتظم ، جـ١٠ ،ص٢١٠٠

(٤٦) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ ٠ والرى : مدينة مشهورة فى أمهات البلاد ، كانت تعرف باسم Rhages عند اليونان ٠ وكان يطلق عليها اسم المحمدية نسبة الى الخليفة العباسى محمد المهدى وفيها ولد هارون الرشيد ، وكان فيها دار ضرب فى العصر العباسى ٠ انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١١٥ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ ٠

القائم بأعمال الموصل عقب وفاة قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ضد نور الدين محمود بن زنكى ، عندما عبر الفرات وقدم الى الموصل لتنظيم أمورها . فلما بلغ نور الدين موافقة شمس الدين ايلدكز على تقديم المساعدة لفخر الدين أرسل اليه رسالة تنم عن احتقاره لايلدكز الذى أهمل المشرق حتى استولى عليه الكرج(٤٧) . ولم يقف نور الدين محمود عند هذا الحد بل ضمن رسالته تهديدا لشمس الدين ايلدكز قال فيها : « وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون لى معك الحديث على باب همذان ، فانك ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج ، فاخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم »(٤٨) .

ويبدو أن رسالة نور الدين محمود الموجهة الى شمس الدين ايلدكز قد أثرت فى نفسه اذ عدل عن التوجه الى الجزيرة ، وقويت حميته فى التصدى للكرج الذين كانوا فى سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م قد استولوا على مدينة دوين وفعلوا بأهلها الأفاعيل القبيحة(٤٩) . ولذلك لم يستجب لطلب دفع الجزية التى فرضها عليه ملك الكرج ، بل رد على الكرج ردا قبيحا كشف عن قوته وحميته ، وما كان يتمتع به من صدق وعزيمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل سار بمن معه من عساكر الى مدينة كنجه . فلما بلغ ذلك ملك الكرج رد على ايلدكز رداً اعتذر فيه عن مطالبه،وتنازل عن طلبه السابق بدفع الجزية(٥٠) .

والواقع ان التفوق العسكرى الذى حققه شمس الدين ايلدكز مكنه من ارهاب خصومه من الكرج وغيرهم وخصوصاً الخليفة العباسى المستضىء

---

(٤٧) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٩٢ ؛ حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٣١ ؛ د. مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٢٨٩ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص ٣٤ .

(٤٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٣٢ .

(٤٩) الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢ ـ ٣ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٧ .

بامر الله الحسن (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧٠ - ١١٧٩م) ، الذى كان قد ارسل الخلع والهدايا اليه بقصد صرفه عن دخول بغداد، وذلك بعد ان سمع الخليفة العباسى بان ايلدكز سيصل الى بغداد لمطاردة احد خصومه فى سنه ٥٦٨هـ/١١٧٣م(٥١) .

وهكذا ظل شمس الدين ايلدكز قوياً فى وجه خصومه حتى كثرت أملاكه باذربيجان ، وبلاد الجبل ، وهمذان ، وأصفهان ، والرى وما والاها من البلاد . ويعود ذلك الى كثرة جيوشه التى قيل أنها بلغت أكثر من خمسين ألف جنديا . ولم يكن لربيبه السلطان « أرسلان شاه » معه حكم، انما كانت له جراية تصل اليه . وكان ايلدكز عاقلا حسن السيره ، يجلس بنفسه للرعيه ويسمع شكاويهم «وينصف بعضهم من بعض»(٥٢) .

ولم يطل عمر ايلدكز بعد هذه المكانة التى حازها ، بل توفى فى سنه ٥٦٨هـ/١١٧٣م فى مدينة نخجوان الواقعة باذربيجان(٥٣) ويعد وفاة ايلدكز تولى الامر بأذربيجان ابنه نصرة الدين محمد البهلوان، المعروف باسم جهان بهلوان (٥٦٨ - ٥٧٢هـ/١١٧٣ - ١١٨٦م) . وكانت شخصيته لا تختلف كثيراً عن شخصية أخيه لأمه السلطان أرسلان شاه، الذى لم يكن له حول ولا قوة . وقد استهل محمد البهلوان أعماله بالهجوم على مراغة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م التى كانت تحت حكم أقسنقر الاحمديلى ، فى الوقت الذى سير أخاه قزل أرسلان الى مدينة تبريز(٥٤) . ولكن صاحب مراغه ورجاله عرفوا قوة البهلوان، فعقدوا معه صلحاً تم بموجبه رفع الحصار عن مراغه ، وتسليم تبريز له . فقبل البهلوان بذلك، «وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز، واعطاها أخاه قزل أرسلان، ورحل

---

(٥١) المولوى ، صحائف الأخبار ، ص ورقة ٦٤٠ ب ؛ ابن الأثيـــر ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٢١ .

(٥٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١١٩ ؛ انظر : حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى ، ص ٦٢٢ .

(٥٣) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١١٩ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٧٥ .

(٥٤) تبريز : مدينة من أشهر مدن أذربيجان، ابن حوقل، صورة الأرض ،ص٢٨٩ .

عن مراغه بعسكره »(٥٥) ٠

أما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بحروبه ضد صاحب مراغه ، وضد شمله التركمانى الذى كان قد أشاع الخوف فى بلاد الجبل وبغداد ، فهجموا على مدينة آنى - فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م - التى كان شمس الدين ايلدكز قد منحها لسقمان بن ابراهيم المعروف بشاهنشاه ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها ورتبوا فيها والياً(٥٦) ٠

ولكن لم يهنأ الكرج طويلا بما حققوه من نصر فى مدينة آنى ، اذ تمكن البهلوان ومعه ناصر الدين سقمان صاحب خلاط وبعض القوى الاسلامية من ضرب الكرج والانتصار عليهم ،حتى وافقوا على عقد الصلح مع المسلمين ٠ وفرض عليهم ما أراده البهلوان ، الذى عاد بعد ذلك الى بلاده محملا بالغنائم فى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م(٥٧) ٠

★ ★ ★

والواقع ان القوة والمكانة اللتين حظى بهما الاتابك شمس الدين ايلدكز وابنه محمد البهلوان ، تعودان بالدرجة الأولى الى انهما حظيا بصحبة السلطان أرسلان شاه السلجوقى ٠ ولذلك فان وفاة هذا السلطان سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م كانت نذيراً بضعف أتابكة أذربيجان ٠ وقد حرص محمد البهلوان على تعيين ابنه طغرل بن أرسلان الثالث (٥٧٠ - ٥٩٠هـ/١١٧٤ - ١١٩٤م) الذى كان صبياً ، وخطب له فى المحرم من السنة المذكورة ٠ واستمر البهلوان يتصرف فى البلاد تصرفاً ممدوحا ، وكان نفوذه قد شمل جميع بلاد الجبل وهمذان والرى وأصفهان وآران وغيرها من البلاد(٥٨) ٠

---

(٥٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٤ ٠

(٥٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ٢٥٥ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦٤ ٠

(٥٧) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة رقم ٢٠٨ أ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٤٢٨ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٨٨ ٠

(٥٨) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ١٤٣ ؛ الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٥ ٠

والى جانب ارتباط قوة البهلوان بارسلان شـــاه ، فان قوة أتابكة أذربيجان ارتبطت بعلاقاتهم الخارجية مع الكرج والقوى الاســـلامية . ولذلك فان هيبة محمد البهلوان لا تقل عن هيبة وصلابة وقوة والده،بدليل موقفه ـ الذى يسترعى الانتباه ـ من الخليفة العباسى المستضىء بامر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ) فقد رفض البيعة للخليفة المذكور الا بعـد الحاح من رسول الخلافة صدر الدين شيخ الشيوخ . وقيل أنه لولا خوف البهـــلوان من عصيان كثير من عساكره،لما أعلن البيعة للخليفة(٥٩). وان دل هذا على شىء فانما يدل على اعتداده بنفسه وبقوته.وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن البهلوان شجعطغرل على انتزاع السلطة الزمنية من الخليفة، الا أن ضعف السلطان السلجوقى حال دون تحقيق ماكان يصبو اليه(٦٠).

ولا أدل على قوة وشهرة البهلوان محمد باذربيجان والمشرق من أن عز الدين ابن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل،عندما تعرض لخطر الهجوم من قبل صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م لم يجد حرجاً فى الاستعانة ضده بزعيم أذربيجان محمد البهلوان.ولكن عزالدين أدرك فى النهاية أن خطر البهلوان قد يكون أفدح من خطر صلاح الدين، فعدل عن الاستنجاد به(٦١) . ولما كان صلاح الدين رحمه الله حريصاً على الاستيلاء على الموصل من الزنكيين،فقد كتب الى الخليفة العباسى كتاباً أوضح فيه غرضه من الاستيلاء على الموصل ، وهو منع الزنكيين

---

(٥٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٤٩ ؛ الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص ١٧٤ وقد ذكر ابن الجوزى فى منتظمه أن سمعة البهلوان ساءت فى بغداد ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ .

(٦٠) بارتولد ، تركستان ، ص ٥٠٠ .

(٦١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٥٨ . وقد أشار ابن الأثير الى أن البهلوان أرســل من قبله قزل أرسلان الى الموصل بقصد اصلاح الأمر بين صلاح الدين والزنكيين فلم يتم ذلك ـ أما عز الدين مسعود بن قطب الدين فقد توفى سنة ٥٨٩ هـ انظر ترجمته كاملة فى كتاب ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ؛ وهذا بخلاف ما جاء فى كتاب الاعلاق الخطيره ، لابن شداد ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ . ولمزيد من الايضاح عن حكام الموصل من بنى زنكى انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ١٢٣٥ .

من الخطبة لصاحب العجم(٦٢) - والمقصود به محمد البهلوان - الذى كان على علاقات سيئة بالخلافة فى بغداد . لذلك سار صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م متوجهاً الى الموصل ، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار فى حصارها بسبب استبسال أهلها وحرارة الجو،بالاضافة الى وصول خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط(٦٣) بمنطقة الجزيرة . وكانت تربطه بالبهلوان علاقات مصاهرة، اذ أنه كان زوجاً لاحدى بنات البهلوان. لذلك وجد صلاح الدين أن المسارعة فى الاستيلاء على خلاط أولى من الاستيلاء على الموصل ، خوفاً عليها من السقوط بيد صاحب العجم . ولهذا غادر صلاح الدين الموصل الى خلاط بدعوة من أهلها والقائمين عليها « مكراً وخديعة » منهم. وكان غرضهم من ذلك دفع البهلوان الذى كان هو الآخر قد وصل قريباً منها « وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبين صلاح الدين، ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له»(٦٤). وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن كان لها دور فى تسيير الحوادث بخلاط ، والا فان البهلوان ليس فى قوة صلاح الدين ولا كثرة عساكره.كذلك لا يستبعد أن يكون لأهل الجزيرة

---

(٦٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ ؛ عبد الله الغامدى ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٨٨ ولمزيد من التفصيل عن هذه الرسالة . انظر : نص الرسالة الثانية التى أرسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسى . محمد القزاز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٣٨٥ .

(٦٣) شاه أرمن : هو ناصر الدين سكمان الثانى بن ابراهيم . توفى فى ٩ربيع الثانى سنة ٥٨١هـ . وتولى أمر خلاط بعده سيف الدين بكتيمور مملوك ظهير الدين ابراهيم شاه أرمن بن سكمان . زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٣٤٩ .

(٦٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص١٦٩ . وقد ذكر ابن واصل أن أهل خلاط ولوا أمرهم للأمير سيف الدين بن بكتمر الذى تمكن من تخويف كلا من البهلوان وصلاح الدين بصاحبه ، وبهذه الطريقة عاد كل منهما الى بلاده . ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ - أما العينى فيذكر أن البهلوان أرسل الى صلاح الدين عند محاولة الأخير الاستيلاء على خلاط وقال له : ان هذه بلاد ابنتى والمصلحة أن تعود ، فعاد صلاح الدين الى محاصرة الموصل للمرة الثالثة . العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ١٨ .

انظر ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ١ ، ص ١٤٣ ؛ ابن شداد الاعلاق الخطيرة، جـ٣ ، ق٢ ، ص ٤٥١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٨٩ .

وميافارقين(٦٥) ميول الى العجم أكثر من ميلهم الى صلاح الدين،الذى أصبح مكروها لدى الزنكيين بصفة خاصة وسكان الجزيرة بصفة عامة،نظرا لسياسته تجاه البيت الزنكى عندما كان يعمل على توحيد الجبهة الاسلامية(٦٦) ٠

ولم تطل حياة محمد البهلوان لنرى هل سيحقق فى جهاده ضد الكرج ما حققه صلاح الدين ضد الصليبيين بالشام ٠ ذلك أن صلاح الدين عندما كان يحارب فى اقليم الجزيرة وشمال الشام ، كان يهدف الى توحيد قوى المسلمين ضد الصليبيين فى بيت المقدس ـ مما مكنه فيما بعد من تطهير أولى القبلتين من سيطرة المغتصبين سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م(٦٧) ـ أما محمد البهلوان،فان جهوده ضد القوى الاسلامية لم تسفر عن نتائج ذات بال ٠ ويبدو أن سبب ذلك انما كان تشتت قواه بين الكرج والامارات الاسلامية فى فارس والخلافة العباسية فى بغداد ٠

وفى أوج المكانة التى حققها البهلوان بين معاصريه لم يمهله أجله طويلا ، اذ توفى فى أول سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ٠ وكان كما وصفه معظم المؤرخين عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ، ذا سياسة حسنة فى الملك ، ظلت البلاد فى عهده آمنة والرعايا فى اطمئنان(٦٨) ٠

---

(٦٥) ميافارقين : مدينة مشهورة بديار بكر ، بمنطقة الجزيرة ٠ فتحت على يد بن غنم زمن عمر بن الخطاب ٠ انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٣٢٨ وما بعدها ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٦٥ ٠

(٦٦) حامد غنيم : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٨٠ ، وفى هذا الصدد يعلق الأستاذ الدكتور حامد غنيم بقوله : ان صلاح الدين لم تكن تحركاته فى منطقة الجزيرة بدافع السيطرة أو الرغبة فى الانتقام ، وانما كانت بدافع توحيد الجبهة الاسلامية ٠

(٦٧) ابن واصل ٠ مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ : الأصفهانى ، سنا البرق الشامى ، ص ٣٠٩ ، حسنين ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٨ ٠

(٦٨) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ، ويذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٣هـ ، أما ابن الأثير فى كامله فيذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٢هـ ٠ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٤٥ ٠

وقد اتصف محمد البهلوان بالشجاعة وقوة الشخصية،مما مكنه من فرض سيطرته على كامل البلاد التى كانت لوالده · بل لقد تمكن من اخضاع الكرج والحد من طغيانهم على بلاد المسلمين ، وصـــار له نفوذ بمنطقة الجزيرة الفراتية كما مر بنا ، كما أنه وقف موقفا صـــلبا أمام رسل الخلافة عند المبايعة للخليفة العباسى(٦٩) ·

وليست هذه الأسباب وحـــدها هى الدالة على قوة شخصية محمد البهلوان،بل ان هناك الكثير من الدلائل الأخرى·من ذلك ما أعقب وفاته من فتن تفجرت بين السنة والشيعة ،وبين الشافعية والحنابلة·ففى أصفهان ذكر أن الخسائر المادية والبشرية نتيجة الفتن الداخلية فاقت « ما يجل عن الوصف»·ولم تقتصر الفتنة بين السنة والشيعة على أصفهان بل تعدتها الى مدينة الرى التى قتل من أهلها العدد الكبير « وتفرق أهلها »· كل ذلك بسبب عدم وجود الشخصية الكبيرة التى تستطيع أن تخمد مثل هذه الفتن(٧٠) · وفى جانب آخر من جوانب شخصـــية البهـــلوان ومدى ما أحدثته وفاته من فراغ ، ان السلطان طغرل بن أرسلان خرج وأعلن العصيان على خليفة البهلوان قزل أرسلان « ولحق به جماعة من الأمراء والجند فاستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قزل حروب » ولما لم يجد مظفر الدين قزل أرسلان بدآ من مجابهة طغرل ، أرسل الى الخلفية العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢هـ/١١٧٩ – ١٢٢٥م) يستنجده فلبى الخليفة طلب طغرل سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م،وأرسل له جيشاً جعل على قيادته الوزير جلال الدين بن يونس(٧١) ولكنه منى بالهزيمة· وازاء ذلك أمر الخليفة « بنقض دار السلطنة ببغداد·فهدمت الى الأرض

---

(٦٩) انظر ما سبق ، ص ١٥ ·

(٧٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٧٤ ·

(٧١) الوزير جلال الدين بن يونس : أبو المظفر عبيد الله بن يونس جلال الدين، قتله ابن القصاب سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م · ابن الجوزى ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ص ٣٨ · والوزير له ترجمة كاملة فى كتاب النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، جـ٦ ، ص ١٤٢ · وجاء فى ذيل الروضتين أن الوزير ابن القصاب سلم ابن يونس الى ولده أحمد وأوصاه بقتله ، أبو شامه ، ذيل الروضتين ، ص ٩ ·

وعفى أثرها »(٧٢) ٠

ولم تتح الفتن الداخلية فرصة للأتابك قزل أرسلان لجهاد الكرج ، نظرا لانشغاله بالفتنةالتى قامت بينه وبينالسلطان طغرل الثالث،بالاضافة الى انشغاله بالنزاع مع أبناء أخيه نصرة الدين محمد البهلوان(٧٣)٠ولما كانت سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م قتل الأتابك قزل أرســلان بتدبير من زوجته وبعض أمراء العراق تعاطفاً مع السلطان طغرل الثـالث الذى كان على علاقات سيئة معه(٧٤) ٠ وكان نهذه الخطوة أثرها فى اضعاف أتابكة أذربيجان ٠٠ ولم يتوقف الضعف فى صفوف أتابكة أذربيجان عند هذا الحد بل أن أبا بكر بن البهلوان هرب من همذان وتوجه صوب نخجوان حيث لقى من أهلها ترحيباً، فتمكن من بسط نفوذه على آران وأذربيجان التى أصبحت فيما بعد مركزاً لبنى ايلدكز(٧٥) ٠



أما بالنسبة لابناء نصرة الدين محمد البهــلوان ـ أينانج محمود وأمير اميران عمر ـ فقد ساءهم ماوصل اليه حالأخيهما أبى بكر،فحشدا قواتهما من الأوباش والبطالين وساروا الى تبريز٠وقد تمكنا من الاستيلاء عليها ثم واصلا سيرهما باتجاه نخجوان لملاقاة أبى بكر ، الا أن أبا بكر

---

(٧٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٧ ؛ انظر عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة ، ص ١٢٧ ٠ وقد أشار ابن الأثير الى أن صلاح الدين قد علق على حملة الخليفة وقال : ان مصيرها الهزيمة المحققة نظرا لعدم معرفة الوزير بفنون الحرب ٠

(٧٣) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ٠ وجاء فى بعض المراجع أن السلطان صلاح الدين حاول الاصلاح بين قزل وطغرل فلم يفلح فى الأمر ، ونحن نشك فى ذلك ٠ انظر : سعد الغامدى ، أوضاع الدول الاسلامية ، ص ٦٥ ـ ٦٦ ؛ حافظ حمدى : المشرق الاسلامى ، ص ١٠٦ ٠

(٧٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٢ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٩ ؛ براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، ص ٥٠٩ ٠

(٧٥) الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٥٠ ؛ الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٥٧٥ ٠

تمكن من هزيمتهما شر هزيمة(٧٦) ٠

ولم تتوقف سلسلة الحوادث بين الأتابكة ، فقد كان أينانج محمود بهمذان عقب وفاة مظفر الدين قزل أرسلان،وتولى أخوه أبو بكر بن البهلوان السلطة،فجمع جموعه بقصد محاربة أبى بكر؛الا أن الأنباء وصلته فى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م تفيد أن السلطان طغرل حشد قواته وتوجه صوب همذان للاستيلاء عليها ٠ وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها فى الوقت الذى هرب اينانج محمود وتحصن بالرى ، واستنجد بالسلطان الخوارزمى تكش (٥٦٨ - ٥٩٧هـ/١١٧٢ - ١٢٠٠م)(٧٧) ضد السلطان طغرل ، الذى كان قد تزوج بأم اينانج محمود قتيبه خاتون - طمعا فى «المال والملك»٠ ولما كانت سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م قدم تكش نجدة له ، وتمكن من الاستيلاء على بعض قلاع الرى(٧٨) ٠

ولم تطل اقامة تكش بمهذان،بل عاد الى بلاده بعد أن عقد صلحاً مع السلطان طغرل الثالث ٠على أن السلطان نقض الهدنة بينه وبين تكش فعاد تكش الى الرى مرة ثانية،وتمكن من ملاقاة السلطان سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م ، وفى معركة غير متكافئة دارت بين الطرفين قتل السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة بفارس والعراق ٠ وتسلم السلطان خوارزمشاه ، همذان وبعض بلاد الجبل ،وسلمها الى اينانج،وعاد الى بلاده ؛ الا أن اينانج كفر النعمه وعاد الى قتال الوالى الخوارزمى بالرى(٧٩) ٠

---

(٧٦) الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٣ ٠ ويشير عبد النعيم حسنين فى كتابه دولة السلاجقة ، ص ١٣٠ الى أن الحرب نشبت بشكل كبير وفى فترات متعددة٠

(٧٧) عن أسرة خوارزمشاه ونسب هذه الأسرة ٠ انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٥١١ حيث هناك شجرة تبين نسب هذه الأسرة ٠

(٧٨) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ أ ٠

(٧٩) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ أ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٣٧١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ١٣٥ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣١٢ - ٣١٤ وقد جاء فى حاشية زبدة التواريخ رقم ١ ، ص ٣١٤ أن لسلطان علاء الدين خوارزمشاه تكش لما احتل همذان ، ومعظم مدن وقلاع العراق ، اقطع كثيرا منها لأمرائه ومماليكه، =

على أن اينانج محمود لم يستطع المحافظة على مكاسبه فى الرى وأصفهان فتمكن الوالى الخوارزمى الجديد من اجباره على مغادرةالرى. ولذا توجه صوب العراق لطلب النجـــدة من الخليفة الناصر لدين الــله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) والوزير ابن القصـــاب الذى كان بخوزستان(٨٠) . وكان أن تمكن ابن القصاب من اجبار الخوارزميين على الخروجمنالرى، كما اســـتولى على همـــذان ، الا أن قتلغ اينانج - مثلما فعـــل مع الخوارزميين فى السابق - كفر النعمة وعصى على الوزير « فهرب وتحصن بالرى » . ولكن الوزير تمكن من أخذها منه فهرب « اينانج ومن معه الى آوه »(٨١) وفى خضم هـــذا الصراع ، ورد على ابن القصاب رســـول خوارزمشاه يطلب البلاد،فلم يجبه.فما كان من خوارزمشاه الا أن أرسل قوة عسكرية وصلت الى همذان سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م . ولكن الوزير مات قبل وصولها (٨٢) ، ولم تتمكن قوات الوزير والخليفة من الصمود أمام قوات الخوارزميين فهزمت وتفرقت(٨٣) .

=

فاقطع أصفهان لقتلغ اينانج وهمذان لقاراغوز الأتابكى ، أما الرى فلأنيه يونس خان. ولمزيد من التفصيل انظر : سعد الغامدى ، أوضاعالدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى. ص ٧٤ - ٧٧ .

(٨٠) كان الوزير مؤيد الدين على بن محمد بن القصاب قد خرج من بغداد لنجدة بعض رجال بنى شـــمله المتنافســين على الحكم : سعد بن حذيفة ، أوضـــاع الدول الاسلامية ، ص ٩٠ . وخرزستان : اسم لولاية كبيرة تشبه أرض العراق وجوها ، وهى تنسب الى سكانها المعروفين باسم الخوز . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢،ص٤٠٤.

(٨١) آوه : قرية مشهورة بين زنجان وهمذان ، خرج منها العديد من العلماء. انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٨٤ .

(٨٢) كان ابن القصاب قد تسلم الوزارة سنة ٥٩٠هـ بعد قتل سلفه ابن يونس ، وكان يميل الى الشيعة الأمر الذى جعله ينكل بأهل السنة،وخصوصا الحنابلة الذين كان على رأسهم عبد الرحمن بن الجوزى الذى نفى الى واســـط ومكث بها خمس سنوات . انظر : ابن الجوزى ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ، ص ٢٨ ؛ أبو شامه، ذيل الروضتين ، ص ٩ .

(٨٣) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ب ، ص ٢٣٥ ؛ سعد بن حذيفة : الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى ، ص ٩٠ وما بعدها . أما ابن الأثير فيشير فى حوادث ٥٩١ هـ الى أن قوات الخلافة تمكنت من ملاحقة جيوش الخوارزميين وظفرت بشىء كثير ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٣٥ .

وعندما رأى الخوارزميون أن البقاء فى ذلك الاقليم ليس فى صالح قواتهم عادوا الى خراسان ومنها الى جرجانيه(٨٤) باقليم خوارزم،بعد أن استنابوا على الرى وهمذان وبلاد الجبل مملوك السلطان تكش المسمى مياجن،وهو الذى تمكن فى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م من قتـل الأتابك قتلغ اينانج(٨٥) ٠

★ ★ ★

أما الأتابك أميراميران عمر بن البهلوان فقد توجه فى خضم هـذا النزاع الى شروان(٨٦) وتزوج من ابنة صاحبها الذى تمكن من اقناعه بالدخول فى حلف مع الكرج ضد أبى بكر بن البهـلوان ٠ وكدليل على حسن النية توجه أميراميران وصاحبه الى تفليس وقابلا الملكة الكرجية ثمار الكبرى Thamara (٥٨٠ ـ ٦٠٩هـ / ١١٨٤ ـ ١٢١٢م)(٨٧) التى أمدتهم بمساعدات عسكرية كبيرة،جعلتقيادتها لزوجها المسمى داود سوسلان٠ وكان أن تمكنوا من هزيمة أبى بكر البهلوان سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م عند بيلقان(٨٨) كما تمكنوا من الاسـتيلاء على كنجه ونصبوا عليها أميراميران عمر وعادوا الى بلادهم(٨٩) ٠

ولم يطل عمر أميراميران عمر عقب دخوله كنجه ، اذ توفى بعد اثنين وعشرين يوماً من دخولها ، فقدم اليها أبو بكر بن البهلوان ودخلها

---

(٨٤) جرجانيه : أشهر مدن أقليم خوارزم ، كانت عاصمة الدولة الخوارزمية ، تقع على نهر جيحون ٠ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ١٢٢ ٠

(٨٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤١ب ٠ وقتلغ اينانج أخو الأتابك أبو بكر من أسرة ايلدكز ، وهو ابن لجهان بهلوان حكم فى الفترة من (١١٩١ـ١٢١٠م) انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٤٩٩ ، حاشية رقم ١٤٣ ٠

(٨٦) شروان : مدينة تقع قرب بحر الخزر من نواحى مدينة باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ ٠

(٨٧) عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٢٧ ٠

(٨٨) بيلقان : مدينة تقع فى السهل الممتد بين التقاء نهر الرسى ونهر الكر،وهى احدى المدن التى بناها قباذ للدفاع عن المنطقة من هجمات الخزر ، وهى قريبة من باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ ٠

(٨٩) الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨ ٠

ورتب أمورها ، وعين عليها حاكماً من قبله ثم عاد الى نخجوان(٩٠).

أما الكرج فانهم بعد سماعهم نبأ وفاة حليفهم وصنيعتهم بكنجه لم يتورعوا عن اعداد حملة عسكرية كبيرة لعلهم يستعيدوا بها هذه المدينة. ولكنهم عجزوا عن ذلك بعد حصار طويل ، فتوجهوا صوب نخجوان التى بها أبو بكر البهلوان . فلما علم بمقدمهم هرب الى تبريز ، وترك المدينة وأهلها يواجهون مصيرهم المحتوم على يد الكرج الذين أسروا من أهلها ما لا يعلمه الا اللـه(٩١) .

ولم يقف أمر تصدع بيت أتابكة أذربيجان من بنى ايلدكز عند حد الانقسام السياسى وضياع الأراضى بل تعداه الى أن أبا بكر بن البهلوان وغيره من كبار رجال بيته وقادته كانوا منهمكين فى الشراب ليلا ونهارا مما سهل للكرج الاستيلاء على معظم اقليم أذربيجان . وقد استمروا فى توسعهم حتى كانت سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م عندما خـرج الـكرج فى جموع كبيرة وتوجهوا الى مدينة دوين القـريبة من حدودهم وفرضـوا عليها حصاراً طويلا . ولما لم يجد أهلها قدرة على الصـمود استنجدوا بابن البهلوان أبى بكر ولكنه لم يتمكن من نجدتهم ، فتمكن الكرج من الاستيلاء على المـدينة وذلك فى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وفعلوا بأهلها من المسلمين ما تقشعر له الجلود ، فى الوقت الذى لم يتمكن ابن البهلوان من تقديم مساعدات لأهلها . وقد صور المولوى صمت ابن البهـلوان وعدم نجدته للمسلمين بقوله « فكأنهم ينادون صخرة صماء فكرروا الاستغاثة فازداد صمتا وقسوة حتى فعل الكفار ما أرادوا ... بعد تخريب البلاد والقرى. فالله يرحم العباد »(٩٢) .

---

(٩٠) الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، وجاء فى الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة أن أبا بكر قد أوعز الى بعض رجاله قتل أخيه أميراميران عمر .

(٩١) نفس المصدر ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٩٢) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٤٤١ب ؛ انظر كـذلك ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٦٠ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ الغسانى، العسجد المسبوك ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص ٣٨ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ١٠٤ .

ويبدو أن هجمات الكرج على أملاك أتابكة أذربيجان لم تكن نتيجة لضعف أبى بكر البهلوان وانشغاله باللهو والشراب فحسب ، وانما ترجع أيضاً الى الفتن الداخلية وظهور بعض الشخصيات القيادية من مماليك البهلوان وأولاده . ففى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م تمكن أحد مماليك أبى بكر ابن البهلوان ، ويدعى ايتغمش ، من قتل والى الرى ويدعى المملوك كوكجا ، واستولى عليها . وحتى يضفى على هذا العمل الشرعية حمل معه أوزبك بن البهلوان(٩٣) .

تلك الحوادث وغيرها ، كفيلة باضعاف جانب أتابكة أذربيجان . ولهذا أغار الكرج على أراضى أذربيجان،وتمكنوا فى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م من الاستيلاء على مدينة مرند التابعة لأقليم أذربيجان ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل ، حتى غدت مضرب الأمثال فى الدمار والأبادة(٩٤) .



ولم تترك هذه الأوضاع القائمة بين أتابكة أذربيجان بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين الكرج من ناحية أخرى.فرصة لتقوية جبهتهم الداخلية . ولذلك لجأ أبو بكر - بعد أن عرف عجزه عن محاربة الكرج - الى مصاهرتهم ، فلما كانت سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م تزوج ابنة ملك الكرج « فسكنت غاراتهم على بلاد المسلمين »(٩٥) .

وبالرغم من المصاهرة التى تمت بين أبى بكر والكرج فان أوضاعه

---

(٩٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٦٥ . أما الرى فقد كان البهلوان قد استولى عليها وعلى ما جاورها من بلاد الجبل سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م . أما أيتغمش فيذكر ابن الأثير فى كامله أنه شدد الحرب على الاسماعيلية بايران ولولا انشغاله بأبى بكر بن البهلوان لامكنه الاستيلاء على قلعة الموت،ابن الأثير، الكامل ،ج٩،ص٢٨٢.

(٩٤) الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٩ . ومرند : من مشاهير مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز مسيرة يومين على الأقدام . ياقوت . معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

(٩٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ أ ؛ انظر : الذهبى ، دول الاسلام، ج٢ ، ص ١٠٩ ؛ ابن الوردى تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ١٧٧ ؛ ابن خلدون ، العبر، ج ٥ ، ص ٣ .

السياسية الداخلية لم تتحسن ولم تستقر ؛ اذ نظر بعض قادة المسلمين الى هذا الزواج السياسى على أنه منتهى الذل والخضوع . ولذلك اتفق صاحب مراغه عـــلاء الدين مع صاحب أربل مظفر الدين كوكبرى سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م على قصد أذربيجان وأخذها من صاحبها أبى بكر بن البهلوان بسبب مواقفه السلبية تجاه الكرج . فلما عرف أبو بكر أن هـــذا الحلف قصد تبريز مقر اقامته،حشد قواته واستنجد بايتغمش مملوكه بالرى،فقدم اليه . وكان لأيتغمش دور كبير فى تفكيك هذا الحلف بحيث عاد صاحب أربل الى بلده . أما صاحب مراغه فقـــد صالح أبى بكر بن البهلوان وايتغمش على تسليم حصن من حصونه مقابل اقطاعه مدينتين صغيرتين تابعتين لمراغه ، على أن يعود أيتغمش الى بلاده(٩٦) .

أما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بمشاكله مع القوى الاسلامية، فأغاروا فى نفس السنة على أرمينية وحاولوا الاستيلاء على خلاط . ولكن حماسة المسلمين ورغبتهم فى الجهاد مع كثير من علمائهم أجبرت الكرج على العودة بعد أن قتلوا وأسروا منهم أعداداً كبيرة . ولكنهم عادوا فى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م وتمكنوا من الاستيلاء على مـــدينة قرص(٩٧) من أعمال خلاط « وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد ، فان للـــه وانا اليه راجعون »(٩٨) .

وفى ظل هذه الأوضاع المتردية للمسلمين ، وجد الكرج أن الفرصة مواتيه لهم للهجوم على امارة خلاط بأرمينية ، مستغلين فى ذلك انشغال أبى بكر بن البهلوان بأذربيجان بفتنه الداخلية ولهوه،فصبوا جام غضبهم على أمارة خلاط بأرمينية. وكان من المتوقع أن يقف أبو بكر بن البهلوان الى جانب صاحب خلاط . ولكنه للأسف لم يسع الى ذلك بل قام فى سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م بهجوم على مراغه ، وتمكن من الاستيلاء عليها عقب وفاة

---

(٩٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٨٢ .

جـ٤ ، ص ٣٢٣ .

(٩٧) قرص : مدينة بأرمينية من نواحى خـــلاط ، ياقوت ، معجم البـــلدان ،

(٩٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٨٩ ؛ انظر : ابن الساعى ، الجامع المختصر ، جـ ٥ ، ص ٢٠٦ .

صاحبها علاء الدين قراسنقر الأحمديلي الذى لم يخلفه أحد من أسرته فى حكم بلاده(٩٩) ٠

وبالرغم من الأخطار المحدقة بأبى بكر بن البهلوان فانه « قد بقى على فسقه وشربه ٠٠٠ حتى توفى سنة٦٠٧هـ/١٢١٠م بمدينة تبريز،تجاوز الله عن سيئاته »(١٠٠) ٠ وقد مكث فى حكم أذربيجان أكثر من عشرين سنة ، فتولى الأمر بعده أخوه مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن شمس الدين ايلدكز ، وكان قبل توليه الأمر مقيما ببلاد الجبل عند المملوك أيتغمش ، وقبله عند كوكجا ٠ وفى بداية أمره حاول أن يصلح المفاسد التى انتشرت فى أيام أخيـــه ، لكن النزاعات الداخليـــة لم تدع مجالا للاصلاح ٠ وقد تمكن أحد المماليك المسمى منكلى فى سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م من طرد أيتغمش من الرى وأجبره على الخروج منها فوجد الأخير أن الأفضـــل له الذهاب الى بغـــداد للاستنجاد بالخليفة الناصر (٥٧٥هـ/ ٦٢٢هـ)(١٠١) ٠

على أن هذا التصرف من قبـــل منكلى كان له أثره على القـــوى الاسلامية ، فتكون ضده حلف من الخليفة العباسى ، وجلال الدين(١٠٢) صاحب الاسماعيلية،وأزبك بن البهلوان ، لقتال منكلى وأخذ البلاد من يده ٠ وقد تمكن هذا الحلف من هزيمته وقتله واقتسام بلاده التى استولى عليها من أيتغمش ، وقسمت بين أعضاء الحلف ، وكان النصيب الأوفر من بلاده لأزبك بن البهلوان ، وصاحب قلاع الاسماعيلية(١٠٣) ٠

---

(٩٩) المولوى ، صحائف الاخبـار ، ورقة ٦٤٢ أ ؛ ابن الأثيـــر ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٩٧ ٠

(١٠٠) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ أ ؛ انظر : ابن الاثير ، الكامل، جـ ٩ ، ص ٣٤٩ ٠

(١٠١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٠٥ ؛ الذهبى ، تاريخ الاســـلام ،

(١٠٢) جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثانى كان لس له الىسم فتوفى سنة ٦٠٧هـ ، وتولى بعده زعامة الاسماعيلية علاء الدين محمد الثـــالث الذى عارض الاسماعيلية فى كثير من معتقداتهم ، وأقام فى بلاده الآذان والجمعه والجماعة فى الصلاة ، انظر : زامباور ، معجم الانساب ، ص ٣٢٩ ٠

(١٠٣) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ أ ٠

أما أزبك فقد سلم نصيبه من بلاد الجبل الى مملوك أخيه المسمى أغلمش وذلك سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، وهى السنة التى أرسل فيها رأس منكلى الى بغداد كدليل على التخلص منه(١٠٤) ٠

ولما كانت طائفة الاسماعيلية لا يؤمن جانبها ، فقد قام بعض رجال هذه الطائفة باغتيال أغلمش ، فأصبحت بلاده مطمعاً للطامعين سواء الاسماعيلية أم الخوارزميين أم صاحب فارس سعد بن زنكى(١٠٥) ، وكان أن تسابق الجميع للاستيلاء عليها ، الا أن علاء الدين محمد خوارزمشاه زعيم الخوارزميين (٥٩٧ - ٦١٨هـ/١٢٠٠ - ١٢٢١م) تمكن من الاستيلاء على بلاد الجبل والرى وهمذان بعد أن أسر سعد بن زنكى ، وأجبر أزبك على مغادرة أصفهان الى أذربيجان ٠ وأستقرت القاعدة بينه وبين أزبك صاحب أذربيجان على أن يخطب له أزبك ببلاده ويدخل فى طاعته(١٠٦) ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قام الاتابك أزبك يضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى وأرسل اليه الهدايا والتحف٠ على أنه أعتذر عن دفع ما طلبه السلطان من أموال بسبب قلة دخل البلاد ، وكثرة الانفاق على المجاهدين ضد الكرج ٠ ولما عرف السلطان هذا الأمر تجاوز عن المال المطلوب من أزبك، وأرسل الى الكرج يحذرهم من الاعتداء على أذربيجان باعتبارها أصبحت من أملاكه الخاصة(١٠٧) ٠

---

(١٠٤) نفس المصدر ، ورقة ٦٤٤أ ٠

(١٠٥) هو سعد الاول بن زنكى تولى أمر أتابكية فارس من أسرة بنى سلغر فى سنة ٥٩٩ هـ وأسره خوارزمشاه سنة ٦١٣ هـ وأعاده عاملا على بلاد فارس ، وكانت علاقاته طيبة مع جلال الدين منكبرتى زعيم الخوارزميين انظر : زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٣٥٠ ٠

(١٠٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٣ ؛ الجوينى ، تاريخ جهانكشاى ، ج٢ ، ص ٨ ؛ حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص ٤٧ ٠

(١٠٧) النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٥٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ؛ فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ج١ ، ص ٧١ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٩٣ ٠

وهكذا تعتبر هذه الخطوة نقطة تحول فى تاريخ أتابكية أذربيجان لم يسبق لها مثيل من قبل فى اعلان الطاعة للخوارزمين . ولا يخرج ذلك عن كونه تعبيراً عن قوة طموح علاء الدين محمد خوارزمشاه ، الذى كان قد قضى على الغوريين(١٠٨) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد ساعد على ذلك ضعف أزبك ، اذ سلك مسلك أخيه فى ادمان الشرب والانهماك فى ملاذه حتى تمكن الكرج والمغول من الاستيلاء على معظم أملاكه .



ولم يقف تدهور أتابكة أذربيجان عند هذا الحد من اقتطاع أراضيها ، وخصوصا تلك التى ببلاد الجبل والرى وهمذان وآران على يد الكرج أو الخوارزميين ، بل ظهر على المسرح عدو جديد (المغول) أجتاح المشرق بكامله . ذلك أنه حدث سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م أن وصلت جموع هذا العدو الى أذربيجان . وعندما اقتربوا من تبريز التى كان بها أزبك فانه « لم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصـــدده من أدمان الشرب ليلا ونهاراً » وارســـل اليهم الاموال والدواب والهـــدايا ، فلم يتعرضوا لبلاده واتجهوا الى موقان(١٠٩) على ساحل بحر قزوين(١١٠) .

ويبدو أن المغول قنعوا مؤقتاً بما حصلوا عليه من هدايا وتحف من أزبك ، فاتجهوا صوب بلاد الكرج ، وقد انضم اليهم أحد مماليك أزبك ويسمى أقوش ، وساروا حتى وصلوا قرب تفليس بعد أن هزموا الكرج بزعامة ملكهم جورج لاشا الرابع George IV (٦٠٩ - ٦١٩هـ/١٢١٢ - ١٢٢٣م) فى نهاية سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م(١١١) .

---

(١٠٨) لمعرفة كيفية القضاء على الغوريين انظر : عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(١٠٩) موقان : ولاية عظيمة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز ، ويوجد بموقان عدد من القرى الجبلية ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ؛ الذهبى ، المختار ، ص ١٠٠ ؛ عصام عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة ، ص ٢٦٥ .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفـــرج =

ولم يتوقف المغول عند هذا الحد بل تمكنوا فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م من الاستيلاء على مراغه ،وتابعوا سيرهم حتى وصلوا حدود العراق بعد الاستيلاء على همذان • ومن همذان سار المغول مرة ثانية الى أذربيجان واتجهوا صوب تبريز التى كانت تحت حكم شمس الدين الطغرائى(١١٢) بعد أن هرب منها ازبك الى نخجوان • ولما عرف الاهالى بهرب أميرهم افتدوا أنفسهم بأموال كثيرة ، وتركوها وتوجهوا الى بيلقان سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م • وبعد الاستيلاء عليها وقتل معظم أهلهـــا توجهوا الى كنجه « وهى أم بلاد آران » ولكنهم عدلوا عنها بسبب معرفتهم بقوة أهلها وشدة مراسهم على الحرب وقبلوا من أهلها « المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فســاروا عنهم »(١١٣) • ونتيجة للضعف الذى أصاب حكام أذربيجان من أسرة ايلدكز فضلا عن الكرج على يد المغول ، فان الكرج لم يستكينوا لهذا الوضع بل قاموا فى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م بهجوم على آران، وتمكنوا من دخول بيلقان التى لم يكن أهلها علىاستعداد لمحاربة الكرج، فأعملوا فيهم السيف • هذا فى الوقت الذى كان أزبك قابعا فى تبريز « لا يتحرك فى اصلاح ولا يتجه لخير بل قنع بالأكل والشرب والنساء فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم »(١١٤) •

وعلى الرغم من هذه الأخطار المحدقة بالمسلمين من جانب المغول والكرج فى الشرق والصليبيين فى الشام ، فان نزاعاتهم الأقليمية العنيفة لم تنقطع • ففى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م قام صاحب الموصــــل بدر الدين

=

الكروب ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص ٥٦ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٤٢٦ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٣٧ •

(١١٢) شمس الدين الغرائى : لم اقف له على ترجمة •

(١١٣) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٤٢٤ ؛ انظر : ابن الاثير ، الكامل، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٨ ــ ٥٤ •

(١١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٤٩ ؛ انظر : الغسانى ، العســجد المسبوك ، ج٣ ، ص ٣٩٢ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٨٥ •

لؤلؤ(١١٥) بالاستيلاء على قلعة شوش(١١٦) ، وأجبر صاحبها ـ عماد الدين زنكى بن نور الدين أرسلان شاه ـ على التوجه الى أزبك بن البهلوان لطلب النجدة منه٠ على أنه لم يجد منه مساعدة للعودة الى بلاده « فبقى عنده ولم يعد الى الموصل »(١١٧) ٠ واستمراراً للضعف والخذلان الذى أصاب أزبك فانه فى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وحينما وصل المغول الى تبريز لم يسع الى المحافظة على المسلمين الخوارزميين الذين لجأوا اليه ، بل قتل كثيراً منهم وأسر البعض وسلمهم مع جملة من الهدايا الى المغول الذين هاجموا بلاده ، فعدلوا عنه « وعادوا عن بلاده نحو خراسان »(١١٨)٠وأن دل هذا على شىء فانما يدل على ضعف وهوان المسلمين بعضهم على بعض ٠ ولم يعد فى مقدور أزبك بن البهلوان الدفاع عن بلاده، لا من المغول ولا من الكرج الذين كانوا قد استغلوا هذه الأوضاع المتردية فقاموا فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وتوجهوا الى كنجه الا أن أهلها تمكنوا من الدفاع عنها ، واعادوا الكرج من حيث أتوا ٠ على أن الكرج تمادوا فى غيهم تجاه المسلمين فخرجوا مرة أخرى فى عهد الملكة روسودان Roussoudan (١٢٢٣ ـ ١٢٤٨م) من تفليس الى بلاد أزبك بأذربيجان ٠ ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمة الكرج فى أحد المضايق ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة(١١٩)٠

---

(١١٥) بدر الدين لؤلؤ : الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى ، صاحب الموصل توفى عن عمر يناهز الثمانين ، حكم الموصل ، حوالى خمسين سنة ، وقام من بعده ابنه الصالح اسماعيل وكانت وفاته سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ٠ انظر : ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ٢٨٩ ٠

(١١٦) قلعة شوش : قلعة عظيمة العلو قرب عقر الحميدية ، من أعمال الموصل ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٧٢ ٠

(١١٧) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ب ٠

(١١٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٥٣ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، ص ٢٦٥ ٠

(١١٩) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ١٩٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ٠ وقد ذكر العينى أن ملكة الكرج روسودان قامت بعد وفاة زوجها وتزوجت من مغيث الدين طغرل شاه ابن صاحب آرزن الروم ٠ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ٤٣٨ ٠

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الكرج فى محاولتهم الأخيرة للاستيلاء على أذربيجان فان ابن الأثير صور حالة زعماء المسلمين وما أصابهم على يد الكرج والتتار فى تلك الآونة ، وما كان عليه حالهم من الخذلان فقال : ان ملوك المسلمين لا تتعدى همة الكثير منهم بطنه وفرجه(١٢٠) .

وعلى الرغم من أن القوى المتصارعة بفارس وأذربيجان فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، لم تحدد أيا منها يمكن أن تكون لها السيادة المطلقة على بقية القوى فان قوة المغول كانت هى القوة التى استولت على أكبر مساحة جغرافية من فارس والعراق وأرمينية وأذربيجان.على أن قوتهم لم تتخذ لها مركزا سياسا تنطلق منه الى بقية المراكز ، فلا هم لهم الا التخريب والتدمير ثم الرحيل ، ولما كان الخوارزميون أكبر القوى الاسلامية التى تعرضت للضربات الموجعة والمفجعة من بين جميع القوى ، فقد أفرز هذا الضغط المغولى زعامة اسلامية جديدة ممثلة فى شخصية جلال الدين منكبرتى(١٢١) ،وما بقى معه من القوات الخوارزمية المشردة . ذلك أنه ركز همه على تجميع وحدة المسلمين فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى من ايران بعد عودته من الهند سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ولم تأت سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م حتى أصبحت قوة جلال الدين القوة الضاربة فى فارس وأذربيجان والعراق العجمى(١٢٢) .

ولما كان جلال الدين منكبرتى يطمع فى توحيد القوى الاسلامية فانه تمكن فى سنة ٦٢٣/١٢٢٦م من الاستيلاء على مراغه وتبريز وكنجه بعد أن هرب الأتابك أزبك بن البهلوان تاركاً زوجته وأفراد أسرته

---

(١٢٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٣٦ .

(١٢١) جلال الدين منكبرتى : محمود علاء الدين محمد خوارزمشاه ، على يد جده زالت الدولة السلجوقية ، ولاه والده ولاية العهد بعد الغزو المغولى للدولة الخوارزمية.أنتصر على المغول فى معركة بيروان سنة ٦٢٠هـ . تمكن أحد فلاحى خلاط من قتله غيلة سنة ٦٢٨هـ . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٢.

(١٢٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٥٧ ؛ العرينى ، المغول ، ص ١٦٩ .

بتبريز . ومن تبريز نقل جلال الدين منكبرتى زوجة أزبك الى قلعة خوى معززة مكرمة(١٢٣) .

وفى تبريز أحسن جلال الدين منكبرتى الى سكانها ، ووعدهم بأخذ الثأر م نالكرج الذين لم تنقطع غاراتهم على المسلمين . ولم يقف عند هذا الحد بل خرج الى بلادهم وانزل بهم هزيمة ساحقة،واستولى على عاصمتهم تفليس . ولكنه لم يقم فى بلادهم بل عاد الى تبريز حيث بلغه أن سكانها حاولوا التعاون مع أنصار أزبك وانتقم ممن كان وراء هـذا التدبير ، وتزوج من زوجة أزبك بعد أن ثبت لديه طلاقها من زوجها السابق ، وأجبر أزبك على الاحتماء بقلعة كنجه(١٢٤) .

ولم تطل حياة أزبك بعد هذه الضربات المتلاحقة،فقد وافته منيته فى تلك السنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م بعد خمسة عشرة سنة أمضاها فى حـــكم أتابكية أذربيجان.وخلفه ولد له اسمه خاموس فتولى أمره مملوك لأبيه اسمه قراجه؛الا أن أمر بنى ايلدكز كان قد انفرط.وبذلك انقرضت أتابكية أذربيجان من بنى ايلدكز(١٢٥) .



---

(١٢٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٥٩ ؛ العرينى ، المغول ، ص ١٦٨ ؛ براون ، تاريخ الادب فى ايران ، ص ٥٧١ . وخوى : ويقال لها مدينة حسنة على نهر يجرى شمالا فيصب فى نهر أرس Arazes وهى ذات سور عظيم وبساتين كثيرة بها عين ماء حار ماؤها فى الشتاء بارد فى الصيف ، ويتبع المدينة أكثر من ثمانين قرية . انظر : ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(١٢٤) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٣ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٧ . جاء فى كتاب معجم الانساب لزامباور ، ص ٣٤٩ أن زوجة أزبك هى فلانة بنت طغرل بن أرسلان السلجوقى .

(١٢٥) المولوى ، صحائف الاخبـــار ، ورقة ٦٤٣ أ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٦٧ .

الخـــاتمة

وبعد فان هذه دراسة متواضعة عن أتابكة أذربيجان من أسرة شمس اليدن ايلدكز التى امتد حكمها لأذربيجان وبلاد الجبـل فى الفترة من ٥٤١هـ حتى ٦٢٢هـ٠وقد تمكن زعماء هذه الأسرة من فرض سيطرتهم على البلاد السلجوقية وتحكموا فى أمر الدولة السلجوقية فترة زمنية ٠ كذلك تمكن زعماء هذه الأسرة من الوقوف فى وجه الـكرج الجورجان الذين كانوا يحاولون ما بين حين وآخر مد نفوذهم على بلاد الاسلا ٠ وقد أضحت فى دراستى لهذه الامارة العلاقات الايجابية والسلبية لهذه الأسرة مع القوى السياسية وغيرها فى فارس والعراق واقليم الجـــزيرة وأرمينية ٠ وكيف أن زعماء هذه الأتابكية ذهب كثير من جهودهم فى حروب اقليمية ضيقة اكتشفها نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، مما شجع الكرج على احتلال كثير من بلاد المسلمين ٠ وقد ادرك صلاح الدين عـــدم جدوى الدخول فى نزاع مع زعماء هذه الأتابكية التى قـــد تصرفه عن جهاد الصليبيين فى الشام ٠

ومما توصلت اليه فى دراسة هذا الموضوع بيان التحول فى ضعف هذه الأتابكية عقب وفاة محمد البهلوان وتمرد الرعايا والسلاطين السلاجقة على خلفائه ، الأمر الذى أدى الى أن استعان هؤلاء الخلفـــاء بقوى خارجية كالخلافة العباسية ، والدولة الخوارزمية والكرج أحياناً ٠ وكان لهذا التصرف من قبل بعض أفراد هذه الأسرة أثره فى ضياع هيبتهم أمام خصومهم٠ثم ان الدراسة أوضحت تلك المواقف المعيبة لبعض زعماء هذه الأتابكية وانغماسهم فى الشراب واللهو وعدم الاستعداد لحماية مكاسب أسلافهم أو حتى القيام بفريضة الجهاد ضد الكرج ٠ وكانت حصيلة هذه المواقف السلبية من زعماء هذه الأسرة أن تعرضت أملاكهم الى طغيان الـــكرج واستبدادهم بالاستيلاء على معظم أراضيهم ٠ هذا فضلا عن عدم قـــدرة هذه الأسرة على الوقوف والتصدى للمغول ولقوة جـــلال الدين منكبرتى زعيم الخوارزميين فيما بعد ، وهو الذى تمكن من القضاء على هـــذه الأتابكية وضم الى حوزته ما كان قد بقى فى أيديهم من أملاك سنة ٦٢٢هـ، ثم توج جهوده بالاستيلاء على تفليس من الكرج فيما بعد ٠

المصـــادر والمراجع

❋ المخطـــوطات :

— الأصفهانى (محمد بن محمد صفى الدين الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهانى ت ٥٩٧ ق/١٢٠١م) ·
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ·
صورة بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨

— الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى ، ٧٥٢هـ)
ملخص تاريخ ميافارقين · صورة بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ١٢٦٦ ·

— المولوى (أحمد رده بن لطف الله المولوى الرومى ، ت ١١١٦هـ)
صحائف الأخبار فى وقائع الأعصار ، صورة بمركز البحث بجامعة أم القرى تحت الرقم ١٠٤٢) ·

❋ المصادر المطبوعة :

— ابن الأثير (أبو الحسن بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ)

١ - الكامل فى التاريخ ٩ أجزاء ، طبعة بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م·

٢ - التاريخ الباهر - الدولة الأتابكية،تحقيق عبد القادر طليمات، ط ، القاهرة ·

— ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصـر والقاهرة ، جـ٦ ، ط القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ·

— ابن الجوزى (أبو الفرجة عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ت ٥٩٧هـ/١٠٢١م)

١ - فضائل القدس ، ط

٢ - المنتظم ، جـ١٠ ، ط بيروت .

- ابن حوقل : (أبو القاسم محمد بن على ، ت ق ٤ هـ) .
صورة الأرض ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط بيروت ١٩٧٥م .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ/١٢٨٤م) وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٩٧هـ .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر ، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
الجوهر الثمين ، تحقيق د. سعيد عاشور ، ط مكة .

- ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب المعروف بابن الساعى الخازن ، ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)
الجامع المختصر جـ٩ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥٣هـ.

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن مانع ت ٦٣٢هـ/١١٣٤م)
النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٣٨٤هـ) .

- ابن شداد (عزالدين أبى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)
الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ٣ ، ق٢ ، تحقيق يحيى عباره ، ط دمشق ١٩٧٨م .

- ابن ظافر الأزدى (جمال الدين أبى الحسن على بن ظافر بن الحسين بن غازى الحلبى ، ت ٦١٣هـ/١٢١٦م)
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق محمد الزهرانى ، ط المدينة المنورة سنة ١٤٠٨هـ .

- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ، المعروف ، بابن العبرى ت ٦٦٠هـ/١٢٨٦م) .
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م .

- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة اللـــه ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)
زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشـــق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- ابن الحنبلى (أبو الفرج عبد الحى بن على بن محمد ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٨ أجزاء ، ط بيروت .

- الغسانى (الملك الأشرف الغسانى ، ت ٨٠٣هـ)
العسجد المسبوك جزآن تحقيق ، شاكر عبد المنعم ، ط بغداد١٣٩٥هـ

- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه بن القلانسى ،ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .

- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)
البداية والنهاية ١٢ جزء ، ط بيروت ١٩٦٦م .

- ابن واصل (جمال الدين بن محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)
مفرج الكروب ، جـ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣م والجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م .

- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفـر بن أبى الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
تتمة المختصر ، تحقيق أحمد البدراوى ، ط بيروت ١٣٨٩هـ .

- أبو شامه (شهاب الدين عبـد الرحمن بن اسماعيل المقـدسى ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)

١ - كتاب الروضتين فى أخبـــار الدولتين ، جزآن ، ط القاهرة ١٢٨٨هـ .
٢ - ذيل الروضتين ، نشر ومراجعة الســيد عزت العطار ، ط بيروت ١٩٧٤م .

- أبو الفدا (الملك المؤيد بن عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
المختصر فى أخبار البشر - ٣ أجزاء - بيروت .

- الأصفهانى (أبو عبد الله معاد الدين محمد بن بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)

١ - الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمـــد صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥م .
٢ - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح النبزارى ، ط بيروت ١٩٧٨م .

- النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن محمد المنشى كان حياً سنة ٦٣٩هـ)
سيرة جلال الدين منكبرتى ، تحقيق حافظ حمــــدى ، ط القاهرة ١٩٥٣م .

* المراجع الحـــديثة :

- أحمد السعيد سليمان :
تاريخ الدول الاســلامية ومعجـــم الأسرات الحاكمة ، جزآن ، ط القاهرة ١٩٦٧م .

- بدرى محمد فهد :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ١٣٩٣هـ .

براون أدورد جرانفيل :
تاريخ الأدب فى ايران ، ترجمة ابراهيم الشواربى ، ط القاهرة ١٣٧٣هـ .

ـ حافظ حمـــدى :

١ ـ الدولة الخوارزمية ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .
٢ ـ الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط القاهرة ١٩٥٠م .

ـ حامد غنيم أبو سـعيد :
الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ١ ، ط القاهرة ١٩٧١م .

ـ حسن ابراهيم حســن :
تاريخ الاسلام السياسى ، جـ٤ ، ط القاهرة ١٩٦٧م .

ـ حسن أحمد محمود وأحمد الشريف :
العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .

ـ حسـن الباشـا :
الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط القاهرة١٩٨٣م.

ـ حســـنين ربيع :
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط القاهرة ، ١٩٨٣م .

ـ حسـين أمين :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ، ١٣٨٥هـ .

ـ حسين قاسم أمين :
البابكية أو انتفاضة الشعب الأذربيجانى ، ط بيروت ١٩٦٦م .

ـ حسـين مؤنس :
نور الدين محمود ، ط بيروت ١٤٠٨هـ .

ـ رنسيمان استفين :
تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة السيد الباز العرينى ، ط بيروت ١٩٦٧م .

ـ زامبـــاور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ط بيروت بدون تاريخ .

ـــ سعد محمد حذيفة الغامدى :

١ ـ أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاســـلامى ، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ .

٢ ـ الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ط مؤسسة الرسالة .

ـــ سـعيد عاشـــور :

الحركة الصليبية جزآن ، ط القاهرة ١٩٧٦م .

ـــ السيد الباز العرينى :

المغول ، ط القاهرة بدون تاريخ .

ـــ صابر محمد دياب :

١ ـ آرمينية ، ط القاهرة ١٩٣٨هـ .

٢ ـ المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ط القاهرة ١٤٠٤هـ .

ـــ عبد الله سعيد الغامدى :

صلاح الدين والصليبيون ، ط بيروت ١٤٠٤هـ .

ـــ عبد النعيم حسنين :

١ ـ سلاجقة ايران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ .

٢ ـ دولة السلاجقة ، ط القاهرة ١٣٩٥هـ .

ـــ عصـام الدين عبد الرؤوف :

١ ـ بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ط القاهرة١٩٧٥م.

٢ ـ الدول الاسلامية المستقلة ، ط بيروت ، بدون تاريخ .

ـــ عليـــه الجنزورى :

امارة الرها الصليبية ، ط القاهرة بدون تاريخ .

ـــ على محمد الغامدى :

بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ط بيروت ١٤٠٤هـ .

ـــ عفاف صـــبره :

دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٤٠٦هـ .

- عماد الدين خليـــل :
عماد الدين زنكى ، ط بيروت ١٣٩١هـ .

- فؤاد الصـــياد :
المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ط بيروت ١٩٨٠م .

- كى ليســترنج :
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة كوركيس عواد ، وبشير فرانسيس، ط بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- محمد شيت خطاب :
أرمينية بلاد الروم ، ط بيروت ١٤١١هـ .

- محمد صالح القزاز :
الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الأخير ، ط النجف، ١٣٩١هـ .

- مريزن عسيرى :
الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، ط مكة ١٤٠٧هـ .

- مسفر سالم الغامدى :
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى ، ط جدة ١٤٠٦هـ .

بعض أضـواء جـــديدة
على وظيفة
ناظر البيمارستان المنصورى

د٠ ليـــلى عبد الجـواد(١)

يعتبر البيمارستان المنصـورى من أشـــهر البيمارستانات(٢) التى اقيمت فى الدولة الاسلامية ، فضلا عن أنه يعتبر ظاهرة حضارية مميزة لعصر سلاطين المماليك بوجه عام وعصر المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) بوجه خاص ٠

وقم أقام المنصور قلاوون هـــذا البيمارستان فى الدار القطبية(٣) بخط بين القصرين ؛ وكانت هذه الدار فى يد مؤنســـة خاتون ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، حينما أرسل اليها المنصـــور قلاوون الأمير علم الدين سـنجر الشجاعى(٤) ، ليشترى منها هذه الدار ٠ ويروى العينى أن مؤنسة خاتون لم تلتفت اليه ، وردته رداً جميلا ، فأرســـل اليها السلطان قلاوون الطواشى حسام الدين ، وعرفها ان السلطان يقصد

---

(١) أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ٠

(٢) البيمارستان أو المارستان ويقال كذلك المرستان لفظ فارسى مركب من مقطعين (بيمار) بمعنى المريض (وستان) بمعنى محل أو مكان أو دار ، أى أن البيمارستان هو مستشفى لمعالجة جميع الأمراض ، ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذى يعد لاقامة المجانين ٠ انظر المقريزى السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ص ٧١٦ ، حاشية ٦ ، أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص ٤ ٠ هذا ويذكر الخالدى أن البيمارســـتان كلمـــة فارسية تعنى بيت الضعيف ، انظر المقصد الرفيع ، مخطوط ، ورقة ١٣٣ ٠

(٣) الدار القطبية تنسب الى الملك المفضل قطب الدين لأحمد بن الملك العـــادل أبى بكر بن أيوب ، انظر المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص٤٠٦ ٠

(٤) انظر ترجمة علم الدين سنجر الشجاعى فى : ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ٦ ، ص ٨٠ ـ ٨٣ ، النجوم ، حـ٨ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ٠

أن يعمر هذه الدار مارستاناً ، ويقف عليه الأوقاف ؛ فقالت له : كما يروى العينى - « شىء يكون لنا فيه أجر ففيه السمع والطاعة ، أما لأجل السكنى فنحن أحق بالسكنى من غيرنا »(٥) .

ويتضح من رواية العينى ان مؤنسة خاتون قبلت بيع هذه الدار للسلطان طالما أنه سيستغلها فى عمل خيرى ، رأت فيه حسن الأجر والثواب .

وفى ١٨ ربيع الأول ٦٨٢هـ/١٧ يونيه ١٢٨٣م عهد السلطان المنصور قلاوون الى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بالاشراف على عمارة هذه الدار لتكون مارستانا فأظهر الاهتمام والاحتفال بما لم يسمع بمثله ، وتممه فى مدة يسيرة ، اذ اكتملت عمارة البيمارستان فى ربيع الآخر / يونيه من العام التالى (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) أى أن عمارته لم تستغرق سوى أحد عشر شهراً(٦) .

وأفتتح السلطان المنصور قلاوون هذا البيمارستان فى حفل مشهود حيث جلس به ومعه الأمراء والقضاة والعلماء . ويحدثنا النويرى عن مراسيم هذا الاحتفال فيذكر أن بعضا ممن شهد الحفل أخبره بأن السلطان استدعى قدحاً من الشراب فشربه ، ثم قال [قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى]. وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والجندى والأمير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى(٧) . وجاء هذا

---

(٥) العينى ، عقد الجمان ، حـ٣ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٢٥٧ .

(٦) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص ٧١٦ - ٧١٧ ، النويرى نهاية الارب ، حـ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٦ ، القاهرة ١٩٩٢م ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٧ ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢م ، ص ٢٧٨ ، العينى ، عقد الجمان ، حـ٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣٢٦ ، وانظر أيضا : أحمد عيسى تاريخ البيمارستانات ص ٨٥ ، محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٥٨ ، ١٥٩.

(٧) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، وانظر أيضا المقريزى المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩ ، وانظر كذلك أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٦ .

اعلاناً صريحاً من السلطان المنصور بأباحة استخدام البيمارستان لجميع الطبقات،العليا منها والدنيا،دون تفرقة بين غنى وفقير أو رجل وامرأة.

وقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفره/١٠ ابريل ١٢٨٦م(٨) على ذلك اذ جاء فيها : « وهـــذا البيمارستان الذى وقفه مولانا السلطان المنصور قلاوون ... لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنســاء من الأغنيــاء المثرين والفقــراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها...على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم..»(٩).

وأوقف السـلطان المنصـــور قلاوون الكثير من املاكه للصرف على مصالح البيمارستان ، حتى يضـــمن له الاستمرار فى أداء مهمته وتحقيق الغرض الذى أنشأ من أجله . وكانت هذه المخصصات تشـمل رباعاً(١٠) وبساتين وقياسر(١١)وحوانيت وحمامات واحكاراً ، وغير ذلك من ضياع الشام وما يتحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته فى كل شهر(١٢) .

أما عن تفاصيل هذه الأوقاف فقد وردت فى وثيقتى وقف المنصور

---

(٨) قام بنشر هذه الوثيقة د. محمد محمد أمين وأوردها فى ملاحق كتاب ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، الجزء الاول ، والذى قام بتحقيقه كذلك القاهرة ١٩٧٦م .

(٩) انظر نص الوثيقة فى تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(١٠) رباع ومفردها ربع ويقصد به فى العمارة فى العصر المملوكى مبنى به مجموعات من الوحدات السكنية وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت ، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها ربع ، اى من الممكن ان يكون بالمبنى الواحد أكثر من ربع . انظر : محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، مصر ١٩٩٠م ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(١١) قياسر مفردها قيسارية وهى وحدة معمارية تشبه سوقا مستقلا ، تحيط بها من الخارج حوانيت وفى الداخل صحن داخلى تحيط به حوانيت أيضا وحواصل، ويكون لها عدة مداخل ، وتعلوها وحدات سكنية يسكنها فى الغالب الصناع الذين يبيعون انتاجهم بالحوانيت .

انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم ، المصطلحات المعمارية ، ص ٩٢ .

(١٢) المقريزى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ ، ابن الفرات ، مـ٨ ، ص ٩ ، بيروت ١٩٣٩م ، وانظر أيضا احمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٥.

قلاوون المؤرختين فى ١٢ صفر/١٠ ابريل ، ٢١ صفر/١٩ ابريل عـــام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م(١٣) على النحو التالى :

الرباع ومنها «الربع الكامل المعروف بالعلمى أرضا وبناء»الذى هو بالقاهرة المحروسة بالقرب من قيسارية جهاركس ٠٠٠٠ ويشتمل هذا الربع على ثلاث فرجات ٠٠٠ وعدة حوانيت ٠٠٠٠ »(١٤) ٠

ومن البساتين تذكر وثيقة قلاوون « جميع البستان المعروف بظاهر القاهرة المحروسة خارج باب الشعرية والفتـــوح ٠٠٠٠ ومساحته أحـــد وعشرون فداناً وربع فدان وسدس فدان وثمن فدان ٠٠٠ »(١٥) ٠

أما القياسر فمنها جميع القيسارية التى بالقاهرة المحروسة بأول بين القصرين ٠٠٠ وتشتمل على حوانيت ٠٠٠ وجمـــلة ما فى القيارسية من الحوانيت بطناً وظهراً ثلاثة وســتون حانوتاً وأربعة مقاعد ٠٠٠ »(١٦) وقيسارية أخرى بالقاهرة المحروســة بين القصرين التى سفلها حوانيت وعلوها دسترقات ٠٠٠(١٧) وبباطن هذه القيسارية حوانيت عدتها ستة وثلاثون حانوتاً ٠٠٠(١٨) ٠ وقيسارية ثالثة تقع بجوار الحمام المعروف بحمام البياطرة ٠٠٠ وتشـــتمل على حوانيت متجاورة ومتقابلة عدتها اثنان وخمسون حانوتاً ٠٠ »(١٩) ٠

ومن الحمامات : جميع الحمام الواقع بجوار المصنع المعلق (أى

---

(١٣) قام بنشر هاتين الوثيقتين د٠ محمد محمد أمين ٠ انظر ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٢٩٥ ـ ٣٩٦ ٠

(١٤) لمزيد من التفاصيل عن محتويات هذا الربع انظر وثيقة وقف المنصـــور قلاوون فى تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠ ٠

(١٥) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤١ ٠

(١٦) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٤١ ـ ٣٤٤ ٠

(١٧) مسترقات مفردها مسترقة وهى عبارة عن خزانة توجد فى مكان بين أدوار المبنى وهى التى نسميها الآن المسروقة ٠ انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم، المصطلحات المعمارية ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(١٨) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ ٠

(١٩) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ٠

حوض خزن المياه)(٢٠) ، وكذلك جميع الحمامين المتجاورين بالقاهرة المحروسة بخط الخرنشف(٢١) وأسطبل الجميزة(٢٢) ٠

وقد قدر ابن عبد الظاهر الدخل السنوى الذى كان يتوافر من ريع هذه الأوقاف المتعددة التى شملها كتاب وقف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان ، فقال : « كانت أوقاف البيمارستان تشتمل فى كل سنة على ستين ألف دينار »(٢٣) ٠ فى حين قدر المقريزى هذا الدخل بالدرهم فقال : « انه كان يتوافر من جملة الأملاك الموقوفة على البيمارستان فى مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم فى السنة »(٢٤) ٠

وتحدث ابن شاهين الظاهرى عن كيفية توزيع هذا الريع فذكر ان المنصور قلاوون قرر وقفه فى كل سنة أربعين الف مثقال ذهب ، وأفرد من ذلك بعمارته وخدامه أربعة آلاف ، وقرر مصروفه فى كل يوم مائة مثقال(٢٥) ٠

والى جانب أوقاف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان المنصورى كانت هناك أوقافاً أخرى من أمثلتها وقف السيدة جانم عتيقة الجمالى يوسف وزوجة الأمير يشبك خازندار الملك المنصور قلاوون ، اذ توجد وثيقة وقف أخرى مثبتة بالهامش الأيمن لوثيقة السلطان المنصور قلاوون المؤرخة فى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ، وهذه الوثيقة باسم السيدة

---

(٢٠) عن المصنع انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم المصطلحات المعمارية ، ص ١٠٨ ٠

(٢١) خط الخرنشف يقع بين حارة برجوان والكافورى ٠ وعنه انظر المقريزى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٢٧ – ٢٨ ٠

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحمامات انظر وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٥٣ ، أما عن اسطبل الجميزة فيقع بجوار القصر الغربى الفاطمى ، وعرف بهذا الاسم لوجود شجرة جميز كبيرة فى وسطه ، انظر المقريزى، المواعظ ، حـ١،ص٤٦٤ ٠

(٢٣) نقلا عن ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق١ ، ص ٣٥٣ ٠

(٢٤) المقريزى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٦ ٠

(٢٥) ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، تحقيق بولس روايس ، باريس ١٨٩٤م ، ص ٢٩ ٠

جانم(٢٦) . وتنص على ايقاف « مائة وثمانية وستون فـــداناً بناحية أطفيح ، وقد أوقفت السيدة المذكورة ثلث ريع هذا الوقف على مصالح تربتها...أما ثلثى ريع هذه الأراضى فقد أوقفتها على مصالح البيمارستان المنصورى المحددة فى كتاب وقفه على مصالح المرضى به وأرباب وظائفه طبقا لشروط الواقف »(٢٧) .

وأهتم عدد من السلاطين بعد المنصور قلاوون بوقف الأوقاف على مصالح البيمارستان المنصورى أســـوة بالسلطان المنصـــور . ومن هؤلاء المنصور حاجى آخر أحفاد قلاوون فقد أصـــدر مرسوماً مؤرخاً فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٩١هـ/٨ ديسمبر ١٣٨٨م ونصه : « برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى المنصورى خلد الله ملكه ان ينعم على مستحقى ريع وقف البيمارستان المنصورى ما يخص بيت المال السلطانى من ارث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشريه وسكان أوقافه ... نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار لا يتغير حكمها ولا يندرس رسمها ، ولعنـــة اللـــــه على من يسعى فى تبديله أو ابطاله ، فمن بدله بعد ما سمعه فأنما اثمه على الذين يبدلونه »(٢٨) .

وخصص السلطان الاشرف برسباى كذلك فى جمادى الأولى ٨٣٤هـ/ يناير١٤٣٠م ثلث ريع ناحية كنيسة مردوس(٢٨) على مصالحالبيمارستان

---

(٢٦) وهى وثيقة رقم ٧٠٦ جديد أوقاف ، وقد قام بنشرها محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك . رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب سوهاج ١٩٨٠م ، ص ١٣٨ ، ص ١٠٤ .

(٢٧) محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ١٣٨ .

(٢٨) انظر

Van Berchem : Materiaux pour Un Corpus Inscriptorum Arabicarum, P.1, p. 134 — Egypt, Paris,1903

وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٨٧ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار ، القاهرة ١٩٦٦م ، حـ٢ ، ص ١٢١٧ .

(٢٩) مردوس قرية تابعة لبلدة دسوق بالغربية ، وتقع شمالها بنحو خمســة كيلو مترات ونصف .

المنصورى،وذلك فى وثيقة وقفه المسجلة بواجهة خانقاته بالصحراء(٣٠).

كذلك أوقف طبيب العظام الشهير (المجبر) أبو زكريا يحيى بن موسى فى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م عدة أوقاف على البيمارستان المنصورى ، ومنها ما يقع خارج باب زويلة وهى عبارة عن قاعة واسطبل ومطبخ ، وقاعة أخرى كبيرة ومنافع وحقوق . وقد جعل أبو زكريا ريع هذه الأوقاف ثلاثة اثلاث ، ثلث للبيمارستان المنصورى ، وثلث للحرم المكى، وثلث لمدينة طيبة الشريفة (أى المدينة لمنورة) . وفى حالة تعذر صرف ريع هذه الأوقاف على فقراء ومساكين الحرمين الشريفين ، يؤول الريع الى البيمارستان المنصورى(٣١) .

وأوقف الطبيب أبو زكريا أيضا أوقافا أخرى خارج القاهرة المحروسة وعند باب الفتوح وباب الشعرية ، ومنها الدار الواقعة بزقاق الكحل ، واشترط أبو زكريا ان يقسم ريع هذه الأوقاف بالسوية بين البيمارستان المنصورى وبين الخانقاه الصلاحية بدار سعيد السعداء .واذا تعذر الصرف على الخانقاة ، ينقل الريع الى البيمارستان المنصورى . كذلك اشترط أبو زكريا مشاركة ناظر البيمارستان المنصورى والخانقاة الصلاحية لناظر وقفه(٣٢) .

يتضح مما سبق أن البيمارستان المنصورى كانت له أوقاف عديدة منذ نشأته وطيلة عصر سلاطين المماليك . وطبقا لنظام الوقف الاسلامى كان لكل وقف ناظر ، يتولى ادارة شئونه ورعاية مصالحه . وجرت العادة فى العصر المملوكى أن يتولى الواقف النظر فى أوقافه أثناء حياته ، ثم يعهد بذلك من بعده لأولاده وذريته أو لمن يعينهم من الأمراء الذين يخلفونه فى وظيفته ، أو الشيوخ أو القضاة.وربما قد يكون النظر مشاركة

---

(٣٠) Van Berchem, I, p.p. 369-370

وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥ .

(٣١) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا ، محفظة ٢٤ حجة ١٥٤ (وثائق محكمة الاحوال الشخصية والولاية على النفس) .

(٣٢) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا .

بين أحد الأمراء بحكم منصبه أو أبناء الواقف أو عتقائه(٣٣) ٠

وفيما يختص بالبيمارستان المنصورى نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ٢١ صفر سنة ٦٨٥هـ على « ان السلطان المنصور قلاوون جعل النظر فى هذا الوقف والولاية عليه لنفسه الشريفة ٠٠٠ أيام حياته ٠٠٠ ثم من بعده ٠٠٠ للأمثل فالأمثل من أولاده وأولاد أولاده أن سفلوا ، ثم الأمثل فالأمثل من عتقائه،ثم لحاكم المسلمين الشافعى المذهب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فان لم يكن فللحاكم على أى مذهب كان »(٣٤) ٠

وهكذا فان السلطان المنصور كان هو الناظر على البيمارستان المنصورى وأوقافه ٠ غير أن مشاغله الكثيرة كانت تجعل من الصعب عليه مباشرة النظر على هذا البيمارستان وأوقافه بنفسه ،لذلك كان يلجأ الى تعيين نائب عنه ، وقد نصت الوثيقة على ذلك اذ جاء فيها « وله ان يستنيب عنه فى ذلك ان شاء »(٣٥) ٠ ولذلك وكل السلطان المنصور الأمير عز الدين ايبك الافرم الصالحى أمير جندار(٣٦) فى النظر على ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم(٣٧) ٠ وورد ذلك مفصلا فى وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفر ٦٨٥هـ اذ نصت على : « فتقدم أمره الشريف العالى٠٠ الى ولى دولته ٠٠ والمتشرف بخدمته والمخصوص فى هذا الوقف بوكالته ، الجناب الأميرى الأجلى ٠٠ أبى سعيد ايبك بن عبد الله الملكى الصالحى النجمى المعروف بالافرم

---

(٣٣) انظر وثيقة وقف الأمير أخور كبير قراقجا الحسنى ، دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، م ١٨ ، حـ٢ ، دسمبر ١٩٥٦م ، ص ٣٠٤ ٠

(٣٤) انظر نص وثائق المنصور قلاوون فى ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٣٩٢ ، ٣٦٩ ٠

(٣٥) انظر وثيقة قلاوون ، ص ٣٩٢ ٠

(٣٦) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، حـ٣ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ، النجوم ، حـ١ ، ص ٨٠ ـ ٨١ ، العينى ، عقد الجمان ، حـ٣ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩٠

(٣٧) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ص ٤٠٧ ٠

أمير جاندار الملكى المنصورى الســيفى ... ان يقف عنه .. ويحبس ويسبل جميع ما هو جار فى ملك السلطان الملك المنصور »(٣٨) .

ومن الواضح أن اختيار السلطان المنصور قلاوون وقع على واحد من كبار الأمراء بالديار المصرية ، ممن يحتلون مكانة كبيرة عنده ليوليه النظر على أوقاف البيمارستان المنصورى نيابة عنه . وقد عبر القلقشندى عن هذا الاختيار فى عبارة نصــها : « ويتولى النظــر فيها عادة من العسكريين أكبر الأمراء بالديار المصرية »(٣٩) .

وبعد وفاة السلطان المنصــور قلاوون فى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م كان من الطبيعى أن يخلفه ابناؤه فى نظــر البيمارستان المنصورى طبقا لنص وثائق وقف المنصور قلاوون نفسه ، غير أن المصادر لم تذكر شيئا عن ذلك خلال سلطنة الاشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م) بينمـا تذكر المصادر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولى - الأمير جمال الدين أقوش بن عبد اللـه الاشرفى(٤٠) - نظر هــذا البيمارستان فى جمادى الآخــرة ٧٢٣هـ/يونيه ١٩٢٣م وذلك كنائب عنه . وكان هــذا الأمير يجلس رأس الميمنة ، ويقوم له السلطان ، واذا دخــل ميزة عن غيره(٤١) . وهذا يعنى أن من ينوب عن السلطان فى نظر البيمارستان المنصورى كان على درجة من سمو المكانة بحيث يجلس رأس الميمنة فى حضرة السلطان .

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون ارتقى عــرش الســلطنة ابنه المنصور أبى بكر فى (٣٤٢هـ/١٣٤٢م) وعين فى عهده الأمير جنكلى بن البابا(٤٢) ناظرالبيمارستان المنصورى بالنيابة فى ٣ صفر ٧٤٣هـ/ ٩

---

(٣٨) انظر وثيقة وقف المنصور قلاوون ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٣٩) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ٣٨ .

(٤٠) من مماليك الاشرف خليل ، ولى نيابة الكرك ، فنيابة دمشق ، وتوفى فى ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ، انظر ترجمته فى المنهل الصافى ، حـ٣ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٤١) ابن تغرى بردى ، المنهل ، حـ٣ ، ص ٢٧ .

(٤٢) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، حـ٥ ، ص ٢٢ - ٢٤ ، النجوم

يوليو ١٣٤٢م . فجلس هذا الأمير بدوره رأس الميمنة كعادة من يلى هذا المنصب(٤٣) .

ومن المعروف أنه خلال عصر أبنـــاء الناصر محمـــد وأحفاده كان السلاطين صغاراً ضعافاً ، ولذلك تولى أمرهم اتابكة العساكر ، وأصبح هؤلاء هم المتحكمون فى البلاد،وصاروا القائمين بأمورها مقام السلاطين، لذلك آلت اليهم وظيفة نيابة نظر البيمارستان المنصورى. يذكر القلقشندى فى هذا الصدد « ويكون نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة مع اتابك العساكر »(٤٤) . وعلى سبيل المثال حدث خلال سلطنة الاشرف شعبان الثانية (٧٦٨ - ٧٧٨هـ/١٣٦٦ - ١٣٧٦م) أن تولى عدد من الأتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى ، ومن هؤلاء منكلى بغا الشمسى(٤٥) (فى رجب ٧٦٩/فبراير ١٣٦٨م)(٤٦) ثم الجاى اليوسفى(٤٧) فى (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) وخلفه بعـد وفاته (١٠ محـــرم ٧٧٥هـ/٣ يوليـــو ١٣٧٣م) أيدمـــر الشـــمسى(٤٨) فى الأتابكية ونظـــر البيمارستان المنصورى(٤٩) .

كذلك تولى عدد من الاتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى فى عهد المنصور على بن الاشرف شعبان (٧٧٨ - ٧٨٣هـ/١٣٧٦ - ١٣٨١م)

=

حـ١٠ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، حـ٢ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، الصفدى، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوط ، حـ١ ، ورقة ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٠ ، ص ١٤٤ .

(٤٤) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ١٨٤ .

(٤٥) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ، حـ٥ ، ص ١٣٧ ، المنهل ، حـ٦ ، ص ٢٣٧ ، النجوم ، حـ ١١ ، ص ٤٩ ، ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ١٥٧ .

(٤٧) انظر ترجمته فى المنهل ، حـ٣ ، ص ٤٠ - ٤٤ .

(٤٨) انظر ترجمته فى الـــدرر الكامنة ، حـ١ ، ص ٤٥٨ ، المنهـــل ، حـ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٤٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٢٣٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٤٢ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حـ٢ ، ص ٢٣٦ .

ومن هؤلاء الأمير قرطـــاى الطازى(٥٠) فى (المحـــرم ٧٧٩هـ/مايو ١٣٧٧م) ثم خلفه الأمير اينبك البدرى(٥١) بعـــد وفاته فى (صـفر ٧٧٩هـ/يونيه ١٣٧٧م)(٥٢) ٠

ومع بداية عصر دولة المماليك الجراكسة وارتقاء السلطان الظاهر برقوق العرش فى (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) أصبح زمام الأمور فى يده لكونه سلطاناً رشيداً٠ لذلك تولى نظر البيمارستان المنصورى كناظر شرعى عملا بما جاءفى وثائق وقف المنصور قلاوون ، وخرج برقوق بنفسه لتفقـــد أحوال البيمارستان،فتذكر المصادر(٥٣) فى رجب من عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م أن السلطان برقوق نزل بالبيمارستان المنصورى ، وتفقد أحواله وعـــاد المرضى ، ووصاهم بالضعفاء وبالأوقاف والمستأجرات ٠ ثم ما لبث السلطان برقوق ان اناب عنه فى نظر البيمارستان المنصورى عدد من الاتابكة وذلك لكثرة مشاغله ، ومن هؤلاء الاتابكة : الأمير سيف الدين قرا دمرداش(٥٤) فى جمـادى الأولى ٧٩١هـ/مايو١٣٨٩م(٥٥) ٠ والأمير ســيف الدين كمشبغا الكبير(٥٦) وذلك خلال سلطنة برقوق الثانية (٧٩٢ - ٨٠٢هـ/ ١٣٨٩ - ١٣٩٩م) ، وتحدث فيــه كمشبغا على العادة(٥٧) ٠ وبعـد

---

(٥٠) انظر ترجمة قرطاى فى ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ٢٥٦ ٠

(٥١) انظر ترجمة اينبك البدرى فى المهنل ، حـ٣ ، ص ٢٢١ - ٢٢٤ ٠

(٥٢) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ٢٠٣، ليلى عبد الجواد ، اتابك العساكر ، ص ٧٨ ٠

(٥٣) الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٧٤ ، ابن حجر ، انباء الغمــر ، حـ٢ ، ص ١٣٤ ، النجوم ، حـ١١ ، ص ٢٣٥ ٠

(٥٤) انظر ترجمة قرا دمرداش فى ابن حجر ، الدرر ، حـ٣ ، ص ٣٢٩ -٣٣٠ ٠

(٥٥) انظر ابن الفرات ، م٩ ، حـ١ ، ص ٧٤ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ،ق٢، ص ٦٠٦ ٠

(٥٦)) انظر ترجمة كمشبغا فى السخاوى ، الضـــوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ ٢٤ ، ص ٧٧ - ٧٩ ، محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى ، حـ ١ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ ٠

(٥٧) المقريزى ، السلوك ، حـ ٣ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ ، ابن الفرات ، م٩ ، حـ٢ ، ص ٣٠١ ٠

القبض على كمشبغا الحموى فى شـــعبان ٥٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م خلع السلطان على الأمير ايتمش البجاسى(٥٨) بأتابكية العساكر وباستقراره فى نظر البيمارستان المنصورى(٥٩) ٠

ومنذ ذلك التاريخ الذى تولى فيه ايتمش البجاسى اتابكية العساكر ونيابة نظر البيمارستان المنصورى (شـــعبان ٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م) أستمرت نيابة نظر البيمارستان المنصورى مع كل من يلى الأتابكية بمصر، كما يذكر ابن تغرى بردى(٦٠) ٠ وبذلك جرى العرف على أن تكون ولاية نظرالبيمارساتن المنصورى لاتابك العساكر بالديار المصرية ٠ ومع ذلك فقد اهتم السلاطين بالاشراف على البيمارستان المنصورى وبصـــفة خاصة فى فترة شغور الاتابكية ٠ ومن أمثلة هؤلاء السلطان المؤيد شيخ والسلطان برسباى ٠ ويذكر ابن حجر « ان السلطان مؤيد شيخ ركـــب هو وولده الأمير ابراهيم فى ١٦ جماده الأولى ٨٢١هـ/٢٢يونيه ١٤١٨م والأمراء ، ونزل الى البيمارستان المنصورى وهو بثياب جلوسه ، فزار المرضى ، وتفقد أحـــواالهم ، ثم دخل الى المجانين وتفقـــد أحـــوالهم كذلك »(٦١) ٠

أما عن السلطان برسباى فقد نزل من القلعة فى ربيع الآخر ٨٣٧هـ/ نوفمبر ١٤٣٣م بعد الخدمة ، وصحبته القاضى عبد الباسط ناظر الجيش والكمال ابن البارزى كاتب السر ، والتاج الشويكى والى القاهرة ، وتوجه الى البيمارستان لتفقد أحواله ، وليلى التحدث فيه بنفسه - لأنه لم يول نظره أحداً بعد الأمير سودون عبد الرحمن ، والأتابكية شاغرة منذ عــزله منها - ولما وصل السلطان الى البيمارستان رســـم للطواشى صفى الدين

---

(٥٨) انظر ترجمة أيتمشى البجاسى فى الضوء اللامع ، حـ٢ ، ص ٣٢٤ ، المنهل حـ ٣ ، ص ١٤٣ - ١٥١ ٠

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٢ ، ص ٧٩ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق٢ ، ص ٨٩٧ ، الصيرفى ، نزهة النفوش ، حـ١ ، ص ٤٦٣ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ص ٤٩٨ ٠

(٦٠) النجوم ، حـ١٢ ، ص ٧٩ ٠

(٦١) ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٧ ، ص ٣٠٧ ٠

جوهر الخازندار ان يتكلم على البيمارستان لما عساه يحدث من أمور ، فاستمر على ذلك حتى عين السلطان برسباى اينال الجكمى(٦٢) فى الاتابكية فى (رجب ٨٣٧هـ/١٤٣٤م) ونظر البيمارستان المنصورى فى شعبان من نفس العام(٦٣) .

وكان الأمير الكبير الذى يلى نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى يعهد بدوره الى أحد المتعممين بنظر البيمارستان المنصورى نيابة عنه ، وذلك لكثرة أعبائه ومشاغله . ويشترط فيه كما يذكر الخالدى أن يكون « ممن يؤهله نظره ، ولا ينفرد به فى أمر مهم ، بل عليه بمراجعة الأمير الكبير وتوقيعه »(٦٤) .

لذلك لا غرابة فى أن يضع القلقشندى صحابة أو نيابة نظر البيمارستان المنصورى بين الوظائف الديوانية ، وكذلك بين الوظائف الدينية معا ، فهو يذكر عند ترتيبه للوظائف الديوانية أن « الوظيفة الثالثة والعشرين لارباب الوظائف الديوانية هى صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث فيه ناظر البيمارستان »(٦٥) .

وقد وضع القلقشندى صحابة نظر البيمارستان بين الوظائف الديوانية على أساس أن السلطان هو الذى يعين صاحبها، لا بوصفه سلطاناً وانما بوصفه ناظراً شرعياً على أوقاف البيمارستان المنصورى . وذكر القلقشندى أيضا صحابة نظر البيمارستان المنصورى عند ذكره لارباب الوظائف الدينية فقال : « والمتحدثون على جهات البر العامة المصلحة : كنظر الاحباس والبيمارستان المنصورى وما أشبه ذلك فتوليته الى

---

(٦٢) انظر ترجمة اينال الجكمى فى المنهل ، حـ٣ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(٦٣) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ٩٠٧ - ٩٠٨ ، ٩١٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ٣ ، ص ٢٧٧، ٢٨٢ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٦٤) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٣ .

(٦٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ٣٤ .

نوابها ... »(٦٦) .

ويرجع اختيار احد المتعممين بالذات ليلى صحابة نظر البيمارستان المنصورى الى أن هذه الوظيفة من الوظائف الأكثر حساسية ، اذ تتعلق بالنواحى المالية ، ولذلك لابد وان تتوفـــر فى صاحبها الامانة والكفاية والعدل والأهلية،الى جانب الاخلاق العالية والعلم الوفير وقوة الشخصية، حتى يصبح باستطاعته القيام بواجبات هذه الوظيفة ومسئولياتها بجدارة وعلم وعلى الوجه الأكمل . وقد جاء فى نسخة توقيع كتبت لأحد صحابة نظر البيمارستان ذكر للصفات التى يجب ان يتحلى بها الناظـــر ومنها « النزاهة والتعفف ، وكرم السجايا والطباع ، وسعة الصـــدر فى تلقى المهمات الى جانب حسن معرفته واطلاعه »(٦٧) . وهذه من الشروط الأساسية التى كان يجـــب توافـــرها فى المتعممين من مشـايخ وقضـاة ومحتسبين وغيرهم ، مما دفع من يتولوا صـحابة نظـــار البيمارستان المنصـورى من الأمـراء الى اختيـــار المتعممين نواباً عنهم فى نظـــر البيمارستان المنصورى . وقد توافرت هذه الشروط فى عـــدد كبير من المتعممين الذين تولوا نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى ، ومن هؤلاء على ســبيل المثال لا الحصر شـــهاب الدين أحمد بن عبادة الأنصارى الذى كان يتصف كما تذكر المصادر(٦٨) بالنزاهة والأخلاق العالية فضلا عما عرف عنه من حرمة قوية،وما تمتع به من خبرة فى الشئون المالية ، حتى أنه كان وكيل السلطان الناصر محمدبنقلاوون والمتحدث فى أملاكه.

كذلك أتصف القاضى فخرالدين عثمان بن مصطفى التركمانى(٦٩) بالأخلاق العالية والعلم الوفير والشخصية القوية والأمانة، مما جعل الأمير

---

(٦٦) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٩ ، ص ٢٥٦ ، حـ١١ ، ص ٣٨ .
وانظر أيضا : ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ .

(٦٧) انظر نسخة التوقيع فى القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٦٢ .

(٦٨) انظر ابن حجر ، الدرر ، حـ١ ، ص ٢٢٣ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٨٢ .

(٦٩) ولد فى ٦٦٠هـ ، وتفقه على مذهـــب الحنفية وبرع فيه ، وشرح الجامع الكبير فى عدة مجلدات ، انظر ترجمته فى الدرر ، حـ٣ ، ص ٤٩ .

جمال الدين أقوش(٧٠) يعهد اليه نيابة نظر البيمارستان المنصورى ، وظل يشغل هذا المنصب حتى توفى فى عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م(٧١) .

ومن المتعممين أيضا الذين اتصفوا بالكفاءة والأمانة ضياء الدين يوسف الشهير بابن خطيب بيت الآبار الشامى(٧٢) . ويذكر اليوسفى أنه أظهر فى مباشرة البيمارستان « النهض والكفاية والأمانة »(٧٣) . ومن أجل ذلك ولى نيابة نظر البيمارستان المنصورى ثلاث مرات .

ومن جهة أخرى فانه من المتعممين - الذين تولوا نيابة نظر البيمارستان - من افتقر الى الشروط السابقة فكانت تنقصه الكفاءة والمقدرة ، مع كثرة مهاداة رجال الدولة . ومن هؤلاء : علاء الدين بن الاطروش(٧٤) الذى باشر نيابة نظر البيمارستان المنصورى بعد عزل الضياء الشامى فى ١١ ذى القعدة ٧٤٥هـ/١٧ مارس ١٣٤٥م وحتى المحرم من عام ٧٥٢هـ/ مارس ١٣٥٠م ، عندما قام السلطان الصالح الحسن بن محمد بن قلاوون بعزله واعاد الضياء الشامى ثانية . ويذكر المقريزى أن من الأسباب التى دفعت السلطان الى عزله جهل ابن الاطروش بالحساب وهو شرط أساسى يجب توافره فيمن يتولى نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى ، فقد جاء فى كتاب الوقف : « ويكون الناظر عارفا بالحساب وأمور الكتابة »(٧٥) . هذا الى جانب عدم اهتمام ابن الاطروش بالكشف على أحوال المرضى

---

(٧٠) عن جمال الدين أقوش انظر ما سبق .

(٧١) المقريزى السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٧٢) انظر ترجمة ابن خطيب بيت الآبار فى ابن حجر ، الدرر ، حـ٥ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوط ، حـ٢ ، ورقة ٢ .

(٧٣) اليوسفى ، نزهة الناظر فى تاريخ الناصر ، ص ٢٩٦ - ٢٧٩ وانظر أيضا المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ .

(٧٤) هو علاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن الاطروش الحنفى توفى ٧٥٨هـ/١٣٥٦م .

انظر المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ٣ ، ص ٣٢٧ .

حتى تلفت فراشهم على قول المقريزى(٧٦) - بعد أن مضى عليها ثلاث سنين ولم تغير . وبذلك اساء ابن الاطروش التصرف ووجب عزله .

ورغم عزل ابن الاطروش الا أنه لم تكد تمضى شهور حتى عاد الى نيابة نظر البيمارستان المنصورى، وذلك فى شعبان ٧٥٢هـ/أكتوبر١٣٥١م رغم عدم أهليته وذلك « بعناية جماعة من الأمراء لكثرة مهاداته لهم » كما يذكر المقريزى(٧٧) . وزاد الموقف سوءاً ان القاضى ابن الاطروش أنفرد بالكلام فى البيمارستان وتعطل نظره من متحدث تركى،وذلك خلال الفترة من (٧٥٢ - ٧٥٥هـ/١٣٥١ - ١٣٥٤م) . ويرجع ذلك لأنه كان يكثر من مهاداة أمراء الدولة ومدبريها(٧٨) . وهكذا يبدو واضحا أن بعض رجال الدولة عندما ساءت أحوالها كانوا لا يتحرجون عن التوسط لبعض الأفراد الجهلاء ممن يفتقرون الى الكفاية والمقـــدرة لتعيينهم فى المناصب الحساسة والخطيرة فى الدولة مثل نيـــابة نظر البيمارســـتان المنصورى .

ومن المتعممين الذين اساءوا الســـيرة واهملوا واجبهم ولم يكونوا أهلا لتولى نيابة نظر البيمارستانالمنصورى ولىالدين السفطى(٧٩) الذى استقر فى نظر البيمارستان فى (ربيع الآخر ٨٤٩هـ/يوليو١٤٤٥م) . وقد تولى هذه الوظيفة وغيرها من الوظائف التى كانت فى يده ، مثل نظر الكسوة ووكالة بيت المـــال ومشيخة الجمالية وغيرها ، عن طريق الرشوة ، وببذل قدره ثمانية آلاف دينار(٨٠) . وكانت سيرته فى النظر

---

(٧٥) المقريزى ، السلوك ، حـ ٢ ، ق٣ ، ص ٨٣٥ - ٨٣٦ .

(٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٣ ، ص ٨٣٦ .

(٧٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٣ ، ص ٨٥٢ .

(٧٨) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٧ - ٨ .

(٧٩) أصله من سفط الحناء بالوجه البحرى ، وتقع فى محافظة الشرقية حاليا. انظر ترجمته فى المنهل ، حـ٤ ، ص ٣٠١ ، السخاوى ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٤٥ - ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، التبر المسبوك ، ص ٣٣٤ - ٣٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٥ ، ص ٥٥٥ - ٥٥٨ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ١٣٩ .

(٨٠) السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ١٤٤ ، ٣٣٥، ابن حجر ، انباء ، حـ٩ ، ص ٢٢٤ .

- كما يذكر ابن تغرى بردى - سيرة سيئة « فأخذ ما لا يستحقه واعطاه لمن لا يستحقه ، وأجمع الناس على أنه كان يخرب الأوقاف ويأخذ منها شئيا لنفسه »(٨١) .

كذلك يذكر ابن تغرى بردى : « أنه سلك فى الناس طريقاً غير محمودة من الحط على الفقهاء والترسيم عليهم ، ولا سيما المتحدثون على الأوقاف والمباشرون على الأوقاف ، فانهم قاسوا منه خطوباً ومحناً »(٨٢) . كما أنه - على نحو ما يذكر ابن تغرى بردى فى موضع آخر - « امعن فى أذاهم وبهدلتهم بالضرب والحبس والترسيم وقطع معاليم (رواتب) جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة على الأوقاف الجارية تحت نظره . ولقى منه الناس شدائد كثيرة ، وصار لا يمكن المرضى من دخول البيمارستان للتمرض به الا برسالة ، ثم يخرج المريض بعد أيام قليلة »(٨٣) .

أما السخاوى فيذكر عنه أنه أكثر التحرى فى المريض المنزل فيه بحيث زاد عن الحد ، وقل من المرضى فيه العدد ، وتحاشى الناس المجىء اليه بأنفسهم أو بمرضاهم ، وأمر بمسح دهاليزه وكنسه ، وعدم التمكين من المشى فيه بالنعال حتى ان السخاوى يذكر ان الشيخ أبا عبد الله الراعى أنشده فى هذا المعنى :

مرستانكم يشكو الخلاء وما به
من الكنس والمسح الذى ليس ينفع
وناظره اذ جار فى حكمه له
فيمنعه المرضى ومن ذا يجعجع(٨٤)

ونظراً لتعسف السفطى فقد نفرت منه القلوب وكثر الدعاء عليه

---

(٨١) حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٩٥ ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧١ .
(٨٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، حـ١ ، ص١١٢.
(٨٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٥ ، ص ٥٥٧ .
(٨٤) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ .

حتى ان ابن تغرى بردى يذكر « ولقد شاهدت بعض الناس يدعو عليه فى الملتزم بالبيت العتيق فى هدوء الليل »(٨٥) ٠

حقيقة ان السفطى بذل جهده فى تنمية أوقاف البيمارستان ومسأجراته وسائر جهاته حتى الاحكار ، واهتم بتحصيل ريعه ٠ كذلك أكثر التحرى فى مرضى البيمارستان والحرص على نظافته بكنسه ومسحه؛ الا أنه ضيق على مباشريه وعلى مرضاه كذلك(٨٦) ٠ ونتيجة لذلك تجمعت له من الأوقاف أموال كثيرة تفوق الوصف كما يذكر السخاوى(٨٧)٠ حتى أنه صعد الى السلطان جقمق فى سلخ ذى الحجة ٨٥١هـ/١٤٤٧م بأربعة عشر ألف دينار من حاصل البيمارستان فعرضها عليه فشكره على ذلك ، وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف وان هذه المتحصلات مخصصة لمرضى البيمارستان(٨٨) ٠ غير ان السلطان جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ/١٤٣٨ ـ ١٤٥٣م) مالبث أن اصدر أمراً بعزل ولى الدين السفطى ومصادرته (ربيع الآخر ٨٥٢هـ/يونية ١٤٤٨م) بعد أن ثبت قبح أفعاله واظهار معايبه ، ووضع السلطان يده على أكثر ما نماه من متحصل البيمارستان وغيره(٨٩) ٠

وممن باشر نيابة النظر من المتعممين ولم يكن أهلا لها أيضا يوسف السمين نائبا عن أبيه أبى الفتح المنوفى(٩٠) اذ مشى ـ كما يذكر الصيرفى ـ مع أهل البيمارستان على قالب لا يرضون عنه ، وصار لا يلتفت اليهم ، وانفرد بالكلمة مع وجود القاضى عبد الباسط الجيعان،

---

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٥٥٧ ٠

(٨٦) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٢٤٨ ٠

(٨٧) التبر المسبوك ، ص ٢٣٦ ، الذيل ، ص ٢٤٨ ٠

(٨٨) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور، حـ١ ، ص ١١٥ ٠

(٨٩) السخاوى ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى النجوم ، حـ ١٥ ، ص ٣٨٢ ، ٥٥٧ ـ ٥٥٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٢٦٣ ٠

(٩٠) انظر ترجمة أبو الفتح المنوفى فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ٠

كما أنه اساء التصرف فى أموال البيمارستان ، فصار يتغذى فى كل يوم فى البيمارستان بمائتى درهم ويأخذ ذلك من صيرفى البيمارستان أو أحد من جباته ، ويتصرف فيه تصرف الملاك(٩١) ٠

هذا بالاضافة الى ان يوسف السمين لم يعمل بمشورة الاتابك ازبك ابن ططخ(٩٢) ، فقد حدث أن شخصاً من فراشى البيمارستان يسمى أحمد بن الصلف نزل عن ثيابه فى البيمارستان أو عن فراشه ، وأمضى يوسف السمين ذلك بخطه من غير مشورة الاتابكى ازبك ، وهو الناظر الحقيقى للبيمارستان ٠ لذلك أمر أزبك فى ذى الحجة ٨٧٦هـ/مايو ١٤٧٢م بضربه وبطحه ، فضرب ضرباً مبرحاً على اخفافه نحواً من خمسمائة عصى ، ثم أمر الاتابكى بصفعه فصفع من المماليك الى أن اخرجوه من البيمارستان(٩٣) ٠ وارجع الصيرفى سبب عدم أهلية يوسف السمين الى أنه « كان شاباً صغيراً بلا لحية عديم الأدب»(٩٤) ٠

وبالاضافة الى ما سبق ، فاننا نلاحظ على نواب نظار البيمارستان المنصورى من المتعممين أيضا عدة ملاحظات : -

أولا - ان ناظر البيمارستان المنصورى من المتعممين كان يشغل عدة وظائف الى جانب نظارته للبيمارستان : فقد جمع الضياء الشامى بن خطيب بيت الآبار بين نظر البيمارستان المنصورى ونظر الأوقاف وحسبة القاهرة فتذكر المصادر ان السلطان بحث عن محتسب ناهض ، وولى ناهض فشكر له النـاس فى ضياء الدين ناظر البيمارستان والأوقاف فاستدعاه السلطان وولاه الحسبة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وجمع بذلك بينها وبين نظر البيمارستان ونظر الأوقاف(٩٥) ٠ وعندما عزل الضياء من

---

(٩١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ٠

(٩٢) تولى ازبك صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م واستمر يشغل هذا المنصب حتى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م ٠ انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٢ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ابن تغرى بردى ، المنهل ، حـ٢ ، ص

(٩٣) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ٠

(٩٤) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ ٠

(٩٥) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ ٠

هذه الوظائف تولى عوضه الحسبة ونظر البيمارستان علاء الدين الاطروش وجمع بذلك بين الوظيفتين(٩٦) ٠

وفى جمادى الآخرة ٧٦٦هـ/مارس ١٣٦٥م خلع على القاضى تاج الدين المعروف بشاهد الجمالى(٩٧) واستقر فى وكالة الخاص بالاضافة الى نظارة البيمارستان المنصوى(٩٨) ٠ كذلك جمع الصاحب كريم الدين شاكر بن ابراهيم بن غنام(٩٩) بين نظر البيمارستان المنصورى وبين الوزارة الى جانب نظر البيوت ونظر دار الطراز (٧٧٤هـ/١٣٧٣م)(١٠٠) ٠ وفى رجب ٧٧٥هـ/يناير ١٣٧٤م خلع على برهان الدين بن بهاء الدين بن الحلى(١٠١) ناظر بيت المال ، واستقر فى نظر البيمارستان المنصورى مضافاً لما بيده من الوظائف(١٠٢) ٠ وخلع أيضا على محتسب القاهرة جمال الدين محمود العجمى(١٠٣) فى ربيع الآخر ٧٨٠هـ/اغسطس ١٣٧٨م واستقر فى نظر البيمارستان

---

(٩٦) الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٢٧٤ ٠

(٩٧) شغل تاج الدين بن شاهد الجمالى عدة مناصب منها مفتى دار العدل ، وشاهد الجيش ووكيل الخاص وغيرها ، وتوفى ٧٧٢هـ/١٣٧١م ٠ انظر المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ١٩٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١١ ، ص١١٨ ٠

(٩٨) عين شاهد الجمالى فى نظر البيمارستان المنصورى (٧٦٣هـ/١٣٦١م) من قبل السلطان الملك المنصور واستمر فى نظارته حتى وفاته شعبان ٧٧٢هـ/فبراير ١٣٧١م ٠ انظر : السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٩٩ ، ١٩١ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٨٠ ، ١٠٢ ٠

(٩٩) انظر ترجمة ابن غنام فى الدرر ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٠٠) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٢٢١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ٧٧ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٢٨ ٠

(١٠١) انظر ترجمة برهان الدين الحلى فى ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ١٥٩ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٢٩ ٠

(١٠٣) وهو قاضى القضاة الحنفية جمال الدين أبو الثناء محمود بن نور الدين على الشهير بالعجمى الرومى ٠ انظر الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان ، حـ١ ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ ٠

وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، ص ١٧٦ ٠

المنصورى نيابة عن الأمير بركة(١٠٤) . وجمع بذلك بين الحسبة ونظر البيمارستان شأنه فى ذلك شأن الضياء الشامى وابن الاطروش .

وخلع السلطان الظاهر برقوق فى شوال ٧٩٤هـ/اغسطس ١٣٩٢م على الشريف فخر الدين ناظر البيمارستان المنصورى نيابة عن الأمير سيف الدين كمشبغا الكبير(١٠٥) - وولاه مشيخة الشيوخ بخانقاه سرياقوس(١٠٦) . وفى ربيع الآخر ٨١٥هـ/أغسطس ١٤١٢م أستقر شهاب الدين أحمد الصفدى موقع الأمير شيخ فى نظر البيمارستان المنصورى عوضاً عن كاتب السرفتح الله ومعها نظر الاحباس عوضاً عن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله(١٠٧) . وخلع أيضا على القاضى نور الدين ابن مفلح(١٠٨) ناظر البيمارستان المنصورى واستقر - فى شوال ٨٤٠هـ/ابريل ١٤٣٧م - وكيل بيت المال عوضا عن شمس الدين محمد بن يوسف ، وجمع بذلك بين نظارة البيمارستان ووكالة بيت المال(١٠٩) .

وشغل أيضا أبو الخير النحاس(١١٠) ناظر البيمارستان المنصورى (ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) عدة وظائف منها نظر الجوالى ونظر

---

(١٠٤) المقريزى ،السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٣٥ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٢٣٠ ؛ وانظر ترجمة بركة فى المنهل حـ٣ ، ص ٣٥١ - ٣٥٥ .

(١٠٥) عن الأمير كمشبغا انظر ما سبق .

(١٠٦) ابن الفرات ، م٩ ، حـ٢ ، ص ٣٠٩ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٣٤٨ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق٢ ، ص ٧٧١ .

(١٠٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٣ ، ص ٢٠٥ ، حـ ١٤ ، ص ١٤٢ ، ابن حجر ، انباء ، حـ٧ ، ص ٦٦ .

(١٠٨) شغل القاضى نور الدين بن مفلح نظر البيمارستان منذ عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩م وحتى وفاته ٨٤١هـ/١٤٣٧م وفى عهود الاتابكة جارقطلو ، وسودون عبد الرحمن ، واينال الجكمى وجقمق العلائى . انظر الملاحق .

(١٠٩) انظر الصيرفى ، نزهة ، حـ٣ ، ص ٣٨٤ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٩ ، ابن حجر ، انباء ، حـ٩ ، ص ٢٤٥ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢،ص٧٦ .

(١١٠) عن أبو الخير النحاس انظر : السخواى ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٨٢ ، ٥٥٧ - ٥٥٨ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ٢٦٣ .

الكسوة ووكالةبيت المال وغيرها من الوظائف التى كان يشغلها سلفه ولى الدين السفطى(١١١) . وتذكر المصادرأيضا أنه فى جمادى الآخرة ٨٥٤هـ/يوليو ١٤٥٠م خلع على شرف الدين موسى التتائى(١١٢) باستقراره فى جميع الوظائف التى كان يشغلها أبو الخير النحاس وهى عدة وظائف من أهمها نظر البيمارستان المنصورى ، ونظر الجوالى ونظر الكسوة ووكالة بيت المال ونظر خانقاه سعيد السعداء ، ووكيل السلطان وعدة وظائف أخرى دينية ومباشرات(١١٣) . يتضح مما سبق ان نظار البيمارستان المتعممين جمعوا بين نظارة البيمارستان المنصورى وعدة وظائف أخرى،ولم يكن عملهم قاصراً على نظر البيمارستان وحده.

ثانيا ـ اتخذ بعض المتعممين ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى نواباً عنهم فى نظر البيمارستان،فقد استناب القاضى محب‌الدين محمد بن الأشقر(١١٤) . ـ حينما استقر فى نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع الآخر ٨٤٢هـ/أكتوبر ١٤٣٨ ـ عنه أخاه البدر حسين(١١٥) . فى نظر البيمارستان المنصورى . وظل البدر حسين يلى النظر نيابة عن محب الدين الأشقر حتى مات الأول فى ٨٤٧هـ/١٤٣م(١١٦) . وعندما

---

(١١١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ١٢٤ ، ابن اياس ، بدائع حـ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٢) موسى التتائى أصله من قرية تتا وهى قرية بالمنوفية ، ولد بها ونشأ أيضا ، انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ١٠ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ، الدليل الشافى ، حـ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ، النجوم ، حـ١٥ ، ٤١٧ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٣١٩ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٤) انظر ترجمة محب الدين بن الاشقر فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٨ ، ص١٤٣ ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ، السيوطى ، نظم العقيان فى تاريخ الاعيان ، ص ١٥٣ .

(١١٥) حسين بن عثمان بن بدر الدين انظر ترجمته فى السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٧٩ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٩ ، ص ٢٥١ .

(١١٦) السخاوى ، رفع الامر ، ص ٢٧٥ .

خلع على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى(١١٧) بنظارة البيمارستان المنصورى فى المحرم ٨٧٠هـ/أغسطس ١٤٦٥م أناب عنه الشيخ جلال الدين ابن الأمانة(١١٨) فى نظر البيمارستان المنصورى(١١٩) .

غير ان السلطان كان يعترض على ذلك فى بعض الأحيان فعندما خلع على القاضى فتح الدين أبى الفتح المنوفى(١٢٠) واستقر فى نظر البيمارستان المنصورى ونظر الأوقاف (جمادى الآخرة ٨٧٤هـ/ديسمبر ١٤٦٩م) ، اراد أبو الفتح ـ كما يروى الصيرفى(١٢١) ـ ان يجعل له نائبا بالبيمارستان، كما كان للذى قبله وهو ابن البقرى ، فطلب القاضى تاج الدين الاخميمى(١٢٢) وقرره فى نيابته ، وتوجه القاضى تاج الدين الى البيمارستان ، فبلغ السلطان ذلك فأرسل اليه غلاما من الطشتخاناه ليمنع القاضى تاج الدين من التكلم فى البيمارستان ، فحصل له بذلك نوعاً من الكسر(١٢٣) .

وأستمر أبو الفتح المنوفى يلى النظر على البيمارستان والأوقاف بنفسه حتى (شعبان ٨٧٦هـ/يناير ١٤٧٢م) عندما خلع عليه السلطان وأستقر فى شادية بندر جدة ، وطلب منه السطلنا أن يسافر بنفسه من

---

(١١٧) هو عبد الباسط بن يحيى شرف الدين بن العلم بن البقرى . انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ٤ ، ص ٣١ .

(١١٨) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عثمان الجلال ويعرف بابن الامانة . انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٤ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١١٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٠) هو أحد أعيان المماليك السلطانية وعمل فى خدمة السلطان قايتباى وشغل وظيفة ثانى قلم ، انظر السخاوى ، الضوء ، حـ٩ ، ص ١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(١٢١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٢) هو محمد بن ابراهيم التاج عبد الوهاب الاخميمى الاصل ، القاهرى الشافعى ويعرف بالتاج الاخميمى ، انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٢٥٨ .

(١٢٣) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

غير أن يرسل نائبا من جهته ، ولذلك باشر نظر البيمارستان المنصورى عنه ابنه يوسف السمين(١٢٤) ٠

ثالثا - حدث أحيانا أن تولى عدة أفراد من أسرة واحـــدة منصب ناظر البيمارستان المنصورى ٠ من ذلك ما حدث خـــلال سلطنة الناصر فرج بن برقوق (٨٠٢ - ٨١٥هـ/١٣٩٩ - ١٤١٢م) ان أكثر من فرد من أسرة محمد بن أحمد بن عبـــد الملك الشمسى الدميرى القاهرى المالكى تولوا ذلك المنصب ٠ ومن هؤلاء القاضى شـمس الدين محمد بن أحمـــد الدميرى(١٢٥) الذى ولى نظر البيمارستان المنصورى نيابة عن الاتابك بيبرس الدوادار(١٢٦) ٠ وعن نظارته يذكر السخاوى « أنه كان عارفاً بالمباشرة ، وحصل من البيمارستان مالا كثيراً جداً ، وفره مما كان غيره يصرفه فى وجوه البر وغيرها ، واتفق ان الناصر أخـــذ منه فى بعض التجاريد جمـــلة مستكثرة »(١٢٧) ٠ كذلك تولى نظـــر البيمارستان المنصورى ابنه وهو محمد زين الدين بن القاضى شمس الدين محمد بن أحمد الدميرى ، وقد سار على قاعدة أبيه حيث تحدث فى البيمارستان المنصورى نيابة عن الأمير الكبير ٠ هذا الى جانب توليه حسـبة القاهرة مراراً(١٢٨) ٠ واستمر ابنه محمـــد بن زين الدين(١٢٩) فى مشارفة

---

(١٢٤) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ٠

(١٢٥) كان القاضى شمس الدين أيضا مفتيا لدار العدل كما ولى الحسبة عدة مرات ٠ انظر ترجمته فى الضوء ، حـ٦ ، ص ٣٢٩ ، الدليل الشافى ، حـ٢ ، ص ٥٩٢. ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٦ ، ص ٢٥٦ ٠

(١٢٦) ولى بيبرس الدوادار نظر البيمارستان المنصورى من قبل الناصر فرج فى رجب ٨٠٢هـ/مارس ١٤٠٠م ، انظر ترجمه فى المنهل ، حـ٣ ، ص ٤٨١ - ٤٨٣ . الضوء اللامع ، حـ ٣ ، ص ٢١ ٠

(١٢٧) الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٣٢٩ ٠

(١٢٨) انظر السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ٢٣ - ٢٤ ، المقـــريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ٤٨٩ ، الصـــيرفى ، نزهة النفـــوس ، حـ٣ ، ص ٢١٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٨ ، ص ٢٢١ ؛ ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ١٣٣ ٠

(١٢٩) انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ١٩٥ ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ١٢٧ ٠

البيمارستان(١٣٠) • وهكذا تعاقب أفـــراد أسرة الدميرى فى نظـــر البيمارستان المنصورى واحداً بعد آخر •

رابعا ـ يتضح من خـــلال تراجـم المتعممين الذين تولوا نظـــر البيمارستان المنصورى أن منهم من كان شافعى المذهب ومنهم أيضا من كان حنفياً أو مالكيا وان كانت الغالبيةالعظمى منهم على المذهب الشافعى وذلك عملا بما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من أنه « يكون النظر لحاكم المسلمين الشـافعى المذهـــب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فان لم يكن فللحاكم على أى مذهب »(١٣١)• ومن النظار الحنفية القاضى فخرالدين عثمان بن ابراهيم بن مصطفى التركمانى(١٣٢) • والقاضى جمال الدين محمود العجمى قاضى قضاة الحنفية(١٣٣) ، والشيخ محمد بن محمد النســفى أمــير الدين الخلواتى(١٣٤) وكان من أئمة الحنفية ، والقاضى نور الدين عمر بن مفلح(١٣٥)، والقاضى محب الدين بن الأشقر(١٣٦)، كما كان القاضى علاء الدين بن الاطروش حنفى المذهب كذلك(١٣٧)•

---

(١٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ ٩ ، ص ١٩٥ •

(١٣١) انظر نص الوثيقة فى مـــلاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيـــه ، حـ١ ، ص ٣٦٩ ، ٣٩٢ •

(١٣٢) عنه انظر ما سبق ، ص ، وانظر أيضا ابن حجر ، الدرر ، حـ٣ ، ص ٤٩ ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ١٣٤٠ •

(١٣٣) عنه انظر ما ســبق ، وانظــر أيضـــا الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ •

(١٣٤) انظر ترجمته فى النجوم ، حـ١١ ، ص ٣١٣ ، الدليل ، حـ٢ ، ص ٦٨٤ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ١٦٤ ابن حجر ، انبـــاء الغـــمر ، حـ٢ ، ص ٢٧٦ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ص ٤٨٤ ، ٥٧٢ •

(١٣٥) انظر ما سبق •

(١٣٦) وهو خليفة نور الدين بن مفلح فى نظر البيمارستان المنصورى،وليه منذ ربيع الآخر ٨٤٢هـ/سبتمبر ١٤٣٨م ، وحتى ربيع الآخر من عام ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٧م• انظر السخاوى ، الذيل ، ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٩ ، ص ٣١ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ٥٣ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ٢٥ •

(١٣٧) انظر ما سبق ، انظر أيضـــا المقـــريزى ، الســـلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٠ ، ص ٣٢٧ •

ومن النظار المالكية القاضى تاج الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن شاهد الجمالى . وأفراد أسرة الدميرى الثلاثة كانوا مالكية أيضا وكذلك القاضى ناصر الدين محمد بن المخلطة(١٣٨) وكان أحد نواب الحكم المالكية وأحد أخصاء الملك الاشرف أينال(١٣٩) .

مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى :

تبدأ مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى بأن يكتب لصاحبها توقيع(١٤٠) بنظارة البيمارستان المنصورى ثم يخلع عليه السلطان الخلع ويلبسه التشريف(١٤١) وأخيراً ينزل الناظر الى البيمارستان فى موكب حافل .

أما عن التوقيع فكان يكتب - كما يذكر الخالدى(١٤٢) - وكذلك صاحب التثقيف(١٤٣) - فى قطع النصف ، وبقلم الثلث . وكانت كتابة التواقيع قد أصبحت مختصة بارباب الوظائف الدينية والديوانية من المتعممين بصفة خاصة . وتوقفت التواقيع التى كانت تكتب لارباب السيوف فى فترة من الفترات الا أنه استثنى من هذه القاعدة بعض أرباب السيوف ومن بينهم صحابة نظر البيمارستان المنصورى حيث ظل يكتب لهم تواقيع بنظر البيمارستان(١٤٤) .

---

(١٣٨) انظر ترجمته ابن المخلطة فى الضوء ، حـ١٠ ، ص ٢٧ ، النجوم ، حـ٦ ، ص ١٧٠ .

(١٣٩) تولى ابن المخلطة نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع الآخر ٨٥٧هـ/ ابريل ١٤٥٣م ، انظر ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٢٧١ .

(١٤٠) التوقيع يقصد به قرار التعيين فى منصب ناظر البيمارستان المنصورى .

(١٤١) التشريف وهو الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان الى كبار الأمراء ورجال الدولة فى مناسبات خاصة ، ومن اهمها التعيين فى الوظائف الكبرى . انظر سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١١ .

(١٤٢) المقصد الرفيع ، مخطوط ، ورقة ١٢٤ .

(١٤٣) ابن ناظر الجيش (المحبى) ، كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلى ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص ١٤٥ .

(١٤٤) المحبى ،تثقيف التعريف ، ص ١٤٥ ، وانظر أيضا القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ١١٤ .

وقد أورد القلقشندى صورتى توقيع احداهما لمن تولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف،والأخرى لمن تولاها من أرباب الأقلام أو من المتعممين . أما عن صورة التوقيع الأولى فكانت تكتب على النحو التالى : -

« توقيع شريف ان يفوض الى المقر الكريم أو الجناب الكريم أو العالى (قدر رتبته) الأميرى الكبيرى الفلانى ، فلان الناصرى مثلا : اعز الله أنصاره ، أو نصرته أو ضاعف الله تعالى نعمته (بحسب مايليق به) - نظر البيمارستان المعمور المنصورى على أجمل العوائد وأكمل القواعد ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيه »(١٤٥) .

واما عن نسخة توقيع أرباب الاقلام من المتعممين والتى أوردها القلقشندى كذلك ، فكانت من انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى(١٤٦) . وتستهل بالحمد لله والثناء عليه ثم بالشهادة والصلاة على رسول الله وعلى أصحابه ، ثم يأتى ذكر ما يليق بالوظيفة والمتولى لها ، اذ نص التوقيع على أنه يكتب بنظارة البيمارستان الى الشخص الذى « تحققنا صلاحه ، وتيقنا نجاحه، وأعتقدنا تنميه أمواله ، وأعتمدنا فى مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله»(١٤٧٠ ثم يذكر اسم الشخص الذى كتب له التوقيع بعد ذكر الاوصاف التى يجب أن تتوافر فيه ، ثم يفوض اليه نظر أوقاف البيمارستان المنصورى(١٤٨) .

وبمقابلة توقيع أرباب السيوف مع توقيع أرباب الاقلام يتضح ان الأول جاء مختصراً وقاصراً على ألقاب الأمير الكبير ، اما الثانى فقد

---

(١٤٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ١١٧ .

(١٤٦) انظر نص التوقيع عند القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وانظر أيضا المحبى ، تثقيف التعريف ، ص ١٤٦ .

(١٤٨) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٦١ .

جاء مفصلا ومركزاً على الصفات التى يجب أن يتحلى بها ناظر البيمارستان ،والمهام الملقاة على عاتقه مما يدل على أن عبء نظر البيمارستان المنصورى وقع على عاتق المتعممين بالدرجة الأولى ٠

وبعد أن يكتب لصحابة نظر البيمارستان المنصورى ونوابه التوقيع، كان السلطان يخلع عليهم خلعة نظر البيمارستان وتشريفة اذ كان للناظر تشريف خاص ٠ ففى ١٩ من المحرم ٧٧٩هـ/٢٩ مايو ١٣٧٧م أستقر الأمير قرطاى فى نظر البيمارستان ، ونزل اليه بتشريفه على نحو ما يذكر المقريزى(١٤٩) ٠ وفى ٢١ جمادى الآخرة ٨٠٨هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٠٥م أستقر يشبك الشعبانى فى نظر البيمارستان المنصورى ، ونزل اليه ، وعليه التشريف السلطانى على العادة(١٥٠) ٠ وخلع السلطان الناصر فرج على الأمير الكبير تمرتاش (دمرداش) المحمدى تشريفا بنظر البيمارستان المنصورى فى المحرم ٨١٤هـ/مايو ١٤١١م(١٥١) ٠ وخلع السلطان جقمق على الأمير اينال العلائى فى شعبان ٨٤٩هـ/نوفمبر ١٤٤٥م خلعة نظر البيمارستان المنصورى(١٥٢) ٠ وفى ربيع الآخر ٨٥٢هـ/يونيه ١٤٤٨م خلع على الأمير اينال العلائى ثانية ، وألبس خلعة الاستمرار فى نظر البيمارستان المنصورى وهى : « فوقانى بطرز ذهب »(١٥٣) ٠ وخلع السلطان تمربغا كذلك على الاتابك قايتباى فى جمادى الأولى ٨٧٢هـ/ديسمبر ١٤٦٧م خلعة نظر البيمارستان المنصورى(١٥٤) ٠

ولم تكن خلع صحابة نظر البيمارستان المنصورى قاصرة على

---

(١٤٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق ١ ، ص ٣٠٤ ٠

(١٥٠) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق١ ، ص ١٠ ٠ وانظر أيضا : الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٢١٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ٧٤٣ ٠

(١٥١) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق١ ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضا ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٣ ، ص ١٢٠ ٠

(١٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧٠ ٠

(١٥٣) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٠٨ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ١٢٣ ٠

(١٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٦ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ ٠

الأمراء وأرباب السيوف دون المتعممين فقد شملت الجميع فتذكر المصادر أنه فى ربيع الآخر سنة ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٥م لبس الشيخ ولى الدين السفطى أو الولوى السفطى خلعة ونزل الى البيمارستان(١٥٥) . كذلك لبس أبو الخير النحاس فى ١١ ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٥ يونية ١٤٤٨م خلعة نظر البيمارستان المنصورى عوضاً عن السفطى ، وفى جمادى الآخرة ٨٥٤/يوليو ١٤٥٠م لبس شرف الدين موسى التتائى خفاً ومهمازاً عوضاً عن أبى الخير النحاس وشغل نظر البيمارستان المنصورى(١٥٦).

وبعد أن يرتدى صحابة نظر البيمارستان الخلع والتشاريف كانوا ينزلون اليه فى موكب كبير ؛ فيذكر ابن اياس فى جمادى الأولى ٧٧٤هـ/ نوفمبر ١٣٧٢م أن السلطان « اخلع على الاتابكى الجاى اليوسفى وقرره ناظر البيمارستان ، فنزل من القلعة فى موكب حفل »(١٥٧) . كذلك يذكر ابن اياس فى موضع آخر ان الأمير اينال العلائى بعد أن أخلع عليه بنظارة البيمارستان المنصورى « نزل من القلعة فى موكب حافل»(١٥٨) ويذكر الصيرفى أيضاً أنه خلع فى صفر ٨٧٣هـ/أغسطس ١٤٦٨م على ازبك ططخ خلعة البيمارستان المنصورى ... وتوجه اليه فى محفل عظيم وهوتك جسيم »(١٥٩) . ويلاحظ ان الأمثلة السابقة قاصرة على أرباب السيوف دون أرباب الاقلام من المتعممين وذلك لأن المصادر لا تذكر أية أمثلة خاصة بهؤلاء المتعممين .

وكان رنك ناظر البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف يضرب على البيمارستان ، فيذكر ابن تغرى بردى فى ١٣ ربيع الأول ٨٣٧هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٤٣٣م ضرب رنك السلطان برسباى على البيمارستان المنصورى بالقاهرة ، وكانت العادة جرت من عدة سنين أن كل من يلى

---

(١٥٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ ، السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ١٤٤،٢٣٥ ، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٩ ،ص٢٣٤.

(١٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٥ ، ص ٤١٧ .

(١٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ١١٢ .

(١٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٥٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

الامرة الكبرى يكون هو الناظر على البيمارستان المنصورى ، فلما نفدت هذه الوظيفة تكلم السلطان على نظرها وضرب اسمه على بابها(١٦٠) . وفى ٢٤ صفر ٨٧٣هـ/٥ سبتمبر ١٤٦٨م وبعد أن خلع على الاتابك ازبك ابن ططخ بنظر البيمارستان ، نزل اليه فكشفه ... وضربت رنوكه على نحو ما يذكر الصيرفى(١٦١) .

مهام صحابة نظر البيمارستان المنصورى :

تعددت مهام ناظر البيمارستان المنصورى وتنوعت بين فنية وادارية ومالية ، فالناظر باعتبـاره المسـئول الأول عن أوقاف البيمارستان كان عليه ان يقوم برعاية هذه الأوقاف وبعمارتها واصـلاحها والعمل على انمائها وزيادة ريعها وحسن استغلالها طبقا لشرط الواقف . وقد حددت وثائق وقف المنصـور قـلاون على البيمارستان المنصـورى مهام ناظر البيمارستان ورتبتها على النحو التالى :

أولا - تأجير أوقاف البيمارستان المنصورى فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على أن يقـوم الناظر بنفسـه أو نائبه بتأجير أوقاف البيمارستان ، وان تكون مدة الاجارة ثلاث سنوات فما دونها بأجرة المثل فما فموقها « ولا يدخل عقد على عقـد »(١٦٢) . وينطبق هـذا على العقارات ، وكذلك على الأراضى التى تدخل فى وقف البيمارستان .

كذلك على الناظر أن يتحرى عن الشخص الذى يؤجر له العقار فيتأكد من أنه - كما تذكر الوثيقة - « ليس متشرداً ولا متعذراً ولا تخشى سطوته ، ولا لمن ينسى الوقف فى يده »(١٦٣) . وهذا يعنى أنه يجب على الناظر أن يتحرى الدقة عند تأجيره لأوقاف البيمارستان .

---

(١٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٥ ، ص ٣٦ .

(١٦١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

(١٦٢) انظر نص وثيقة وقف المنصور قلاوون فى ملاحق تذكرة النبيه ، جـ١ ، ص ٣٦١ ، ٣٩١ .

(١٦٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ .

ثانيا : عمارة البيمارستان واصلاح أوقافه : -

كان على ناظر البيمارستان أن يقوم بعمارة البيمارستان وأوقافه ، والقيام بأعمال الاصلاح والترميم اللازمة له . فقد جاء فى وثيقة وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى والمؤرخة فى (١٢ صفر ٦٨٥هـ) ما يلى : « يبدأ الناظر بعمارة ما تجب عمارته فى الوقف والبيمارستان من اصلاح وترميم أو بناء هديم ، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ، ولا اجحاف بأحد فى عمل ولا اضرار »(١٦٤) وجاء أيضا فى وثيقة وقف قلاوون المؤرخة (٢١ صفر ٦٨٥هـ) : « وعلى الناظر ان يقوم بعمارة الموقوف ومرمته باصلاحه وتجديد ما تهدم من بنيانه ، وانشاء ابنية على ما يراه الناظر سفلا وعلوا بالات العمارة ، على ما يراه مما تظهر فيه المصلحة ويعود بالنفع على الوقف وأهله »(١٦٥) .

ومن أمثلة عمليات الاصلاح والترميم التى قام بها صحابة نظر البيمارستان المنصورى ، عملية العمارة والاصلاح والترميم التى قام بها الأمير جمال الدين أقوش ، وذلك فى مستهل عام ٧٢٦هـ/ديسمبر ١٣٢٤م؛ فقد أمر باخلاء الدواوين والقاعات من المرضى ، ولم يبق بالبيمارستان الا بعض المرضى ذوى الحالات الخطيرة ، وشرع فى العمارة . واستمرت عمليات الاصلاح والترميم شهوراً حتى انتهت فى يوم الثلاثاء ١١ جمادى الأولى ٧٢٦هـ/يوليو ١٣٢٦م باضافة قاعة جديدة الى قاعات البيمارستان المنصورى . وقد أجرى أقوش هذه العمارة وما أضافه من قاعة جديدة من ماله الخاص دون مال الوقف(١٦٧) .

---

(١٦٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(١٦٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٩١ .

(١٦٦) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٧، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٧٣ ، محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص١٠٤ .

(١٦٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٧٤ ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٧ ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٩٤ - ٩٥ ، محمد سيف منشآت ، ص ١٠٤ .

وقام الأمير صرغتمش(١٦٨) أيضا بعمليــات ترميم واصــلاح للبيمارستان المنصورى وأوقافه عندما تولى صحابة نظر البيمارستان فى ذى القعدة ٧٥٥هـ/نوفمبر ١٣٥٤م من قبل السلطان الناصر حسن . فقد أهتم صرغتمش بالكشف على ما يحتاج اليــه البيمارستان وأوقافه من العمارة ، وركب مع القــاضى ابن خطيب بيت الآبار - وكان الأمــير صرغتمشى قد ولاه أمر التحــدث فى البيمارستان - ومعهما المهندسون لكشف ما يحتاج اليه البيمارستان من العمارة . ويذكر المقريزى «أنه كتب تقدير المصروف ثلثمائة ألف درهم ، فرسم بالشروع فى العمارة ، فغمرت الأوقاف حتى ترقع ما فسد منها ونودى بحماية من سكن فيها »(١٦٩) .

كذلك قام الأمير جارقطلوا بن عبد الله الظاهرى(١٧٠) عنــدما تولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى ٥ جمادى الآخرة ٨٣١هـ/ ٢٣ مارس ١٤٢٨م بعملية ترميم واصلاح أخــرى لأوقاف البيمارستان ، فيذكر الصيرفى(١٧١) انه ابتدأ فى أول رمضان ٨٣٢هـ/٤ يونية ١٤٢٩م بهدم حوانيت الصيارف وسوق الكتب وحوانيت الدواوين .. فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية وهى جارية فى وقف البيمارستان المنصورى لتجدد عمارتها فى أيام ناظرها المقر الاتابكى جارقطلوا والقاضى نورالدين ابن مفلح(١٧٢) .

ثالثا - قيام الناظر بتحصيل ريع الأوقاف : -

فقد اشترطت وثيقة وقف المنصور قلاوون على ناظــر البيمارستان

---

(١٦٨) انظر ترجمة صرغتمش فى المنهل ، حـ٦ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤ ، الدرر ، حـ٢ ، ص ٣٠٥ ؛ المقريزى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(١٦٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٨ .

(١٧٠) انظر ترجمة جارقطلوا فى المنهل ، حـ٤ ، ص ٢١٢ - ٢١٥ ، الضــوء اللامع ، حـ٣ ، ص ٥١ .

(١٧١) نزهة النفوس ، حـ٢ ، ص ١٥٩ .

(١٧٢) انظر ترجمة القاضى نور الدين بن مفلح عند السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٣٩ ، وانظر أيضا ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٢٢٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٣ ، ص ١٩٦٥ .

المنصورى أن يتحرى الدقة ويتبع كافة الحيل فى تحصيل ريع الأوقاف على أكمل وجه ، فقد نصت على أن : ـ

« يتحرى الناظر فى تحصيل ريع الوقف أحسن الحيل على حسب الامكان ، ويطلب ذلك حيث كان فى كل جهة ومكان ، بحيث لا يفرط ولا يفرط ‥ ·ولا يهمل حقا معينا ، ولا يغفـــل عن أمر يكون صلاحه بينـاً »(١٧٣) ·

وأظهر بعض النظار نوعاً من التشدد فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان·ومن هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الجاولى(١٧٤)، الذى ولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى جمادى الآخرة ٧٣٥هـ/ فبراير ١٣٣٥م ـ فيذكر اليوســـفى(١٧٥) أنه اتفق فى ولاية علم الدين ســنجر للبيمارستان أمور كثيرة من العســـف ، فانه طلب حساب البيمارستان ، فوجد فيه مائة ألف درهم متأخرة من البواقى بقيت على سكان الدكاكين وسكان الرباع من الأوقاف وشىء من القروض على الناس ، فطالب بها، ورسم ان يستخلصها من الناس ، وكان منهم متأخر من عشرين سنة وأقل، وشعر الناس بألم كبير ، وعرفه بعضهم ان جميع أموال هذا البيمارستان صدقة للــه تعالى من صاحبها ، فلم يلتفت الى ذلك ، واشتد امره على الناس ، والقى ببعضهم فى السجون بسبب هـــذا الدين · وهكذا أظهر الجاولى نوعاً من التشدد فى جباية أموال الأوقاف الخاصة بالبيمارستان المنصورى ، ولعل تشدده هذا ينبع من حـــرصه على ريع البيمارستان ودخـــوله ·

وبلغ من تشدد الأمير سنجر الجاولى أيضا أنه لم يخرج مال الصدقة من ريع البيمارستان ؛ فيذكر المقريزى فى حوادث عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م « فيها كثر ضبط الأمير علم الدين سنجر الجاولى لأوقاف البيمارستان ،

---

(١٧٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ ·

(١٧٤) انظر ترجمة سنجر الجاولى فى المنهـــل ، حـ٦ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، الدرر الكامنة ، حـ٢ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، مخطوط ، ورقة ٤٠٧ ـ ٤٠٩ ، السبكى ، طبقات الشافعية ، حـ٦ ، ص ١٠٦ ·

(١٧٥) نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ·

وتوقفه فيما يصرف منه للصـــدقات »(١٧٦) مما دفع السلطان الى أن يرسل اليه ، ويطلب منـــه الا يضيق على النـــــاس لأن المرســتان كله صدقة(١٧٧) ، خاصة بعد أن تشدد كذلك فى الاشربة والأدوية ، فكان اذا طلب أحد اشياف(١٧٨) للعين يعد له واحدة بعد واحدة ، واذا كتب له أربع أواق شراب أو غيره يصرفها أوقيتين ، وضيق على سائر مباشرى البيمارستان وغيرهم من الفقراء والصعاليك ـ كما يذكر اليوسفى(١٧٩).

رابعا ـ تعيين موظفى البيمارستان : ـ

من مهام الناظر أيضا تعيين جميع موظفى البيمارستان بداية من شيخ الطب أو رئيس الأطباء وحتى القومة ؛ فتذكر وثيقة وقف المنصـور قلاوون : « ويصرف الناظر لمن ينصبه شيخاً ... للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه فى الأوقات التى يعينها له الناظر »(١٨٠) .

ويقوم الناظر أيضا بتعيين جميع أطباء البيمارستان من طبائعية (أى أطباء الأمراض الباطنية) وكحالين (أطباء العيون) وجرائحيين (أى من يقومون بالعمليات الجراحية) ،وله الحرية فى تحديد اعدادهم كما يتراءى له(١٨١).ولم تقتصر مهمة الناظر على مجرد تعيين اطباء البيمارستان،بل كان عليه أن يشرف على سير أعمالهم ، وكيفية تطبيقهم لنظام المناوبة ، ويكون ذلك بأذن منه ، فقد نصت الوثيقة على : « يباشر

---

(١٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٣ .

(١٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٣ .

(١٧٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٣ ، اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٧٨) الاشياف عبارة عن دواء مسحوق يستعمل للعيون كما أنها أيضا الدواء الذى يعمل منه قمعا أو تلبيسة (فتيلة) لمعالجة أمراض المستقيم . انظر محمد محمد أمين ، الاوقاف ، ص١٦٣ ، هامش١ ، محمد سيف منشآت الرعاية الاجتماعية ،ص٥٧.

(١٧٩) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٨٠) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٦ .

(١٨١) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ .

الأطباء المرضى المختلين - الرجال والنساء - بهذا البيمارستان مجتمعين أو متناوبين ... بأذن الناظر فى التناوب »(١٨٢) .

ويعين الناظر أيضا خازناً وأمينا - وهما أشبه بالصيدلى والممرض فى عصرنا الحديث - ، فتنص وثيقة وقف قلاوون على : « ويرتب رجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة يكون أحدهما (خازن) لخزن حاصل التفرقة .... ويكون الآخر (أمينا) .... وللناظر أن يزيد عليهما فى العدة اذا لم يكفيا ما اشترط عليهما مباشرته »(١٨٣) .

ويرتب الناظر أيضا القومة من الرجال والنساء لخدمة المرضى ... وهو الذى يحدد عدد هؤلاء القومة والفراشين بحيث لا يزيد فى العدد كما تذكر الوثيقة(١٨٤) .

وكان السلطان المنصور قلاوون - بصفته الناظر الشرعى لهذا البيمارستان أول من قام بترتيب الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحين والمجبرين بهذا البيمارستان »(١٨٥) . ويذكر اليوسفى أيضا أن الأمير علم الدين سنجر الجاولى رتب فى المرستان جماعة من الحكماء لم يكونوا مستحقين ، وتدخل السلطان ، ورسم بصرف اثنين من هؤلاء الحكماء الذين استجدهم الأمير علم الدين بالمرستان(١٨٦) .

وقد اهتم ناظر البيمارستان المنصور بانتظام العمل فى البيمارستان وانتظام العاملين فى أداء أعمالهم ومداومتهم عليها ، فكان الأمير جمال الدين أقوش يدخل اليهم على غفلة ، ويتفقدهم ، ويجد بعضهم لم يحضر فى الليل ، وكذلك يصعد الى علو المأذنة ، ويتفقد المؤذنين ، ويعلم من حضر ومن غاب ، فيجد جماعة ، ويدخل أماكن الدرس وغيرها ، فيجد من حضر ويعرف من غاب ، وذات يوم نزل من الخدمة ، وأوصى

---

(١٨٢) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .
(١٨٣) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
(١٨٤) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٧ .
(١٨٥) انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص١٠٧؛ ابن الفرات ، م٨ ، ص ٠٩
(١٨٦) نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

أن يحضر سائر من له وظيفة فى البيمارستان ، ونزل فوجد الجميع قد حضروا ، فسلم لمماليكه العصى بأيديهم ، وراح يدعوهم الواحد بعد الآخر ، وكل من دخل أخذته أيدى مماليكه بالعصى على أكتافه ضرباً مؤلماً الى أن فعل بالجميع هذا . ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع أحد موظفى البيمارستان عن وظيفته أبدا كما يروى اليوسفى(١٨٧) .

خامسا - الصرف على مصالح البيمارستان من ريع أوقافه : -

من مهام الناظر أيضا ما يتعلق بالنواحى المالية ، لأن الناظر بعامة هو « من ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ، ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتامله فيمضى ما يمضى ، ويرد ما يرد »(١٨٩) . أى أن الناظر أشبه بالمشرف المالى أو بمعنى آخر المشرف الرسمى على الايراد والمصرف، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات(١٩٠) .

وحددت نسخة توقيع ناظر البيمارستان المنصورى من أرباب الاقلام مهام الناظر المالية ومنها : « اقامة وظائفها واعتبار مصارفها ... وتمييز حواصلها بما يستدعى اليها من الاصناف التى يعز وجودها ... وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثق من أيدى امنائه وثقاته »(١٩١).

وكان الناظر يقوم بالصرف على مصالح البيمارستان من ريع أوقافه ، وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون أوجه الصرف هذه على النحو التالى : -

١ - صرف رواتب العاملين بالبيمارستان من مشد وناظر ومشارف

---

(١٨٧) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(١٨٨) المقريزى ، السلوك ، حـ٣،ق١ ، ص٨ ، محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥.

(١٨٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٥ ، ضوء الصبح ، ص٣٤٧ .

(١٩٠) محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، ص ٣٤١ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، حـ٣ ، ص ١١٧٧ .

(١٩١) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

وشاهد وكاتب وخازن(١٩٢) « فيصرف لكل منهم من ريع هـذا الوقف أجرة مثله عن تصرفه فى ذلك وفعله »(١٩٣) ٠ ويصرف الناظر أيضـا رواتب الخازن والأمين (أى الصيدلى والممرض) من ريع الوقف من غير حيف ولا شطط ، كما نصت الوثيقة(١٩٤) ٠ كذلك يقوم الناظر بصرف رواتب الأطباء بمختلف تخصصـــاتهم فتنص الوثيقة على : « ويصرف الناظر ٠٠٠ لأطباء المسلمين الطبائعين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان ٠٠٠ وهو مخير فى تقرير الجامكيات ما لم يكن فى ذلك حيف ولا شطط »(١٩٥) ٠ ونصت الوثيقة كذلك على « ان يصرف الناظر لمن ينصب شيخاً للاشـــتغال بـعـــلم الطب ٠٠٠ ما يرى صرفه اليه »(١٩٦) ٠ ويقوم الناظر أيضا بصرف رواتب القومة والفراشين من الرجال والنساء بهذا البيمارستان نظير قيامهم بخدمة المرضى،فقد نصت الوثيقة على أن « يصرف الناظر للقومة والفراشين ٠٠ ما يرى صرفه الى كل منهم بحسب عمله ٠٠٠ على ما يراه من التقدير بحيث لا يزيد فى المقادير عن الحاجة اليه فى ذلك »(١٩٧) ٠

٢ ـ المشتريات : وتتضمن ـ كما جاء فى الوثيقة ـ شراء احتياجات البيمارستان من سرر حديد أو خشب ولحف محشوة قطناً وطراريح(١٩٨)

---

(١٩٢) المشارف عمله طلب التفاصيل الكاملة عن أية جهة من الجهات الضريبية التى تقع فى دائرة عمله ويدخل فى عهدته جميع المتحصلات المالية بعـــد ختمها ٠ انظر محمد قنديل ، التعريف ، ص ٣١٢ ٠ وعن الشاهد انظـــر القلقشندى ،صبح الاعشى ، حـ ٥ ، ص ٤٦٦ ، محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ ٠ وعن الخازن ، انظر القلقشندى ، حـ٤ ، ص ٢١٠

(١٩٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ ٠

(١٩٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ٠

(١٩٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٥ ٠

(١٩٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٣٦ ٠

(١٩٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، وانظر أيضا النويرى ، نهاية الارب، حـ٣١ ، ص ١٠٧ ، ابن الفرات ،م ٧ ، ص ٩ ٠

(١٩٨) الطراريح هى كل ما يطرح ويفرش وهى المراتب والحشايا ، وهى المرتبة أو الكرسى الذى توضع عليه وسادة طرية ٠ انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣ ، حاشية ٢ ٠

محشوة بالقطن أيضا ، وملاحف قطن ، ومخاد طرح أو أدم لطيفة حسب ما يتراءى للناظر ، وهو مخير بين أن يشترى هذه الأشياء أو المفروشات جهازة أو يشتريها قماش، ويصرف أجرة خياطتها وثمن حشوها، وبحيث يوفر لكل مريض الفرش الذى يتلاءم مع مرضه(١٩٩) ٠

وتشمل المشتريات أيضا شراء الأدوات التى يستعملها المرضى ومنها فخار برسم أغذيتهم ، وأقداح زجاج ، وخزف برسم اشربتهم ، وكيزان وأباريق فخار ، وقصارى فخار وسرج وقناديل وزيت للوقـــود ٠ كذلك يصرف الناظر ثمن مكبات خوص لأجـــل تغطية أغذيتهم عند صرفها ، وثمن مراوح خوص لأجل استعمالها أيام الحر وفى فصل الصيف ليبعـد بها الذباب(٢٠٠) ٠

هذا الى جانب شراء المـــواد التى تســتخدم فى صناعة الأدوية وتحضيرها ، فقد نصـت الوثيقة على أن يصرف الناظر ثمن سـكر لصنع الاشربة المختلفة وعمل المعاجين ، وثمن ما يحتاج اليه من فواكه وخمائر، وثمن ما يحتاج اليه من الأدوية والعقاقير والمعاجين والمراهم والاكحال والشـيافات والـذرورات(٢٠١) والسـفوفات(٢٠٢) والترياقات(٢٠٣) والاقراص وغير ذلك(٢٠٤) ٠

٣ ـ الصرف على جهات البر ومنها تجهيز ودفن من يمت من المرضى فى البيمارستان ومن يمت بين أهله خاصة منالفقراء،فتنص الوثيقة على:

---

(١٩٩) انظر الوثيقة ، ص٣٦٢ . وانظر أيضا ، المقريزى ، المواعظ ، م٢،ص٤٠٦٠

(٢٠٠) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ ، وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣٠

(٢٠١) الزرورات هى الادوية القاطعة للدم فى الجراحات وانتفاخ الشرايين ، وتنفع فى علل الانف والبواسير والرعاف والاورام ٠ انظر محمد سيف ، منشآت ، حاشية ٢ ، ص ٥٧ ٠

(٢٠٢) السفوفات هى الادوية الممسكة أو المسهلة وهى على شكل مسحوق يأخذ بواسطة الفم ٠ انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٧ ، حاشية ٣ ٠

(٢٠٣) الترياقات جمع ترياق وهو دواء مركب لعلاج السموم ، انظر محمد محمد أمين ، الاوقاف ، ص ١٦٤ ، حاشية ٩ ٠

(٢٠٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٣ ٠

« ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة اليـــه من تكفين من يموت بهـــذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف اليه ما يحتاج اليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته فى قبره على السنة النبوية والحالة المرضية »(٢٠٥) ٠ ونصت الوثيقة كذلك على : « وان مات بين أهله صرف اليه الناظر فى يوم تجهيـــزه وتغسيله وتكفينه وحمله الى مدفنه ومواراته فى قبـــره ما يليق به بين أهله »(٢٠٦) ٠

كذلك حرص الناظر على صرف اعانات للخارجين من البيمارستان بعد شفائهم فقد نصت الوثيقة على : « ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بالبيمارستان صرف اليه الناظر عن ريع هذا الوقف كسوة ٠٠٠ وذلك وفق ما يراه ، ويؤدى اليـــه اجتهاده وبحسب ما تدعـــو اليه الحاجة»(٢٠٧) ٠

وقد أظهر بعض نظار البيمارستان كفاءة كبيرة فى ادارة حسابات البيمارستان ومن هؤلاء النويرى ، الذى باشر نظره فى شوال ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) وحتى آخر رمضان من عام ٧٠٧هـ/مارس ١٣٠٧م ويذكر فى هذا الصدد : « باشرت نظر البيمارستان المنصورى وما معه من الأوقاف المنصورية ٠٠٠ ورفع الى حساب المياومة »(٢٠٨) ٠

وبفضل مباشرة النويرى انتظمت الى حد كبير حسابات البيمارستان المنصورى وزادت ايراداته وريع أوقافه ، حتى عهد خليفته شهاب الدين ابن عبادة(٢٠٩) اذ حدث فى عام ٧١١هـ/١٣١١م أن اشترى السلطان

---

(٢٠٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ ٠

(٢٠٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ ٠

(٢٠٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ٠

(٢٠٨) انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٨ ، وانظر أيضا أمينة محمد جمال الدين ، النويرى وكتابه نهاية الارب ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٥٥ ٠

(٢٠٩) انظر ترجمة ابن عبادة فى الدرر ، حـ١ ، ص ٢٢٣ ، وانظر أيضا السلوك حـ٢ ، ق١ ، ص ٥٥ ٠

الناصر محمد بن قلاوون جواهر من تجـــار الفرنجة بمصر وغيرها من الحاجيات بمبلغ ستة عشر ألف دينـــار ، واحالهم بها على كريم الدين اكرم(٢١٠) • ناظر الخاص ، غير أنه لم يكن لديه شيء من هذا المبلغ ، فاستشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة(٢١١) والصـــلاح الشرابيشى فحسنا له ان يستعين بايرادات البيمارستان المنصورى • مما يدل على مدى الثقة التى تمتعت بها حسابات هذا البيمارستان(٢١٢) •

ومما يدل أيضا على انتظام حسابات البيمارستان وزيادة ريع أوقافه بفضل كفاءة نظاره ومعرفتهم بالحساب ما يذكره المقريزى من ان الأمير جمال الدين أقوش عندما استقر ناظراً على البيمارستان فى جمادى الآخرة ٧٢٣هـ/يونيه١٣٢٣م « وجد حاصله أربعمائة ألف درهم ، سوى السكر وغيره قيمته مائة ألف درهم »(٢١٣) •

وتزايد أيضا ريع أوقاف البيمارستان فى عهـــد الأمير صرغتمش بفضل كفاءته وكفاءة نائبه ضياء الدين يوسف بن بيت الآبار لتصـــل الى « أربعين ألف درهم فى الشهر»(٢١٤) • وظلت دخول أوقاف البيمارستان فى زيادة حتى أن الرحالة ابن بطوطة يذكر : « ان مجبـــاه ألف دينار كل يوم »(٢١٥) •

وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون ما يجب ان يفعله الناظر فى

---

(٢١٠) عبد كريم الدين اكرم انظر ، الدرر ، حـ١ ، ص٤٢٩ ـ ٤٣١ ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٩٥ •

(٢١١) هو على بن جلال الدولة الشيزرى ولد بشيزر ثم قدم مصر وباشر شد العمارة وخدم عند أحمد بن عبادة فى نظر الخاص والاوقاف ، توفى بشيزر ســـنة ٧٣٩هـ • انظر ترجمته فى الدرر ، حـ٣ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ •

(٢١٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص ٣٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ١٣ ، وانظر أيضا أمينة جمال الدين ، النويرى ، ص ٥٧ •

(٢١٣) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٤٧ •

(٢١٤) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٨ •

(٢١٥) ابن بطوطه ، الرحلة ، ص ٣٣ •

حالة اذا ما نقص ريع أوقاف البيمارستان عن استيعاب المصاريف التى سبق ذكرها ، اذ نصت على : « أن يقدم الناظر صرف الأهم فالمهم من ذلك ... ويقدم الاحوج فالاحوج بحسب ما تقضيه المصلحة ... وعلى الناظر فى هذا الوقت ان .. لا يقدم صاحب جاه على ضعيف ولا قوى على من هو أضعف منه ، ولا متأهل على غريب بل يقدم من فى الصرف اليه »(٢١٦) .

معاونو ناظر البيمارستان المنصورى :

كان يعاون الناظر فى أداء مهامه مجموعة من الموظفين، فقد وردفى وثيقة المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفر ٦٨٥هـ من بين موظفى البيمارستان « الخزان الامناء والمباشرين وغيرهم »(٢١٧) . ونصت الوثيقة فى موضع آخر على أنه « ليس للناظر .. أن ينزل بهذا البيمارستان ... من المباشرين ولا من أرباب الوظائف يهودياً ولا نصرانياً »(٢١٨) . وكان من بين هؤلاء المباشرين «مباشرو العمارة» ويقوم هؤلاء بشراء المواد اللازمة لعمل الترميمات والاصلاحات اللازمة ، مع مراقبة مختلف الابنية الموقوفة واستخدام الصناع والعمال . وقد حدد النويرى اختصاصاتهم ـ بوصفه ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى ـ فذكر : « اما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها من ابتياع الأصناف ، واستعمال الصناع ، ومرمة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم ... ويكتبون فى كل شهر استحقاق(٢١٩) بثمن الأصناف وأرباب الأجر »(٢٢٠) ثم يرسلون هذا السجل أو الاستحقاق الى الناظر ليتولى عملية الصرف وسداد الأموال الى مستحقيها(٢٢١) .

---

(٢١٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٨ .

(٢١٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ .

(٢١٨) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٢١٩) يقصد بالاستحقاق اجراء سجل او جريدة بما هو مستحق لارباب الجامكيات أى الرواتب . انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٨ ، حاشية ٤ .

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ .

(٢٢١) حياة الحجى ، البيمارستان المنصورى ، ص ٢١ .

ويعاون الناظر فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان عدد آخر من المباشرين ويعرف هؤلاء « بمباشرى الصـــندوق والرباع » ويحـــدد النويرى أيضا اختصاصاتهم بقوله : « واليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف فى الخلق والســكون والمعطل ، واستخراج الأمـــوال ، ومحاســبات المستأجرين ، وصرف الأموال بمقتضى حوالة(٢٢٣) ٠

ويساعد الناظر أيضا جماعة ثالثة من المباشرين يعـــرفون باســـم « مباشرى الادارة » ومهمتهم ابتياع ما يحتـــاج اليــه البيمارستان من الأصناف ، وضبط ما يدخل الى المكان وما يخرج منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق فى استخراج(٢٢٤) ، ويكتبون فى كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل ، ويكتب عليه الشهور ، ويأمر الناظر بصرفه ، ويخلد فى ديوان الصندوق ويعرفه على حكمه(٢٢٥) ٠

وقد خصصت لهؤلاء المباشرين أجور نظير قيامهم بهذا العمل ،فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على : « ثم ما فضل بعد ذلك صرف منه الناظـــر ما يرى صرفه لمن يتولى ايجـــار ذلك ، واستخراج أجرته وعمارته »(٢٢٦) ٠

وكان لصحابة نظر البيمارستان المنصـــورى ديوان يطلق عليـــه

---

(٢٢٢) الحوالة وثيقة تجيز لحاملها ان ينال ما هو مستحق له من المرتبات من المتحصل من الجهات المقررة له بها ٠ انظـــر النويرى ، نهـــاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٥ ٠

(٢٢٣) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ ٠

(٢٢٤) صندوق المستخرج أو ديوان الصندوق يختص بالنظر فى جهات الوقف ، وما طرأ عليها من زيادة أو ركود أو تعطيل ، كما يختص باســـتخراج الامـــوال ومحاسبات المستأجرين وصرف الاموال ٠ انظر النويرى ، نهـــاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ ، حاشية ٢ ٠

(٢٢٥) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، وانظر أيضا المقريزى، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٧ ٠

(٢٢٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ ٠

القلقشندى اسم « ديوان صحابة نظر البيمارستان »(٢٢٧) وليس هـذا بالغريب لأن من تولوا صحابة نظر البيمارستان المنصورى أو نيابته كانوا من كبار الأمراء بالديار المصرية . وجرت العادة أن يكون لكل أمـير ديوان . وقد تألف ديوان صحابة نظر البيمارستان على نحو ما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من « مشـد وناظر ومشـار وشـاهد وكاتب وخازن »(٢٢٨) . ويلاحظ هنا أن المشد تقدم على الناظر مما يظهـر أهمية وظيفته للبيمارستان.والمشد أو الشاد لفظ استخدم فى دولة المماليك للدلالة على موظف كان له حق التقوية وما يتبع ذلك من سلطان المراقبة والاشراف والتفتيش والمعاونة والتوجيه والتعمير والاستثمار وغير ذلك . وتدل هذه اللفظة على وظائف مختلفة لكل منها اختصاصاتها بحسب نوع الشد الذى يتولاه الموظف ، وكثيراً ما أضيف كلمة شاد الى اسم الادارة أو الجهة التى يتولى الموظف شدها ، مثال ذلك شاد الاحباس ، وشاد الأوقاف ، وشاد العمارة ، وشاد البيمارستان وغيرها(٢٢٩) .

ونظراً لأن وظيفة المشد جاءت فى الوثيقة غير متبوعة بما يوضح نوعية هذا الشـد ، فضـلا عن كـونها من وظائف ديوان صحابة نظر البيمارستان ، فمن المحتمل أن يقصد بالمشد هنا مشد عمائر البيمارستان وما يتبعه من أوقاف . وكان واجب هذا المشـد أن يحرص على مصالح الوقف والمستحقين له ، بأن يجدد ويصلح مبانى الوقف ، وأن يشرف على أرباب الصناعات المختلفة فى العمائر ، ويحثهم على العمـل مع الرفق بهم ، والا يستعمل أحداً فوق طاقته ، وعليه أيضا أن يمكنه من الأكل ، وان يطلق سراحه أوقات الصلوات؛ومن عمله أيضا أنه يعاون فى جباية ريع الوقف(٢٣٠) .

ولم تذكر المصادر اسماء من تولوا وظيفة الشد بديوان صحابة نظر

---

(٢٢٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ٣٤ .

(٢٢٨) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(٢٢٩) حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، حـ٢ ، ص٦٠٥ ـ ٦٠٧ .

(٢٣٠) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٢٩ ، وانظر أيضا حسن الباشـا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، حـ ٢ ، ص ٦١٧ .

البيمارستان المنصورى، اللهم الا الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى عهد اليه السلطان المنصور قلاوون بشـــد عمـــارة البيمارستان عنـــد بنائه(٢٣١) .

أما الناظر فهو الذى ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد(٢٣٢) أى انه المشرف الرســـمى على جميع ايرادات الديوان ومصروفاته ؛ ولا بد من توقيعه على كل ما يخرج من الديوان من أوراق(٢٣٣) .

وعن المشارف يذكر ابن مماتى(٢٣٤) ان أمره جار على أمر الناظر وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته بعد أن يكون مختوماً عليه ، ومهمته أيضـــا هو والناظر ضبط عامل الديوان والشد منه .

ومن موظفى ديوان صحابة نظر البيمارستان أيضا الشاهد والكاتب والخازن.أما الشاهد فهوالذى يشهد بمتعلقاتالديوان نفياً وأثباتا(٢٣٥). وقيل أيضاً أنه هو الذى يضبط كل شيء مما هو شاهد فيه،وعليه أن يكتب الحساب الموافق لتعليقه وعليه أيضا ضبط الحواصل لا غير(٢٣٦) .

ونظراً لأن تشكيل ديوان البيمارستان يخلو من العامل فان الكاتب هنا يجرى مجرى العامل فى كل ما يتعلق به أى أنه يتولى عمل الحسابات

---

(٢٣١) انظر ما سبق ص ٢ ، وانظر أيضا بيبرس المنصورى ، مختار الاخبار ، تحقيق عبد الحميد صالح مروان ، القاهرة ١٩٩٣م ، ص ٨٥ .

(٢٣٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٥ .

(٢٣٣) انظر حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٨٤ ، محمد قنديل البقلى، التعريف ، ص ٣٤١ .

(٢٣٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز ســـوريال عطية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٠٢ ؛ ٣٠٣ .

(٢٣٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٦ ؛ وانظر أيضا محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ .

(٢٣٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ ، وحاشية ٨ .

ورفعها والكتابة على ما يرفعـــه غـــيره من معاملته منهـــا بالصـــحة والموافقة(٢٣٧) ٠

أما الخازن فهو الذى يتولى خزن الغلات واخراجها ، ويلزمه عمل الأعمال بها ، ويطالب بما قد يعجز منها(٢٣٨) ٠ وهنا تجـدر الاشارة الى أنه كان بالبيمارستان المنصورى أكثر من خازن ، فقد نصت وثيقة المنصور قلاوون على ذلك اذ جاء فيها « والخزان الامناء ٠٠ »(٢٣٩) ٠ ولكن مما يؤسف له ان المصادر لم تذكر اسماء من تولوا وظائف ديوان صحابة نظر البيمارستان المنصورى ٠



يتضح من العرض السابق لمهام ناظر البيمارستان المنصـــورى انها كانت كثيرة ومتعددة ، مما تطلب أن يساعده فى تأديتها مجموعة من الموظفين سواء داخل ديوان البيمارستان أم خارجه ٠ ونظرا لتعدد مهام صحابة نظر البيمارستان المنصورى فكان ولابد أن يتولى هـــذه الوظيفة شخص مؤهل فكريا واداريا وماليـــا وعلميا بل وفنيا أيضا حتى يصبح بامكانه القيام بواجباته ومسئولياته بجدارة وليحقق الأهداف المرجو من وراء نشأة البيمارستان ٠ وقد أظهر العديد من نظار البيمارستان المنصورى فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، كفاءة ومقدرة ، وكانوا أهلا لتولى هذا ، المنصب ، وأن كانت هناك قلة قد تسلقت هذا المنصب وهى تفتقر الى المقدرة والكفاءة والاستحقاق والأهلية والجدارة ، وذلك عن طريق المهاداة والبذل والرشوة ٠ وازدادات هذه الظاهرة فشوا فى الشطر الأخير من دولة سلاطين المماليك عندما اختلت نظمها وساءت أحوالها وتفشت فيها الأمراض الاجتماعية التى أدت الى ســـقوطها ٠

---

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ ٠

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٦ وعـــن الخـــازن انظر أيضـــا القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٥ ، ص٤٦٢ـ٤٦٣ ، محمد قنديل ، مصطلحات ، ص١١٣ ٠

(٢٣٩) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الوثائق :

— وثائق وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى ، دراسة ونشر وتحقيق محمد محمد أمين : ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ٠
الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٦م ٠

— وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن موسى رئيس المجبرين والجرائحيين بالبيمارستان المنصورى على مصالح البيمارستان وغيره ٠
محفظة ٢٤/حجة ١٥٤ مؤرخة ٢٢ ذو الحجة/٨٧١هـ وثائق محكمة الأحوال الشخصية (الولاية على النفس) ٠

— وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى
دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة ، م ١٨ ، حـ٢ ديسمبر ١٩٥٦م ٠

ثانيا : المخطوطات :

— الخالدى (محمد بن عطف الله ت ٩هـ/١٥م)
المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشا ـ مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ ٠

— صلاح الدين الصفدى (خليل بن ايبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
اعيان العصر واعوان النصر
ثلاثة أجزاء ـ مخطوط مصور عن مجموعة عاطف أفندى ، المكتبة السليمانية استانبول ٠
معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، المانيا ١٩٩٠م ٠

ثالثا : المصــادر العربية :

— ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
٥ أجزاء ، فيسبان (١٩٧٥ – ١٩٨٣م) ٠

— ابن تغرى بردى (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
الأجزاء من ٧ – ١٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

حـ ١٣ تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٧٠م
حـ ١٤ تحقيق جمال محمد محرز وفهيم شلتوت القاهرة ١٩٧١م٠
حـ ١٥ تحقيق ابراهيم طرخان ، القاهرة ١٩٧١م
حـ ١٦ تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شـــلتوت ، القــاهرة ١٩٧٢م

= حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور
حـ ١ تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠م ٠

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤ – ١٩٩٠م
والأجزاء ٣ ، ٥ تحقيق نبيـــل عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٦ – ١٩٨٨م ٠

— ابن حجر العسـقلانى (شـــهاب الدين أبى الفضــل أحمد بن على ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
- انباء الغمر بابناء العمر ، تسعة أجزاء فى خمســة مجلدات ، بيروت ١٩٨٦م ٠
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦م٠

— ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه

الجزء الأول ، حوادث وتراجم (٦٧٨ - ٧٠٨هـ/١٢٧٩-١٣٠٨م)
تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٦م •

- ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م •

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات
الجزء السابع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢م
الجزء الثامن تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩م •
الجزء التاسع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٦م •

- ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين : تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٩١م •

- السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)
معيد النعيم ومبيد النقم
تحقيق محمد على النجار ، أبو زيد شلبى ، محمد أبو العيون ، القاهرة ١٩٤٨م •

- السخاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر بن عمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك •
تصحيح أحمد زكى ، بولاق - مصر ١٨٩٦م •
- الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة
تحقيق جودة هلال د• محمد محمود صبح،مصر،بدون تاريخ •
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع •
١٢ جزء ، القاهرة ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ •

ـــ السيوطى (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
نظم العقيان فى أعيان الأعيان
(تراجم مشاهير القرن التاسع الهجرى)
حرره فيليب حتى ، المطبعة الســورية الأمريكية فى نيويورك ، ١٩٢٧م .

ـــ الشجاعى (شمس الدين الشـجاعى)
ـ تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده
حققه وعربه الى الالمانية بربارة شـيفر
القسم الأول : النص العربى فيسبادن ، ١٠٧٨م .

ـــ الصيرفى (الجوهرى على بن داود ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)
ـ نزهة النفوس والابدان فى تواريخ أهل الزمان
أربعة أجزاء ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤م، ١٩٩٤م .
ـ انباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠م .

ـــ القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا
١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢ ـ ١٩٢٢م
ـ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر
طبع وتصحيح محمود سلامة ، مصر ١٩٠٦م .

ـــ محب الدين (تقى الدين عبد الرحمن الشهير بابن ناظر الجيش
كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف
تحقيق رودلف فسلى
منشورات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٧م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك
الأجزاء من ١ - ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة .
الأجزاء ٣ ، ٤ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠م ، ١٩٧٢م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
مجلدان ، بيروت بدون تاريخ عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ .

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)
- نهاية الارب فى فنون الأدب
جـ ١٣ تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٩٢م .

- اليوسفى (موسى محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م)
نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر
تحقيق ودراسة محمد حطيط ، بيروت ١٩٨٦م .

رابعاً : المراجع العربية :

- أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م.

- حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٢ ، جـ٣ ، القاهرة ١٩٦٦م .

- حياة ناصر الحجى ، « البيمارستان المنصورى منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن ٨هـ/١٤م » بحث منشور فى المجلة العربية للعلوم الانسانية ،م٨ ، العدد ٢٩ ، الكويت ، شتاء ١٩٨٨م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور :
- العصر المماليكى فى مصر والشام - القاهرة ، ١٩٩٤ .
- حضارة الاسلام - القاهرة ، ١٩٨٨ .

- محمد حمزة اسماعيل الحداد ، السلطان المنصور قلاوون (تاريخ - أحوال مصر فى عهده - منشآته المعمارية) القاهرة ، ١٩٩٣م .

- محمد سيف النصر أبو الفتـــوح ، « منشـــآت الرعاية الاجتماعية في القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك » .
رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٠م .

- محمد قنديل البقلي ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ١٩٨٤م .

- محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م)
دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠م .

- محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المـــلوكية (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م) ، مصر ، ١٩٩٠م .

خامسا : المراجع الأجنبية :

Van Berchem, · Corpus Inscriptorum Arabicarum, Premiére Partie. (Egypte — Paris, 1903)

هبة الله بن ملكا
ونظرته الى المعارف والعلوم

د٠ مريزن سعيد عسيرى(*)

مقدمة :

حفل تاريخ الحضارة الاسلامية بالعديد من الشخصيات العلمية البارزة التى كان لها دور رائد فى تطور العلوم بشكل عام ، بل أن بعضهم أنجز من الأعمال العلمية ما يمكن اعتباره اكتشافات جديدة اثرت فى مسيرة الحضارة البشرية ٠

وقد تناول المستشرقون العديد من هذه الشخصيات الاسلامية بالدراسة والتحليل ، وقضى البعض منهم سنين عديدة فى دراسة آثار هؤلاء العلماء ، مثلما فعل المستشرق سخاو مع البيرونى ٠ حتى أوضح أن ذلك العالم من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى العصور الوسطى ، وأنه لولا دراساته لتأخرت مسيرة علم الفلك قروناً عديدة ٠

ومن علماء المسلمين الجديرين باهتمام الباحثين ، أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى ، الذى تبدو عبقريته فى كتابه (المعتبر فى الحكمة) ٠ ويعتبر هذا الكتاب أفضل ما ظهر حتى عصره فى موضوع الحكمة ، اذ اشتمل على دراسات قيمة كانت وليدة أفكاره المحضة بعد أن حرر فكره من آراء السابقين ٠ لقد حاول بشكل جدى أن يقدم دراسة مبنية على الفكر والتأمل واعمال العقل فى صحيفة الوجود ، كما قال ، فعالج فى دراساته تاريخ المعرفة والعلم : بداياتها وتكونها وكيف تتم ، والعلاقة بين المعرفة والعلم ، حتى توصل الى اكتشاف المعرفة العلمية (الابستيمولوجيا) وكان ذلك أجمل ما تحدث عنه فى الجزء الأول من

(*) أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية - جامعة أم القرى ٠

(مجلة المؤرخ العربى)

كتابه المخصص لدراسة علم المنطق • أما الجزء الثانى من كتابه ، فقد خصصه للحديث عن العلوم الطبيعية بأقسامها وتفصيلاتها • ومن يطلع على هذا الجزء من كتابه هذا ويتفحص دراساته ومباحثه بروية وتأمل، يدرك أن المؤلف قدم دراسات جديدة ، وتوصل الى حقائق علمية محضة، دعمها بالبرهان والدليل العقلى • ويبدو أن أغلب ما توصل اليه من جديد كان سببه اعتماده فى ذلك على الملاحظة الدقيقة ، والتجربة أحيانا ، ثم استنباط النتائج• كل ذلك أدى به الى أن يحلل ويفسر الكثير من الظواهر الطبيعية بشكل واقعى ومنطقى • وهكذا فان ما توصل اليه علماء عصر النهضة الأوروبية فى كثير من الانجازات سبقهم اليها هبة الله بن ملكا ، وخاصة فيما يتعلق بظواهر الحركة والجاذبية وحركة المياهالجوفية ولاسيما العيون الفواره ، وغير ذلك كثير •

أما الجزء الثالث من كتابه هذا فقد أفرده للحديث عن الالهيات وما وارء الطبيعة • وعلى الرغم من اقتفائه منهج أرسطو فى دراسته هذه ، الا أنه لم يتبعه فى رأيه ولم يقر آراء من اتبعه من الحكماء والفلاسفة ، بل كانت آراؤه مبنية على تفكيره الخاص وما توصل اليه بعقله • وقد شهد له شيخ الاسلام ابن تيمية بذلك •

وفى هذه الدراسة نقدم عرضا عن شخصية ابن ملكا وحياته العلمية، مما نعتبره المدخل أو الخطوة الأولى لدراسة آرائه وأفكاره فيما يخص المعرفة والعلم ، وخاصة ان كتابه المعتبر فى الحكمة لم يجد حتى اليوم الاهتمام الذى يستحقه من قبل الباحثين فى تاريخ العلوم الاسلامية •

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين : —

القسم الأول : ونتناول الحديث فيه عن شخصية المؤلف وحياته العلمية وأهمية كتابه (المعتبر فى الحكمة) •

والقسم الثانى : وقد افردناه لآرائه ودراساته فى المعارف والعلوم•



القســـم الأول

ابن ملــكا حياته ، ثقافته ومصنفاته

حيـــــاته :

هو أوحد الزمان أبو البركات هبة اللـه بن على ملـكا البغدادى ، ولد فى بلد(١) ، ولكن نشأته واقامته كانت ببغداد .

وعلى الرغم من المكانة العالية التى حظى بها فى حياته سواء فى النواحى الثقافية والعلمية والتطبيبية أو الاجتماعية ، الا أن المصـــادر المختلفة التى كتبت عنه لا تعطينا صورة كاملة ومفصلة عن أحداث حياته. ويكفى أن نعرف أن الرجل كان من أساطين المعرفة ، ومن الفلاسفة القلائل الذين يظهرون على مسرح التـاريخ بين الأونة والأخـــرى ، وقد لقب بأوحد الزمان ، وبفيلسوف العراقين(٢) ، ولم يعرف فى الفترة الواقعة بعد ابن سيناء من بلغ رتبته فى العلوم الحكمية ، بل ان مباحثه ودراساته فيها فاقت من ظهر قبله على مر العصور ، ومن جاء بعده حتى غروب شمس الحضارة الاسلامية .

ومع علو مكانته ، وأهمية كتابه « المعتبر فى الحكمة » الا أن تقييم جهوده فى هذا الكتاب لم يتم الا فى العصور اللاحقة ، لا سيما فى العصر الحـــديث .

والواقع انه مما يستثير الدهشة حقا أن شخصية لها هذه المكانة من سمو الفكر تظل بعيــدة عن أضـــواء الباحثين ، فى حين حظى غيرها بالكثير من التقدير والاجلال فى كتب التراجم وكتابات المؤرخين . ذلك أنه على الرغم من كثرة كتب التاريخ والتراجم التى ظهرت فى زمنه أو

---

(١) بلد : ذكر ياقوت عدة مواضع بهـــذا الاسم ، على أن الأرجح منهـــا وهو ما يعنينا هنا أنها مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، وينسب لهذه البلدة العديد من العلماء المسلمين . ياقوت : معجم البلدان جـ١ ، ص ٤٨١ .

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

بعده بقليل الا أن أحداً لم يعطه حقه من العنـــاية ، اللهم ســـوى تلك المؤلفات التى ظهرت بعده والتى تعرضت لسير الأطباء والحكماء ، ومع ذلك فان هذه الاشارات الى ابن ملكا وكتابه جاءت غير كافية ولا تتوازى مع شهرته الفكرية وما تميز به عن نظرائه فى العصور الاسلامية ٠

من ذلك أن المصادر لم تمدنا بمعـــلومات كافية عن ولادته ببلد ، وكذلك سنة وفاته لم تحظ باتفاق بين ســـائر من كتب عنه ٠ ومثل ذلك يقال عن اسلامه وحياته ٠

يقول البيهقى أنه توفى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ٠ ويعلل لوفاته بأنه لم يوفق فى علاج السلطان مسعود بن محمـــد بن ملكشاه(٣) بسـبب قولنج(٤) أصابه ، فخاف ابن ملكا على نفسه فمات ضحوة ، لاسيما وأن والد مسعود السلطان محمد بن ملكشاه(٥) كان قـــد اتهمه بالتقصير فى المداواة قبل ذلك ، مما أدى الى حبســه فترة من الزمن(٦) ٠ على أن الصفدى يذكر أنه توفى سنة ٥٦٠/١١٤٦م(٧) ٠

أما سنة ولادته فلا تذكر المصادر شيئا عنها ، سوى أن البعض ذكر مدة حياته ، فجعلها البيهقى تســعين عاما(٨) ٠ اما ابن أبى اصيبعة

---

(٣) مسعود بن محمد بن ملكشاه ، عقد له الخليفة المقتفى بالسلطنة سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م ٠ كانت ولايته مليئة بالاحداث والحروب بينه وبين أهله من ابنـــاء البيت السلجوقى توفى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م ٠ صدر الدين الحسينى زبدة التواريخ ٠ ص ٢٠٧ _ ٢٢٩ ، الحسينى : العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص ١١٧ ٠

(٤) القولنج : مرض معوى مؤلم يتعسر معه خروج ما يخرج بالطبع ، والقولنج بالحقيقة اسم لما كان السبب فيه فى الامعاء الغلاظ قولون ٠ ابن سيناء : القانون حـ٢ ، ص ٤٥٢ ٠

(٥) غياث الدين أبى شجاع محمد طبر بن ملكشاه تولى السلطة بعد وفاة أخيه بركيارق سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م وتوفى سنة ٥١١هـ/١١١٧م ٠ صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، صص ١٦٧ _ ١٧١ ٠

(٦) تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ _ ١٥٣ ٠

(٧) نكت الهميان ، ص ٣٠٤ ٠

(٨) تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ٠

فجعلها ثمانين عاما(٩) ، وبهذا الاختلاف الذى ذكرته المصادر فى سنة وفاته وكم عاش من السنين لايمكن بحال وعلى وجه التأكيد اعطاء سنة محددة لولادته • على أنه من المؤكد انه ولد بعد منتصف القرن الخامس الهجـــرى •

كان ابن ملكا يهودى النحلة ثم اســـلم • وتذكر المصـادر روايات مختلفة أيضـا عن كيفيـــة اســـلامه(١٠) ، ولا تهمنا هـــذه الروايات كثيرا بقدر ما يهمنا ان الاسلام جلب عليه الســـعادة ، واعطاه مركـزاً مرموقا بين عامة الناس وخاصتهم ، فعاش عيشة هنيئة ، وقصـده طلاب الطب والحكمة من الآفاق لينهلوا من علمه ومعارفه(١١) •

على أنه جاء فى المصادر أن ابن ملكا كانت أخلاقه لا تتسم وسمعته الحكمية والطبية • ذلك أنه عرف بالكبر ، هذا علاوة على التنافر الذى كان بينه وبين معاصره الطبيب الحاذق أبى الحسن هبة الله بن صاعد ابن التلميذ (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م)(١٢)• ويذكر البعض فى ذلك أحداثاً حدثت بينهما ، حتى نقد بعضهما الآخر فى مجلس الخليفة(١٣) •

يذكر ابن خلكان ان ابن التلميذ كان يكره ذلك الكبر فى ابن ملكا ، فقال فيه(١٤) :

لـنـــا صـــديق يهـودى حماقته   اذا تـكلم تبـدو فيه من فيـــه
يتيه والـكلب اعـز منه مـنزلة   كأنه بعـد لم يـخرج من التيـه

---

(٩) عيون الانبياء ، ٣٧٦ •

(١٠) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٣ ، القفطى : اخبار العلماء ، ٢٢٥ ــ ٢٢٦ ، صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ ؛ الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٨٠ ؛ ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٥ •

(١١) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ •

(١٢) ، (١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٤ ؛ ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٩ ــ ٣٧٦ •

(١٤) وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٤ •

وكذلك هجاه البديع الاسطرلابى بقوله(١٥) :

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه ... أبو البركات فى طرفى نقيض
فهذا بالتواضع فى الثريا ... وهذا بالتكبر فى الحضيض

ويتفق ما قاله الاسطرلابى مع الواقع ، لأن أمين الدولة بن التلميذ كان مشهوراً بنبل الأخلاق والكرم والمروءة ، حتى ان تلامذة المدرسة كانوا يأتون اليه عند مرضهم فيطببهم بدون مقابل ، ويقوم بخدمتهم حتى اذا شفى احدهم وهبه دينارين وصرفه(١٦) .

أما كيف استطاع أن يتحصل بادىء الأمر على علوم الطب والحكمة فتذكر المصادر أن أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين(١٧) كان متفردا فى عصره بعلوم الطب ، وكان له مجلس علمى يتناوب فيه التلامذة عليه . على أنه لم يكن يستقبل التلامذة اليهود فى مجلسه . وكان ابن ملكا يرغب فى أن يلتقى به ويتعلم على يديه ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا . وقد دعاه ذلك الى أن طلب من بواب ابن هبة الله ان يسمح له بالجلوس فى دهليز يستطيع السماع منه لدروس ابن هبة الله ، وما يجرى فى مجلسه من مناقشات وبحث . وبعد مدة سنة طرح فى مجلس الشيخ مسألة دار حولها النقاش دون أن يتوصلوا بأمرها الى جواب شاف . وحينئذ دخل ابن ملكا بعد استئذانه ، وطلب منه ان يدلى برأيه فى المسألة ، فتكلم عليها بأحسن الكلام ، واعجب الشيخ بذكائه وفصاحته وقال : « من يكون بهذا المثابه ما نستحل أن نمنعه من العلم ، وقربه من ذلك الوقت ، وصار من أجل تلامذته »(١٨) .

---

(١٥) وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٥ ؛ القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ؛ ابن أبى اصيبعة ، عيون الانباء ، ص ٣٥٠ .

(١٦) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٥٠ .

(١٧) كان سعيد بن هبة الله من المتميزين فى عصره بصناعة الطب ، ومشهورا فى علوم الحكمة ، خدم بالطب الخليفة المقتدى والمستظهر . وكان موجودا الى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م . وله مصنفات حسان فى الطب . ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٢ .

(١٨) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ؛ الشهرزورى : نزهة الأرواح ، حـ٢ ، ص ٧٩ .

وهكذا كان تلقيه العلم على يد الشيخ سعيد بن هبة الله الذى لازمه مدة واستملاه كتابه الشهير « التلخيص النظامى »(١٩) . وعندما شعر ابن ملكا بأنه نال حظا جيدا من العلم ، بدأ يمارس أعمال الطب والمداواة واشتهر فى الآفاق ، وأصبح له مجلس علم مشهور ، قصده التلامذة من كل مكان ، لا سيما من أهل بغداد الذين استفادوا منه كثيرا ونهلوا من معارفه وعلومه(٢٠) ، وكان أشهرهم ممن كان يملى عليهم كتابه المعتبر عندما عمى فى أواخر أيامه : جمال الدين بن فضلان ، وابن الدهان المنجم ، وابن يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب الاعتبار المشهور ، والمهذب بن النقاش(٢١) ، وهؤلاء الأربعة كانوا من كبار الأطباء والحكماء الذين اشتهروا فى زمنهم .

ثقافته :

لقب ابن ملكا بأوحد الزمان(٢٢) وبفيلسوف العراقين(٢٣) ، مما يشير الى تفرده فى عصره بالثقافة وسعة المعرفة والتفنن فى العلوم . وعلى الرغم من شهرته الطبية ، الا أنه لم يعرف فى عصره والعصور اللاحقة ، ولم يشتهر الا بكتابه (المعتبر فى الحكمة) اذ كان له اهتمام بالغ بالعلوم الحكمية وفطرة فائقة فيها(٢٤) ، حتى نال مرتبة أرسطو ، وكان له طبع وقاد(٢٥) .

وقد اثنى عليه شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله(٢٦) فى بعض كتبه التى أفردها للرد على الفلاسفة والمناطقة ومن

---

(١٩) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان، حـ٦ ، ص ٧٥ .

(٢٠) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .

(٢١) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٥ .

(٢٢) نفسه ، ص ٣٧٤ .

(٢٣) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

(٢٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٢٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٢٦) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

سار على نهجهم من علماء المسلمين ، وذلك على الرغم من اختلافه معه فى بعض الأمور ، فجعله من حذاق الحكماء(٢٧) ومن أئمة الفلاسفة وأساطينهم(٢٨) ، وقال عنه : « واما أبو البركات صاحب « المعتبر » ونحوه ، فكانوا بسبب عدم تقليدهم لأولئك ، وسلوكهم طريق النظر العقلى بلا تقليد ، واستنارتهم بأنوار النبوات ، اصلح قولا ٠٠٠ »(٣٠)٠

كذلك قال عنه : « وأبو البركات لما كان معتبرا لما ذكره أئمة المشائين لايقلدهم ، ولا يتعصب لهم ، كما يفعله غيره مثل ابن سيناء وأمثاله ـ نبه على أن ما ذكره وأصحابه فى هذا الموضع مما لم تعرف صحته ولا منفعته »(٣١) ٠

وكان من أهم ما أعجب به ابن تيمية فى ابن ملكا ، اعتماده فكره وتمثيله لعقله ، وتقليب الأمور والتفكير فيها دون ان يقلد من سبقه من الفلاسفة ، فرد عليهم الكثير من المسائل ، وأثبت ذلك بالدليل العقلى ٠ يقول ابن تيمية : « وأبو البركات وأمثاله قد ردوا على أرسطو ما شاء الله ، لأنهم يقولون : انما قصدنا الحق ، ليس قصدنا التعصب لقائل معين ، ولا لقول معين »(٣٢) ٠

ويعلل شيخ الاسلام هذا التوجه السليم لابن ملكا فى رده أقوال القدماء وتابعيهم قائلا : « ولكن ابن سيناء نشأ بين المتكلمين والنفاه للصفات ، وابن رشد نشأ بين الكلابية ، وأبو البركات نشأ ببغداد بين

---

(٢٧) أشهر من أن يعرف عاش بالشام ومصر ، كثير البحث فى فنون الحكمة ، من علماء الاصلاح المشاهير . له العشرات من المصنفات أشهرها فى التفسير والأصول توفى ٧٢٨هـ/١٣٢٨م ٠ الكتبى : فوات الوفيات ، حـ١ ، صص ٧٤ ـ ٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٩ ، ص ٢٧١ ٠

(٢٨) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٢ ، ص ٥٤٧ ٠

(٢٩) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص٢٦٨ ، كتاب الرد على المنطقيين ، ص٢٣٢٠

(٣٠) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٣٤٨ ٠

(٣١) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٣ ، ص ٣٢٤ ٠

(٣٢) كتاب الرد على المنطقيين ، ص ٢٠٧ ٠

علماء السنة والحديث ، فكان كل من هؤلاء بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك »(٣٣) ٠

وفى ميدان العلوم الطبيعية(٣٤) كان لهبة الله بن ملكا آراء رائعة وصائبة ، رد فيها على أقوال القدماء كأرسطو وأمثاله من علماء اليونان ، وعلى ابن سينا وغيره من علماء الطبيعة فى الاسلام ، وناقش العديد(٣٥) من مسائل الطبيعة كالحركة والسكون وصور الأجسام الطبيعية وبسائطها ، والسماء ، والقمر والكواكب والمجرات والافلاك ومحركاتها وغاياتها ، والحر والبرد ، والجبال والبحار والأودية والانهار والعيون والآبار ، والزلازل والمعادن ، وعلاقة الكيمياء بالعلم الطبيعى ، والحيوان والنبات وخواص كل منهما وصفاته وطبائعه ٠

ومما كان يعتبره القدماء فى باب الآثار العلوية ، وهو جزء من العلم الطبيعى الذى يرتبط بالأرض ، ناقش ابن ملكا موضوعات الرياح ، كالسحاب والمطر والثلج والبرد ، والرعد والبرق والصواعق وقوس قزح٠

كل ذلك من الأمور التى كانت موضع دراسة ونقاش منذ العصور القديمة حتى العصور الاسلامية ٠ على أن الشىء المهم والجديد فى دراسة ابن ملكا أنه كما ذكرنا لم يقف عند حدود علوم القدماء مثل أرسطو ، فعلى الرغم من تقديره لهذا العالم الا أن كتابه المعتبر باجمعه كأنما وضع على شكل ردود علمية منطقية مدعمة بالبرهان على ما تركه أرسطو فى كتبه المنطقية والطبيعية وما وراء الطبيعة ، اذ لم يتبعه ابن ملكا ولم يسر على ما سار عليه بقوة من علماء الطبيعة المسلمين الذين كانوا ينظرون الى دراسات أرسطو فى هذا الباب كمسلمات لاتقبل الجدل أو التغيير ٠

---

(٣٣) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٣٥٤ ٠

(٣٤) يقول ابن ملكا العلوم الطبيعية هى : العلوم الناظرة فيما تقع عليه الحواس من الطبيعيات كالأجسام وأحوالها ، وما يصدر عنها من حركاتها وأفعالها وما يفعل ذلك فيها من قوى ، والأمور غير المحسوسة فان هذا العلم يتعرض لأظهرها فاظهرها أولا ويترقى منه الى الأخفى ، والاظهر عندنا من ذلك هو الأعرف والاقدم ٠ المعتبر ، حـ٢ ، ص ٦ ٠

(٣٥) انظر الجزء الثانى من كتابه المعتبر ٠

حقاً ان بعض آراء أرسطو لاسيما فيما يخص العلم الطبيعى المبنى على التجربة صادف نقداً وتعديلا لدى بعض العلماء المسلمين قبل ابن ملكا ، مثل شكوك جابر بن حيان الكوفى فى كتابه « البحث » . ولكن ابن ملكا درس تلك العلوم عند القدماء دراسة وافية كاملة وفاحصة ، ثم أعمل فكره فيها بترو ، وقاس كل ذلك على الحكم العقلى بعد أن تحرر فكره من مؤثرات القدماء . لذلك جاءت دراساته فى العلم الطبيعى أكثر نضوجا ، وأعمق تحليلا ، وأقرب الى الواقع . يقول فى كتابه : « فكنت اجتهد بالفكر والنظر فى تحصيل المعانى وفهمها والعلوم وتحقيقها ، فيوافق فى شىء لبعض ، ويخالف فى شىء آخر لبعض من أقوال القدماء فى أقاويلهم،وتحصل باشباع النظر فى صحيفة الوجود من ذلك»(٣٦).

ان ما ذكره ابن ملكا هنا ماهو الا دليـــل على نجاح منهجه الذى أعتمده فى دراساته ، والذى أدى الى ما قام به من أعمال علمية بعد ذلك عن طريقين :

الأول : التعلم بالقصـــد والارادة ، « وهو الذى يكون بالأخبـار والاستخبار والتأمل والاعتبار واعمـــال الأذهان والأفكار ، فيتعلم من المعلمين ويتبصر من المبصرين»(٣٧) ، وكان هذا الطريق هو الذى بدأ به ابن ملكا حياته العلمية مع شيخه سعيد بن هبة الله .

والثانى : التعلم بالطبع والاتفاق : والمعلم فى هذه الحالة هو العقل والتفكير ، وهى المرحلة الثانية لابن ملكا، بعدما أخذ حقه من علم المشايخ وحصل من المعرفة ما يمكن أن يبدأ به طريق المعرفة والتعـلم الذاتى . وهذا هو العامل الأساسى الذى استطاع ابن ملكا عن طريقه تأليف كتابه المعتبر ، فيقول ان هذا النوع من التلامذة « يعلمهم الزمان بتردد الأذهان والعقول والأفكار فى موجودات الاعيان ومتصورات الأذهان وتكرار نظرهم وتكررها فيها عليهم »(٣٨) .

---

(٣٦) المعتبر ، حـ١ ، ص ٣ .
(٣٧) نفسه ، حـ٢ ، ص ٣ .
(٣٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٢ ، ص ٢ .

أما تفننه فى العلوم الطبية علما وعملا ، فالمصادر تثنى عليه كثيراً فى هذا الباب ، فما كاد اسمه يشتهر حتى طلبه للتطبب والمعالجة خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقه ، وقصده التلامذه لتعلم الطب على يديه(٣٩) . وهكذا عمل فى خدمة الخليفة المسترشد بالله (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م)(٤٠) ، وكذلك خدم الخليفة المستنجد (ت ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)(٤١) ، وخدم من سلاطين السلاجقة السلطان محمد بن ملكشاه(٤٢) . أما السلطان محمود بن محمد(٤٣) فقد صحبه كثيراً وقام على تطبيبه وتطبيب أهل بيته(٤٤) .

وتذكر المصادر أنه كانت له معالجات لطيفة « فكان موفق المعالجة لطيف الاشارة ». ومن أجمل معالجاته التى أوردها لنا ابن أبى اصيبعة والتى استخدم فيها علمه كحكيم وعالم نفسى(٤٥) مع خبرته الطبية ، أنه عالج أحد المرضى ببغداد ، ظل زمانا يتوهم أن على رأسه دنا لا يفارقه أبدا ، وما استطاع الاطباء فهم مرضه ولا أفادوه ، حتى عرض على ابن ملكا الذى عالجه من نفس الطريق الذى كان يعانى منه المريض، اذ أمر غلاما بادارة خشبة من فوق رأسه ، وآخر رمى جرة أمام المريض الذى صاح لكسرهم اياها ، فأثر فيه الوهم وبرىء من علته.وقال ابن أبى اصيبعة عن ذلك : « وهذا باب عظيم فى المداوة»(٤٦) .

---

(٣٩) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .

(٤٠) صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ .

(٤١) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٤٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

(٤٣) محمود بن محمد بن ملكشاه ، كانت أيامه فقيرة ، وزاد الأمر فقرا وسوءا فتنته مع الخليفة المسترشد ، الا أنه كان قوى المعرفة بالعربية حافظا للاشعار ، عارفا بالسير والتواريخ توفى سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م . الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٩٥ .

(٤٤) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٤٥) كان متفننا فى هذا الباب الى حد بعيد ، جعله من أجزاء العلم الطبيعى . وألف فيه مقالة رائعة تدل على فهم ووعى وادراك بمسائل النفس ومدى تأثيرها على الانسان فى صحته ومرضه ، ولا أعتقد أن أحدا تناول هذا الموضوع بمثل هذا الفهم والدقة والجدية ، مما جاء به ابن ملكا (المعتبر ، حـ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٤٤٤) .

(٤٦) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

وهناك اشارات لطيفة ومعالجات جميلة ذكرتها المصادر ولا مكان لها هنا ، وهى تدل بشكل أو آخر على أن ابن ملكا كان من حذاق الأطباء فى زمنه ، حتى أن الاطباء أنفسهم كانوا يأتون اليه فى بيته وفى مجلسه العلمى فيسالونه عن بعض الأمراض ، وكيف يتعاملون معها ، فيجيب عنها بخطه ، وينقلون ذلك عنه فى أوراق ، حتى أجتمع من تلك الأسئلة والأجوبة كتابا ظلوا يقرؤونه ويتناقلونه فيما بينهم(٤٧) .

مؤلفـــاته :

يقول ابن أبى اصيبعة ان تصانيفه ودراساته كانت فى نهاية الجودة والاتقان(٤٨) ، وتنقسم كتبه الى قسمين(٤٩) :

الأول : يشتمل على مصنفاته فى الحكمة وعلوم الطبيعة وهى : -

- المعتبر فى الحكمة ، وهو من أهم كتبه وأجلهـــا ، بل أنه أهم ما كتب فى الحكمة فى زمانه .
- مقاله فى سبب ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا .
- رسالة فى العقل وماهيته .
- كتاب النفس(٥٠) .

الثانى : كتبه الطبية ، وليس له فى هذا الباب من المصنفات التى تصل الى درجة كتبه الحكمية . ويبدو أنه اشتهر بالطب العملى والممارسة العملية دون التاليفية . ومن كتبه الطبية :

---

(٤٧) القفطى ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ .

(٤٨) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٤٩) نفسه ، ص ٣٧٦ ؛ البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

(٥٠) ذكره البيهقى ولا نعلم هل المقصود به مقالته فى النفس الموجودة بالجزء الثانى من كتابه المعتبر ، أم أنه كتاب آخر ، والارجح أن الكتاب هو نفس المقالة اذ ربما دونها النساخ لأهميتها فى كتاب منفصل عن المعتبز ليسهل تداولها ، وليستفيد منها التلامذة .

— اختصاره للتشريح ٠

— كتاب الاقرباذين(٥١) ٠

— مقالة فى الدواء الذى الفه المسمى برشعثا ؛ استقصى فيه صفته وشرح أدويته ٠

— مقاله فى معجون ألفه وسماه أمين الأرواح ٠

على أن الذى يهمنا من كتبه هذه مما له علاقة بهذه الدراسة ، هو كتابه « المعتبر فى الحكمة » وهو من أجل الكتب التى ظهرت فى عصره فضلا عن العصور الاسلامية اللاحقة الى أيام ابن تيمية ، الذى أكمل ما بدأه ابن ملكا فى تحقيق ودراسة ماله علاقة بموضوع الالهيات ٠ ذلك أن ابن تيمية تناول هذا الموضوع بكل اقتدار ورد فيه على أقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين بمنطق العقل والنقل ٠

ولا نريد أن نتعرض لدراسات وابحاث أبى عبد الله محمد بن عمر ابن الحسين القرشى التيمى المعروف بفخر الدين الرازى(٥٢) والذى عاش فى الفترة الواقعة بين ابن ملكا وابن تيمية ٠ ذلك أنه يلاحظ أن ابن تيمية اختلف معه فى كثير من القضايا ، ورد عليه فى مسائل كثيرة مما أورده فى كتابه « المباحث المشرفية » اذ أن توجهه فى كتابه هو توجه الفلاسفة المشائيين(٥٣) على الرغم من مخالفته لهم فى كثير من قضايا

---

(٥١) الأقرباذين ٠ وهى الكتب التى تبحث فى علم الأدوية المفردة والمركبة ٠ ابن سينا : القانون ، حـ٣ ، ص ٣٠٩ ٠

(٥٢) كان من الائمة فى أصول الشافعية والعقائد الأشعرية ، متفننا سائر العلوم الشرعية والحكمية ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها عارفا بالأدب كان يسمى فى هراه بشيخ الاسلام ، ولقبه ابن أبى اصيبعة بسيد الحكماء المحدثين ، له عشرات المصنفات ، أشهرها فى الحكمة كتابه « المباحث المشرقية » ٠ ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٤٦٢ ٠

(٥٣) المشاؤون : فى اليونانية معناها ما ينجز أو الانجاز أثناء السير ، وهم اتباع فلسفة أرسطو ، وقد وجدت هذه المدرسة المشائية لما يقرب من ألف عام حتى عام ٥٢٩م ، وكانت مركزا عظيماللعلم القديم : روزنتال: الموسوعة الفلسفية ،ص٤٧٨٠

الالهيات ، وعليه فان اللقاء الفكرى فى هذه القضايا بين ابن تيمية وبين ابن ملكا أكثر اتفاقا وأشمل منه فيما بين ابن تيمية والفخر الرازى. ذلك أن ابن ملكا على الرغم من تقديره لأرسطو الا أنه لم يكن يقول بقوله ولا يأخذ برأيه ولا برأى أحد من المشائيين ، انما كان يقول بفكره ويتبع عقله فى دراسة المسائل المعلقة فى الالهيات بين الاسلام والفلسفة .

يقول القفطى عن ابن ملكا وكتابه المعتبر : « وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشأن واعتبرها واختبرها ، فلما صفت لديه وانتهى أمرها اليه صنف فيها كتابا سماه المعتبر ، أخلاه من النوع الرياضى ، وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والالهى ، فجاءت عبارته فصيحة ، ومقاصده فى ذلك الطريق صحيحة ، وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشأن فى هذا الزمان »(٥٤) .

ويقول ابن ملكا فى الدافع الذى دعاه الى تأليف كتابه هذا(٥٥) ، انه كان من عادة القدماء قبل أرسطو فى العلوم أنهم يتناقلونها بالرواية والمشافهة ، وكانوا لأجل الحفاظ على قيمة العلم لا يعطونه الا ذوى الفطنة من المتعلمين ، فكان علمهم لا يصل الا الى أهله ممن كانوا يتوسمون فيه الاستعداد والقدرة على حمله وأدائه لمن بعده .

ثم أنه فى فترات لاحقة قل عدد العلماء وقصرت الهمم وتداعت العلوم لقلة المتعلمين ، فأخذ العلماء فى تدوين الكتب الحافظة لهذه العلوم ، واستخدموا فيها الغامض من العبارات والخفى من الاشارات حتى لا يفهمها الا أهل الفطنة . واضطر مع ذلك من جاء بعدهم من العلماء والمتعلمين الى اختصار وشرح هذه الكتب لتسهل على المتعلمين ، فخلطوا أفكارهم ونزعاتهم المختلفة بتلك الكتب « حتى كثرت الكتب والتصانيف وخالط أهلها فيها كثير من غير أهلها ، واختلط فيها كلام الفضلاء المجودين بكلام الجهال المقصرين »(٥٦) .

---

(٥٤) اخبار العلماء ، ص ٢٢٤ .

(٥٥) المعتبر ، حـ١ ، ص ٢ ـ ٣ .

(٥٦) المعتبر ، حـ١ ، ص ٣ .

ويقول أنه نظر فيما تركه الفلاسفة القـــدماء واللاحقين فيما يتعلق بالعلوم الحكمية ، وصرف فى ذلك وقتا وجهـــدا عظيما بسبب استغلاق كتب القدماء ، وصعوبة فهمها ، واختصارها ، واختلال عبارتها ، بسبب نقلها بين اللغات . أما كتب اللاحقين منهم فانه كان يعـــوزها وضوح الشروحات ، والدليل والحجة ، فكان يشـــوبها الغموض والاعراض : « فيتعذر الفهم لأجل العبارة والشرح،والعلم لأجل الدليل والبيئة ، فكنت أجتهد بالفكر والنظر فى تحصيل المعانى وفهمها والعلوم وتحقيقها»(٥٧).

ويؤكد ابن ملكا أن أغلب دراساته وأبحاثه فى كتابه هذا انما هى من تحرير فكره ، التى وافق فى بعضها ما توصل اليه القدماء ، والبعض الاخر كان مخالفا لآرائهم . وقد توصل الى ذلك عن طريق التفكير والتامل فى صحيفة الوجود(٥٨) ، وكان يســـجل ملاحظاته وأفكاره فى أوراق مبعثرة « فلما كثرت تلك الأوراق وتحصل فيها من العلوم ما لا يســـهل تضييعه ، مع تكرار الالتماس ممن تتعين اجابتهم ، الى تصنيف هـــذا الكتاب فى العلوم الحكمية الوجودية الطبيعية والالهية . وسميته بالكتاب المعتبر لأننى ضمنته ما عرفته واعتبرته وحققت النظر فيه وتممته ؛ لا ما نقلته عن غير فهم أو فهمته وقبلته من غير نظر واعتبار . ولم أوافق على ما أعتمدت عليه فيه من الآراء والمذاهب كبيرا لكبره ولا خالفت صغيرا لصغره ، بل كان الحق من ذلك هو الغـــرض ، والموافقـة والمخالفة فيه بالعرض »(٥٩) .

وعلى الرغم من أنه انتهج فى تأليف كتابه هذا منهج أرسطو فى الترتيب والتنظيم ، الا أن دراسته لكل مسألة كانت تتم باستعراض آراء المعتبرين من أهل الحكمة . ثم يدلى هو بوجهة نظره فى كل مسألة يخالف فيها القـــدماء مع تدعيمها بالبيانات والحجج والبراهين . ويؤكد انه وضع جميع تلك المسائل وحكمها بالعقل « ثم تعقبتها بالاعتبار وأعتمدت من

---

(٥٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٣ .
(٥٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٢ .
(٥٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٤ .

جملتها على ما رجحت به فى المعقول لغة الميزان واقتصر وثبت بالدليل والبرهان ، ورفضت ما عداه كائنا ما كان وممن كان»(٦٠) .

ويشتمل كتابه هذا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويشتمل على العلوم المنطقية ، ويقع تحته ثمان مقالات ، كل مقالة تحتوى على عدة فصول ، ماعدا المقالات الثلاث الأخيرة ففى السادسة فصل ، والسابعة فصلان ، والثامنة فصل واحد .

وتحدث فى مقالاته هذه عن المعرفة ، والعلوم، والقياس ، والبرهان والجدل .

القسم الثانى : وقد افرده للحديث عن العلوم الطبيعية وجعله فى ستة أجزاء ، تحدث فيها عن علم الحركة ، وصور الأجسام الطبيعية وخواصها وقواها ، والتغير والاستحالة والكون والفساد ، والاثار العلوية ، والنبات والحيوان ، وعلم النفس .

القسم الثالث : وكان حديثه فيه عن الالهيات ، وما وراء الطبيعة ، وجعل هذا القسم فى مقالتين .

وبوجه عام فان لدراسات ابن ملكا فى كتابه هذا من الأهمية والقوة والنضوج ما يمكن القول معه بأنه أفضل الكتب التى عرفت فى تاريخ الاسلام فى بابه . ولقد شهد له بذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ، وأكثر من النقولات عنه . واستشهد بآرائه فى الرد على أفكار القدماء والمحدثين من الفلاسفة فيما يتعلق بالالهيات . وأشار فى كتبه الى ردود ابن ملكا عليهم ووافقه فى ذلك،على الرغم من أن هناك مسائل خالفه فيها، وناقش مواضع الخلاف فى ذلك .

والمجال لا يسمح بايراد ذلك كله ولكن نذكر على سبيل المثال ، علاوة على ما سبق ذكره :

---

(٦٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤ .

* مناقشته لمسألة قـــدم العـــالم ومخالفته لابن ملـكا فى جميع تلك المسائل(٦١) ٠

* ثناءه على ابن ملكا لقوله باثبات الصفات ، اذ يقول « واما أساطين الفلاسفة فهم مثبتون للصفات ، كما قد نقلنا أقوالهم فى غير هذا الموضع ، وكذلك كثـير من أئمتهم المتأخـــرين كأبى الـــبركات وأمثاله»(٦٢) ٠

* وفى موضع آخر يثنى عليه فى رده على قدماء الفلاسفة وتابعيهم ممن هم على طريق المشائين ولم يقلدهم فيما ذهبوا اليه فقال : « وأما أبو البركات ونحوه ٠٠٠ فاثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وأفعاله وبين ما بينه من خطأ سلفه ، ورأى فساد قولهم فى أسباب الحوادث ، فعدل عن ذلك الى أن اثبت للرب ما يقوم به الارادات الموجبة للحوادث(٦٣) ٠

* ذكر اختلاف الفلاسفة فى مسألة نفى المعانى عن الرب سبحانه ، وعدم مسايرة ابن ملكا لآرائهم فى ذلك ، ولذلك سماه بالحاذق اذ يقول : « ولهذا كان الحاذق من هؤلاء كأبى الحسن البصرى ،وأبى البركات صاحب المعتبر وغيرهما ، قد خالفوهم فى ذلك ، وبينوا أنه ليس لهم دليل عقلى بنفى ذلك ، وأن الأدلة العقلية والشرعية توجب ثبوت ذلك»(٦٤) ٠

* مخالفة ابن ملكا لأرسطو واتباعه فى مسألة اثبات قيـــام الافعال الاختيارية للــه تعالى ، فقال ان ابن ملكا يثبت ذلك(٦٥) ٠

---

(٦١) ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ١٧٨ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ٢١٩ـ ٢٢٨ ، درء تعارض العقل والنقل ، حـ٢ صص ١٦٤ ـ ١٧٣ ٠

(٦٢) ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٢٦٨ ، الرد على المنطقيين ، ص ٢٣٢ ـ ٣١٤ ـ ٢٧٠ ٠

(٦٣)ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٣٤٨ ٠

(٦٤) نفسه ، حـ٢ ، ص ٥٤٧ ٠

(٦٥) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ، حـ ٢ ، ص ٢٠ ٠

* اما فى مسالة علم الله تعالى وما ذكره الفلاسفة فى ذلك مثل أرسطو وابن رشد وابن سيناء ، فقد اعتمد ابن تيمية دراسة ابن ملكا لآرائهم وردوده عليهم فى هذه المسألة وتفريعاتها المختلفة ، وأيده فى أغلب ما ذهب اليه(٦٦) .



القسم الثانى

نظرة ابن ملكا الى المعارف والعلوم

أفرد ابن ملكا الجزء الأول من كتابه (المعتبر فى الحكمة) للحديث عن العلوم المنطقية ، وجعله فى خمس مقالات بين فيها وجهة نظره ومنهجه فى البحث العلمى . وأعتمد فى ذلك على قناعته الشخصية فى فلسفة المعارف والعلوم ، والعلم والتعليم ، مستشهدا بآراء بعض الفلاسفة القدماء ، وبخاصة أرسطوطاليس الذى يميل كثيرا الى آرائه فيما يخص هذا الجزء(٦٧) .

واتسمت مباحثه فى كتابه عامة - وفى هذا الجزء بشكل واضح - بالنضج واتساع المعرفة ، والقدرة على التحليل والربط الواضح الموثق بين جميع مقالاته ودراساته ، اذ كتب فى المعرفة الانسانية ، والعلوم من باب

---

(٦٦) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٩ ، صص ٣٩٧ - ٤٣٤ ، حـ١٠ ، صص ٣ - ١١ ، صص ١٠١ - ١٠٤ .

(٦٧) أرسطوطاليس : ابن بيقوماخس ، من أولاد اسقليبيادوس أبو الطب عند اليونانيين ، من أعمدة الحكمة السبعة ، كان متفننا فى العلوم الطبية ، وعلوم الحكمة فى الاخلاق والسياسة والطبيعة . تتلمذ على افلاطون عشرين سنة ، حتى أخلفه مكانه فى دار التعليم ، وبعد وفاته خرج أرسطو الى لوقيون واتخذ بها دارا لتعليم الحكمة المنسوبة الى المشائين ، وقد صنف ما يزيد على مئة كتاب . ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٧ ، المبشر بن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ١٧٨ ، القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢١ ، ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٨٦ .

واسع كان فيه أكثر دقة ووضوحا وادراكا لما يكتبه من آخرين تناولوا نفس هذه المواضيع بالدراسة .

وفى هذه الدراسة الموجـــزة لم نأت على مباحث ابن ملكا جميعها لندرسها دراسة كاملة مستوفاة من كافة جوانبها، وبكل دقائقها وتفاصيلها، وانما اقتصرنا على ما له علاقة بآرائه فى تطور المعرفة الانسانية ، وتاريخ العلوم ، والكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعارف والعلوم . وبعبارة أخرى فان حديثنا يقتصر على علاج القضايا التالية :

أولا : مذهبه فى المعرفة .
ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها .
ثالثا : نظرته الى العلوم وتصنيفها .

أولا : مذهبه فى المعــرفة :

فى تعرضه لهذه الناحية عامة نجد ابن ملكا لا يتوقف عنـــد آراء القدماء ، بل يذكر فحوى دراساتهم وآرائهم ، ثم يعقب على كل قضـية ناقشوها برأيه الخاص فيما يوافقهم فيه ، أو ما يخالفهم ، مدعما رأيه بالأدلة والحجج والبراهين فيما يرمى اليــه لايضاح وجهات نظره التى يطرحها فى كل مسألة(٦٨) .

ذلك أنه يبدأ حديثه عن المعارف والعلوم وكيف تكونت بشكل عام ، وماهى علاقتها بالمنطق ، ويوضح فى ذلك آراء قدامى المفكرين الذين نقلوا فكرهم الى تلامذتهم وفق تتابع الأجيال، سماعا ومشافهة لا تدوينا، ثم يعرض موقف أولئك التـــلامذة من الاراء والافكار التى استقوها من أساتذتهم . ذلك أن عدم الفهم واللبس وســوء الظن كانت فى رأيه هى السمة العامة لكافة المتعلمين بسبب عدم اتفاق القدامى واختلاف آرائهم وتباين مشاربهم ومذاهبهم فى النظـــر الى المنطق وعلاقته بالمعـــارف والعلوم(٦٩) .

(٦٨) ابن ملكا : المعتبر ، ص ٧ .
(٦٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٥ .

وكان أن أخذ أصحاب الهمم من الباحثين اللاحقين يتشككون فى آراء السابقين ، فقالوا مادام الاختلاف قد سرى بين كبار أساتذتهم فان القضية لن تقف عند حد معين يمكن الوصول معه الى حقيقة ثابتة غير قابلة للتغيير مع مرور الزمن . لذلك بدأوا بأنفســـهم فى دراسة هـــذه القضية والبحث فيها « فدعا هذا الفكر وأمثاله من أهل النظر من العلماء والمتعلمين الى طلب ما لأجله يصل الى علم الحق ومعرفته ، من الطالبين من يصل ، ويضل عنه من يضـــل ، ويقصر من يقصر ، ويصيب فيه من يصيب ، ويخطىء فيه من يخطىء ، فقالوا فى ذلك أقوالا متفرقة(٧٠).

فعندما ظهر أرسطو كانت الأقوال فى المعارف والعلوم قد هذبتها الأنظار ، وأتمتها الافكار فألف فى ذلك كله كتابا أسماه علم المنطق(٧١) تناول فيه فنون الأنحاء التعليمية الفكرية النظـــرية وبين فيه الأسباب الكامنة وراء أختلاف المفكرين فى مذاهبهم وعلومهم حتى وصل منهم الى الصواب من وصل وأخطأ من أخطأ(٧٢) .

---

(٧٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥ ، ويلاحظ أنه منذ بداية القرن التاسع عشر ظهرت مئات من الدراسات التى تناولت موضوع تطور العلم والمعرفة فى التاريخ. وعقدت حول ذلك المؤتمرات وتضافرت جهود مؤرخى العلم وعلماء الطبيعة لصياغة اتجاه جديد لمنطق التطور العلمى ، تناولت حركة العلم ، وتحليل تطور بنيته ، ومناهج تحصيل المعارف ، وتعددت بذلك وتعقدت الدراسات بتعقد وتطور المعرفة ، وظهر اتجاه جديد لدراسة مظاهر اطراد التقدم العلمى : وعرف هذا الاتجاه باسم (علم العلم) Scienology or Science of Science

حتى ان دراسة توماس كون Thomas Khun والتى تعد أهم الدراسات الحديثة فى هذا الميدان تعرضت للنقد من قبل المفكرين لأنه اعتبر دراسات القدماء فى هذا الباب على قدم المساواة مع دراسات علماء العصور الوسطى وبداية الحديثة . وهذا يعنى ان هناك احتمالا لعودة نظرية قديمة لتحل محل أخرى جديدة . كون : ابنية الثورات العلمية ، ص ٩ ـ ١٠ ، ص ١٦ ، كما وانظر ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٧١) وهى مجموعة مقالات فى المنطق ، ذكرها ابن النديم بقوله « ترتيب كتبه فى المنطقيات وهى تسعة كتب ، نقلت جميعها الى اللغة العربية وكان لحنين فى ذلك النصيب الأوفر ، كما شرحت ، واختصرت من قبل الكثير من المفـــكرين فى الدولة الاسلامية » . الفهرست ، صص ٣٠٨ ـ ٣١٠ ، كذلك انظر ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ١٠٤ .

(٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥ .

ثم تعرض ابن ملكا بعد ذلك لموقف العلمـــاء الذين خدموا مختلف علوم الحكمة ، وذكر اختلافهم فى علاقة علم انطق بمسالة تحقيق المعارف والعلوم ، وجعلهم على قسمين :

القسم الأول يقول : أن موضوع المنطق هو : « ما به يتوصل الى معرفة المجهولات والعلم بها ، وهو المعانى السابقة الى أذهان الناس قبل نظرهم فيما يرومون تحصيله من المعـارف والعـــلوم الاكتسابية ، فانه يستعملها فى ذلك بتصرفه فيها تصرفا يكسبها صورا تاليفية »(٧٣) .

أما مطالب هذا العلم من وجهة نظرهم فهى « أنه كيف يتوصـل الانسان بالمعرفة والعلم السابقين الى تحصيل المعـــرفة والعلم المكتسبين بالطلب وعلى أى وجه»(٧٤) .

وأما غاية هذا العلم فى نظر هؤلاء المفكرين فهى « افادة ما يتوصل به الانسان الى اكتساب المعارف والعلوم المجهولة ، ومعرفة الحق فيها من الباطل والصدق مما يقال فيها من الكذب»(٧٩) .

هذا عن القسم الأول . وفى القسم الثانى قالوا : ان موضوع المنطق هو الألفاظ من حيث دلالتها على المعانى ، وهذا الرأى خطاه ابن ملكا وقال : ان ذلك هو مما له علاقة بعلم اللغات(٧٦) .

وغرض المنطق ومنفعته على هـــذا الرأى يدل على أن اسـتخدام الألفاظ هنا بالعرض فقط أى للمفاوضة فى العلوم ، فالتصرف هنا يكون بالذهن فى تعرف المجهولات من المعارف والعـــلوم ، بناء على المعارف والمجهولات السابقة ، من غير حاجة الى الألفاظ(٧٧) .

---

(٧٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .

ويحاول ابن ملكا الجمع بين آراء القسمين الأول والثانى ويبدى وجهة نظره فيقول أنه قد تحصل مما قيل أن(٧٨) :

منفعة علم المنطق هى : هداية الأذهان الى حقائق المعارف والعلوم وردها عن الزلل والزيغ فيها .

وغرضه هو : معرفة ما به تكون الهداية والرد كيف يكونان .

وموضوعه هو : ما به يتوصل الىالهداية والرد المذكورين من المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان من حيث يتوصل بها الى ذلك .

اما مطلوباته فهى : القوانين التى تستفاد من المعارف والعـــلوم المكتسبة من جهة المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان .

وقبل ان نتعرف على وجهة نظره فى دراسته للمنطق ، ينبغى أن نوضح أسبقية ابن ملكا على غاليليو(٨٩) وديكارت فى الكشف عن عمل هذا العلم وغرضه ودلالته فى دراسة العلوم، اذ يقول : « وأما العلوم فقد عرفت أنها تنقسم الى ثلاثة أصناف ، علم الموجودات ، وعلم المعلومات، وعلم العلم . فعلم الموجودات قيل فيه فى الطبيعيات ، وعلم المعلومات قيل فيه فى علم النفس ، وعلم العـــلم قيل فيه فى الفن المنطقى»(٨٠) ومن هذا يبدو أنه أطلق على المنطق علم العلم .

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين أن القرن السابع عشر الميلادى هو البداية الفعلية التى عرف فيها المنطق بعلم العلوم على يد غاليليو الذى اعتمد فى دراسته للميكانيكا على الرياضيات ، لتصبح الموافقة تامة بين العلم الرياضى وظواهر الطبيعة(٨١) « وهكذا قام منطق العلوم على

---

(٧٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٧ .

(٧٩) غاليليو : عالم طبيعى فلكى وفيلسوف ، له آراء فى الميكانيكا وعلم الحركة، وكان يؤمن بالملاحظة والتجربة فى العلوم . روزنتال : الموسوعة الفلسفية ، ص ٣١٧.

(٨٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٣ ، ص ٢١٤ .

(٨١) وهذا هو ما فعله ابن ملكا فى دراسته لعلم الحركة ، اذ اتبع المنهـــج الرياضى فى ذلك انظر الجزء الثانى من كتابه المعتبر .

المنطق الأرسطى»(٨٢) ٠

ويؤكد هذا الباحث بعــد ذلك أن ديكارت (ت١٦٥٠م)(٨٣) هو المؤسس الحقيقى لمدرسة رفض منطق أرسطو كمعيار للعلم ، وكذلك من جاء بعده من الفلاسفة(٨٤) ٠

لقد كان ابن ملكا من فلاسفة وحكماء العصور الوسطى ، وكان يرى أن المنطق هو العلم الذى يدرس العلوم ، وهذا هو ما جاء به بنعبد العالى فى حق منطق غاليليو وديكارت اذ يقول : « موضوع هذا المنطق الجديد هو العلم ، انه علم العلوم،أى العلم الذى يتخذ موضوعا له العلوم،ليسجل الطــرق التى يتبعها العلماء فى ميــادينهم المختلفــة فينتقد تلك الطرق»(٨٥) ٠

وكما ذكرنا سابقا فان ابن ملكا فى كتابه هــذا لا يقف عند حدود أقوال القدماء ومن جاء بعدهم حتى حكماء الدولة الاسلامية ، بل كانت له رؤية وفلسفة خاصة فى كثير مما قالوه ، بحكم التطور الذى حظيت به العلوم فى تاريخ الدولة الاسلامية ٠ وهو يؤكد أن نفوس العلماء تختلف فى الطبائع والغرائز والتوجهات الفــكرية ، وأن ما يدلى به من رأى حول موضوع المعارف والعلوم وعلاقتها بالمنطق انما يعبر عن وجهة نظره التى يؤمن بها فى ظل التوجه الفكرى والتطور المعرفى الذى وصل الى ما وصل اليه فى زمنه ؛ فيقول :

ان العلوم منها أولية ومنها تعليمية(٨٦) :

---

(٨٢) بنعبد العالى : الابستيمولوجيا ، ص ٢٩ ٠

(٨٣) ديكارت : فيلسوف فرنسى ، من رواد الفلســفة فى العصر الحــديث ، وكان أيضا رياضيا متمكنا واستهدف ديكارت فى تفكيره ثلاثة أمور هى : ايجاد علم يقينى ، تطبيق هذا العلم بشكل عملى ، ايجاد وسيله لحل المشكلة القائمة بين الدين المسيحى والعلم ، له مؤلفات كثيرة ٠ نفسه ، حـ١ ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩٩ ٠

(٨٤) بنعبد العالى : الأبيستيمولوجيا ، ص ٢٩ ٠

(٨٥) نفسه ، ص ٣٠ ٠

(٨٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ ٠

فالأولية هى : الحكمة الغريزية الموجودة بالفطرة فى بعض النفوس.

والتعليمية هى : القوانين الصادرة عن تلك الفطرة ، يتعلمها فاقد الحكمة الغريزية من واجدها .

وجعل واجدى الحكمة على قسمين :

فهناك واجد على فطرته وغريزته .

وواجد فسدت فطرته بما طرأ عليها من آراء وتعاليم أخرى .

وكذلك فاقدو الحكمة جعلهم قسمين قابل للحكمة وغير قابل. فالقابل لها هو من ليست لديه حكمة غـــريزية بالفطرة ، وهـــذا النوع بامكانه الاهتداء اليها بالتعلم .

وأما غير القابل للحـكمة فهو من انعـــدمت لديه الحكمة الغريزية بالفطرة وبالتعلم بالطبع .

اما وجهة نظره فى رأى من قال ان موضوع المنطق هو الألفاظ من حيث دلالتها على المعانى ، وبالتالى فى المعارف والعلوم ، فيقول : ان العلم والتعليم يحتاجان الى الألفاظ ضرورة ، ولكن بالعـــرض من جهة مفاوضة العلم للمتعلم عموما ، وذلك معروف فيما تلقنه الناس وتعلموه من اللغات ، على انه لكل علم ألفاظ اختصت وعرفت به دون غيره من العلوم الأخرى(٨٧) .

وتحدث ابن ملكا بعد ذلك فى معرض حديثه عن الألفاظ ، مما له علاقة بعلم المنطق الى نســـبة تلك الألفاظ الى معانيها ، ومفهوماتها ، واختلاف أوضاعها ودلالتها ، وبين أيضا دلالتها فيما يخص موجودات الأعيان - ما يشاهده الانسان - ومتصورات الأذهان فى تحقيق المعارف والعلوم(٨٨) .

---

(٨٧) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ - ٨ .

(٨٨) نفسه ، حـ١ ، صص ٨ - ١٦ .

وتتبع بعد ذلك ما قاله الحكماء فى الأوصـــاف الذاتية والعرضية وكيفياتها المتنوعة ، ودلالتها فى تحديد المعارف . وهنا ناقش وجهة نظر أحد الحكماء وما ارتآه فى ذلك حيث أتى فى دراسته هذه بالفكرة تلو الأخرى ، ورد عليها بوجهة نظره المدعمة بالبراهين(٨٩) .

ويقول أن معرفة الأشياء انما تتحقق بمعرفة صفاتها الذاتية المميزة والمعرفة لها بالتحديد ، دون ان يكون للأوصاف العرضية أهمية كبرى فى تحديد ذلك الشىء المعرف(٩٠) . ويؤكد فى ذلك أن « كل سائل عن شىء فهو يعرفه من جهة بها اهتدى الى طلبه والسؤال عنه ، ويجهله من جهات لأجلها افتقر الى الطلب والسؤال ، فكل سائل انما يوفى جوابه من المجيب اذا أجابه عما جهل لا عما علم ، وتترتب فى ذلك المعارف فى تمامها ونقصانها وعمومها وخصوصها»(٩١) .

ثم تحدث المؤلف عن التصـور والفهم والمعرفة والعلم والفرق بينها فقال :

ان الصورة فى الأذهان مما يشاهده الانسان يسمى تصورا ، وأن دلالة الألفاظ يسمى فهما ، وأن الموافقة بعد التمثـــل والادراك يســمى معـــرفة(٩٢) .

ويفرق بين العلم والمعرفة ، فيقول أن ما : « صـــدق فى الأذهان يسمى علما ، ولأن المعرفة بالمفردات والعلم بالمؤلفات وكـــل مؤلف فيه أفراد هو مؤلف منها،ففى كل علم معرفة هى تصور مفرداته ، ولأنه ليس فى كل مفردات تأليف بل قد تلحظ المفـــردات من غير تأليف ، فلذلك لا ينعكس الأمر ولا يكون مع كل معرفة علم . فالمعرفة قبل العلم وأعم منه وقوعا ، اذ يكون مع كل علم معرفة وليس مع كل معرفة علم»(٩٣) .

---

(٨٩) نفسه ، جا ، صص ٢٢ ـ ٢٩ .

(٩٠) نفسه ، حا ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٩١) ابن ملكا : المعتبر ، حا ، ص ٣٣ .

(٩٢) نفسه ، حا ، ص ٣٥ .

(٩٣) نفسه ، حا ، ص ٣٦ .

ويقول فى ذلك أيضا أن المعرفة محصول الأمور الجزئية ومعانيها، والعلم محصول المعانى الكلية ، ويؤكد على أهمية وجهة نظره هذه فى الفرق بين المعرفة والعلم قائلا : «فلنستعمل ذلكونفهمه بحسب ما قررناه، وان كان لغيرنا أن يستعمله ويفهمه على ما يريده»(٩٤) .

ثم انتقل بعد ذلك الى تحديد أنواع المعرفة فى كمالها فيقول : ان الانسان قد يتحصل على معـــرفة ناقصـــة ، أو تامة ، أو خاصـة ، أو عـــامة(٩٥) .

فالمعرفة الناقصةهى : معرفة الشىء ببعض أوصافه أو معانيه الذاتية.

والمعرفة التامة هى : معرفة الشىء بسائر أوصافه ومعانيه الذاتية .

والمعرفة الخاصة هى : كالمعرفة التامة من جهة أن المعروف بهـــا يعرف بما يتميز به عن غيره .

وأما المعرفة العامة فهى انقص المعـارف لأن المعـــرفة تتم بأعم المعـانى .

وتحدث ابن ملكا ـ وفى فصول متعددة ـ عن الطرق والكيفيات المتعددة والمختلفة التى يمكن عن طريقها الحصول على المعارف والعلوم، فقال بادىء ذى بدء ان كل ما يستفيده الانسان من المعارف والعلوم بوجه عام اما أن يكون تحصيله من غير طلب وبغير قصـــــد ، واما أن يكون تحصيله بقصد ونيل بعد طلب فيستنبطه ويدركه.ولكن مع ذلك فان « كل مجهول يروم الانسان معرفته ويطلب العلم به ، فلابد أن يكون طلبه له بعد معرفة تقدمت الطلب ، ... فكل ما يطلبه الانسان فهو يعرفه من جهة بها يهتدى الى طلبـــه ، ويجهله من جهـــة لأجلهـــا يحتاج الى طلبه»(٩٦) .

ونجده يعارض قدماء الحكماء فى تسميتهم للمستفاد من المعـارف

---

(٩٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٦ .

(٩٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٧ .

(٩٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٠ .

والعلوم بروية وطلب تعليما وتعلما ، وأن ما ينتج عن ذلك يسمى علما. ذلك أنهم ربطوا ذلك بما سموه بالأسباب المؤدية الى السانح والمطلوب من المعارف والعلوم ، فيختلف ابن ملكا معهم ويقول : « لـكن ليس الأسباب كلها علوما ومعارف»(٩٧) .

وتناول هنا بالتفصيل أسباب طلب العلوم والمعارف ، فيؤكد « أن المستفاد من المعارف والعلوم بقصد وطلب يكون طلبه من جملة أسـباب حصوله واستفادته لا محاله ، لأنه يحصل ويستفاد اذا طلب »(٩٨) ، وبناء على كلامه هذا فهو يجزم أن المعارف والعلوم المتحصله والسابقة للمعارف والعلوم المجهـولة هى أسـباب لطلبها ؛ والطلب من أسباب أصابتها . أما كيف يكون المجهول المطلوب معروفا ومعلوما ، فيعلل ذلك ويجعله تبعا لوجوه المعرفة ، اذ أن منها « كلية وجزئية ذاتية ، وعرضية عامية ناقصة وتامة خاصة جنسية ونوعية»(٩٩) ، فالمطلوب يعرف من وجوه منها ويؤدى طلبها الى معرفة المجهول منها .

وأما عن الطـرق والقوانين التى يمكن بواسطتها الحصـول على المجهولات بالطلب فيقول : أنها كثيرة ومتعددة وذلك بحسب كثرة جهات المطلوب فى المعرفة والجهل ، ومن ضمن هذه الطرق(١٠٠) :

١ - ما يكون باحضار المطلوب لمعـرفته بالحس ، أو الصـوت ، أو الرائحة ، أو الطعم .

٢ - ومنها مايكون بتمثيله ، كمن يسأل عن لون فيقال هو مثل هذا .

٣ - ومنها مايكون بتنبيه النفس وتذكيرها كمن يسأل عن الغضب فيقال له هو ما تشعر به من حالك وقت كذا .

٤ - ومنها مايمكن معرفته بالاستدلال والتفكير .

---

(٩٧) نفسه ، حـ ١ ، ص ٤٠

(٩٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٤١ .

(٩٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٤١ .

(١٠٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٧ .

٥ - ومنها ما يمكن معرفته عن طريق الخبر . وهذا النوع من المعارف والذى يتم عن طريق الألفاظ المقولة لا يؤدى الى معرفة المجهولات الا بالعرض .

٦ - ومن المعارف مايمكن الحصول عليه بتصفية الذهن ، وصرفه عن جميع ماذكر من وجود المعرفة ، حتى يتوصل الى معرفة المطلوب بطريق العقل والتفكير .

والمعرفة فى كيفية الحصول عليها تنقسم عند ابن ملكا الى اكتسابية وأوليـة .

فالمعرفة الاكتسابية هى ما اجتمع فيها الحد الحقيقى(١٠١)، والحد الرسمى(١٠٢). فالحد الحقيقى يفيد معرفة حقيقة ذاتية ، والرسم يفيد معرفة عرضية ، ومحصول الاثنين يسمى بالمعرفة الاكتسابية(١٠٣).

أما المعرفة الأولية فهى ماعدا ذلك من المعارف كمحصول المشاهدات الحسية والادراكات الذهنية والاطلاعات العقلية(١٠٤) .

ويقول أيضا ان من المعارف والعلوم مالا يكتسب ولا يكتسب به غيره ،كمعرفة البسائط التى هى مفردات الحقائق ، وكذلك ان من العلوم مايمكن الوصول الى حقائقها بالفعل وبدون حجة ، فبذلك لايكون هذا العلم المتحصل أوليا ولا اكتسابيا(١٠٥) .

ولذلك فان المعارف والعلوم عند ابن ملكا تستفاد كلها وتستحصل

---

(١٠١) الحد الحقيقى : وهو عبار عما يميز الشىء عن غيره بذاتياته . فاذا ذكر مع ذلك جميع ذاتياته العامة والخاصة فهو تام ، والا فيعتبر ناقصا . الآمدى : المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٧٤ .

(١٠٢) الحد الرسمى : وهو عبارة عما يميز الشىء عن غيره تمييزا غير ذاتى، وتمامه ونقصانه بما به تمام الحد ونقصانه . نفسه ، ص ٧٤ .

(١٠٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٤ .

(١٠٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ ١ ، ص ٤٤ .

(١٠٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٥ .

بعد عدم معرفتها ، ولا يدخل ذلك لديه تحت عنوان المعارف والعلوم المكتسبة ، فما يكتسب من المعارف والعلوم انما هو استفادة معرفة بمعرفة، وعلم بعلم متقدم عليه تقدم السبب على المسبب ، وفى هذه الحالة لابد من علم أولى(١٠٦) ، ولا يجب مع ذلك كله ان تهمل دلالات الألفاظ ومواقعها فى معرفة وجوه اكتساب المعارف ٠

ولا أرى أن هناك بونا شاسعا فيما دكره ابن ملكا هنا فى تفريقه بين المعارف الأولية والمعارف العلمية ، اذ نلاحظ أنه بنى المعرفة العلمية على معرفة مكتسبة مبنية على معارف أولية ، وهذا هو نفس ما نادى به باشلار(١٠٧) فيما سماه بالأبستيمولوجيا « نظرية المعرفة العلمية » التى تختلف عن نظرية المعرفة العلمية » التى تختلف عن نظرية المعرفة التقليدية بأنها تبحث فى المعرفة العلمية ، وأنها تدرس كل علم من العلوم على حدة(١٠٨) ٠ وهذا ما قاله ابن ملكا : فالمعرفة اليقيبية عنده هى تلك المعرفة التى توصل اليها بمعرفة مكتسبة مبنية على معرفة أولية٠ أما فيما يخص تفصيل دراسة المعرفة للعلوم كلا على حدة ، فنجد ابن ملكا يقول فى حديثه عن الألفاظ المستخدمة فى المعارف والعلوم : « ولكل تعليم وتعلم ضرورة الى ألفاظ ، وهى موجودة فيما تلقنه الناس ونشئوا على تعلمه من اللغات وعلى طريق الخصوص فى علم علم من جهة ألفاظ يختص وضعها وعرفها بذلك العلم»(١٠٩) ٠

ثم تحدث بعد ذلك عن الأوقايل المعرفة ودورها فى تحديد المعارف المكتسبة من حيث أنها تجرى على الألفاظ ، تتداول فى المفاوضات والمحاورات ، فى التعلم والتعليم ٠ وجعل هناك ثلاثة أنواع من

---

(١٠٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٦ ٠

(١٠٧) باشلار : فرنسى اشتهر بدراساته فى فلسفة العلم ولد سنة ١٨٨٤م ، عين أستاذا لتاريخ العلوم وفلسفتها فى السوربون وله فى ذلك العديد من المؤلفات ٠ بدوى: موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، ص ٢٩٢ ٠

(١٠٨) بنعبد العالى : درس الأبيستيمولوجيا ، ص ٨ ـ ٢٩ ٠

(١٠٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ ـ ٨ ٠

الألفاظ(١١٠) :

الأول منها : مايقال لتعرف بها المعانى التى هى أسماء موضوعة لها ، وهى لا تفيد فى معرفة المجهول . وهذا التعريف عام لسائر الألفاظ من حيث هى ألفاظ .

والثانى : ألفاظ تقال لتعرف بها ألفاظ أخرى موضوعه للمعانى التى هى أيضا أسماء موضوعة لها . وهذا التعريف يعرض للألفاظ المختصة بتعليم الاصطلاحات اللغوية ، وتفسير بعضها لبعض .

والثالث من الألفاظ : مايقال لتعرف بالمعانى التى هى أسماء موضوعة لها معانى أخرى غير التى هى موضوعة لها . وهذا النوع هو التعريف الاكتسابى المخصوص تعلمه بهذا العلم ، وهذا منه :

التعريف بالحد : وهو قول معرف بجملته لشىء واحد هو المحدود لدلالته بمفردات ألفاظه على آحاد معانيه الذاتية التى هى أجزاء مقومة لحقيقته(١١١) .

التعريف بالرسم : وهو قول بجملته لشىء واحد هو المرسوم ، لدلالته بمفردات ألفاظه على أوصاف يتميز بها عن جميع ما عداه تميزا عرضيا(١١٢) .

تعريف التمثيل : وذلك يكون بتعريف الشىء بنظائره واشباهه(١١٣) .

يقول ابن ملكا ان الأقاويل المعرفة بالحدود والرسومات وتمثيلات لها اعاقات تحول دون فهم المعارف ، وبالتالى لا يتم الوصول اليها ، الا اذا كانت تلك الأقاويل صحيحة وتامة ، أما ما يتمثل فيه الاعاقة فهو

---

(١١٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(١١١) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٧ .

(١١٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٨ .

(١١٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٨ .

الفاسد والناقص من الأقاويل المعرفة(١١٤) ، وفسر ذلك كله ثم أجمل مراده بقوله : « وبالجملة فان المعرفة تكون ذاتية أو عرضية ، واكتساب الذاتية يكون بالأقاويل المؤلفة من أسماء المعانى الذاتية ، أعنى الحدود. واكتساب العرضية يكون بالأقاويل المؤلفة من أسماء المعانى العرضية ، أعنى الرسوم والتمثيلات • ومحصول التمثيلات يرجع الى محصول الرسوم ، لأن المماثلة والمشابهة والمخالفة أوصاف عرضية ، ومنها تلتئم الأقاويل التمثيلية ، فأفضل الحدود ما اشتمل على سائر الأوصاف الذاتية بترتيب يتقدم فيه عامها على خاصها ،وأعرفها على ما ليس بأعرف ، ودل بالفاظ معروفة مألوفة عند العرف وأختصر الألفاظ مع استيفاء المعانى»(١١٥) •

وفى حديثه عن الأقاويل المعرفة يقول : أن هناك وسائل يمكن استخدامها ؛ وهى تعين على اكتساب الأقاويل المعرفة ، ويتم دلك بتصرفات عقلية محكومة بقوانين تعليمية ، وهى جمع وتفريق وجودى وذهنى لما يتصرف العقل فيه ويتوصل اليه به(١١٦) •

وعرف الجمع بأنه اكتساب المفردات المتكثرة ، الذوات وحدة عرضية وجعله قسمين(١١٧) •

تاليفى وهو الذى تتميز آحاده فى اجتماعها ،

والتركيبى وهو الذى تختلط آحاده وتتحد أجزاؤه ولا يدرك كل منها لوحده •

وقسم التاليفى الى قسمين وجودى – موجود فى العيان – ، وذهنى• وكذلك التركيبى جعله قسمين وجودى ، وذهنى ، والوجودى جعله أيضا قسمين طبيعى وصناعى ، وأعطى الأمثلة لكل نوع من أنواع تقسيمات الجمع(١١٨) •

---

(١١٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٠ – ٥١ •

(١١٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٤ •

(١١٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٥ •

(١١٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٥ •

(١١٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥٥ •

أما التفريق فعرفه بأنه تكثر الوحدات العرضية ، وتمييز الآحاد لاجتماعية الاختلاطية التركيبية والتاليفية ، فان وحدة الواحد قد تكون ذاتية وقد تكون عرضية(١١٩) ·

وقسمه الى قسمين تفريق آحاد التاليف ويسمى قسمة وتفريفا ، والثانى هو تمييز احاد التركيب ويسمى تحليلا · والقسمة جعلها قسمة كلى الى جزئياته ، وجعله على ثمانية أنواع ، وقسمة الكل الى أجزاء متشابهة(١٢٠) ·

وأما التحليل فيقول أنه مقابل ومعاكس للتركيب ، فهو فى مقابلة التركيب الذهنى يكون فى المعانى الكلية ويسمى تحليل الحد والرسم · وأما فى مقابلة التركيب الوجودى فيسمى التحليل بالعكس ، وهو اما طبيعى - كتحليل جسم الانسان الى الاخلاط - ، واما صناعى فذلك كتحليل السكنجبين(١٢١) الى الخل والعسل(١٢٢) ·

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها استفادة الحدود والرسوم يقول : ان الحدود ما دامت عبارة عن معان مؤلفة ، فكذلك تحصيلها انما يتم بتحصيل المعانى المفردة التى تتالف منها الحدود ، وقد تعرف مفردات الحقائق برسوم وصفات عرضية(١٢٣) ·

وبناء على ذلك فان اكتساب الحدود انما يتم أولا عن طريق تحصيل البسائط المفردة التى تكون حقائق المحدود ، ويتم ذلك عن طريق التدبير العقلى ، وكذلك الرسوم فان تحصيل بسائطها من الأوصاف العرضية انما

---

(١١٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٦ ·

(١٢٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٦ ·

(١٢١) السكنجبين : هو المركب من الخل والعسل ، ثم يسمى بهذا الاسم ، وان كان مكان العسل سكر أو مكان الخل لب السفرجل · وأنواعه واخلاطه كثيرة · الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ابن سينا : القانون ، حـ٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ·

(١٢٢) ابن ملكا : المعتبر ، جـ١ ، ص ٥٦ - ٥٧ ·

(١٢٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٦١ ·

يتم بالتحليل والتدبر ، أو الوجودى ، أو الاستدلالى(١٢٤) .

ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها :

وبعد حديثه عن المعرفة والفـــرق بينها وبين العلم ، أكـــد أن العلوم « تكون بألفاظ ومعان مؤلفة ، والأقاويل هى الألفاظ الدالة عليها من حيث هى علوم لا من حيث هى معان»(١٢٥) ويقول ان العـــلوم يلزمها الصدق والكذب ، اذا ما نسبت الى الوجود فى الموافقة والمخالفة. على أن التصديق والتكذيب لتلك العلوم ينطوى تحت حكم النفس لها وفيها(١٢٦) . وقسم المعلومات المتحصلة الى صنفين :

الأول : وهو ما سماه بالعلم ، وهو الحكم فى القضـــايا بالاثبات والنفى(١٢٧) .

الثانى : وهو المعلومات المبنية على الأمور الوجـــودية التى تلك معانيها ، على أنه يستثنى من ذلك أشياء لا يحكم بمعانيها على أمـــور وجودية ، اذ أن من المعلومات ما يتقدم على الموجـــودات وتكون أسبابا للعلوم(١٢٨) .

ويقسم ابن ملكا المعلومات عامة ـ وهو ما عناه بالقضايا(١٢٩) ـ الى حمـــلية وشرطية(١٣٠) فالحملية هى التى تحـكم بشىء ويسمى

---

(١٢٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٦١ .

(١٢٥) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمـــة ، حـ١ ، ص ٧٠ . يقول د. كارناب : « ونحن نقصد بالعلم هنا مجموع العبارات المعروفة ، ولست أعنى العبـــارات التى يصوغها العلماء فحسب ، بل انى أقصد كذلك العبارات التى نصادفها فى حيـــاتنا العادية فليس من الممكن فصل هذه عن تلك فصـــلا دقيقا » بنعبد العـــالى : درس الأبيستيمولوجيا ، ص ٤٨ .

(١٢٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ .

(١٢٧) نفسه حـ١ ، ص ٧٠ .

(١٢٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ .

(١٢٩) القضية : هى القول الجازم ، مثل فلان كاتب ، أو فلان ليس بكاتب . الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ .

(١٣٠) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمة ، حـ١ ، ص ٧٠ .

محمولا أنه لشيء يسمى موضوعا ، أو أنه ليس له حكما متصلا ، والحكم بأنه له يسمى ايجابا ، وبأنه ليس له يسمى سلبا(١٣١) ، والحكم بالاثبات والنفى فى القضـــايا الحملية اذا كان ذلك حتما غير متوقف على شرط مجهول كقوله « الشمس طالعة»(١٣٢) ٠

وأما الشرطية فانها تقع تحت شرط مجهول الحـــكم والحصول ، معلوم اللزوم كقوله « ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجـــود » اذ أن الحكم بوجود النهار فى هذه القضية غير جـــازم بل متوقف على شرط مجهول وهو طلوع الشمس(١٣٣) ٠

وفرق بين القضايا الحملية والشرطية بأن الحمـــلية بسيطة اذا ما قيست على الشرطية ٠ وفى الشرطية تركيب لأن أجزاء القضية الشرطية قضيتان حمليتان قد صارتا قضية واحدة من أجل الحكم(١٣٤) ٠

ويذكر بعد ذلك تفصيلات كثيرة عن القضـــايا الحملية والشرطية حسب موضوعها حين يكون جزئيا أو كليا ، وما يمكن أن تتصف به كل قضية منها اما أن تكون محصورة أو مهملة أو مخصوصة(١٣٥) ٠

م تحدث عن جهات(١٣٦) القضايا والعـــوارض الخارجية التى يمكن أن تؤثر فيها ، بحيث لا يمكن معها الحصول على معلومة محددة، فذلك يقال فيه ممكن لأنه ليس على الوصف الذى قيل أنه ممكن ولا يمتنع

---

(١٣١) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠

(١٣٢) نفسه ، جـ١ ، ص ٧٢ ٠

(١٣٣) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمة ، حـ١ ، ص ٧٢ ٠

(١٣٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(١٣٥) المعتبر ، حـ١ ، ص ٧٥ ، وفى تعريف القضايا المهمـــلة والمحصـــورة والمخصوصة ٠ انظر الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ ٠

(١٣٦) الجهات : هى ما فى الاذهان من الظنون والاعتقادات على الحقيقة ٠ ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٨٤ ٠

ان يكون عليه ، كأن يقال : الهواء بارد أو غير بارد ، فانه لايكون باردا بذاته ولا يمتنع عنه الحر والبرد بسبب العوارض الخارجية(١٣٧) ٠

طرق الاســـتدلال :

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعرفة والعـلم ، يتحدث ابن ملكا فى ذلك عن طريقين هما :

الأول : القياس(١٣٨):

يقول أن القياس له دور رئيسى فى سبيل الحصـــول على المعرفة والعلم ، وذلك بتألف القضايا بعضها مع بعض على صورة يستفاد بعلمها الحاصل علم بمجهول(١٣٩) ٠ على أنه لا يمكن أن يكون العلم الحاصل موجبا للعلم المستفاد كيفما أتفق ، وانما لابد من اعمال العقل والتفكر فى المجهول والمعلوم ، اذ لو كان الأمر كذلك فان الانسان لايحتاج فى تعلم العلوم المكتسبة من العلوم الحاصلة الى فكر وزمان ، ذلك أن العقـــل سينتهى من أول علم بمعلوم الى أقصى حدود المعلومات المكتسبة بغيـر كلفة ولا فكر ولا روية وفى أقصر زمان(١٤٠)

وذلك سيؤدى الى الغاء الفكر والتروى ، وهـــذا ليس من الأمور المنطقية عند العلماء ، اذ أن « العلم الحاصل انما يفيد علما بمجهـــول يحصلها الذهن بالروية والتفكير عن طريق البحث والطلب ، فيؤدى ذلك البحث والتفكير الى علم المجهول بالمعلوم واستفادته به »(١٤١) وذلك

---

(١٣٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٨ ٠

(١٣٨) القياس : عبارة عن قول مؤلف من أقوال ، يلزم عن تسليمها لذاتها قول آخر ، فان كان المطلوب أو نقيضه مذكورا فيه سمى استثنائيا ، وان كان غير مذكور فيه سمه اقترانا ٠

الآمدى : المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٨١ ، الجرجانى: التعريفات ، ص ١٩٠ ٠

(١٣٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ٠

(١٤٠) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

(١٤١) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

بواحد من الطرق التالية :

* اما بغريزة النفس وفطرتها كهداية الطفل الى الرضاع ٠
* واما بالبحث والتفكير فى المعلومات التى تؤدى الى الصواب الموجب لذلك العلم المستفاد بالعلم السابق ٠
* واما بطريق تعليمى قانونى يعلمه أهل النظر والاعتبار من أرباب الغرائز المطبوعة ، والفطر السليمة الملهمة(١٤٢) ، وهذا الأخير هو ما عناه ابن ملكا ، فيدور القياس فى الوصول الى العلوم والمعارف عن طريق العلم بالمعلوم الذى يؤدى الى العلم بالمجهول ،

لنسبة وصلة موجودة بينهما تؤدى الى اعمال الفكر فى استخراج تلك الصلة المجهولة(١٤٣) ٠

وفى هذه الحالة قد يهتدى الانسان الى ذلك بعد زمان طويل من الدراسة والبحث والتفكير ٠ وقد يتوصل اليها الهاما أو بمحض المصادفة فى زمن قصير جدا ، وفى الحالتين هو ما حصل للقدماء من العلماء « فقد نظروا فى المعلومات وحكموا فى العلوم ، وقالوا الصدق من غير أن يعرفوا كيفية علمهم ونظرهم كيف كان ، وقد سبق الى العلوم والقول فيها من سبق قبل أن تكتب هذه الكتب المنطقية »(١٤٤) ٠

ويؤكد ابن ملكا أن القضية الموجبة والسالبة فى الحمليات ، والقضية الشرطية والجزائية فى الشرطيات تسمى اذا دخلت فى تركيب القرائن القياسية مقدمة(١٤٥) ، وهو القول السابق علمه وتقريره فى الذهن ليستتبع بالعلم المطلوب ٠ وهذه القرائن القاسية بعضها مفيد ومنتج ويؤدى الى العلم بالمجهول ، والبعض منها لا يؤدى الى ذلك(١٤٦) ٠

---

(١٤٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠
(١٤٣) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠
(١٤٤) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٣ ٠
(١٤٥) المقدمة : هى القضية تقدم فى صنعة القياس ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ ٠
(١٤٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ ١، ص ١١٣ ٠

على أن القرائن المنتجة تختلف من جهة مقدماتها وما فيها من علم حاصل، فان منها ما علمه يقينى ، ومنها ما يغلب عليه الظن الصادق • ومنها ماهو مقنع • ومنها المعلومة الموهمة والمغلطة ، ومنها ما يؤثر فى النفس من غير ظن ولا تصديق(١٤٧) •

ويعقد ابن ملكا بعـــد ذلك دراســة مطولة يذكــر فيها عكوس المقدمات(١٤٨) ، والقرائن القياسية(١٤٩) ، وضروب القياســات من القضايا المطلقة ، وأشكال القياسـات وضروبها من القضــايا الضرورية والممكنة والمختلطة ، والمقاييس المؤلفة من القضايا الشرطية الاستثنائية والاقترانية ، والقياسات المركبة ، واكتساب المقدمات ، وتحليل القياسات ودور ذلك كله فى استقرار النتائج ومعرفةالصادقة منها من الكاذبة(١٥٠)•

وعن الوسائل القياسية التى يمكن التوصل عن طريقها الى العلم والمعرفة ، ذكر ابن ملكا طرقا متعددة تناولها الكثير من العلماء المسلمين بالدراسة والبحث كالرازى ، وابن سينا ، والغـــزالى • ومازالت الى اليوم موضوع دراسة العلماء ، ولا زالت قابلة للبحث والنقاش وهى :ـ

١ ـ قياس التمثيل(١٥١) : قال ابن ملكا أنه يتكـــون من أربعة حدود : أكبر كلى ، وأوسط كلى محمول على الأصغر لأنه محمول على

---

(١٤٧) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٣ •

(١٤٨) العكس فى المقدمة : هو تصيير محمولها موضوعا وموضوعها محمولا مع بقائها على ما كانت عليه من الايجاب والسلب • نفسه ، حـ١ ، ص ١١٧ •

(١٤٩) القرائن القياسية : هى قول مؤلف من أقوال فيها مواضع تصديق وتكذيب، وموضع التصديق والتكذيب فى القول هو الحكم الجـــازم أو الشرطى • نفســـه ، حـ ١ ، ص ١٢٢ •

(١٥٠) نفسه ، صص ١١٧ ـ ١٧٤ •

(١١) التمثيل : هو ما يعبر عنه بالقياس فى اصطلاح الفقهاء • الآمدى : المبين ص ٨٨ •

ويقول الجرجانى : « هو اثبات حكم واحد فى جزئى لثبوته فى جزئه آخر لمعنى مشترك بينهما ، والفقهاء يسمونه قياسا • التعريفات ، ص ٦٩ •

شبيهه فيكون الأصغر وشبيهه حدين ، والاكبر يحمل على الأوسط لحمله على شبيهه الأصغر كما يكون الأكبر(١٥٢) ٠

٢ ـ قياس المقاومة(١٥٣) : وهى مقدمة تؤخذ كبرى لانتاج قضية مقابلة لمقدمات القياس حتى يبطل بذلك القياس المعقود(١٥٤) ٠

٣ ـ قياس الرأى : وهو عبارة عن مقدمة كلية يميل اليها السامعون ولا تردها الأذهان ببديهتها ، تؤخذ فى قياسات خطبية وجدلية(١٥٥)٠

٤ ـ قياس العلامة : ويجعلها قضـــية اما ضرورية واما محمـــودة مظنونه ، يكون الحد الأوسط فى القياس الكلى منها علامة لوجود شىء ، وهو اما أن يصلح أن يكون حدا أو وسطا موضوعا لهما ، واما أن يصلح أن تجعل الأوسط محمولا عليهما جميعا(١٥٦) ٠

٥ ـ قياس الفراسة(١٥٧) : جعله علما قائما بذاته من جملة العلم الطبيعى ، يكون للأنفس السليمة ، غـريزة يصـــدر عنها الحكم لذاتها وطباعها ، وهذا علم ذلك الحكم الذى هو للنفس بغريزتها وفطرتها من غير تعليم معلم ، كما تصدر الأشياء الطبيعية عن القوى الفعالة من غير فكر ولا روية(١٥٨) ٠

---

(١٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٣) يقول الآمدى ان المقاومة عبارة عن قياس مؤلف ، لابطال مقدمة فى قياس آخر باثبات قضية أخرى هى أشد عموما منها ، مخالفة لها فى الكيف على ســـبيل التخيل ٠ المبين ، ص ٨٧ ٠

(١٥٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٢ ، كذلك انظر الآمدى : المبين ، ص ٨٩ ، وانظر أمثلة كل حالة فى المصدرين ٠

(١٥٧) الفراسة : هو ما يعبر عنه عند الفقهاء بقياس الدلالة ٠ الآمـــدى : المبين ، ص ٨٨ ٠

(١٥٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٢ ٠

٦ — القياس البرهانى(١٥٩) : وخصص ابن ملكا لعلم البرهان مقالة كاملة تقع فى سبعة فصول ، وفى حديثة عن قياس البرهان يقول : أنه مرحلة أخيرة من مراحل البحث للحصول على المعرفة الحقة ، او المعلومة الصادقة ، فكان أن تحدث عن الأقاويل المعرفة فى التعليم والتعلم بالعبارة • وتبعه الحديث فى التعليم والتعلم فى الأقاويل المعنمة التى سماها بالقياسات • وتبين من ذلك أن التعليم فيه يكون من أشياء لأشياء بأشياء ، فالذى منه فهو المقدمات ؛ وأما الذى له فالنتائج ، وأما الذى به فصور القياسات والقرائن المنتجة الموجبة للعلم ، فالقياس بعلم النتائج من المقدمات تصور القرائن فى القياسات ، فيلزم فيه تصديق النتيجة من تصديق المقدمات ، اذا كانت على صورة الاقتران المنتج(١٦٠) •

وذلك كله يبين كيفية انتقال الذهن من تصديقه بالمقدمات الى تصديقه بالنتيجة(١٦١) •

ثم يقول فى تحديد البرهان : ان القياسات المؤلفة من تلك المقدمات والنتائج التى تنتج فيها تسمى برهانية ، ويسمى القياس الذى يؤلف عنها برهانا • والبرهان هو الحجة التى تفيد العلم اليقين الذى لاشك فيه(١٦٢) •

والقياس البرهانى ما كان من جملة القياسات المنتجة مؤلفا من هذه المقدمات ، اذ أن القياس المؤلف من مقدمات لاريب فيها بتاليف لا ريب فيه يفيد نتيجة يقينية الصدق لاريب فيها(١٦٣) •

---

(١٥٩) البرهان : هو الحجة ، وهو عبارة عن قياس يقينى المادة ، فان كان الحد الأوسط منه هو العلة الموجبة للنسبة بين طرفى المطلوب سمى « برهانا لميا » ، وان لم يكن هو العلة الموجبة لنفس النسبة بل الموجبة للتصديق بوقوع النسبة سمى « برهانا انيا » • الآمدى : المبين ، ص ٩٠ •

(١٦٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ •

(١٦١) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ •

(١٦٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ •

(١٦٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ •

وأما من لا يشــك فى شىء من ذلك فانه لايشــك فى النتيجة ولا يرتاب بها فهذا هو البرهان • والقياسات والنتائج البرهانية فالمقدمات هى القضايا التى تؤلف منها النقياسات لتحصل منها النتيجة التى هى المطلوب • والنتيجة هى قضية حصل العلم بها(١٦٤) •

وفى أثناء الحديث عن القياس البرهانى لم ينس ابن ملكا أهمية وضرورة الادراك العقلى والادراك الحسى ، أو أهميتهما معا فى تكوين المعارف والعلوم •فضرورة العقل هى : ما كان الحكم فيها بغريزة النفس وفطرة العقل ، حتى اذا ما تصور العاقل فيها القضــية بمفهومها حكم بفطرته فيها بايجاب(١٦٥) •

أما ضرورة الحس فهى فيما كان من الحكم بمقتضى ما أدركه الحس فى المحسوسات،كنور الشمس وظلمة الليل وحرارة النار وبرودة الثلج• أو ما جربه الحس ، فان العقل يحكم فى ذلك بما أدركه الحس(١٦٦)•

ويتابع حديثه فى ذلك الى ان يقول : « فهذه هى أصناف المقدمات ولأوليات العقلية • والحسية منها هى مقدمات البرهان الذى تكتسب به العلوم الحكمية على نظام وترتيب كما قيل ، نتيجة عن مقدمة ، ومقدمة لنتيجة على ترتيب واجب فى الطبع ، وكل تعليم لا يجرى على نسقه وقانونه فليس من العلوم الحكمية »(١٦٧) •

٧ ـ القياس الجدلى(١٦٨) : وهى المسلمات التى لا يوقف أمرها على بيــان ، بل تتسلم مع تصــديق أو تكذيب ، أو من غير تصــديق

---

(١٦٤) نفسه ، حـ ١ ، ص ٢٠٥ •

(١٦٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٥ •

(١٦٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٥ •

(١٦٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٨ •

(١٦٨) الجدل : تقرير الخصم على ما يدعيه ، من حيث اقر حقا كان أو باطلا ، أو من حيث لا يقدر الخصم أن يعانده ، لاشتهار مذهبه ورأيه فيه • الخــوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٤ •

ولا تكذيب(١٦٩) ، وتأليف هذه القياسات الجدلية من مقدمات ذائعة مشهورة ، اما على الاطلاق وهى التى يؤمن بها جمهور الناس ، واما ذائعة بالاضافة وهى التى يراها أكثر الأمم ويعتبرونها(١٧٠) .

الثانى : الاســـتقراء(١٧١):

يقول ابن ملكا : « الاستقراء هو أن يتبين وجود شيء كلى لشيء ، أو سلبه عنه لوجوده أو عدم وجوده فى جـــزئيات ذلك الكلى، فيكون الشيء الذى يتبين به هو موضـــوعات الشيء المبين له ، فيـكون الكلى المحمول بالايجاب والسلب كالطرف الأكبر ، وتلك الموضوعات كالطرف الأصغر ، والكلى المحكوم عليه كالطرف الأوسط ليتبين بأحـد الطرفين وجود الطرف الآخر للواسطة»(١٧٢) .

وابن ملكا هنا يتحدث عما يتحـــدث عنه الاستقرائيون فى العصر الحديث فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، على الرغم من المعارضة الشـــديدة التى وجهـــت الى منهجهم الذى يؤكد على أهمية الاستقراء فى الوصول الى المعرفة العلمية ، فالاستقرائيون يقولون : ان العلوم الاستقرائية تتميز بانها تستخدم الطرق الاستقرائية Inductive Methods وهم بذلك يؤكدون على أن منطق الكشف العلمى يتفق مع المنطق الاستقرائى(١٧٣) . على أن بوبر(١٧٤) وهو من أشد معارضى

---

(١٦٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٧٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٤ .

(١٧١) الاستقراء : عبارة عما يوجب نسبة كلى الى آخر بايجاب أو ســلب لتحقيق نسبة تلك الكيفية الى ما تحت الكلى المنسوب اليه من الموضوعات ، وقيـــل هو : تعديد الجزئيات ثم الحكم بالقضية الكلية بعد . الآمدى : المبــين ، ص ٨٧ ، وعرفه الخوارزمى بقوله : هو تعرف الشيء الكلى بجميع أشخاصه : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٣ .

(١٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١٩٩ .

١٧٣) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ .

(١٧٤) بوبر : كارل : باحث فى فلسفة العـــلوم أصـله نمساوى ولد فى فينا =

المنهج الاستقرائى يقول « ان الاستدلال الاستقرائى الذى ينتقل من القضايا الجزئية الى القضايا الكلية التى تتسم بالعمومية Generality ليس له ما يبرره »(١٧٥) لأن ذلك قد يؤدى الى نتيجة كاذبة « والعلوم تتقدم من خلال محاولتها تكذيب القضايا الكلية»(١٧٦) ٠

ولقد اعتمد بيكون (ت١٦٢٦م)(١٧٧) أيضا فى دراسته للعلوم لا سيما الحركة، على مبدأ الاستقراء الذى يعتمد على التجربة التى وضع لصلاحيتها ثمان نقاط(١٧٨) ، كان جابر بن حيان قد تحدث عنها فى كتابه « كتاب البحث »(١٧٩) ، وأخذها عنه كل من جاء بعده من علماء الطبيعة من المسلمين ، ومن بعدهم من الأوروبيين حتى روجر بيكون نفسه ٠ وقد أفرد ابن ملكا فى الجزء الثانى من كتابه عدة فصول للحديث عن الحركة ، سواء عن حركة الافلاك ، أو الحركة الميكانيكية التى توصل فيها الى نتائج رائعة لا تختلف عما نعرفه اليوم(١٨٠) وقد اتبع فى دراسته تلك التجربة ثم أثبت ذلك كعلم عن طريق الاستقراء واستنباط النتائج ٠

ويجعل ابن ملكا الاستقراء شبيها بالقياس الاقترانى ، الا أنه يختلف معه بأن الشيء الذى يجب أن يكون حدا أصغر فى القياس يكون

=

١٩٠٢م ويدرس الفيزياء والرياضيات والفلسفة فى جامعة فينا ، ثم أصبح أستاذا للمنطق فى جامعة لندن ٠ بدوى ، موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، ص ٣٦٩ ٠

(١٧٥) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ ٠

(١٧٦) نفسه ، ص ٣٥ ٠

(١٧٧) بيكون : فيلسوف وسياسى انجليزى ، كانت حياته مضطربة بالاحداث ، اشتغل بالفلسفة والعلوم والسياسة وصنف فيها مصنفات عديدة لمعلومات موسعة انظر ،بدوى : موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، صص ٣٩٢ ـ ٣٩٩ ٠

(١٧٨) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، حـ٢ ، ص ٢٠ ٠

(١٧٩) ميكروفيلم مركز البحث واحياء التراث الاسلامى بجامعة ام القرى بمكة المكرمة ١٧٦ معارف عامة ٠

(١٨٠) شوقى : تراث العرب فى الميكانيكا ، ص ٨٧ ٠

واسطة فى الاستقراء ، ولذلك فالاستقراء أقرب الى الأذهان ، والقياس أقدم بالطبع(١٨١) .

ثالثا : نظرته الى العلوم وتصنيفها :

يقول ابن ملكا ان لكل علم منفرد خاص من العلوم موضوع واحد خاص به . وجعل ذلك سمة للعلوم النظرية والعملية . فالعلم النظرى ينظر فى ذلك الموضوع ويبحث عن أوصافه حتى يحصل له معلومة ، كالسماء لعلم الهيئة(١٨٢) .

وأما العلم العملى فينظر فى الموضوع لأجل عمل يعمله وتأثير يؤثر فيه ، فى أعراضه وخواصه التى له حسب ذلك العلم مثل بدن الانسان لصناعة الطب(١٨٣) .

والعلم الكلى له موضوع كلى ، وجزئيات ذلك الموضوع تكون تبعا لأجزاء ذلك العلم ومسائله ، فتكون الموضوعات فى القضايا - مطالب ذلك العلم - جزئيات لذلك الموضوع الكلى ، فتميزت العلوم بذلك عن بعضها البعض بتميز موضوعاتها(١٨٤) .

والموضوع الواحد عادة تشترك فيه العديد من العلوم ، ولكنها تختلف وتتباين فى الجهات ، فجسم الانسان لايكون موضوعا لصناعة الطب من كل وجه ، بل من جهة ما يصح ويمرض فقط ، ولعلم الفراسة من جهة شكله وخلقه اللذين يستدل بهما على ملكته واخلاقه(١٨٥ .

والعلم اليقينى عند ابن ملكا يمكن التوصل اليه فى ضوء العوامل التالية(١٨٦) :

---

(١٨١) ابن ملكا ، المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٠ .

(١٨٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ .

(١٨٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ .

(١٨٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ .

(١٨٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٢ .

(١٨٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٢ .

(أ) الموضوع : وهو مشترك لسائر المطالب والمسائل ٠

(ب) المحمول(١٨٧) : والمحمولات كثيرة فى مسـائله ، وهى الصفات والاعراض التى تعرض له بذاته ٠

(جـ) المبادىء : وهى التى تستخدم فى قياسـات ذلك الموضوع مقدمات لها ، تبرهن العلوم ٠

(د) المسائل وهى القضايا التى تبرهن فى العلوم ٠

(هـ) الأغراض والغايات : وجعل هـذا زيادة خاصة بالعـلوم العملية ، وغرضها تحقيق علة العمل كالصحة لصناعة الطب ٠ فالعلوم قد تكون المسائل المعلومة فيها هى الغايات المطلوبة ، وليست الأعمال هى الغايات ٠ ومثال ما تقدم عن صناعة الطب ، فموضوعها بدن الانسان ، ومبادئها تكون من العـلم الطبيعى والحس والتجربة ٠ ومسائلها هى : كيف تحفظ الصحة ويزال المرض وبماذا ٠ ومحمولاتها المصح والممرض والنافع والضار ، وغايتها حفظ الصحة وازالة المرض(١٨٨) ٠

أن هذا الطريق الذى اتبعه ابن ملكا والمتمثل فى النقـاط الخمس السابقة الذكر هى الفكرة الأساسية التى أعتمـد عليها فرانسيس بيكون (ت ١٦٢٦م) وكذلك ديكارت (ت١٦٥٠م) ، فى نظرتهما الى المعرفة والعلوم ، وكيفية الحصول على الحقيقة العلمية بالتجريب فى العلوم التطبيقية٠ اما المنهج الفرضى الاستنتاجى والذى دعى اليه ديكارت(١٨٩) فهو يتمثل حقيقة فيما أكده ابـنملكا ، اذ يقول ديكارت :

« لقد عملت أولا على الحصول على المبادىء الأولى التى هى علة كل ما يوجد ، ثم بحثت بعد ذلك عن الموجودات العامة التى ننسبها الى

---

(١٨٧) المحمول : هو مايحكم على شىء آخر بأنه هو أو ليس هو ٠ الآمدى : المبين ، ص ٧٥ ٠

(١٨٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ٠

(١٨٩) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، حـ٢ ، ص ٥٠ ٠

هذه الأسباب الأولى»(١٩٠) ٠

ويعلل ابن ملكا سبب تفصيل العــلوم الى الأصناف التى فصلت اليها ، ولم تبق علما واحدا ، فيقول : ان سبب ذلك يعود الى المتعلمين فى تعلمهم ٠ ذلك آن المجهولات انما تعرف وتعلم بأمور هى اعرف منها وأسبق علما ، وذلك نفسه يؤدى الى تعــلم علم ثان وثالث ورابع ، اذ أن العلوم والمعلومات لو اتسقت على نسق واحد بترتيب واحد من أعرف الى ما ليس بأعرف ، لصح ان يكون العلم واحدا(١٩١) ٠

على أن ذلك لا يمكن أن يكون سنة ، فتشعبت العلوم الجزئية عن الكلية بتشعب الموضوعات ومبادىء البيانات ، والمطالب فى النظريات، والأغراض فى العمليات ٠ فخرجت من العلم الكلى علوم أخرى تتحد معه فى الموضوع وتختلف معه فى الجهات والغــايات ، « فعلم الطب من العلوم الجزئية تحت العلم الطبيعى من حيث هو علم نظرى ، ومن جهة غايته العملية فهو صناعة خاصة مخالفة للعــلم الطبيعى فى الغاية دون الموضوع»(١٩٢) ٠

وفى مسألة تصنيف العلوم الحكمية وترتيبها يقول : أن العلوم منها ما هو موجود فى الأعيان ـ المحســوسة منها ـ ومنها الذهنيـة ، ومن الموجودات ماهو متقدم فى المعرفة ، ومنها ما هو متأخر فى المعرفة ، فالعلوم مترتبة على ذلك النحو أيضا فمنها ما هو أولى بالتأخــير وهو المتأخر فى المعرفة عن ذلك المتقدم(١٩٣) ٠

ولذلك تصنفت العلوم الى أصناف عدة ، ولم ترتب فى التعليم على شكل مسائل متتالية يشتمل عليها علم واحــد ، فخرج من العــلوم الحكمية(١٩٤) :

---

(١٩٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٢ ، ص ٥٣ ٠

(١٩١) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٣ ٠

(١٩٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٤ ٠

(١٩٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٥

(١٩٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

(أ) علم المنطق ٠
(ب) علم الطبيعات ٠
(جـ) علم الرياضيات ٠
(د) علم الالهيات ٠

وكذلك صنفت العلوم الذهنية الى(١٩٥) :

(أ) ذهنية صرفة لا يتعدى حكمها ما فى الأذهان ٠
(ب) ذهنية يتعلق حكمها بأشياء وجودية ٠

والذهنية الصرفة منها علم العلم ، وهو المنطق الذى يفيد القوانين العقلية التى لا بد منها فى عمليات التعلم والتعليم ، والقبول والرد ، والتصديق والتكذيب ٠ ومنها العلم وهو علم الكميات ، أى المقادير والاعداد ويجمعها علم الهندسة ويشاركها علم العدد ٠ وعلم الاعداد منه علم خواص الأعداد وهو الارثماطيقى ، ومنه علم الحساب الذى يتعلق بالجمع والتفريق فى الاعداد(١٩٦) ٠

واما العلوم الذهنية التى يتعلق حكمها بأشياء وجودية فهى عن هيئة الأفلاك وحركاتها ، وهى أقرب الى الموجودات منها الى الذهنيات، ولكنها نسبت الى الذهنية من أجل ارتباطها بالهندسة والحساب(١٩٧) ٠

★ ★ ★

وبعد ، فهذه صفحة من صفحات تاريخ العلوم عند المسلمين ، تعبر عن وجه مشرق من أوجه الحضارة الاسلامية ٠٠٠ وعن علم من أعلام الفكر الاسلامى فى صورة من صوره البناءة ٠

---

(١٩٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠
(١٩٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠
(١٩٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصادر الخطية :

— جابر بن حيان : أبو موسى الـــكوفى (ت٢٠٠هـ/٨١٥م) (كتاب البحث) ميكروفيلم مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى (١٧٦ معارف عامة) .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

— ابن ابى اصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة السعدى (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) .
(عيون الانباء فى طبقات الأطباء) تحقيق د/نزار رضا ،منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م .

— ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكى (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .
(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) دار الكتب المصرية ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

— ابن تيمية : أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبـــد الحليم (ت ٨٢٧هـ/١٣٢٨م) .
(درء تعارض العقل والنقل) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سالم الأجزاء ٢ – ٣ – ٩ – ١٠ ، طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
(منهاج السنة النبوية) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سالم الأجزاء ١ – ٢ – ٥ ، طبعـــة جامعة الامام محمد بن ســـعود الاســـلامية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م (كتاب الرد على المنطقيين) نشر ادارة ترجمان السنه ، لاهور ، باكستان ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

(وفيات الأعيان وانباء الزمان) حققه د/احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

- ان سينا : الشيخ الرئيس الحسين بن على (ت ٤٢٨هـ) .
(القانون فى الطب) مكتبة المثنى ، بغداد ، (د.ت) .

- ابن ملكا : أبو البركات هبة الله البغدادى (ت ٥٤٧هـ/١١٥٢م).
(الكتاب المعتبر فى الحكمة) الأجزاء ١ - ٢ - ٣ دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن ١٣٥٧هـ .

- الآمدى : سيف الدين (٦٣١هـ/١٢٣٣م) .
(المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين) تحقيق د/حسن محمود الشافعى ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- البيهقى : ظهير الدين أبى الحسن على بن زيد (ت٥٦٥هـ/١١٧٠م)
(تاريخ حكماء الاسلام) تحقيق/محمد كرد على ، المجمع العلمى العربى بدمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

- الجرجانى : على بن محمد الحسينى (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) .
(التعريفات) مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨م .

- الحسينى : الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) .
(العراضة فى الحكاية السلجوقية) ترجمة د/عبد النعيم حسنين ، حسين أمين ، جامعة بغداد ١٩٧٩م .

- الخوارزمى : محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) .
(مفاتيح العلوم) اعداد د/عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهر ، (د.ت) .

- الشهرزورى : شمس الدين محمد بن محمود (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م).
(نزهة الأرواح وروضة الأفراح فى تاريخ الحكماء والفلاسفة) جزآن ، الطبعة الأولى دائر المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

ـــ صدر الدين الحسينى : أبو الحسن على بن ناصر (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) ٠

(زبدة التواريخ ـ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) تحقيق د/ محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ، دار اقرأ ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م٠

ـــ الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ٠

(نكت الهميان فى نكت العميان) المطبعة الجمالية ، مصر ١٣٢٩هـ/١٩١١م ٠

ـــ القفطى : الوزير جمال الدين على بن القاضى الاشرف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ٠

(اخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ٠ لبنان (د٠ت) ٠

ـــ المبشر بن فاتك : الأمير أبو الوفا (ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م) ٠

(مختار الحكم ومحاسن الكلم) تحقيق د/عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت١٩٨٠م٠

ـــ ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت٤٣٨هـ/١٠٤٦م) ٠

(الفهرست) تحقيق تجداد بن على المازندرانى ، ط٣ ، دار المسيرة ١٩٨٨م ٠

ـــ ياقوت : ابن عبد الله الحموى (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

(معجم البلدان) دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ٠

ثالثا : المراجع العربية :

ـــ بدوى عبد الرحمن

(موسوعة الفلسفة) جزآن ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤م ٠

- بنعبد العالى : عبد السلام ، يفوت : سالم
(درس الابيستيمولوجيا) دار توبقـــال للنشر المغـــرب ، الدار البيضاء ١٩٨٥م ٠

- الجابرى : محمد عابد
(مدخل الى فلسفة العلوم) دراسات ونصوص فى الابيستيمولوجيا ، جـ٢ ، مطبعة دار النشر المغربية (د٠ت) ٠

- روزنتال : م - يودين : ب ٠
(الموسوعة الفلسفية) ترجمة سمير كـــرم الطبعة الثانية ، دار الطليعة - بيروت ١٩٨٠م ٠

- شـوقى : جلال
(تراث العرب فى الميكانيكا) ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

- كون : توماس ٠
(بنية الثورات العلمية) ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢م ٠

- محمد على : د/ماهر عبد القادر ٠
(نظرية المعرفة العلمية) دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ٠

وثيقة عربية نادرة فى أرشيف البندقية

أ٠د٠ عبد المنعم ماجـــد(*)

لفظة الأرشيف أصـــلها فى كلمة : « "Archeia" (١) » وتعنى وثائق ومخطوطات ومستندات وأوراق هـــامة ؛ فيما يتعلق بدولة أو بلدة أو أسرة ؛ وان أصبحت تعنى دارا ومستودعا للمستندات ، بمعنى خزانة الوثائق فى اللغة العربية ٠

ويعـــد أرشيف البندقية المعـــروف باسم : أرشيف دولة البندقية 'Archivio di Stato di Venezia" ؛ أكبر أرشيف أوربى ؛ لوجود عدد كبير من الوثائق الأصلية فيه ، مع أن هذا الأرشيف تعـــرض للحريق عدة مرات ٠

وقد بدأت البندقية تهتم بأرشيفها منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولذلك فان وثائقها الأولى المسماة : "Patti" ــ أى الأحداث العامة، وهى فى تسعة أجزاء ــ تعتبر أقدم مجموعة من الوثائق الأصلية ٠ وبالاضافة الى هذه المجموعة ظهرت بعد ذلك مجموعات أخرى من الوثائق بعناوين متباينة؛ تتصدرها مجموعة : "Commemoriali" ، أى سجلات الأحداث الهامة ٠ واذا كانت مجموعة : "Patti" ؛ لا تمس العـلاقات مع مصـر الا فى حدود ضيقة ؛ فان مجموعة : "Commemoriali"، على العكس تستكمل ما نقص منها لتنوعها ؛ كما أنها شديدة الصلة بمصر ٠ ذلك أن هـــذه المجموعة تشتمل على مراسلات عديدة بين ســـلاطين المماليك فى مصر وأدواق ــ دوقات ــ البندقية "Ducis Venecia" ، من أيام بيبرس حتى الغورى ، أى الى وقت سقوط دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ بحيث غدت هذه المراسلات روتينية بين كل سلطان ودوق ٠ ثم انها لم تقتصر

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس ٠

على المراسلات بين السلاطين والأدواق فقط ، وانما أمتـــدت أيضا الى موظفيهم الكبار ، مثـــل تلك المراســـلات بين أمير الاسكندرية ودوج البندقية(٢) . كذلك توجد نماذج متعددة مترجمة ، عن أحوال البنادقية فى مصر ، مثل : تعليمات السلطان الى أمـير الاسكندرية ، بخصـــوص كيفية التعامل مع البنــادقة والامتيازات المنــوحة لهم فى ماعملاتهم التجارية مع سلطان مصر وهـــو الأمر الذى يتضح فى شكل اتفاقيات ؛ تعتبر نموذجاً للتعامل التجارى(٣) . كذلك توجد وثائق خاصة بتجار من البنادقة كانوا يترددون على مصر وسجلوا ذكرياتهم فيها . وهؤلاء قاموا برحلات فى مواسم كل مدة وهو ما عبر عنه باللفظة العربية : المدة "Mudda" (٤) ؛ لتعنى مواسم النقل البحرى ووصول السفن ورحيلها ؛ هذا كله بالاضافة الى مذكرات القناصل والســفراء البنادقة . وتنقسم هذه المجموعة الكبيرة الى أقسام من عشرين جزءا(٥) ؛ حيث يتناول الجزء الأول السنوات من ١٣٠٠ الى ١٣١٧م ، ويتناول الجزء العشرون السنوات من ١٥٠٢ الى ١٥٢٤م ، أى بعد انتهاء دولة سلاطين المماليك فى مصر . ومن الواضح ان هذه المجموعة ذات أهمية بالنســبة لتاريخ مصر ، وهى مفهرسة فهرسة جيدة ، وتضم تلك الفهارس ملخصات لها.

وهناك مجموعة أخـــرى فى هـــذا الأرشيف تســـمى بالايطالية "Senato Misti" ، وباللاتينية "Secreta" ، وهى خاصة بالمداولات السرية لمجلسى السناتو البندقى "Senatus Veneta" أو ما عرف بمجلس الشيوخ البندقى "Comunis Signoria Venetiarum" ، وهى منسوخة بالحبر الأسود ، وتتطلب الماماً بعـــلم الباليوجرافيا "Paléographie" أو الخبرة فى فهم مضمون نص قديم . وهـــذه المداولات السرية الهامة لمجلس السناتو ، تتناول فترة عريضة فى تاريخ البنـــدقية ، تمتد من القرن الثالث عشر الميلادى الى القرن الثامن عشر الميلادى ، أى حتى سقوط جمهورية البندقية عام ١٧٩٧ ، وتقع فى عـــدة مجلدات ضخمة تضم آلاف الصفحات ، من الورق المصنوع من الرق ، وسطورها متقاربة جدا ، وجوانبها مملوءة بالحواشى ، وبعضها مكتوب على الوجهين ، وغلاف مجلداتها مصنوع من الخشب ، ولكى تصل الى الباحث تحمـل اليه على عربة خاصة ؛ حيث يتناولها بكل حرص ؛ بسبب طبيعة ورقها .

ويعنينا من وثائق هذه المجموعة ما يتصل بتاريخ مصر ، وهو ما يتطلب دائما القدرة على فك ألغاز نصوصها ، وبخاصـة أنها غير مفهرسة ، ولا توجد عنها نبذ كما هو الحال بالنسبة للمجموعة السابقة ، لذلك فان أغلبهـا لايزال مجهولا تماماً فى مجـال البحث التاريخى فى الشرق والغـرب .

وتوجد أيضا بأرشيف البنـدقية مجموعة من وثائق الاتفاقيات فى ثلاثة أجزاء ، الأول بعنوان : "Albus" ، والثانى بعنوان "Blancus" والثالث بعنوان : "Pactorum"— Pacta وهذه الاتفاقيات كانت بين البندقية وغيرها من الدول ، فيما بين القرنين ١٤ و ١٥ ، ومنها عهود أمان للتجار البنـادقة من قبـل سـلاطين مصر ، ليس فقط فى ثغر الاسكندرية ،وانما أيضا فى كافة انحاء مصر "Totam Terram Aegypti" وهذه المجموعة من الوثائق الهامة ، مفهرسة فهرسة جيدة ؛ ومزودة بنبذ قيمة مختصرة منها .

وأخيراً ، توجد مجموعة من الوثائق غير المسجلة فى قوائم أرشيف البندقية ، وانما توجد معلومات عنها فى مجلد مفـرد ، يعرف باسم : "Regestri Bombaci" ؛ نسبة للعالم الايطالى الذى كتب نبذة بالايطالية عن كل وثيقة منها ؛ وهى مرتبة ترتيباً زمنياً "Redazione in ordine cronologico" مكتوبة باللغة التركية "Documenti Turci" ، أى أنها وثائق تركية .



وقد صدرت أغلب هذه الوثائق السابق ذكـرها عن ديوان الانشاء البندقى "Chancelleria Ducati" ، وهى مكتـوبة أو مترجمة الى اللاتينية ، أو الايطالية الدارجة على لهجة البنادقة المسماة : "Volgare" وهى التى تحولت الى الايطالية الحديثة . ومع وجود وثائق تركية فى هذا الأرشيف ؛ الا أنه لا توجد فيه غير وثيقة مملوكية عربية واحدة ؛ وقد يفسر عدم وجود وثائق عربية أخرى فى أرشيف البندقية ؛ بأن البندقية كانت تبقى على أصول وثائقها بالعربية فى مصر لدى قناصلها أو عند التجار

المترددين على مصر ، وتقنع هى بتسلم ترجمة لها ، وهذه التراجم هى التى تشكل وثائق فى أرشيف البندقية الآن(٦) ٠

ومن ناحية أخرى ؛ فان وثائق البندقية التى لها علاقة بمصر ، والتى تعد بالآلاف لا توجد لها نصوص وتراجم فى مؤلفات المسلمين المعاصرين ، وأغلبها يحتوى على مضمون من طرف واحد ، وهو أرشيف البندقية ٠ حتى الاديب القلقشندى وحده الذى أورد نسخاً من وثائق قليلة جداً لها علاقة بالصلات بين البندقية ومصر ؛ نجد أن نصوصه غير أصلية ، وهى عبارة عن ردود لمراسلات وصلت من البندقية ؛ كما أنه لم يورد أى نص لوثيقة مرسلة من قبل السلاطين أنفسهم الى حكام البندقية ؛ على الرغم من استمرار المكاتبات بين الجانبين ٠

ومع ذلك ؛ فانه من المؤكد أنه كان يوجد بديوان الانشاء المملوكى من يتولى كتابة المراسلات مع البندقية أو غيرها ،وترجمة الوارد منها الى العربية ، بمعنى أنه كان يوجد فيه من الكتاب من يعرفون اللسان الفرنجى ، الذى يعتبره القلقشندى من اللغات الأعجمية ، التى لها قلم يخصها وتكتب به(٧) ٠ ولدينا أسماء بعض من كانوا يترجمون المراسلات الواردة من دولة البندقية ، مثل : شمس الدين سنقر ، وسيف الدين سودون ، فى أيام السلطان فرج(٨) ٠ وكان لابد من أن تقرأ الترجمة على السلطان المملوكى ، ويعتمد ما يكتب به من جواب(٩) ٠ وقد لاحظ القلقشندى أنه لا يوجد فى ديوان الانشاء البندقى من يراعون بصفة خاصة توافر الفصاحة والبلاغة فى مراسلاتهم(١٠) ، مثلما هو الحال فى ديوان الانشاء المصرى ؛ كذلك ذكر القلقشندى أن المراسلات والخطابات التى تخرج من ديوان الانشاء المملوكى وتوجه الى الخارج كانت تختم بالشمع الأحمر ، وهى طريقة مأخوذة عن الفرس ، أما الفرنجة ؛فاتبعوا طريقة طى الكتاب(١١) ، والتوقيع عليه(١٢) ٠

والواقع أن وثائق أرشيف البندقية المتعلقة بمصر ؛ أصبحت معروفة لدى الباحثين الأوربيين على الخصوص ، مثل Mas-Latrie و Da Mosto ، و Baschet ، و Minotto ، و Rocca و Lombardo ، و Tafel ، وغيرهم ٠ وفى المقابل نذكر أستاذ

علم الوثائق المصرى الأستاذ توفيق اسكندر ، خـــريج مدرســـة الوثائق "L'Ecole des Chartes" فى باريس ، وقـــد ترجم لأول مـــرة الى العربية بعض الوثائق الخاصة بمصر فى أرشيف البندقية(١٣) ٠

أما الوثيقة المملوكية العربية الفريدة ، التى أطلعنا عليها فى مكان حفظها بأرشيف البندقية ، فتوجد فى مجموعة "Regestri Bombaci" وهى غير مسجلة مع غـــيرها من الوثائق التركية فى قوائم الأرشيف ، فى الحافظة(١٦) برقم (X2) ٠ ولم تذكر اسمى مرسـلها والمرسـل اليه ؛ الا أنه يستدل من تاريخها فى ١٠ من شعبان سنة ٨٧٧هـ (٨ يناير ١٤٧٣) ؛ أن مرســـلها هو السلطان الأشرف ، ســـيف الدين ، قايتباى (٨٧٣ ـ ٩٠١هـ/١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م) وأن المرسل اليه هو الدوق نيقولا مارســيللو "Doge Nicola Marcello" وأن قاصـــده هـــو جيوفانى امو "Giovanni Emo" ، وهى من الناحية الشكلية ، مكتوبة بالخط النسخ، وعلى وجه واحد من ورق رق أصفر ، وتقع فى حوالى عشرين طية متصلة مع بعضها بدون قطع ؛ وان كانت بدايتها مقطوعة ، وكل قطعة ٣٩ X ٢٧ سم ، وبآخر قطعة منها يوجد توقيع كاتبها فى صورة جميلة ولكن لا يمكن تبين اسمه ٠

ومن اليقين أنها وثيقة أصلية ؛ ويتبين من مضمونها ، أنها تلقى بعض الأضواء على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية ، بمعنى أنها ليست اتفاقية بين أفراد وانما بين كيانين سياسيين ، وبخاصة أن البندقية غدت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد أغنى دولة فى حوض البحر المتوسط ٠وكان البحر المتوسط قد أصبح عندئذ حلقة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وعلى وجه الخصـــوص التجارة مع دولة سلاطين المماليك فى مصر ٠ وقد عاد هذا النشاط التجارى على البندقية بالخير العميم حتى غدت دولة البندقية تمثل بداية الرأسمالية الأوربية ؛ مما دفعها الى أن تسعى لأن تكون لهـــا سياســـة دولية تتفق وازدهارها الاقتصادى ٠

يضاف الى ذلك ، أن مضـــمون هـــذه الوثيقة يبين قوة الصـلات

والروابط التجارية بين مصر والبندقية وقتذاك • فكانت ترد الى مصر من البندقية سبائك الذهب والفضة لسك العملة المملوكية ؛ واعتبر البنادقة وقتذاك ملوك الذهب فى العالم ، وصارت عملة البندقية المسماة : الدوكات الذهبية(١٥) "Ducato d'Oro" أكثر رواجاً فى مصر لجودتها(١٦) ، حتى غدا الدوكات البندقى أشبه بالدولار الأميركى فى وقتنا اليوم • كذلك كان الجوخ البندقى الوارد الى مصر يفوق كل أنواع الأجواخ الأخرى ، وكان شائع الاستعمال عند المماليك • أما الصادرات الى البندقية من مصر ؛ فكانت أهمها التوابل والبهار • ومع أنه كانت لتجارة التوابل جماعة متخصصة اشتهر أفرادها بتجار الكارم(١٧) "Curiam" ؛ الا أنه يظهر فى هذه الوثيقة احتكار سلاطين المماليك لها ؛ بحيث انهم قاموا مقام التجار فى تلك الغلة • وقد قامت البندقية بدور الوسيط فى تجارة التوابل "Transito" ؛ فتنقلها فى سفنها الى أوربا ، وتتقاضى عمولة باهظة مقابل ذلك(١٨) • وقد بلغ عدد أنواع التوابل ٣٨٦ نوعاً(١٩) ، منها الفلفل على وجه الخصوص ، وهو الذى كانت البندقية تدفع ثمنه لمصر ذهباً وفضة • وظهر أثر هذه الثروة فى عظمة منشأت المماليك فى مصر ، وفى النهضة الحضارية الضخمة التى عمت مصر فى ذلك العصر • وفى ذلك يقول ابن خلدون(٢٠) : « وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر • فهى أم العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » • أما القلقشندى(٢١) فيقول عن القاهرة انها : « أم الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دار الخلافة ، كرسى الملك ، ومنبع الحكماء ، ومحط الرجال » •

ويتبين من خلال مضمون هذه الوثيقة العربية النادرة ؛ أن سلطان المماليك كان يسهل للبنادقة نشاطهم التجارى ليس فقط فى مصر ؛ ولكن فى بقية الأقطار الاسلامية التى تستظل بحكمه • كذلك كان السلطان يعامل قصاد الدوج بأعظم قدر من الحفاوة ، يفوق ما كان يحظى به قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبواب السلطنة المملوكية• كذلك كان السلطان يحرص على صداقته ، ويكن له احتراماً كبيراً ؛ فيخاطبه بحضرة الدوج، ويلقبه بالألقاب الكثيرة ، والنعوت والأدعية ، ويتبادل معه الهدايا •

كذلك يبين مضمون الوثيقة أن السلطان المملوكى كان متيقظاً تماماً فى معاملاته التجارية مع دوج البندقية ؛ بحيث تتفق تلك المعاملات مع ما هو معتمد بين الطرفين من قواعد وشروط • ففى هذه الوثيقة ينكر السلطان على الدوج وجود غش فى الذهب والفضة مما يرد من البندقية، بل حتى فى الجوخ فهو غير كامل فى المقاس ، ورديء فى صناعته ، وأشار الى أن بعضه مقطوع من الوسط ؛ وذلك على عكس الفلفل المصدر من مصر اليه ؛ فانه سالم من التراب والبلل والخلط • ويطالب السلطان الدوج بتأديب الغشاشين ، ومنع الغش فى بضائعه وصادراته لأن ذلك يخالف ما جرى به العرف فى التعامل معه • كذلك يشكو السلطان من بحارة المركبين اللتين قامتا بالقرصنة فى الثغر السكندرى ؛ وانهم اعتدوا على امرأة مسلمة ، ويطالبه بالبحث عن الجناة وعقابهم - وهو فى ذلك لا يقبل عذراً ولا حجة •

وهكذا يتبين أن هذه الوثيقة على جانب كبير من الأهمية بوصفها الوثيقة العربية الوحيدة فى أرشيف البندقية التى لم تحقق حتى الآن • واذا كان أستاذ الوثائق الراحل توفيق اسكندر قد نقل مضمونها الى تلميذه ، فاننا نأمل أن نكون قد حققناها فى هذا البحث وفق القواعد المتبعة فى تحقيق النص العربى • وفيما يلى نص الوثيقة محققا •

نص الوثيقة العـــربية محققاً

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

الموقر ، المحتشم ، الخطير ، الباســـل ، المفخم ، الضرغام(أ) ، السميدع(ب) ، الهمام ، مجد الملة المسيحية ، جمال الطايفة الصليبية ، دوج البندقية والمايسية(جـ) ، دوج كراك(د) ، دنن(هـ) فى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى بهجته ، وجدد مسرته . على أبوابنا الشريفة ، على يد المحتشم قاصده ، وأحطنا علماً بها ، وتقـــدم مثالنا(و) الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور، وبما عاملنـــاه به من الاحســـان بأعظم من جميع قصـــاد ملوك الفرنج الواردين على أبوابناً الشريفة ، لما نحققه من اخلاص حضرة الدوج فى محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف ، وأن مراسيمنا الشريفة برزت بقضـــاء جميع أشغاله وضروراته ، على حكم ما سأل فيه صداقاتنا(ز) الشريفة ، ورسمنا بكتابة مراسيم(حـ) شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية بجميع تجار البنادقة ، وأحوالهم عندنا مسددة ، ورسمنا أيضا بأن فلفل ذخيرتنا الشريفة ، الذى يعطى لهم يكون سالماً من التراب والبلل والخلط ، كل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج ؛ وغير ذلك . مما نعرف به حضرة الدوج، أن الذهب والفضة ، التى صارت تصل فى القطايع وغـــيرها الى الثغر السكندرى وغيره ، يوجد فيها الغش ؛ بحيث أن المأية درهم من الفضة اذا أضيفت لم تقارب ستين درهماً ، وغالبها نحاس ، وأما القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل المنقوش ؛ فغالبه مغشوش بالنحاس،

(أ) الجمع ضراغمة أو ضراغيم .

(ب) ربما المسموع له .

(حـ) ربما من الماس ، يعنى الكبار .

(د) لعله يقصد الأماكن التى يحكمها .

(هـ) أى لا شبيه له .

(و) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

(ز) فى الأصل : صدقاتنا .

(حـ) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

وأما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعاً، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعاً ، وفيه ما هو مقطوع من الوسط ، وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك ، وتعجبنا كل العجب من هذه الأمـــور ، وكون يتفق من تجـــار حضرة الدوج ذلك ، ولا يقابل المعتمد لذلك بما يليق به من تعنيف وتأديب ؛ وقد أعلمنا حضرة الدوج بذلك كله ؛ ليصير على خاطره . ومما نعرفه به أن المركبين اللتين حضرتا صحبه المحتشم قاصده ؛ تعرض من فيهمـــا من الفرنج لجماعة من المسلمين بالمير(أ) الاسلامية ، وأخذوا منهم وأسروا ، ومن جمـــلة ما اعتمدوه أنهم أخذوا امرأة مسلمة وفســـقوا فيها ، وأنكرت خواطرنا الشريفة ذلك ؛ فانه لم يكن جرت عادة جماعة البنادقة أن يعتمدوا شيئا منه ؛ فحضرة الدوج يطلب تجار البنادقة بأجمعهم ، ويعلمهم بذلك ، ويحتم عليهم أن لا يحضروا ذهباً ولا فضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخاً ولا قماشاً الا كاملا ؛ علىما جرت به العادة القديمة ، وأنهم لا يعتمدوا قطع شيء من الخرق الجوخ ولا غيره ، ويؤكد عليهم فى ذلك ، ويعرفهم أنهم متى حصـــل منهم شيء من ذلك ، من الآن ؛ يقابلهم على ذلك ، ويصغى حضرة الدوج لما يطالعه <أى القاصد> من المشافهة الصادرة عنا، ويطلب حضرة الدوج البنـــادقة ، الذين كـانوا بالمركبين المذكورتين ، ويقابلهم على ما اعتمدوه مع المسلمين ، ويلزمهم باعادة ما أخذوه بتمامه وكماله ، ويجهز ذلك والمرأة المســلمة الى أبوابنـــا الشريفة ، ويقابل الفرنجى البندقى الذى كان قبض عليه ورسمنا باطلاقة ، فانه هو الذى تحدى ، وفعل ذلك ، وأقدم عليه ، ولا يقبل له ؛ ولا لمن كان معه فى ذلك عذر(ب) . ولا حجة ، وأن حصل منهم تهاون فى ذلك ، فيجهزهم الى أبنوابنا الشريفة ؛ لنقابلهم على ذلك بالعدالة الشريفة . وقد أعـــدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب الشريف ، بعد أن أنعمت مقاصدنا الشريفة عليه ، وعلى جماعته بخلع(أ) شريفة ونفقة ، وجهـــزنا على يده لحضرة الدوج <و> على سبيل الهدية ، ما تضمنته القائمة المجهزة،

(أ) أى أماكن التجار المسلمين . أنظر Dozy : Suppl,2,p. 628.

(ب) فى الأصل : عذرا .

(أ)هى هدايا رسمية مثل الملابس والخيل وغيرهما .

طى هذا المثال الشريف ، فحضرة الدوج يتسلم ذلك ، ويطيب خاطره وخاطر تجار البنادقة ، ويعلمهم أنهم مشمولون بنظرنا الشريف، وعنايتنا الشاملة ؛ فنحيط علماً بذلك ، والله الموفق من كرمه ؛ ان شاء الله تعالى.

فى عاشر شعبان المكرم ، سنة سبع وسـبعون وثمانمائة ، حسب المرسوم الشريف . <و> الحمد للـه وحده ، وصلى اللـه على محمد وآله وصحبه وسلم .

الهـــوامش

(١) أنظر Nuovo Archivi Veneta, 1906, p.160. ؛ نعيم ، طــرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ١٩٧٣ ، ص ٢٦٧ وما بعدها ·

(٢) أنظر Commemoriali, TI. 1 (216)

(٣)نعيم ، طرق ؛ أنظر ·

(٤) نفسه ، ص ٢٦٩ وما بعدها ·

(٥) Volume I, 1300 — 1317.
II, 1317 — 1325.
III, 1325 — 1342.
IV, 1342 — 1353.
V, 1353 — 1358.
VI, 1358 — 1362.
VII, 1362 — 1376.
VIII, 1376 — 1395.
IX, 1395 — 1405.
X, 1405 — 1417.
XI, 1418 — 1427 e 1428.
XII, 1426 e 1427 — 1436.
XIII, 1435 e 1436 — 1446.
XIV, 1446 — 1455 e 1456.
XV, 1455 e 1436 — 1470 e 1471.
XVI, 1470 — 1482.
XVII, 1482 — 1495.
XVIII, 1495 — 1504.
XIX, 1502 e 1503 — 1513.
XX, 1502 — 1524.

(٦) انظر · توفيق اسكندر ، سفارة بييرو دييدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، مقدمة ، ص ب ·

(٧)ـ صبح الأعشى ، ٣ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ ·

(٨) نفسه ، ٨ ص ٢٧ ؛ انظر · جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك الايطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٧١ ·

(٩) صبح ، ٦ ، ص ٢١٣ ، ٢١٦ ·

(١٠) نفسه ، ٦ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ·

(١١) نفسه ، ٦ ، ص ٣٥٢ ·

(١٢) أنظر : Ency of Isl, (art Diplomatic) ,2ed, T 2, p.305.

(١٣) نص : Senato Secreta XXXIV f.30,33;

توفيق اسكندر ، انظر ·

La Mission de Piero Diedo et la Cession de Chypre 1490. Le Caire, 1956.

وترجمه الى العربية بعنوان : سفارة بييرو دييدو ، ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص أو ما بعدها ·

– وتفاصيل ، انظر ، ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار ؛ القاهرة ١٩٨٨ ، صفحات ٢٣٧ – ٢٣٨ (أرسلت البندقية سفيرها الخاص بييرو دييدو Piero Die do ، بصحبة ممثلها فى قبرص ، وهو ماركو ماليبيرو Marco Malipiro ، ومعه تعليمات بالشفرة وهدايا من دوج Doge البندقية : بربا ديجو Parpadigo ؛ لعقد اتفاق مع السلطان المملوكى قايت باى ، ليتنازل السلطان عن جزيرة قبرص ؛ لقاء جزية سنوية، قدرها ١٦ ألف دوكات ؛ الا أن السفير البندقى توفى فى مصر ؛ فقام كاتب سره بورجى Giovanni-Borghi – بتجديد الاتفاق · فعقد قايت باى معه اتفاقية التنازل ؛ عملت على حسب المراسيم الواجبة ، ووقع عليها القاضى والشهود ، والحقت بها ترجمة باللغة الايطالية الدارجة "Volgare" ، وهى الاتفاقية التى توجد بنصها البندقى فى أرشيف البندقية Archivio Venet ، ومحررة فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٨٩٥/مارس ١٤٩٠ ·

عنها ، انظر أيضا : نعيم ، الطرق التجارية وملاحق ·

(١٤) أنظر : Commemoriali, XVII fo 122, 124; Tomo v. Libro 17.

(١٥) صبح ، ٣ ص ٤٤١ – ٢ ·

(١٦) ابن حجر . انباء الغمر بأبناء العمر ، حسن حبشى ، ٣ ص ٤٠٦ ٠

(١٧) صبح ، ٤ ص ٣٢ ، ٥ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ انظر ٠ Wiet :
Les Marchands d'epices sous les Mamloukos, Cahier Série VII
Fasc 3, Juin, 1955, p.55 sqq. Hist du Commerce, 2, p.59. :Heyd

ولعلها محرفة عن كانم ، وهى البلد الأفريقى ؛ مما قد يعنى أن أصلها منها ٠

انظر ٠ :Dozy Suppl, 2, p. 460

. ماجد ، نظم المماليك ، ط ٢ ، ١ ص ١٢٥ ٠

انظر ٠

١٨) توفيق اسكندر ، سفارة ، ص ١٢ ٠

(١٩) الخطط ، بولاق ، ١ ص ٤٢٠ وما بعدها ؛ انظر ٠ نعيم طرق التجارة ، ص ١٩٧ ٠

(٢٠) المقدمة ، ص ٤٥٣ ٠

(٢١) صبح ، ٣ ص ٣٧١٠ ٠

النشاط التجارى بالسلط فى القرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية

د٠ عبد الحـليم على أبو هيكل(*)

شهدت المنطقة الواقعة شرقى الأردن مع بداية القرن التاسع عشر نشاطا اقتصاديا ملحوظاً خاصةفى المجال الزراعى والتجارى لأسباب متعددة، منها ما ارتبط بأزدياد نشاط التجارة العالمية فى تلك الحقبة ، وجهود الدولة العثمانية فى اصلاح بنيانها خاصـة الجانب الاقتصادى منه ، الأمر الذى يتمثل فى صدور قانون الأراضى العثمانية عام ١٨٥٨م ، وما ترتب على ذلك من ضرورة احكام القبضة على الولايات التابعة لها ، وذلك

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ٠

(١) جاء ذكر هذه المدينة فى المصادر العربية موسوما على النحو التالى :

«الصلت» بفتح الصاد وسكون اللام ، « بلدة وقلعة من جند الاردن وهى فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون على مرحلة منها ، وهى تقابل أريحـــا ، مشرفة على الغور ٠ وينبع من تحت قلعة « الصلت » عين كبيرة ويجرى ماؤها ويدخل فى بلدة الصلت ٠ «وللصلت» بساتين كثيرة ، وحب الرمان المجلوب منها مشهور فى البلاد ، وهى بلد عامر ، أهل بالناس » ٠

أنظر أبو الفدا : تقويم البلدان ، طبعـــة باريس ١٨٤٠م ، صص ٢٤٤/٢٤٥ كما ورد ذكرها بنفس الرسم عند المؤرخين المعاصرين مثل ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حـ١٠ ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، ص ٥٤٣ ٠

كذلك المقريزى : كتاب السلوك ، حـ١ ، ص ١٠٩ ، ٢٣٥ ، ٣١٨ ٠

أما المحدثون من المؤرخين والجغرافيين فى عصرنا الحديث فقد استخدموا مصطلح « السلط » بفتح السين وسكون اللام والطاء ٠ انظر على سبيل المثال ما صدر عن أهل المنطقة مثل كتاب أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين تأليف ٠د حسن عبد القـــادر ، قسطندى نقولا أبو حمود ، عادل شحاده كموشة ، محمـــد محمود المريانى ، عمان ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ وغيرها ٠

وما ورد فى كتاب سليمان موسى : الحركة العـــربية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٦٧٢ والمصادر والمراجع عن أهل المنطقة التى وردت بالبحث ٠ وقد آثرنا استخدام هـــذه الصورة الشائعة الاستعمال فى المراجع الحديثة ٠

باتخاذ اجراءات أمنية وادارية متتالية(٢) ٠ وكان أن شهد النصف الثانى من ذلك القرن صدور سلسلة من القـــرارات التنظيمية المتعاقبة الخاصة بالولايات،كان منها نصيب الجزء الجنوبى الشرقى من بلاد الشام كبيرا، اذ استمر هذا الاقليم بما فيه بلدة « السلط » تابعاً للواء دمشق حتى عام ١٨٦١م عندما لحق بلواء حوران ومعه (عجلون وقضاء الكرك) ٠

على أن هذا التنظيم لم يســتمر طويلا ، ففى عام ١٨٦٨م ألحقت (السلط) ومعها (الـكرك) ، و (الطفيلة) بلواء (البلقاء) ، وفى عام ١٨٧٩م ضم (قضاء معان والكرك) للواء نابلس ٠ أما (قضاء السلط) الذى ألحقت به (عمان) فقد استمر تابعاً للبلقاء حتى عام ١٨٨٨م حيث انتقلت تبعيته الى (لواء حوران) ثم كانت الخطوة الأخيرة فى هـذه الحركة الادارية عام ١٨٩٣م بتشكيل (لواء معان) الذى شمل (الكرك والسلط مع معان)(٣) ٠

نلاحظ ان هذا التغيير السريع فى التقســيم الادارى لم ينبع من فراغ وانما كمنت وراءه ـ بالاضافة الى الهـدف الرئيسى وهو النهـــوض بالدولة العثمانية(٤) ـ عوامل رئيسية جغرافية واقتصادية على النحو التــالى :

فمن الناحية الجغرافية يمثل هذا الاقليم امتداداً صحراوياً مترامياً ، حافلا بصعاب واضحة فى التضاريس والبنية البشرية مما جعـــل الدولة عاجزة عن ضبط الاشراف عليه اجتماعيا واقتصادياً ٠ وهكذا غدا هــذا

---

(٢) شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصــيب ١٨٠٠/١٩١٤م ٠ ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣) أنظر تفاصيل هذا التقسيم الادارى لبلاد الشام فى :

أ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى لسورية فى العهــد العثمانى (حولية كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، مايو ١٩٥١ ٠

وكذلك ب ـ عبد العزيز محمـــد عوض : الادارة العثمانية فى ولاية ســورية ١٨٦٤/١٩١٤م القاهرة ١٩٦٩ ، صص ٦١/٧٩ ٠

(٤) بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ومراجعة د٠ منذر جابر ، ط١ ، بيروت ١٩٨٨ ، صص ٢٣٢/٢٢٣ ٠

الجزء من شرقى الأردن يمثـــل نقطة ضعف وسط عـــد من الولايات العثمانية منها بلاد الشـــام التى تتصف بالنشاط والحيوية ووفرة الامكانات الاقتصادية ، والحجاز بمركزه الدينى، والعراق بموقعه الجغرافى الغنى، وفلسطين بموقعها الذى جعل منها حلقة ربط بين الشام ومصر(٥) ٠

أما العامل الاقتصادى فقد تمخض عنه العامل الأول عندما هيمنت قبائل البـــدو على ذلك الاقليم وفرضت نفوذها على القوافل التجـارية المتنقلة بين الكيانات السابقة بتحصيل (رســـوم العبور) أو (الاتاوة) مقابل التأمين ، كما كان يحدث بالنسبة لقوافل الحج أيضا ٠

وقد نظرت الدولة الى التجمعات البشرية المنتشرة فى ذلك الاقليم من بلاد الشام على أنها مجتمعات طفيلية لا أكثر تعتمد فى وجودها على ذلك التوافق بين المتطلبات الاقتصادية لأهل البادية من ناحية وبين طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لانصاف المزارعين على ضفات نهر الاردن من ناحية أخرى(٦) ٠ أما وقد أضحت الرغبة ملحة فى توفير مزيد من الأموال لدفع عجلة الاصلاح الشـــامل للدولة الى الامام فقد بات ضرورياً احكام الاشراف على هذه المواقع الهشة(٧) ، لاسيما أن هـــذه المنطقة احتوت على امكانات زراعية واضحة جعلتها مؤهـــلة لانتاج الكثير من المحصولات ، فضلا عن وفرة بعض المعادن(٨) ٠

وكان المزارعون وخاصة فى اقليم السلط قد أقاموا عدداً من الأسواق البدائية التى اعتمدت أساسا على الانتاج الزراعى ٠ ولما وجدوا أن هذا النشاط التجارى فى حاجة الى قـــدر من الحماية دفعوا الاتاوات لشيوخ

---

(٥) F.O.78/2016, Report from Rogers to Bulwer, 12/2/1861.

(٦) Lamar and Thompson : The Frontier in History, New Haven, N.4.1981, P.7.

(٧) مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، حـ٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ ، صص ٩٩/١٠٤ ٠

(٨) F.O.78/1118, From Wood to Clarendon, Damascus, 12/2/1855.

نقلا عن شارل عيسوى: التاريخ الاقتصادى ــ المصدرالسابق ، صص٤٥٢ـ٤٥٣٠

القبائل لتوفير هذه الحماية • وهكذا أستفاد شيوخ البدو من هذا النشاط مما أدى الى قدر من الترابط بينهم وبين المزارعين المستقرين • وبالرغم من ندرة التزاوج بين القبائل والقرويين نتيجة لتباين التقاليد المتبعة فى هذا الشأن ، الا أن كثيراً من الروابط الاجتماعية الأخـــرى ربطت بين الطرفين ، وبخاصة فى مناسبات الأفراح والأحزان والأزياء وكرم الضيافة؛ حتى أن كثيراً من الرحالة الغربيين فى الربع الأول من القـــرن التاسع عشر لم يتمكنوا من التمييز بين تصرفات المزارعين القرويين وحياة البدو فى تلك المنطقة(٩) •

ومع التوجهات الاصلاحية للدولة العثمانية صـــار من الصعب أن تستمر تلك الأوضاع على هذا النمط ، وخاصة بعـــد السماح للكثير من الجراكسة والتركمان الذين استقدمتهم الادارة ، بتملك اقطاعات واسعة من الأراضى منذ عام١٨٥١م فى اربد والسلط عام ١٨٧٦م والكرك ومعان•

وفيما يلى بيان بمساحة هذه الأراضى وتوزيعها ذلك عام ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ(١٠) :

المنطقة	المساحة بالدونم للجراكسةوالتركمان
اربد	٢٨٥٠ دونم
السلط	٣٠٣١ دونم
الـكرك	١١٧٤ دونم

كذلك قدرت بعض المصـــادر عـدد العائلات الجركسية فى ولايات

---

(٩) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922, P.351 وكذلك :
Buckingham (J.S.) Travels Among The Arab Tribes- London 1925, P.50.

(١٠) أرشيف استانبول ، مجلس والا ، وثيقة رقم ١٩٧٠٢ فى ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ •

الفدان = ٤ دونم ، أو ١٫٠٣٨ هكتار

الشام بـ ٥٥٤٠ عائلة تركزوا فى القنيطرة وعمان ، والأخيرة قريبة من السلط(١١) (انظر الخريطة الملحقة) .

وكان أن أدى اقطاع الأراضى للجراكسة مع وضعهم الرئيسى كجماعات للحراسة الى استقطاب آلى باتجـاه الخط المستطيل شرقى نهر الاردن الذى يبدأ من جنوب نهر اليرموك بمنطقة اربد حتى الكرك الى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وفى المنتصف تقريباً (السلط) التى تقع فى الشمال الغربى لمدينة (عمان) حاليا .

وجاء هذا التركيز (الزراعى والاجتماعى) مواكبا لما شهدته بلاد الشام من تحول واضح ، وتدنى ملحوظ لمراكزها التجارية،خاصة (حلب) مع شمال البلاد وانتقال الاهتمام الى الجنوب وذلك نتيجة لعاملين :

أولهما : ما أصاب المنطقة الشمالية من الشـام من كوراث متلاحقة خلال القرن التاسع عشر كزلزال عام ١٨٢٢م ، والصراعات الأهلية التى شهدها النصف الأول من القرن حتى عام ١٨٦٠م ، ومذابح الأرمن عام ١٨٩٥م(١٢) ، وما أشارت اليه المصادر البريطانية من تعرض البلاد عام ١٨٨٠م للمجاعة التى أدت الى وفاة المئـات وما خلفتـه من سـلبيات اجتماعية وركود اقتصادى(١٣) .

ثانيهما : مؤثرات حركة التجارة العالمية وركود خطوط المواصلات التجارية عبر شمال الشام وانتقال هذا النشـاط الى المناطق الجنوبية ، نظراً لانتقال مواقع المنافسة الأوربية من المراكز والمـدن الايطالية الى الموانىء والطرق البحرية التجارية باتجاه الهند ، مما أدى الى انهيار مركز حلب التجارى منذ بداية القرن ١٨م (١٤) .

---

(١١) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(١٢) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٧٢/٧١ .

(١٣) F.O. 195/2766, From Henderson to Layard, 22/8/1880

(١٤) د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسـع عشر) بيروت ١٩٨٤ ، صص ٢٢٨/٢٢٧ .

وقد تمخضت تلك التطورات عن تحقيق حـــالة من التوازن بين المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للسكان القدامى (من انصاف مزارعين والبدو) من ناحية والسكان الجدد من (الجراكسة) من ناحية أخرى ، وذلك على النحو التالى :

أولا : زيادة رقعة الاستقرار الاجتماعى المصـــحوب بانتشار الأمن وهو ما كانت تنشده الدولة العثمانية والسكان جميعا على حد سـواء ٠ وأدى هذا التطور الى زيادة حجم النشاط الاقتصادى وخاصة ما يتعلق بكثرة الكم الانتاجى فى المحصولات الزراعية ، الأمر الذى تطلب تحقيق قدر من التكامل والربط بين المواقع الحضرية شرقى وغربى نهر الاردن٠

ثانيـا : نتج عن هذا التوازن ظهور التحول التدريجى من الاقتصاد الاستهلاكى للبدو وانصاف المزارعين الى الاقتصاد الانتاجى لهم جميعا ، فضلا عن خلق سوق استهلاكى أشبع متطلبات السكان والدولة على حـد سواء فى تحقيق الاستقرار بهذا الأقليم ٠

وانعكست هذه التطورات بصورة خاصة على موقعين أساسيين ،هما (السلط والكرك) ؛ وكانا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر مجرد مواقع تجارية وأسواق استهلاكية بين الامتداد الصحراوى الشمالى لشبه الجزيرة العربية ، والمدن الفلسطينية وشمال الشام ، (السلط مع نابلس، ثم المثلث الذى كانت القدس على رأسه ، وقاعدته السلط والـكرك) ٠ أنظر الخريطة الملحقة ٠

وعندما زار (بوركهات ـ Burckhardt) السلط عام ١٨١٢م استطاع احصاء ما يقرب من عشرين حانوتاً تجاريا لمســتلزمات السكان من البدو والقرويين(١٥) ٠ ثم جاءت زيارة (باكنجهام Buckingham) بعد ذلك بأربع سنوات فوصف (السلط) بأنها أضحت مركزا رئيســيا للتجار،وسوقاً يفد اليه كل ذى شأن لقضاء مستلزمات حياته (حيث أضحت من أشهر المراكز التجارية بالمنطقة ويقيم بها أكثر الناس ثراء) وضرب

---

(١٥) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holylands, London, 1822 P.350.

مثلا على ذلك بتاجر يدعى (أيوب) بلغ اجمالى ثروته خمسة آلاف قرشاً أى ما يوازى أكثر من مائتين وخمسين جنيها استرلينا كما ذكر أن هناك أعداد كثيرة من التجار كان متوسط رأسمالهم ما قيمته عشرة جنيهات استرلينية ٠

وبناء على تلك الملاحظات التى أوردها بوركهارت وباكنجهام عن أعداد التجار ورأسمالهم بالسلط نستطيع القول أن قيمة البضائع التجارية التى كان يتم التعامل بها فى الربع الأول من ق ١٩ لم تقل عن (٦٥٠) جنيها استرالينيا ٠

ولم تتوقف مهمة أصحاب المحلات التجارية فى السلط عند كونهم مصبا للحاصلات الواردة من القرى وفائض البدو ثم بيعها لأصحاب الحاجة، بل قام هؤلاء التجار أيضا بما يشبه مهمة (الوكلاء التجاريين) نظير عمولة كانوا يحصلون عليها من تجار المدن الفلسطينية ودمشق وحمص وحلب وحماة،بعدما نقل كثير من هؤلاء التجار أنشطتهم باتجاه الجنوب،عندما تعرضوا للضغوط السابق ذكرها،ونظراً لارتفاع الأسعار فى (السلط) بما لا يقل عن ٥٠٪ عن مثيلاتها فى (دمشق) تبعاً لما رآه بوركهات(١٧)٠وكانت أهم البضائع التى وجد لها سوق رائج هى(الملابس والمفروشات) باعتبارها من الضروريات الأساسية التى كان البدو فى أشد الحاجة اليها ، كما وصف باكنجهام محلات (أيوب) سابق الذكر بأنها أحتوت على الملابس القطنية الواردة من (نابلس) والملابس البدوية بمختلف أنواعها وأشكالها(١٨) والتى كانت ترد خصيصاً لبيعها للقبائل العربية ، كما لاحظ أيضا انتشار الأسلحة والذخائر بشكل واضح فى محلات (السلط) وكان أشهر من مارسها تاجر يدعى (عبيد) ، حاز على ثقة الكثير من السكان فاتخذوه (تاجر جملة) ورئيسا لبقية أسواق المدينة(١٩) ٠

---

(١٦) Buckingham (J.S.), Travels among The Arab Tribes, London, 1925 PP.34/35

(١٧) Burckhardt Op.cit, P.351.

(١٨) Buckingham, pp. 34/35.

(١٩) Buckingham, op.cit, P.15.

وكانت درجة انسياب البضائع تخضع للكيفية التى يتم بها تنظيم القوافل وحراستها بالقوة المسلحة بواسطة أفراد القبائل التى تمر القافلة عبر موطنها ودروبها الصحراوية خوفا من هجمات اللصوص . وكما يقول باكنجهام (كانت هناك اتصالات قائمة ومستمرة بين المدن على ضفتى نهر الاردن شرقه وغربه ، من القدس الى الناصرة الى نابلس الى السلط وعجلون . ودخلت مع هذه المنظومة القرى المحيطة بتلك البقاع) حيث كانت القوافل الشهرية تمر عبر نابلس ، ويحصل أفراد الحراسة ورجال تأمين العبور على جزء من الارباح مقابل الحماية(٢٠) .كذلك استطاع عدد من الرحالة العرب وغير العرب تكوين جماعات من بينهم للدفاع عن أنفسهم خلال هذه الرحلات .

أما الصادرات من السلط الى فلسطين وشمال الشام فقد تولى أمرها التجار والبدو من المدينة . وكان أبرز تلك الصادرات (السمن) و (الأخشاب) حيث توفرت كميات ضخمة منها ، كما لاحظ بوركهارت وجود كميات كبيرة من (ريش النعام) التى وجدوا لها سوقا رائجة خاصة فى مدينة دمشق(٢١) . كذلك مارس البدو جمع الصمغ واعداده للبيع باعتباره مادة أساسية لدباغة الجلود المنتشرة حينئذ فى (القدس) وبعض (القلويات) من الأعشاب الصحراوية التى استخدمت كمادة ضرورية لصناعة الصابون الذى اشتهرت به نابلس .

وقدر بوركهارت حجم تجارة (السلط) فى الصمغ بحمولة خمسمائة بعير سنوياً أى ما يقرب من مائتين وخمسين ألف رطل ، تراوح سعرها ما بين ١٥ الى ١٨ قرشا لكل مائة رطل ، أى أن اجمالى تجارته كان حوالى ٢٥,٠٠٠ قرشاً أو ما يقرب من ١٧٥٠ جنيها استرلينيا(٢٢) .

كذلك حدد المصدر نفسه حجم المواد المستخرجة من الأعشاب والمستخدمة فى صناعة الصابون،والتى كانت تصل الى (نابلس) بحمولة

---

٢٠) Burckhardt, op.cit, P.342.
(٢١) Burckhardt, op.cit, P.351.
(٢٢) Ibid, P.351.

سنوية تقدر بثلاثة آلاف من الابل أو (١٣٦٠٠) رطلا ، قدر ثمنها بحوالى ١٧٠٠ جنيها استرلينيا(٢٣) ٠

وفى خريف كل عام كان المحصول السنوى من عصارة تلك الأعشاب تقدمه القبائل البدوية الى مختار القرية أو للوالى ٠ وكان تجار (نابلس) الذين احتكروا تلك التجارة يتوافدون على السلط لشراء تلك المواد ٠ وتبعا للاعراف القائمة أتخذ هؤلاء التجار لأنفسهم مقاراً خاصة بهم فى المدينة للاقامة أثناء جمعهم لتلك البضاعة ومن ثم ضرورة تحمل اعباء معيشتهم ومعهم رفاقهم ، مما كان يمثل فرصة لأهالى المدينة لتنشيط الحركة التجارية ، فقد كانت أشهر الخريف بمثابة (موسم) يس تفيد منه الأهالى كثيرا(٢٤) ٠

ومما ساعد أيضا على ازدياد الحركة التجارية بالسلط ، ما كان يحصل عليه شيوخ القبائل من (خوة) تدفعها القوافل التجارية المارة بموطنهم٠وكانت تتراوح بين (عشرة وخمسة قروش) تبعا للمسافة التى تعبرها القافلة،كما كان شيخ القبيلة يحصل أيضا على (قرشين) مقابل الامداد بالمياه ومثلهما للخدمات الاضافية المقدمة لرجال القافلة كالحراسة والراحة مثلا ٠ وبذلك اذا كان عدد الابل المحملة بالقافلة (٢٠٠٠) فان على القافلة دفع (رسوم للقبائل) مقدارها (٣٠،٠٠٠) قرش أو ١٥٠٠ جنيها استرلينيا ، مما حتم على التجار اضافة تلك الرسوم الى ثمن السلعة الأساسى ٠ على أنه من الأمور الجديرة بالتسجيل أن تجار السلط كانوا يقومون بدفع تلك (الجباية) على قوافلهم الى شيوخ القبائل ، فى حين رفضوا دفع أية مستحقات للسلطة العثمانية ٠

وفى اتجاه آخر اتسمت معدلات تدفق القوافل من شتى أنحاء بلاد الشام بالثبات وبخاصة من دمشق وفلسطين على قضاء السلط،وذلك عندما أخذت الأوضاع تتخذ فيها شكلا أكثر استقرارا٠وكان ذلك فى الوقت الذى استمرت القلاقل تحيط بمنطقة حوران وما حولها نظرا لاضطراب الاوضاع

---

(٢٣) Ibid, P.354.
(٢٤) Burckhardt, op.cit, P.355.

الاجتماعية فى القرى بسبب الندرة السكانية وكثافة الضغط القبلى وما سببه كل ذلك من خلل فى الجزء الشمالى من بلاد الشام ٠ وقد أفاضت المصادر والمراجع فى ذكر تلك الأوضاع والتعـــرض لها(٢٥) ، حيث لم يتحقق لها الاستقرار النسبى الا فى مواسم مرور قوافل الحج السنوية ٠ وتهافت البدو لتحصيل (الخوة) ولو بالقوة خاصة عند مزيريب التى يلتقى عندها كثير من الدروب والطرق الصحراوية(٢٦) ٠ ومن خلال هذا التباين فى الأوضاع نشطت (السلط) تجاريا ، وأمتدت تطلعات تجارها الى توثيق علاقتهم بالقبائل البدوية المجاورة حماية لأنفســـهم وأموالهم وبضائعهم ٠ ومع امتداد نفوذ السلطة العثمانية على تلك القبائل مع بداية عام ١٨٦٧م ، أخذ الحرفيون والبائعون يقدمون دون خشية على عرض بضائعهم ومحصولاتهم بشكل مباشر على البدو ٠ ويحكى أحد أفراد الارسالية البروتستانتية فى السلط عن تلك الظاهرة فيقول : (خلال تفقدى للأســواق المجــاورة لمــدينة السلط عام ١٨٧٠م رغبة فى الحصول على بعض مستلزماتى المنــزلية من الاوانى والمأكولات نظــرا لانخفاض أسعار تلك الأسواق البدوية عن مثيلاتها داخل المدينة ، شـــد انتباهى الكثير من الباعة الجائلين الوافدين من بيروت، والصاغة الوافدين من حلب والناصرة ودمشق، وهم يجادلون البدو داخل خيامهم حول أسعار مالديهم من بضائع اشتملت على الأقمشة وبعض الحلى والأوانى المنزلية، مما جعلنى استغرق وقتاً طويلا ومسافة أطول لامتداد القبائل ومواطنها الضاربة شرقى مدينة السلط لمسافة زادت على خمسة كيلومترات) ٠ وقد حدث ذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر سواء باصدار قوانين تنظيم الطرق المعابر أو تحــديد جـــزء من الموارد المالية للدولة يخصص للحماية والصيانة(٢٨) ٠

---

(٢٥) انظر فى ذلك مثلا : ملحم خليل عبده وأندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨ ٠

وكذلك : Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria, London, 1969.

(٢٦) Hill (Gray), A Journey of Petra, 1896, London 1897.

(٢٧) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident), Report from F.A.Klein, Salt, October 1871.

(٢٨) على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق١٣٤٢هـ ،صص٢٤٣/٢٤٤٠

وقد أستثمر التجار الجدد القادمون من أنحاء الشام باتجاه السلط هذه التوجهات من قبل الدولة العثمانية وقاموا بافتتاح عدد من المحلات التجارية على جانبى تلك الطرق فى القـــرى المطـــلة عليها وأوردت المصادر بيانا بالاعداد التقريبية لتلك المحلات على النحو التالى :

الطريق من السلط ـ مويلح ـ الزرقاء	٣٥ محلا
من السلط ـ عمان	٢٧ محلا
من القصر ـ الكرك	١٨ محلا
من الكرك ـ الطفيلة	٢٢ محلا(٢٩)

وكانت مقدمات هذا الاستقرار التجارى والأمنى عاملا مشجعا لمزيد من التجار للقدوم الى (الســلط) وبالتالى ازدياد الاعــداد الســنوية والشهرية للقوافل التجارية القادمة من المدن الفلسطينية وشمال الشــام بصورة ملحوظة ، حيث بلغت أعدادها وزيادتها على النحو التالى(٣٠):

العــام	عدد دواب القافلة فى العام
١٨٦٠	٢٦٩٥
١٨٦٢	٢٨٠٢
١٨٦٤	٣٠٠٠
١٨٦٦	٣٠٥٠
١٨٦٨	٢٩٦٠
١٨٧٠	٣٢١٥

ومع ازدياد عدد القوافل القادمة الى السلط ، بدأ صغار التجار الذين توافدوا على المنطقة قبيل التركيز العثمانى بالدخول ضــمن فئة كبار التجار الذين ازدادت أعدادهم بالضرورة ، واتسعت حلقة النشاط التجارى

---

(٢٩) F.O.406/26, Letter from Col. Burnaby to Russel 16/1/1861

(٣٠) P. M. R./O/72/266, Annual Report from Protestant Missionaries Resident in Salt, October1871.

وغدت أكثر قوة فى أواخر عام ١٨٧٠م ٠ وقد قدر عدد التجار الذين ارتفع رأس مالهم عن ٣٥٠٫٠٠٠ قرشا بخمسة وثلاثين تاجرا عام ١٨٥١م ، ثم ارتفع هذا العدد الى ما يزيد على أربعة وثمانين فى عام ١٨٧٠م، وهؤلاء اتخذوا من المدينة مركزاً لتجميع البضائع وتوزيعها على القرى والقبائل البدوية المحيطة(٣١) ٠ ومع نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر بدأ سكان السلط يستشعرون مدى ما يتمتع به تجار (فلسطين) و (الشام) القادمون عليهم من استقرار وأمن على بضائعهم وأرواحهم ، وكيف انهم فى وضعهم المالى غدوا أفضل بكثير مما كان عليه سكان المدينة الأصليين وتجارها(٣٢) ٠

وكان من الصعب على هؤلاء التجار الكبار الاعتماد فى حماية أنفسهم وتجارتهم على البدو على نحو ما كان عليه الوضع عند بداية قدومهم أول مرة ، أو الركون فقط الى تبادل المنفعة بينهم وبين أنصاف المزارعين باعتبارهم شريان الامداد الرئيسى للتجارة(٣٣) ٠ كذلك لم تكن هناك امكانية تحول هؤلاء التجار الذين انتشروا فى اقليم البلقاء عامة والسلط بصفة خاصة الى ممارسة الزراعة مع القصور فى عناصر قيامها (ندرة الأمطار) و (قلة خصوبة التربة) ٠ مما حتم ضرورة الاستمرار فى النشاط التجارى فى ظل الأوضاع الجديدة التى فرضتها السلطة العثمانية٠ وكان أن ازداد النشاط التجارى سواء داخل بلاد الشام نفسها ، أو بين الأخيرة وأوربا منذ أواخر عام ١٨٥٦م ، وصارت (السلط) مركزاً رئيساً من مراكز التوجه التجارى نحو تلك البقاع(٣٤)، وكان التركيز فى بداية الأمر على هذا النشاط التجارى (المحدود) دون سواه ، والبعد عن الانغماس فى مجال الاستثمارات الأخرى داخل المنطقة ٠

ومما شجع أيضا على هذا الاتجاه ذلك التدفق المتزايد فى أعداد الوافدين الى (السلط) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر من

---

(٣١) Ibid

(٣٢) C.M.S./O/36/11/ , From Khalil AL Jamal, 29/11/1879.

(٣٣) Schileher (Linda), The Huran Conflicts of The 1860, London, 1881, P.174.

(٣٤) Ibid

دمشق وبغداد والقدس بهدف التجارة أو لتأدية فريضة الحج · واتخــذ الوافدون من المدينة نقطة (التقاء) سواء للراحة أو المتاجرة بما معهم من بضائع · وأوردت المصادر بيانا تقريبيا عن تلك الاعداد العابرة خلال الخمس سنوات الأولى من العقد التاسع للقرن التاسع عشر على النحو التــالى(٣٥) :

العـام	أعداد الوفود من دمشق	منفلسطين(يافا/نابلس)	بغداد
١٨٩٢	٣٢٣٠	٢٨١٥	٢٠٥٥
١٨٩٣	٣٥٥٠	٣٣٧٠	٢٨٠٠
١٨٩٤	٤٢٠٠	٣٦٠٠	٤١٠٠
١٨٩٥	٥١٠٠	٤١٥٠	٤٥٥٦

ولا شك فى أن الحبوب كانت تأتى على رأس قائمة السلع المتداولة، وحقق كبار التجار من المتاجرة فيها أرباحاً طائلة ، فكان سعر المكيال من القمح فى السلط (قرشين) فى عام ١٨٦٠م ، ثم وصل الى قرشين ونصف القرش فى نوفمبر ١٨٦٩م · وفى موسم الجفاف قفز سعر القمح ووصل الى ذروته فبلغ أربعة عشــر قرشـا(٣٦) · وفى ذلك الوقت كان اقليم (حوران) فى مركز متقدم لبلاد الشام فى انتاج الحبوب وسرعان مالحقت به السلط بعد عام ١٨٨٨م · وأوردت بعض المصادر بيانا عن مقدار انتاج بعض أقاليم الشام على النحو التالى(٣٧):

(٣٥) N.A. 890/31, Report From U.S. Consulate Jerusalem, Syria, to Tomas Cridler, Washington, August 1900.

(٣٦) L.P.J. (Latin Patriarchate of Jerusalem), MeM. of Jean Morétain, 1869, PP.466/492

(٣٧) F.O.195/2097, From Richards to O'Conor, 3/10/1901
نقلا عن شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى ، ص ٤٦٥

الاقليم	عددالسكان	المساحةالمنزرعة	القمح	الشعير
حـوران	٥٣ر٥٤٠	٢٩٧ر١٧٥	١ر٠٦٣ر٧٤١	٤٤٧ر٧٠٨
جبل الدروز	٣٣ر٠٩٠	٢٤٥ر١٤٠	٧٩١ر٧٠٠	٤١٦ر٩٦٧
عجلون	٣٠ر٠٠٠	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٦٨٠ر٠٠٠	٦٢٠ر٠٠٠

ولكثرة انتاج (حوران) من الحبـوب اضطر مزارعو الاقليم الى دفع نصف الحمولة الى المكارى ـ صاحب الجمل ـ نظـــير نقــله الى عكا(٣٨) ، التى نشطت تجاريا بسبب تدفق كميات الحبوب من حوران عليها ، والى (ميناء حيفا) حيث أكد مشاقة (أن الأكثرية من حبوب حوران تتجه نحو حيفا)(٣٩) ٠ وأوضح تقرير آخر لنفس المصـدر عام ١٨٩٩م أن ما مجموعه (٢ر٠٥٢ر٠٠٠) كيلة من مجموع انتاج حوران من الحبـــوب البـالغ كميتـــه (٥ر٩٢٠ر٢٥٠) كيـــلة كان يأتى من (عجلون)(٤٠) ٠

واذا كانت (حوران) قد تفوقت فى انتاجها من الحبوب وتصديرها الى الخارج أو ارسالها الى بلاد الشام الشمالية ، فان السلط ومعها الكرك ومعان قد تنوع انتاجها الزراعى بصورة ملحوظة عن غيرها من المناطق، مما ساهم فى ازدياد نشاطها التجارى ؛ فكان انتاجها على النحو التالى :

---

(٣٨) عيشوى : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ ٠

(٣٩) N.A.890/O, Record Book, Damascus, Vol.I (1900/1908) PP.269/270.

(٤٠) N.A.890/15, Report on The Trade of Damascus 16/9/1900

المحصول	الكمية	
القمح	٢٠٠٫٠٠٠	طن
الشعير	٥٦٫٠٠٠	طن
الذرة	٧٥٫٠٠٠	طن
السمسم	٢٠٠٫٠٠٠	كيلوجرام
الصمغ العربى	٢٠٫٠٠٠	»
البطيخ	٥٫٠٤٠٫٠٠٠	بالعدد
العنب	١٫٠٠٠٫٠٠٠	بالكيلو
الفاكهة عامة	١٫٠٠٠٫٠٠٠	بالكيلو
اعلاف حيوانية	١٫٥١٠٫٠٠٠	»
خضروات	٥٠٠٫٠٠٠	»
أخشاب	٥٠٫٠٠٠	»
بقول	١٫٦١٣٫٠٠٠	»
تبغ	٢١٫٥٠٠	»
العدس	٤٢٠٫٠٠٠	»
زيت الزيتون	١٠٫٠٠٠	كيلو
زيتون	١٥٫٠٠٠	»
قطن خام	١٤٠٫٠٠٠	»
صوف	١٠٫٠٠٠	»
عسل وشمع	٧٫٠٠٠	»
محصولات أخرى متنوعة	١٠٫٠٠٠	(٤١)

يتضح من هذا الجدول الذى ورد ضمن أوراق الارسالية أن أرقامه اعتمدت على(التقريب)بما يعنى أن الارقام تقديرية وتعبر عن رؤية خاصة، كما نعتقد أن هناك قصور لحق بتلك القائمة ، مثلما يبدو فيما ورد بها عن كمية انتاج (العنب) الطازج ، وهذا صحيح من حيث وجود زراعة

(٤١) A.C.M.S. (Archives of The Church Missionary society) 41/289/2/93, 12 12 1899.

تلك الفاكهة بالمدينة وما حــولها ، الا أن البيــان لم يرد به شىء عن (الزبيب) خاصة وأن (السلط) معروفة بانتاجه وتصنيعه وتصدير كميات ضــخمة منه الى المدن القريبة وبخاصة (القــدس ونابلس) ٠ وقد أورد القنصل امريكى بالقدس تأكيداً لذلك عندما ذكر أن كميات الزبيب التى ترد الى المدينة من مناطق انتاجه وتصنيعه فى (السلط) بلغ متوسطها السنوى ٣٨٠طن ٠ أى ما يوازى فى قيمته ١٩٫٠٠٠ دولاراً حسب التقدير الذى أورده عام ١٨٩٧م(٤٢) ٠

كذلك اغفل تقرير الارسالية (القلويات) المستخرجة من الأعشاب حيث ذكر القنصل الأمريكى أن الكميات المصــــدرة من (السلط) الى (نابلس) بغرض صناعة الصابون أو دباغة الجلود ، قد تراوحت سنويا بين (٧٦٠) و (١٢٠٠) كيلو جرام فى عام ١٨٩٥م ٠ ثم تراجع هذا الرقم بعد ذلك ليصــبح المتوسط الســنوى بين ٥٣٠ و ٨٥٠ كيلوجرام ، نتيجة للاتجاه نحو استخدام الكيماويات الصناعية الأرخص سعرا من قبل معامل الصابون ودباغة الجلود فى القدس ، من خلال التجار الأوربيين المقيمين فى القدس(٤٣) ٠

وعلى الرغم من تلك الملاحظات المتعلقة بالأرقام التى أوردتها وثائق الارسالية باعتبارها أرقاماً تقريبية غير محددة تحديدا دقيقا ، مع اغفال بعض المنتجات الرئيسية التى اشــتهرت بها (السلط) ، الا أن الحقيقة المؤكدة فى ذلك هى أن المدينة وتوابعها خــلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر أضافت بانتاجها الزراعى ، مع ما كان يقوم به كبار التجار ، دفعة جديدة كثفت من خلاله نشاطها التجارى ، فأكدت المصادر الأمريكية أن ما يقرب من ٦٠٪ من الانتاج الزراعى للسلط كان يعد للتصدير باتجاه البلدان الواقعة غربى نهر الاردن (نابلس ، القدس ، حيفا) والى دمشق وحلب فى شمال الشام ، كما أن ١٥٪ من حجم التجارة كانت ترسل الى اقليم الحجاز ومصر وأوربا(٤٤) ٠

---

(٤٢) N.A. 890/O/17, Report From M.Wallace, Jerusalem 12/1/1898.

(٤٣) N.A.890/O/17, Op.cit.

(٤٤) Ibid—.

وكان طبيعيا مع ازدياد هذا النشاط التجارى وتنوع مصادره ، أن تظهر فئة من كبار الرأسماليين ساهموا بقسط وافر فى اثراء النشاط التجارى من خلال ما كانوا يقدمونه من قروض عينية ومالية للتجار أو المزارعين . وقد بدا واضحا أن أغلبية هؤلاء الرأسماليين كانوا من الوافدين الى السلط من فلسطين ومن نابلس بصفة خاصة . وصاحب عمليات الاقراض ارتباك واضح من خلال الأسلوب الذى كانت تتم به ، عندما تولت (المحكمة الشرعية) بالمدينة أمر تسجيل القروض، وذلك نظرا للتفاوت الزمنى على مدار الأيام بين التوقيت الهجرى والميلادى، وتمسك الأطراف المعنية بما يناسبها من توقيت لنهاية القرض. هذا بالاضافة الى أن كثيرا من الشهود الذين كانوا يوقعون على الصكوك المالية وقعوا فريسة للاغراء المالى لصالح أحد الاطراف فغيروا شهاداتهم رغبة أو رهبة ، نظرا لأن الأغلبية الساحقة منهم اتخذت مسالة الشهادة (حرفة للحصول على المال)(٤٥) .

ويتضح مما تضمنته سجلات المحكمة الشرعية لمدينة السلط خلال الفترة من عام ١٨٨٥م حتى ١٨٩٠م أن عدد قضايا القروض التى حكم فيها (١٢٤) قضية مالية ، وأن هناك (٦٠) قرضاً قدمت من التجار الفلسطنيين ، (٣٥) قرضا من الدمشقيين كما بلغ عدد الذين حصلوا على قروض من مدينة السلط فى ذات الفترة (١١١) مواطنا(٤٦) .

ومع استمرار حلقة القروض المالية والعينية ، أضحت عناصر القوة لمدينة السلط بأيدى كبار الرأسماليين الذين وردت اسماؤهم فى سجلات المحكمة الشرعية للمدينة ، ومن أبرز تلك الأسماء (عبد الرازق طوقان وداود أفندى طوقان وعبد الرحمن بك طوقان) وهم جميعا كما هو واضح من أسرة واحدة ، ارتبطت أصولهم ونشأتهم بمدينة (نابلس) لكنهم هاجروا وأقاموا بالسلط خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

---

(٤٥) N.A.890/O/21,Report on The Trade of Jerusalem, 1/2/1900

(٤٦) المحكمة الشرعية بالسلط مجلد رقم ٢ ، ص ١١ ، والصورة لتلك السجلات، موجودة بمكتبة الكونجرس الامريكى (القسم القانونى) تحت مسمى (محاكم شرعية _ الشام) .

وغطت قائمة القروض التى مارسوها ثمان صفحات فى سجلات المحكمة الشرعية ، وبلغ عددها (٢٤٣) قرضاً قيمتها (٣٩٫٣٨٣) قرشاً قدمت بشكل نقدى . أما قروضهم العينية فكانت على النحو التالى :

١٣٫٦٣٣ صاعاً من القمح و ٣٫٠٦٢ صاعاً من الشعير و ٢٫٢٢٧ قدراً السمن . كذلك قدرت كمية الحبوب الموجودة بمخازنهم فى ذات المدينة بـ (٦٠٠٠) صاعاً من القمح و (٨٠٠) من الشعير(٤٧) .

وبالاضافة الى آل طوقان ، برز أيضا اسم (الحاج عبد القادر جعبير) ، وتبعا لما جاء فى ذات السجل بلغت قيمة القروض المقدمة منه (١٢٠٫٠٠٠) قرشاً ، وعينيا (١٥٫٠٠٠) صاعاً من القمح ، وحوت مخازنه (٧٠٠٠) صاعاً من القمح ، و (٢٠٠٠) من الشعير ، وقدرت السجلات قيمة ما يمتلكه من بضائع فى المدن الأخرى (دمشق وبيروت) بما قميته (٤٠٫٠٠٠ قرشا(٤٨) . وتشير الملاحظات التى وردت فى السجلات المتعلقة بهذا الاسم الى أنه كان من الرجال الذين مارسوا عددا من الأنشطة الاقتصادية المتنوعة . فبالاضافة الى ممارسة عمليات اقراض الأموال وتجارة الغلال واعدادها للتصدير ، فقد كان نشطا أيضا فى استيراد البضائع السورية واعدادها بالسلط من أجل الاستهلاك المحلى بها(٤٩) .

هذا بالاضافة الى وجود (كثرة) من أمثال هؤلاء الرأسماليين بالسلط بلغت قيمة رؤوس أموالهم فى عام ١٨٩٥ مبلغا قدره (٦٥٫٠٠٠) قرشا(٥٠) ، وعلى جانب آخر شجع نمو رأس المال بالسلط أعدادا أخرى من مدن فلسطين ودمشق للقدوم الى السلط وأتجه نشاطهم بصفة خاصة

---

(٤٧) سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣١٥/١٣١٩هـ) ، صص ١٦٩/١٧٨ ، ٢ رمضان ١٣١٨هـ ، ٢٥ ديسمبر ١٩٠٠م .

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) نفس المصدر .

(٥٠) سجلات المحكمة الشرعية بالسلط : المصدر السابق .
N.A.890/29, M.Wallace; Commercial Report for 1895,

نحو الاستثمار الزراعى وامتـــلاك الأراضى حتى عام ١٨٩٥م ، وفقـــا للجدول التالى(٥١) :

العدد	رأس المال	متوسط الملكية بالدونم
١١	٣٥٠ر٠٠٠ قرش	١٥٥ دونم
١٧	٢٨٠ر٠٠٠ »	١١٠ »
١٣	١٩٠ر٠٠٠ »	٩٥ »
٢٣	١٣٠ ر٠٠٠ »	٧٠ »

وكان الهدف من مجىء هؤلاء التجار الى السلط هو جمع أكـــبر قدر من الثروة والسيطرة على مركز رأس المال من خلال العمل كصيارفة فى أول الأمر ، ثم ممارسة تجارة الحبوب التى تشتهر بها المنطقة ، الى جانب مباشرة عملية الاستيراد والتصدير ، واستطاعوا بمثل هذه السبل أن يصبحوا من كبار ملاك الأراض ليس فقط حـــول منطقة السلط بل تجـــاوزوها الى معظم أجـــزاء المنطقة الجنـــوبية الشرقية من بلاد الشام(٥٢) ، وما ان اقترب القرن التاسع عشر من نهايته حتى أضحى هؤلاء الرأسماليين (أمراء) خاصة من قدم منهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث أقترنت اسماؤهم بألقاب مميزة فى سجلات المحكمة الشرعية بالسلط فلقبوا بذوى المقام العالى والقدر الكبير،وألقاب أخرى تبدو فى النص التالى :-

(الكبير ، ذائع الصيت ، الموثوق فى أمانته السيد فايد أفندى ابن المرحوم الرئيس الأمين عالى المقام والقـــدر التاجر السيد حسن أفندى النابلسى)(٥٣) .

---

(٥١) Jerusalem, 30/6/1896.

(٥٢) نفس المصدر ، والفدان = ٤ دونم .

(٥٣) المحكمة الشرعية للسلط ، سجل رقم ٤ ، ٢٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ / ١ يونية ١٠١٠ .

وكان أن أضحى لتلك الفئة الجديدة سمة مميزة لحياتهم الاجتماعية فاتخذوا لاقامتهم القصـــور الفخمـــة التى استحضروا لبنائها عمالا من فلسطين ، وذلك وفق طابع من البناء مميز بعيد عن الطراز (الصحراوى) الغالب على بيوت السلط · واتسمت مبانى هـــؤلاء الأغنيـاء بالفخامة والســـعة ومظاهر الثراء ، وجرى بناؤها بأدوات فنية مســـتوردة من الخارج كما زينت بالفسيفساء على غــــرار ما تميزت به منشآت المــــدن التاريخية القديمة(٥٤) ·

على أنه من الملاحظ أيضا أن تلك القصـــور لم تكن مجرد مبـان للاقامة فقط ، انما ألحقت بها مخازن لحفظ البضائع ، وأخرى حولها اتخذت مقراً للبيع ، وبجـــوارها مكاتب لمباشرة النشـــاط الاقتصادى والأمور الادارية وللاشراف على الأرض والعمـــال بها(٥٥) · وخلصت المصادر فى هذا الى أن العدد التقريبى للتجـــار فى السلط بلغ ثمانمائة تاجراً فى حين بلغ سكان المـــدينة وما حـــولها ٤٢٠٠ نسـمة أى بنسبة ١ : ٥(٥٦) · على أن تلك الأرقام لاعـــداد التجار عامة والتى أوردتها المصادر الأمريكية،لم تتوقف عند أعداد (كبار التجار) كما هو ملاحظ، وانما كانت الغالبية العظمى من تلك الاعداد مجـــرد (تجار وسطاء) أتخذوا من أعمال (السمسرة) و (تجارة الجملة) و (مباشرة أعمال الصيرفة) حرفة لهم ، وهم فى هذا حلقة وصل بين الفئات العليا والدنيا، لكنهم ابتعدوا فى كثيرا من الأحيان عن الاقامةالى جوار كبار الرأسماليين، (أمـــلا فى جمع أكبر عـــدد من الاتباع حتى يتمكنوا من جمع عناصر القوة)(٥٧) التى تدفع بهم الى فئة الرأسماليين · ومع ذلك فان هؤلاء (الوسطاء) كانوا فى نهاية الأمر بالنسبة لسكان المدينة والحضر من حولها معدودين من التجار (وأصحاب الأموال)(٥٨) ·

---

(٥٤) N.A.890/O/15, From Wallace, Jerusalem, 14/11/1908.

(٥٥) N.A.890.3, From Selah Merrill, Annual Report on Affaires in Palestine, Jerusalem, 1893.

(٥٦) Ibid.

(٥٧) Ibid.

(٥٨) N.A.890.3, Op.cit.

وعلى جانب آخر فى التطور الاجتماعى للسلط وبشكل ملفت للنظر فقد تمكن تيار التدفق التجارى من سحب البساط من تحت أقدام المجتمع التقليدى (التداخل الزراعى البدوى) القائم منذ زمن بعيد حتى منتصف القرن التاسع عشر ليتجه بسرعة بعد ذلك نحو (مجتمع زراعى تجارى) بكل سماته وعلاقاته الانتاجية ٠

وقد جاء فى تقرير البطريركية البروتستانتية أن مجتمع السلط فى أواخر القرن التاسع عشر أنقسم الى قسمين : الأول وهم السكان الأصليون الذين أرتبطت حياتهم وتجزأت بين طبيعة المجتمع الزراعى وقبائل الصحراء وربما خلقته تلك العلاقة من سمات تبادل للمنافع بعيدا عن يد الدولة صاحبة السيادة ٠ والثانى هم الذين قدموا الى المدينة من بلاد الشام وغيرها وانصبت أنشطتهم على التجارة وأقراض الأموال،ثم تحولوا بعد ذلك الى ملاك للأراضى الزراعية أو كوسطاء ٠ وأرتبطت عناصر هذا القسم ارتباطا قويا بالجراكسة اللذين منحتهم الدولة العثمانية أراضى زراعية ارتبطوا بها جميعا (تجارا وملاك) حرصا على استمرار مصالحهم ٠ كما أرتبطت بهذا القسم الثانى أعداد وفيرة من القسم الأول، بعدما وجدوا أن هذا (الارتباط المستقر) جعلهم فى مأمن من تقلب أهواء ونزاعات القبائل التى كانت قائمة قبل ذلك(٥٩) ٠

وفى هذا يقول لورنس (أوليفية) (Lawrence Oliphant) الذى زار السلط عام ١٨٨٠م (ان مناخ الأمن السائد فى الاقليم كان عاملا من عوامل الجذب للاقامة والاستقرار بالمركز - السلط - وأن الوافدين من التجار العرب استطاعوا الحصول على مزيد من الأرباح والأموال من جراء نشاطهم المتزايد فى تجارة المحصولات والمواشى)(٦٠)٠

ولا شك فى أن علاقات الانتاج الجديدة والتطور الاجتماعى وليد النشأة لم يكن ليكتب لهما البقاء بعيدا عن مصلحة الدولة العثمانية التى

---

(٥٩) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident, 15/13 Report from Bellamy, Al Salt; October, 1871.

(٦٠) Oliphant (L.), The Land of Gilead, N.Y.1881, P.181.

استرعى نظرها تطورات النشـــاط الاقتصادى لقضـــاء السلط وامكانية الاستفادة منه ، بما يحقق خططها فى الاصلاح الذى كانت تتطلع اليه ، خاصة بعدما غرست بالمنطقة فئات موالية لها بدءا بالجراكسة ووصـولا الى التجار ليشكلوا خط دفاع بشرى ضد فوضى الضغوط البدوية الملاصقة . واستطاعت الدولة من خلال ذلك تحقيق هدفين أساسيين :

الأول : الهدف الأمنى باستقطاب هذه العناصر البدوية داخل اطار المجتمع الأكثر استقرارا والتخلى عن ممارسـة الاغارة والسلب والنهب . وقد أوردت بعض الوثائق التركية النتائج الايجابية لهذا التطور بانحسار عدد الهجمات من جانب البـــدو على الأراضى الزراعية والقرى فيما بين عام ١٨٧٦م وعام ١٨٩٣م على النحو التالى(٦١) :

العـام	حوادث الاعتداء
١٨٧٦م	٢١٦ حادثة
١٨٩٣م	٦٧ حادثة فقط

الثانى : وهو الهدف المالى اذ حدث تحسن ملحوظ فى زيادة ايرادات الدولة من ضريبة (ويركو التمتع)(٦٢) وهى الرسوم التى كانت تحصل على النشاط التجارى بصفة خاصة والتى تراوحت نسبتها منـــذ منتصف القر ن التاسع عشر بين ٣٠ و ٥٠ فى الألف قرشا.وقد لوحظ مدى الزيادة المضطردة فى قيمتها على النحو التالى(٦٣) :

---

(٦١) أرشيف استانبول : ييلديز سراى ، اوراق رقم ٩٢٧ ، ظـــرف رقم ٦٢ عام ١٣١١هـ .

(٦٢) كلمة تركية بمعنى المال الميرى أو الضريبة الرسمية .

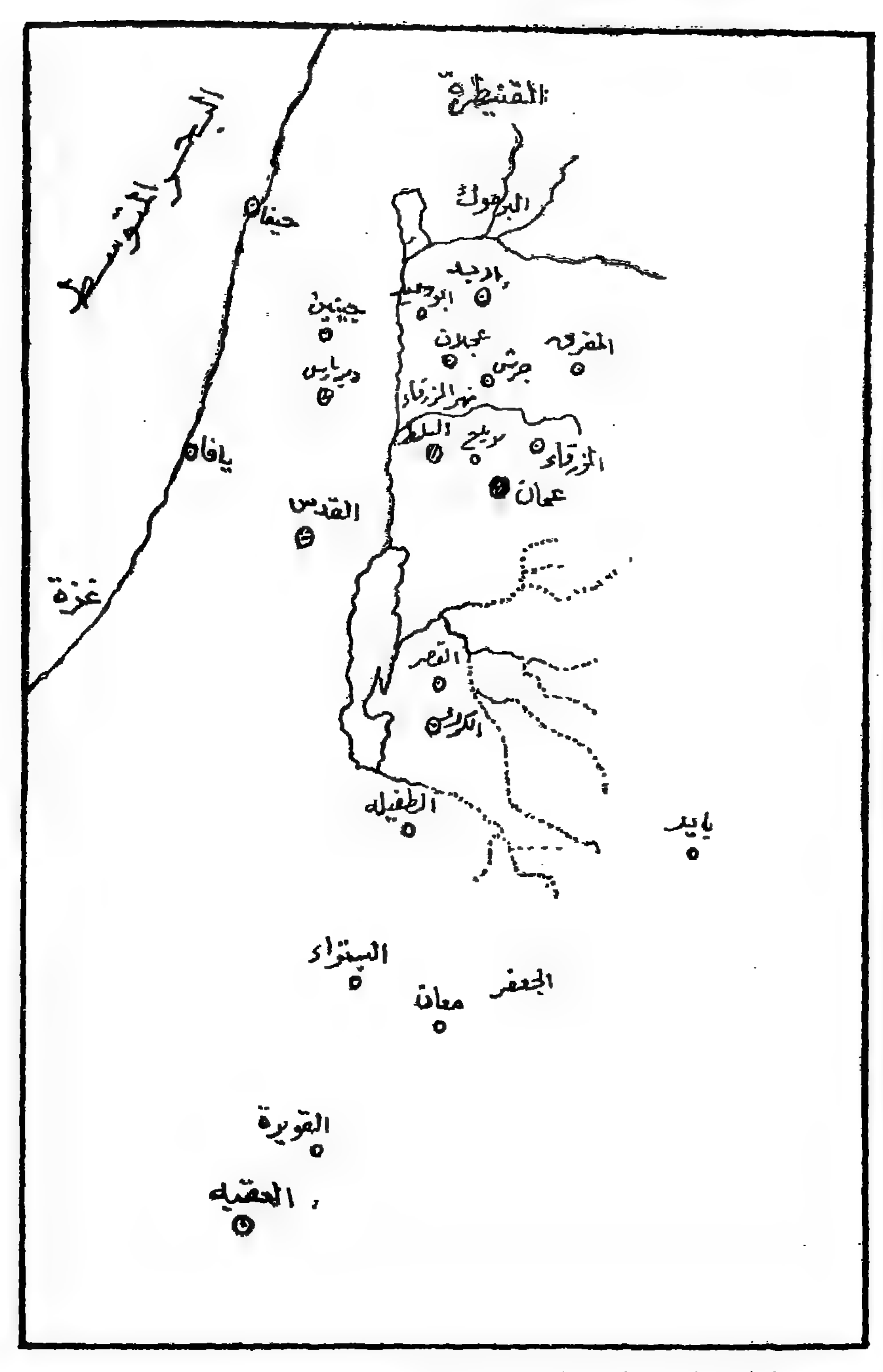
(٦٣) أرشيف استانبول : مالية ، وثيقة رقم ٦٥٢٣٠١ بتاريخ ٧ جمادى الاولى عام ١٢١٠هـ .

العـــام	الايراد من الضريبة بالقروش
١٣٠٥هـ/١٨٨٧م	٢٧٥/٥١٦ قرشاً
١٣٠٦هـ/١٨٨٨م	٢٨٩/٢٠١ «
١٣٠٧هـ/١٨٨٩م	٢٩٥/٨٧٤ «
١٣٠٨هـ/١٨٩٠م	٣٢٧/٦٤٢ «
١٣٠٩هـ/١٨٩١م	٣٤٨/٠٣٢ «

وبهذا النجاح الأمنى والمالى للدولة العثمانية والاستقرار الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، بدأت السلط تأخذ طابعا جديدا فى انماطها المتعددة حتى غـدت فى نهـــاية المطاف نواة للاستقرار والنمو لكثير من البقاع المحيطة بها خاصة (عمان) التى كانت فى وقت من الأوقات مجرد قرية تابعة لقضاء السلط حتى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م(٦٤) ٠

وأغلب الظن من خلال استقراء تلك التطورات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ان قيام امارة شرق الاردن عقب الحـــرب العالمية الأولى لم يأت من فراغ وانما كمنت وراءه الكثير من الأهداف الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ٠ ومن بين هذه الأسباب والأهداف كان موقع السلط وتنامى مركزها مع الرغبة فى احكام القبضة على المنافذ الجنوبية لبلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية لتعويض ما تطلع اليه الطامعون من سيادة على سورية ، وما خسروه فى جبهة (الحجاز) عقب الثورة العربية عام ١٩١٦م ٠

(٦٤ـ عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠



الموقع والخريطة منقولة من كتاب :
(أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين)
اعداد : د. حسن عبد القادر / قسطندى ابو حمود / عادل شحاده ومحمد السريانى ، عمان ١٩٧٣ .

مصـــادر البحث

أولا : وثائق بلغة أجنبية :

(أ) وثائق بريطانية

1. F.O.406/26, 16/1/1861
2. F.Oè1951/2706, 22/8/1890
3. F.O.78/20/6, 12/2/1861

هذا بالاضافة الى الوثائق المنقولة والمترجمة من كتاب :

شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠/١٩١٤ ، ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، بيروت ١٩٩٠ .

(ب) وثائق أمريكية : N.A.

1. N.A. 890/3/ , August, 1860
2. N.A. 890/3, 1893
3. N.A. 890/29, 30/6/1896
4. N.A. 890/0/17 12/1/1896
5. N.A. 890/2/ 1/2/1900
6. N.A. 890/15/ 16/9/1900
7. N.A.890/O/ 1900/1908
8. N.A. 890/15 14/11/1908

(حـ) وثائق الارساليات التبشيرية بالقدس والسلط

وأصول تلك الوثائق موجودة فى لنـــدن F.O. وصور منها فى مركز الوثائق القـــومى الأمريكى وتشـــمل (الارســالية البروتستانتية وبطـــرياركية اللاتين ، والكنيســـة الكاثوليـــكية ، وبلغت وثائق تلك الارساليات أربعة عشر مصنفا ، جمعت عى طياتها تقارير عن النشاط الذى كانت تقوم به تعليميا وثقافيا وصحيا فى بلاد الشـــام منذ بداية

القرن التاسع عشر ، بعضها احتوى على أرقام مسلسلة والآخر بدون ، واقتصرت غالبيتها على الفهرسة الزمنية،وما تم الاطلاع عليه فقط ما يلى:

1. Protestant Missionaries Resident : (P.M.R.) P.M.R.6/7?/266, October, 1871

2. Latin Patriarchat of Jerusalem, (L.P.J.) 1869

3. Archives of Church Missionary Society (C.M.S.) O13611/O 29/11/1879

C.M.S. 12/12/1899

ثانيا : سجلات محكمة السلط الشرعية : وصور منها أيضا موجودة بمكتبة الكونجرس (القسم القانونى) الشام ٠

١ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط ، المجلد رقم ٢ ٠

٢ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣٢٩/١٣١٥م) ٠

٣ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط رقم ٤ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ٠

ثالثا : المصادر التركية :

١ ـ أرشيف استانبول : مجلس والا ، رقم ١٩٧٠٢ ، ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ ٠

٢ ـ أرشيف استانبول: ييلديز سراى، ٩٢٧ ظرف رقم ١٣١١/٦٢هـ٠

٣ ـ أرشيف استانبول : مالية ، رقم ٦٥٢٣٠١ عام ١٣١٠هـ ٠

رابعا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ط٢ بيروت ١٩٨٤ ٠

٢ ـ بازيلى : سورية ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨م ٠

٣ ـ د٠ حسن عبد القادر وآخرون : اسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين ، عمان ١٩٧٣ ٠

٤ ـ شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠هـ/ ١٩١٤م ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ .

٥ ـ عبد العزيز محمد عوض : الادارة العمانية فى ولاية سورية ١٨٦٤هـ/١٩١٤م ، القاهرة ١٩٦٩ .

٦ ـ على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق ١٣٤٢هـ .

٧ ـ ملحم خليل عبده وآندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، ١٩٠٨م .

٨ ـ مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، ط٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ .

خامسا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Burchardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922

2. Buckingham (J.S.), Travels Among The Arab Tribes, London, 1925

3. Hill (Gray), A Journey of Petra, London 1897

4. Lamar and Thompson, The Frontier in History, New York, 1981

5. Schileher (Linda), The Huran Conflicts of the 1860 London 1881

6. Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria London, 1969

سادسا : حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ما يو ١٩٥١ .

باب عــرض الكتب (*)

نعرض فى هذا الباب أربعة كتب صدرت حديثا ، أحدها صدر فى أواخر عام ١٩٩٣ ، والثلاثة الأخرى صدرت عام ١٩٩٤م ، وكلها لأعضاء عاملين فى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ٠ وهيئة تحرير المجلة ترجو كل من يبعث اليها بكتاب من تاليفه أن يرفق به نبذة قصــيرة للتعريف بشخصه وعمله ونشاطه العلمى وانتاجه ٠



١ - الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى :

كتاب صدر فى دمشق ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم زعرور ٠ والكتاب يقع فى نحو مائتين وثمانين صفحة ، وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار بمقدمة علمية مسهبة ٠

ومن المعروف أن علم التاريخ يشكو دائما من نقص خطــير فى الجوانب الحضارية بوجه عام ، والاجتماعية والاقتصادية بوجه خاص ٠ والفكرة السائدة عند الكثيرين هى أن التاريخ لا يعنى أكـــثر من السرد السياسى للأحداث ، وما يرتبط به من قيام دولة أو حاكم وسقوط أحرى أو آخر ٠ وهكذا تأتى الحوادث المرتبطة بالحكومات ، والمواقع الحربية المرتبطة بالحروب والهجرات ، والثورات المرتبطة بالمشاعر والاحاسيس أو بالأطماع ٠٠ تأتى فى كتب التاريخ فى اطار رؤية سياسية ، غالبة ، بحيث يندر أن يتعرض باحث للظواهر والأسباب الاقتصادية أو للنتائج والاوضاع الاجتماعية التى كثيرا ما ترتبط بالمسيرة السياسية ٠

وربما أدى الى هذه الظاهرة أن الباحث فى دراســته لا يجد عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيما تحت أيديه من مصادر سوى اشارات عابرة متناثرة ٠ وحسب صاحب المصدر أن يعنى فى حولياته أو تراجمه

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد فى العام السابق مباشرة ٠

باخبار الحكام من خلفاء وملوك وسلاطين وأمراء ويسهب فى الحديث عن أعمالهم فى ميادين الحرب والسلم ، دون أن يتطرق الى معيشتهم أو يحاول تقصى ما يرتبط بحياتهم الخاصة ، وحياة رعاياهم على تباين فئاتهم وطبقاتهم • ومن هنا تأتى صعوبة البحث فى التاريخ الاجتماعى بوجه خاص ، لأن الباحث فى هذا الباب لايجد أمامه فى المصادر مادة علمية وفيرة يقتطف منها ويبنى عليها بحثه ، وانما هى اشارات مبعثرة لا تربط بينها وبين بعض روابط ، وربما جاء ذكرها عن طريق المصادفة العابرة •

وقد اختار الدكتور ابراهيم زعرور أن يخوض فى هذا المجال الصعب • ولا شك فى أنه تحمل الكثير حتى أخرج لنا كتابه عن الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى • ومن الثابت أن هذه الحقبة الزمنية التى تحرك الباحث داخل اطارها غنية بالأحداث، اذ يكفى أنها شهدت ظهور بيوت حاكمة جديدة،وقيام عناصر غير عربية فى حكم بلاد هى أجزاء من صميم الوطن العربى • وهؤلاء الوافدون حملوا معهم الكثير من العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مما أحدث تفاعلا بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين • ومثل هذا يقال عن مجىء الصليبيين من غرب أوربا الى بلاد الشام ، يحملون حرابهم وسيوفهم ويحملون أيضا أصولهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم • ولاشك فى أن بقاء الصليبيين على أرض الشام وبين أهلها قرابة قرنين من الزمان _ شغلت العصر الأيوبى بأكمله وشطرا من فجر عصر سلاطين المماليك _ أدى الى ظهور تأثيرات غربية _ ولو طفيفة _ فى المجتمع الشامى ، وان كانت دون التأثيرات التى خلفها المجتمع الاسلامى فى الصليبيين •

فى هذه الميادين الصعبة المتفرقة ، تحرك الباحث _ الدكتور ابراهيم زعرور _ فقدم للقارىء دراسة دسمة عن ماهية الحياة الاجتماعية وأوجه النشاط فى المدن الشامية ، وعرض حياة المزارعين وأهل البادية • وكل ذلك من منظور اجتماعى ، وباسلوب هادىء متزن ، معتمدا على عدد كبير من أمهات المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة •

٢ - بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية - الجزء الأول :

تأليف دكتور غيثان بن على بن جريس - أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة الملك سعود - فرع أبها .

كتاب فى نحو ثلثمائة وثلاثين صفحة ، صدر عن دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية سنة ١٩٩٤م .

والكتاب يضم أربعة عشر بحثا فى التاريخ الاسلامى ، فى موضوعات متفرقة متباينة لا يربط بينها الا وحدة الفكر ووحدة التعبير بوصفها جميعا بقلم باحث واحد ، فضلا عن أنها جميعا تدور داخل اطار التاريخ الاسلامى .

وفى المقدمة التى قدم بها الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لهذا الكتاب ، أشار الى أنه صار من المألوف أن يلجأ باحث الى جمع عدد من بحوثه التى نشرها فى أماكن متفرقة - وربما فى أوقات متباعدة - ليصدرها فى مجلد أو أكثر ، حتى يتسنى لأكبر عدد من الباحثين الرجوع اليها والافادة منها . ذلك أن غالبية بحوث الباحثين تنشر فى مجلات علمية ضيقة الانتشار ، مما يجعلها صعبة المنال .

وهكذا نحا الدكتور غيثان بن على بن جريس نحواً محموداً ، فجمع عددا مختاراً من بحوثه التى تعرضت لجوانب شتى فى التاريخ الاسلامى، وأصدرها فى هذا الكتاب . وتتصف هذه البحوث بالأهمية حيث أنها تتعرض لجوانب فى التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى ، مثل العلاقات بين الحجاز من جهة وبلاد الحبشة من جهة أخرى فى صدر الاسلام ، وطرق التجارة البرية والبحرية التى ربطت الحجاز بالعالم الخارجى فى فجر الاسلام ، وعلاقة علماء الحجاز بالخلفاء العباسيين ، وهيئة الملابس العربية فى صدر الاسلام ... وغير ذلك من الموضوعات الجديدة الشيقة التى تجعل من هذا الكتاب مطلبا محموداً فى مجال دراسة التاريخ الاسلامى .

٣ ـ الدولة اليهـــودية :

تأليف تيودور هرتسل ، ترجمة محمد يوسف عـــدس ، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم ٠

كتاب فى مائة وأربعين صفحة ، صدر عن دار الزهـــراء للنشر ، ١٩٩٤م مؤلف الكتاب أحد أقطاب الفكر الصهيونى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين (١٨٦٠ ـ ١٩٤٩م) وهو مجرى المولد والنشأة ، كرس حياته الطويلة لخـــدمة الصهيونية ، وتحديد أهدافها العالمية ، والتخطيط لسياستها فى الداخل والخارج ، فى الباطن والظاهر ٠ ويكفى أن نشير الى أن هـــذا الرجل هو صاحب الدعوة للمؤتمر الصهيونى الأول الذى عقـد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، وهو المؤتمر الذى فتح الباب أمام خمسة مؤتمرات أخرى عقدت كلها فى حياة هرتسل ، وجاءت متممة للمؤتمر الأول ٠

وفى هذا الاطار تحرك هرتسل بوصفه المخطط للسياسة الصهيونية، الموجه لمسيرتها ، وعبر عن آرائه وتصوراته وخططه فى هذا الكتاب الذى لم يلبث أن غدا بمثابة دستور للحركة الصهيونية العالمية ، حتى أن كثيرا من اليهود اعتبروا هـــذا الكتاب فى أهميته يأتى مباشرة بعـــد التوراة والتلمود ٠

يقارن هرتسل فى كتابه بين فسـلطين والأرجنتين ، وأيهما أصلح لتكون مقرا لدولة يهـــودية فيقول « ان فلسطين وطننا التاريخى الذى لا تمحى ذكراه ٠ ان اسم فلسطين فى حد ذاته كفيل بأن يجتذب شعبنا بقوة وفعالية رائعة ٠ فاذا منحنا جلالة السلطان (العثمانى) فلسطين ، سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم الاوضاع المالية فى تركيا ٠ ومن تلك البقعة سوف نسهم فى دعم استحكامات أوربا فى مواجهة آسيا ، بحيث نشكل موقعا أماميا للحضارة فى مواجهة البربرية ٠ وعندئذ علينا كدولة طبيعية تقوم على أرض فلسطين أن نظل على اتصـــال بكل أوربا التى سيكون من واجبها أن تضمن بقاءنا » ٠

هكذا كان يخطط اليهود لدولتهم منـــذ ســـنوات بعيدة فوضعوا قواعد السياسة التى تتبعها دولة اسرائيل اليوم ٠

وربما كان من العوامل التى أضرت بقضـــية العرب ازاء قيام دولة يهودية على أرض فلسطين ، أنهم لم يحاولوا فى الوقت المناســب فهم نوايا أعدائهم وخططهم ، وأسلوبهم فى التنظيم والعمل ، فقاطعوا الفكر اليهودى ضمن سياستهم فى مقاطعة اسرائيل ، وبذلك ظلوا بعيدين عما تستهدفه السياسة الاسرائيلية من أهداف ٠

واذا كان الاستاذان محمد يوسف عدس والدكتور عادل حسن غنيم قد حرصا على ترجمة كتاب تيودور هرتسـل عن الدولة اليهـــودية الى العربية ، فان هذا العمل فى الواقع يعتبر اسهاما منهما فى تبصرة الفكر العربى والانسان العربى بحقيقة الخطر الصهيونى ، وأسلوب الصهاينة فى العمل والتخطيط ٠

والكتاب يتصف بدقة الترجمـــة وأمانة التعبير وســـلامة الاسلوب والحرص على تقديم المعنى على حرفية اللفظ ٠

٤ ـ دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد :

تأليف الباحث الأردنى دكتور فهمى توفيق مقبل ٠

كتاب فى نحو مائة وخمسين صفحة ، صدر عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ، ١٩٩٤ ٠

يعالج المؤلف فى هذا الكتاب حلقة هامة فى تاريخ العرب فى عالم البحار ٠ ذلك أن السائد عذ الباحثين هو أن نشـــاط العـــرب البحرى ـ وبخاصة تحت مظلة الاسلام ـ اقتصر معظمه على الجانب الشرقى من العالم المعروف ، أعنى على البحار المحيطة بشبه الجـــزيرة العربية ، والممتدة الى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ٠

هذا بالاضافة الى الدور الخالد الذى نهض به العرب فى بحر الروم، حتى فجر العصور الحديثة ٠

وحول هذه المحاور تحرك العـــرب يقطعون البحـــار ، تجـارا ومهاجرين ، طلاب دين ورزق وعلم، دعاة فكر وعقيدة ، غزاة وفاتحين٠ أما البحر المحيط ، وهو المحيط الواسع الذى نطلق عليه اليـــوم اسم

المحيط الأطلسى ، فقد وقف أمامه العــرب وقفـــة المتخوف حتى انهم أطلقوا عليه اسم بحر الظلمات ونظروا اليه نظرة تفيض بكل ماتعبر عنه الظلمة من آفاق مجهولة ٠

ولكن الدكتور فهمى توفيق مقبل ، أثبت علميا أن هــذه القطيعة بين العرب والبحر المحيط - أو بحر الظلمات - لم تطل ، وأن العـرب عندما استقرت لهم الأمور فى الجناح الغربى للدولة الاسلامية ، قـرروا اقتحام ذلك العالم المجهول للوقـــوف على أسراره ٠ وربما كان ايمانهم بكروية الأرض - وهى الحقيقة التى ألح عليها وتمسك بها الجغرافيون المسلمون - سببا حفزهم لاقتحام بحر الظلمات فى محاولة للوصول الى شرق القارة الآسيوية ٠

وفى مهارة الباحث المدقق الذى لا يستهدف الا الوصول الى الحقيقة تتبع الدكتور فهمى توفيق مقبل نشاط العرب البحرى فى بحر الظلمات - مستعينا بما جاء فى أدق وأوفى المصـــادر التاريخية والجغرافية من معلومات واشارات ، مستشهدا بنصوص واضحة لا مجال للشك فيها أو الاقلال من قيمتها ٠

ثم ان الباحث لم يكتف باثبات أن العرب فى ظل الاسلام استخدموا عددا من الأجهزة العلمية فى ارتياد البحار ، ووضعوا الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنتهم من عبور بحر الظلمات ، وانما استطاع الباحث أن يبرز حقيقتين :

الأولى : هى أن العرب كانوا أســبق من كريستوفر كولمبس فى اكتشاف العالم الجديد ٠ والحقيقة **الثانية** هى أن كولمبس نفسه استعان بالخرائط التى وضعها العرب والأجهـــزة التى استخدموها فى ارتياد المحيط ٠

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية - تاريخية جغرافية - تشــهد لصاحبها بالكفاية والقدرة على الاتيان بجديد فى عالم البحث ٠

رئيس التحرير

اســـــتدراك لمقـــال

«حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى»

للأستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد

المنشور فى العدد الثانى من المجلد الأول ص ٣٣ ـ ٧١

وقعت بعض اخطاء مطبعية فى هذا المقال بسبب صـــعوبة رســـم الحروف والكلمات ، كما كانت بعض نقاطه محـل استفسارات من بعض الزملاء ، وفيما يلى تصحيح الاخطاء المطبعية وتوضيح النقاط الغامضة .

ص٣٢ سطر٣ (من أسفل) : كتبت عبارة « نصوص معينة » وصحتها « نصوص معينية » (نسبة الى دولة معين القديمة فى شمال اليمن) .

ص٣٩ السطر الأول وتوضيحه كما يلى : « ورغم هـــذه الحقائق الواضحة ، فان بعض الباحثين المصريين الذين نشروا بحوثا فى مجال نشاط المصريين فى البحر الأحمر مازالوا ينادون ..... (الى آخر الفقرة) .

ص٣٩ سطر٧ (من أعلى) وصحته كما يلى : « تفسيرات خاطئة لبعض النصوص والرسوم .... »

ص٣٩ سطر ١٣ (من أعلى) كلمة « رم » صحتها « ارم » .

ص ٤٥ السطر الثالث (من أسفل) وصـحته كما يلى : « هـــذه الاستنتاجات أسست على معلومات نقلت من مصادرها نقلا غير صحيح».

ص٥٠ سطر ١١ (من أعلى) وصحته كما يلى : « وبطبيعة الحال ليست هناك حاجة لمناقشة ترجماته لهذه النصوص » .

ص٥٠ سطر ١٥ (من أعلى) صحه هذا السطر كما يلى : يجعل ترجمات الباحث لهذه النصوص لا تستند الى أى أساس » .

ص ٥٠ نقل السطر الهيروغليفى من الأصل بترتيب مختلف للعلامات الهيروغليفية وفيما يلى قراءة هذا السطر بالترتيب الصحيح للعلامات وبالحروف العربية تيسيرا لعملية الطبع :

« سبر نسو ويت ار تا ـنثر ـ انتى ام ـ خت ٠ اف تبى ام وروو نو بونت »

ص ٥١ مثل السطر السابق نقل هـــذا السطر الهيروغليفى بترتيب مختلف وفيما يلى قراءته بالتربيب الصحيح :

« نجا حنع٠ان ان نهوت عنتيو حريت ـ ايب تا ـنثر بر امن »

ص٥١ السطر الثانى أسفل النص الهيروغليفى المذكور أعلاه : كتب رقم الحاشية (٥٦) وصحته (٥٧) ٠

ص ٥٦ السطر الأخير فى النصف الايمن من الصفحة : كتبت عبارة « وادى الحمامات » وصحتها «ووادى الحمامات» (اضافة واو العطف)٠

ص٥٦ السطر الثالث من أســـفل فى النصف الأيسر من الصفحة : كتبت كلمة « اون » وصحتها « ا ن و » ٠

ص٥٧ السطر الأخير صحته كما يلى « « ويبدو أن السبب فى هذه الاستنتاجات غير المنطقية للباحثة ٠٠ » ٠

ص٥٨ سطر ١٢ (منأسفل) كتب رقم الحاشية (٨٩) وصحته (٨٠)

ص٦٣ السطر الرابع (منأعلى) يصحح كما يلى : « فان مؤلفات ودراسات الباحثين المصريين عامة والمتخصصين منهم فى هذا المجـــال خاصة مازالت للأسف الشديد تخلو ٠٠٠٠ » ٠

وكذلك يضاف الى نهاية هذه الفقرة المراجع التالية :

ـ عبد العزيز صالح ، « شبه الجزيرة العربية فى النصوص المصرية القديمة « مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ ـ ٣٢٢ ٠

- أبو العيون بركات ، « بونت بين المصـــادر المصرية واليمنيـة القديمة » مجلة اليمن الجديد ، صنعاء ، فبراير ١٩٨٦ ، ص٩٤ - ١٠٩.

ص٦٣ سطر٨ (منأعلى) سقط رقم الحاشـــية لهذا المرجع الألمانى والتعليق عليه وهما كما يلى :

4. M.Hilzheimer; "Zur Geographischin Lokalisierung Von Punt" Z.A.S.68 (1932), S. 112-114.

ورغم مرور ما يقرب من ستين عاما على نشر هـــذه المعلومة التى توصل اليها هلسهيمر ورغم انتشارها فى كل المؤلفات الأجنبية ، ورغم اننى نشرتها فى بحثين احدهما صــدر عـــام ١٩٧٤ بعنوان « محاولة لتحديد موقع بونت » ص ٢٣ ، والآخر عام ١٩٧٩ بعنوان « الجزيرة العربية ومناطقها فى النقوش القديمة فى مصر » .

ص٤١ ، ورغم أن الباحث رجع الى هـذا البحث الأخير ، الا أنه نقل عنى هذه المعلومة نقلا خاطئا عندما نسب الى اننى ذكرت فى بحثى الثانى أن حيوان الزراف الذى ظهر فى رسوم بعثة حتشبسوت الى بونت كان ضمن السلع المنقولة الى مصر (ابة العيون بركات ، بونت ، ص ١٠٩ هامش رقم ١) وأن هذا الحيوان لم يظهر داخل القرية فى مناظر بونت (نفس المصدر ص ٩٤) وذلك لكى يثبت أن بونت تقع فى اليمن.

ص٦٣ حاشية رقم (٦) : تصحح كلمة «المؤتمرات» الى «المؤثرات» وتوضح هذه الحاشية كما يلى :

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراســـة تاريخية للصــلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة كلية آداب الاسكندرية ،(١٩٧٣) ص ٤٨ وما بعدها ، والمصدر الأساسى الذى أعتمدت عليه فى هذه المعلومات هو:

E.Schiaparelli; La Geografia dell'Africa Orientale secondo le Monumenti Egiziani, Roma, (1916) pp.115-119.

وقد ظهر فى السنوات الأخيرة كتاب يعالج نفس الموضوع ويتبع نفس

طريقة هذا المؤلف ويتضح لمن يراجع الكتابين أن مؤلفة الكتاب أعتمدت اعتمادا أساسيا على كتاب سكياباريللى هذا ولكن للأسف دون أن تشير اشارة واحدة اليه ، وعنوان هذا الكتاب هو :

Karola Zibelius, Afrikanische Orts-und Völkernamen in hier oglyphischen und hieratischen Texten, Wiesbaden, 1972.

ص٦٤ حاشية (25) تصحح كما يلى "p. 173 No. 427p.213"

ص٦٧ حاشية رقم (٥٨) كتب رقم الصفحة «٧» وصحته «٨٧» .

ص٦٧ حاشية رقم (٦٣) كتب اسم المؤلف R.Falker وصحته R.Faulkner

ص ٦٧ سطر٣ (من أسفل) صحته كما يلى « فان الاقرب الى الصواب أن يكون الاله ..... »

ص٧٠ حاشية رقم (٨٩) طبعت الكلمة الهيروغليفية مقلوبة .

مؤتمـــــــــر

الجمعيـــة العمومية الثـــانية
لاتحـــاد المؤرخـــين العـــرب

القـــاهرة ٢

جمادى الآخرة ١٤١٥هـ/نوفمبر ١٩٩٤م









بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية

اتحاد المؤرخين العرب

بالقاهرة

—

برنامـــــج

الجمعية العموميــة الثانيــــة

٢٣–٢٤ جمادي الآخرة ١٤١٥ هـ

٢٦ – ٢٧ نوفمبـــــر ١٩٩٤ م

اليوم الأول

(السبت ٢٣ جمادي الآخره ١٤١٥هـ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤م)

الجلسة الأولي الساعة العاشرة صباحا (١٠ - ١٢)

- تقريـــر رئيـــس الاتحـــاد
- مناقشة تقرير رئيس الاتحاد

استراحة وتناول الشاي لمدة نصف ساعة

الجلســة الثانيــــة (١٢٫٣٠ - ٢)

- التقرير المالي يقدمه الأستاذ الدكتور أمين الصندوق ومناقشته.

الغـــــــــذاء (الساعة الثانية)

الجلســة الثالثـــــة (٤ - ٦)

عمليات انتخاب :

- رئيـــس للاتحـــاد.
- نائب رئيس للاتحاد.
- أعضاء لجنة الأمناء أو مجلس الإدارة.

اليـــوم الثانـــي
(الأحد ٢٤ جمادي الآخرة ١٤١٥هـ - ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤م)

الجلســـة الرابعـــة (١٠ - ١)

- آراء ومناقشات ومقترحات الأعضاء.
- قـــرارات.
- ختـــــام.

الغـــذاء (الساعة الواحدة)

جولـــــة حـــرة

السابعة مساء مغادرة الفندق لتناول العشاء بالخارج

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــرير رئيس الاتحـاد

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

مرحبا بكم فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، وفى ظل هذا الاجتماع الثانى لجمعيته العمومية ، وهو الاجتماع الذى ينعقد وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، الصـــادرة فى جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ/ديسمبر سنة ١٩٩١م ٠

حضرات الاخوة الزملاء

الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات على قيام اتحاد المؤرخين العـرب بالقاهرة ، لابد من وقفة قصيرة لمراجعة النفس ، والتحقق من ســلامة المسيرة ، والنظر فى الانجازات التى تحققت ، والكشف فى أمانة عن الصعوبات التى واجهت الاتحاد فى هذه السنوات ، والكيفية التى يمكن بها التغلب على هذه الصعوبات ٠

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

تذكرون جميعا أن هذا الاتحاد ولد فى القاهرة فى ظـــروف صعبة بناء على طلبكم ٠ والوليد لا يمكن أن يولد كبيرا ناضجا مكتملا ، وانما هو ينمو مع الوقت حتى يشتد عوده ويقوى بنيانه ٠ ولابد فى مرحـــلة النمو هذه من أن تعترضه بعض صعوبات ، فيكون ذلك اختبارا للوقوف على حسن الاستعداد ومدى القدرة على الثبات ٠ وليس عيبا أن يتعرض الانسان العامل لصعوبة ولكن العيب هو ألا يحاول الاستفادة من التجارب التى يمر بها والصعوبات التى يصادفها فى مسيرته البناءة ٠

وعندما شرفنى الاخوة الزملاء منذ ثلاث سنوات باختيارى رئيسا

لاتحادهم ، أدركت منذ اللحظة الأولى أن الأمانة ضخمة وأن الحمل ثقيل ، ولكن بعون الله وبعونكم وضعنا لهذا الاتحاد الوليد أساسا سليما، وفر لهذا البنيان دعائم قوية قوامها حسن النوايا وسلامة الخلق والجدية فى العمل . لقد أعلنها هذا الاتحاد منذ مولده بالقاهرة أنه قام لا ليصفق لفرد أيا كان أو ينحنى أمام نظام تحت تأثير الخوف والرعب والتهديد والابتزاز ، وانما قام للحفاظ على التراث العربى وحمايته وتنقيته مما لحق به من شوائب ، فضلا عن الحفاظ على كرامة المؤرخ العربى بعد أن جعل منه اتحاد حكومة بغداد البائد دمية مأجورة لا عمل لها الا أن ترقص أمام حاكم بغداد وتسبح بحمده وتبارك سياسته العدو انية فى الداخل والخارج .

حضرات الاخوة الزملاء

ان عدد المقبلين على الانضمام الى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى تزايد مستمر ، حتى قارب الثلاثمائة عضوا .واذا كنا نفخر اليوم بنمو المدرسة التاريخية العربية على الصعيدين المحلى والعالمى ، فما أحوجنا الى العمل على حماية هذه الأسرة مما قد تتعرض له من صعاب ، مع الحرص على تماسك بنيانها ووحدة صفها وتحقيق الترابط بين أعضائها تحت مظلة العروبة . وهذا الاتجاه كفيل بأن يجعل المؤرخ العربى يشعر فعلا بأن له كيانا جديرا بالتقدير والاحترام فى مجتمع يعتز بتراثه وأصوله وتاريخه المشرف .

حضرات الاخوة الزملاء

لا نريد أن نتهم بالمبالغة فى تقدير ما أنجزناه فى هذه السنوات القليلة من أجلكم ومن أجل اتحادكم ، لكننا مضطرون لأن نعلنها فى تواضع أننا بفضل الله وبفضل تأييدكم لنا وبفضل معونة أعضاء اللجان - وبخاصة أعضاء مجلس الاتحاد - الذين دأبوا على مراسلتنا وامدادنا بآرائهم السديدة ، أمكننا أن نحقق الكثير فى حدود الزمان والامكانات المتاحة لنا ، وما كلف الله نفسا الا وسعها . وعندما نشكر الأعضاء والزملاء جميعا بلا استثناء الذين قدموا لنا ولاتحادكم الكثير من الجهد والعطاء، أرى من واجب الأمانة أن أذكر اسم الرجل المتواضع الذى يفضل دائما

أن يكون بعيدا عن الأضواء ، الأخ الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل نائب رئيس الاتحاد ووكيل جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض، ويكفى أن أقول أنه قدم لاتحادكم الكثير فى صمت وهدوء ٠

حضرات الاخوة الزملاء

لقد بدأ هذا الاتحاد مسيرته قبل أن يكون له مقر أو مأوى ، ولكن بناء على دعم من رئيس جامعة القاهرة السابق ـ الأستاذ الدكتور مامون محمد سلامة ـ حصلنا على مقر مؤقت بجامعة القاهرة ٠ ومازلنا نسعى لدى الحكومات العربية حتى قامت حكومة الكويت بشراء المقر الحالى فى مكان هادىء بمدينة نصر بالقاهرة ، وقدمته للاتحاد ليكون مقرا له٠

وما كدنا نطمئن على أن اتحاد المؤرخين له بيت يمكن أن تباشر منه شئونه الادارية وينطلق منه نشاطه العلمى ، حتى بادرنا بالسعى لتسجيله رسميا وفقا لقوانين الدولة التى استضافت الاتحاد٠وتم عن طريق مكتب كبير من مكاتب المحاماة بالقاهرة اشـــهار الاتحاد رســـميا برقم ١٠٩٢ وتاريخ ٢٢ مارس ١٩٩٢ وبذلك صار الاتحاد هيئة مرخصة معترف بها رســميا ٠

ثم كان أن أخذنا فى تجهيز المقر الجـــديد بالأثاث المكتبى اللازم والاضاءة الكافية ، وأعـــددنا فيه قاعة للمحاضرات والندوات واللقاءات المحدودة العدد ٠ أما الاجتماعات الموسعة الكبرى مثل اجتماعنا اليوم ، فلا يوجد ما يحول دون اختيار احدى القاعات الفسيحة لعقدها فيها ، وهذه ظاهرة تتكرر بين حين وآخر ٠ وسننظم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر الغد زيارة لمن يرغب منكم للمقر الجـديد لتقفوا بأنفسكم على ما أنجزناه فى اعداده وما نبذله من جهود ٠

ولم يقف نشاط الاتحاد فى هذه السنوات الثلاث عند هذا الحد ، وانما أرسينا أسس اصدار مجلة المؤرخ العربى فى وضع جديد منتظم ، وصدر منها العددان الأول والثانى ، ويجرى الاستعداد لاصدار العـــدد الثالث قريبا ان شاء الله ٠ وقد راعينا فى هذه المجلة أن تكون بحوثها

محكمة حتى تصبح منارا لعلم التاريخ بوجه عام وتاريخ العرب والعروبة بوجه خاص ، كما فتحت المجلة صدرها لأعضاء الاتحاد من الباحثين على تباين درجاتهم العلمية بحيث لا يحرم المؤرخ الناشىء من أن يجد له مكانا يمكنه من شق طريقه ليصبح مؤرخ المستقبل . كل ذلك فى حدود الالتزام بالمنهج التاريخى السليم والحرص على المستوى العلمى المنشود. ومع التمسك بالحيدة المطلقة أخذت مجلة المؤرخ العربى تشق طريقها فى الأوساط العلمية ، حتى أن بعض الهيئات على المستوى العالمى طلبت منا تزويدها بانتظام بالاعداد التى تصدر من هذه المجلة . ومع كل ذلك فاننا نشعر بأن مجلة الاتحاد في حاجة الى مزيد من الجهد لتصبح فى مجال الريادة العلمية فى عالمنا العربى .

وفى اطار النشاط العلمى للاتحاد فى هذه السنوات الثلاث تم عقد ندوتين ، تعقد ثالثتهما بعد غد ان شاء الله . الندوة الأولى شارك فيها الاتحاد قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، بوصفها الجامعة التى استضافت الاتحاد قبل أن ينتقل الى مقره الجديد ، وكان موضوع هذه الندوة « مصر والجزيرة العربية بين الماضى والحاضر والمستقبل ». وقد عقدت فى ابريل سنة ١٩٩٣ . أما الندوة الثانية فكان موضوعها « الحضارة الاسلامية وعالم البحار» . وقد عقدت فى نوفمبر سنة ١٩٩٣، وشارك فيها عدد كبير من الأعضاء ببحوثهم وآرائهم وتم عقدها بمقر الاتحاد فى مدينة نصر ، وأصدر الاتحاد كتابا يضم بحوث هذه الندوة .

حضرات الاخوة الزملاء

.. لقد وضعنا سياسة لاتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد ، محورها دعم الصلات الروحية والفكرية بين أعضاء الاتحاد ومركزه فى القاهرة . ولعل هذا يفسر كثرة المراسلات المتبادلة بيننا وبينكم والتى تستهدف اطلاع الزملاء على مسيرة الاتحاد من جهة والحفاظ على الخيوط التى تربط أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض من جهة أخرى . واذا كان البعض قد شكا من عدم وصول رسالة اليه ، فاننا نرجو ألا يعتبر ذلك تقصيرا منا ، وانما هو الخلل فى وسائل المواصلات ومنها البريد ، مما نعرفه جميعا .

ويسوقنا هذا الى الاشارة الى الصعاب الأساسية التى واجهها ويواجهها الاتحاد فى مرحلة الفطام الحالية • وأولى هذه الصعاب ما يتعلق بالتمويل • فاتحاد المؤرخين العرب الذى يشعر بجسامة مسئولياته وخطورة رسالته فى خدمة الأمة العربية ينتظر أن تكون المعونة التى يتلقاها من الحكومات العربية القادرة تتناسب مع أهمية رسالة الاتحاد وثقل أعبائه • وقد وجهنا نداءا الى كافة الحكومات العربية لتقدم العون لاتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد ، وهى الحكومات التى كان بعضها يمد اتحاد بغداد البائد _ تحت تأثير الارهاب والخوف _ بالأموال والدعم السخى ، ولكننا لم نظفر للأسف الا بمعونة محدودة ولكنها محمودة من سمو الأمير سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة ، وحكومة الكويت ، فضلا عن الأجهزة المختصة فى حكومة المملكة العربية السعودية •

واذا كان مطلوبا من اتحاد المؤرخين العرب أن يمارس نشاطا واسعا متعدد الآفاق ، فان هذا النشاط يتطلب نفقات لا يقوى الاتحاد فى ظل وضعه المالى الحالى على الوفاء بها • ونحن لا نطلب معونة لتوزيعها فى صورة أموال (وأوسمة) على الأتباع من المأجورين والمرتزقة وأصحاب الذمم الخربة مثلما كان يفعل اتحاد حكومة بغداد ، وانما نطلب معونة لننفق منها تحت اشرافكم ورقابتكم على أوجه نشاط الاتحاد البناءة • وبعبارة أخرى فاننا نأمل فى أن تكون للاتحاد موارد ثابتة تمكنه من مواصلة نشاطه بصفة مستمرة دون توقف •

ومرة أخرى نهيب بالحكومات العربية الواعية أن يتفهم العاملون فيها والمسئولون عن سياستها حقيقة ما يمكن أن يقدمه اتحاد المؤرخين العرب فى وضعه النقى الجديد الى بلادهم وعروبتهم من خدمات • وعلى هذه الحكومات تقع مسئولية العمل على احياء تراث هذه الأمة وحمايته من الضياع وربط الحاضر بالماضى ، فمن لا ماضى له لا حاضر ولا مستقبل له ، واليوم نبع من الأمس ، وغدا ينبع من اليوم • وليذكر هؤلاء أنهم سيحاسبون أمام محكمة التاريخ فى يوم من الأيام على تقصيرهم أو على سياستهم ذات الوجهين ، والتاريخ لا يرحم •

(مجلة المؤرخ العربى)

ولا أخفى عن حضراتكم أن مقر الاتحاد الجـــديد مازال فى حاجة الى مكتبة لائقة تضم مصادر التاريخ الأساسية فضـــلا عن بعض الأجهزة العلمية وغير العلمية الأساسية، منها آلة تصوير ونسخ الأوراق ، وكمبيوتر لحصر أسماء الأعضاء والمؤلفات والبحوث التاريخية ، وجهاز لقـــراءة المخطوطات Projector وفانوس وشاشة لعرض اللوحات والصور ، وميكروفون ، وأربعة أجهزة على الأقل للتكييف ... وهذه كلها قد تبدو بسيطة ولكنها متطلبات أساسية ليصبح مقر الاتحاد مهيئا لممارسة نشاطه العلمى والادارى . هذا وقد زودنا المقر بخطى تليفون وجهاز فاكس أهداه للاتحاد الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل .

حضرات الاخوة الزملاء

لقد أدت الصعوبة المالية التى يعانى منها الاتحاد الى تعذر تنفيذ بعض ما جاء فى لائحة الاتحاد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه اتضح من واقع الممارسة أن هناك بعض بنود فى هذه اللائحة فى حاجة الى تعديل . ومن المعروف أن العبرة ليست بوضع اللوائح والقوانين وانما العبرة بالقدرة على تنفيذ أحكام هذه اللوائح والقوانين . والمحك هو التجربة والتطبيق .

وأولى الصعاب التى واجهتنا عند التنفيذ هى تدبير نفقات دعوة أعضاء مجلس الاتحاد - وعددهم ثلاثة عشر عضوا - لعقد جلسات شهرية فى القاهرة للنظر فيما يعرض عليهم من أمور . والملاحظ أن لجنة مجلس الاتحاد هذه تضم أعضاء يمثلون مختلف أجنحة وبلدان العالم العربى من المغرب الى الخليج ، ومعنى هذا أن نفقات انتقالهم الى القاهرة لحضور اجتماع واحد يتطلب نحوا من عشرين ألف دولار . فاذا تكررت هـــذه العملية كل شهر ، فمن أين نحصل على المورد أو المصدر الذى يمدنا فى العام الواحد بأكثر من مائة ألف دولار لتغطية نفقات انتقال أعضاء لجنة الأمناء ، بصرف النظر عن نفقات الاقامة. لقد اقترح بعض الاخوة الزملاء أن يتحمل أعضاء المجلس نفقات تنقلاتهم ، ومع أننا لا نقر هذا المبدأ ، الا أننا فى ضوء ما تقرونه نأمل أن يكون حضورهم للاجتماع مرة كـــل ستة أشهر على أن تتحمل جامعاتهم أو الأجهزة المختصة فى بلادهم نفقات انتقالهم والأمر مطروح عليكم لاتخاذ القرار المناسب .

وما دمنا بصدد الصعوبات التى تواجهنا فى التنفيذ ، فلا بأس من أن نطلب من الاخوة الزملاء أن يسهلوا علينا مهام العمل ،بالحرص على تسديد اشتراك العضوية الزهيد فى موعده ، وعلى من يريد الانضمام الى أسرة الاتحاد أن يبادر بطلب العضوية فى الوقت المناسب لا قبل انعقاد الجمعية العمومية بأيام أو أثناء انعقاد هذه الجمعية،فهذا أمر مرفوض. وننتهز هذه الفرصة لنعلنها فى وضوح أنكم غير مستعدين لقبول عضوية أصحاب الوجهين ممن يرقصون لاتحاد حكومة بغـــداد ويترحمون على سالف عطائه،مما كان يبتزه ابتزازا تحت تأثير التهديد والارهاب ، وفى الوقت نفسه يتسترون وراء أقنعـــة زائفة للتمسح بعضـــوية اتحادنا فى القاهرة . هؤلاء هم المنافقون الذى قال الله تعالى فيهم :

[الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم].

وقد طلب بعضهم عن طرق متعددة ـ توجيه الدعوة اليهم لحضور هذا الاجتماع ، ولكننا اعتذرنا وكان ردنا واضحا هو أن هناك اجراءات لطلب العضوية معروفة،فاذا أراد أحدهم الحضور فليحرر استمارة العضوية ويزكيه اثنان من الأعضاء ، يشهدان على أنه قد قطع صلته تماما باتحاد بغداد البائد ، وعندئذ يمكن النظر فى أمر قبـــوله وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، فاذا قبل طلبه وصار عضوا توجه اليه الدعوة للحضور وعفا الله عما سلف .

حضرات الاخوة الكرام

مرة أخرى نرحب بكم ونأمل الخير على أيديكم ، فاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة منكم وبكم ولكم . انه يعمل فى وضح النهار لا فى ظلمة الليل . يعمل فى اطار متين من الخلق والمبادىء الحميدة بعيدا عن جو التهريج والنفاق وشراء الذمم والارهاب والابتزاز . يعمل من أجلكم ومن أجل العروبة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها . لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن العروبة وقضاياها ليست مجالا للمتاجرة بالشعارات والألفاظ وشراء الذمم ... لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن تاريخ العـــروبة ليس أداة لخدمة الطغاة وتبرير سياستهم العدوانية التعسفية داخل بلادهم وخارجها ... وبفضل الله وفضل جهـــودكم ـ يمضى اتحاد المؤرخين

العرب فى طريقه ليدخل مرحلة الانطلاق ، رافعا راية أمة أراد لها اللــه عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس ٠

« وقالوا الحمد للــه الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا اللـــه »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

أ٠د٠ سـعيد عبد الفتاح عاشور

٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ
٢٦ نوفمـــبر ١٩٩٤م

اتحاد المؤرخين العرب
القـــاهرة

تقرير أمين الصـــندوق

لما كانت أصعب الفترات التى تواجه مؤسسة جـــديدة من الناحية المالية هى الفكرة التأسيسية فان السنوات الثلاثة التى انقضت من عمـــر الاتحاد كانت تتطلب جهدا خاصا .

الجانب الأول من الجهد يتمثل فى توفير الموارد المالية التى تمكن من استمرار المؤسسة ، لا انتهاء أعمالها بانتهاء اعمال الجمعية العمومية.

ولما كانت اشتراكات أعضــــاء الاتحاد لا تكاد تفى بالقليـــل من احتياجاته فقد عمدنا الى الآتى :

١) تحويل أغلب ما تبقى من التبرع الكريم الذى كان قد قدمه الأستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاسمى أمير الشارقة للانفاق على أعمال الجمعية العمومية الأولى - وقدره ثمانون ألف دولار - الى وديعة بالأجل فى بنك القاهرة فى أفضـــل الأوعية الادخارية (١٤٠ ألف جنيه) للانفــاق من عائدها على الأعمال الجارية للاتحاد مع الاحتفاظ بمبلغ فى الحساب الجارى لموجهات هـــذا الانفاق كان يزداد باستمرار من عوائد الوديعة (٤٥٠٦٦ جنيها) .

٢) الاحتفاظ بحساب بالدولار فى بنك باركليز لتلقى التبرعات عليه

٣) مناشدة أعضاء الاتحاد والمسئولين فى بعض الدول العربية بمد يد العون للاتحاد للاستمرار فى رسالته من خلال التبرعات والتى أسفرت عن تقديم بعض التبرعات كان أهمها التبرع الذى قدمه مرة أخرى سمو الأستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاســـمى وقدره ١٠٠ ألف دولار والذى أودعناه فى بنك القاهرة ليصل حجم الوديعة الى ٤٧٥ر٣٥٩ جنيها أى ما يقرب من نصف مليون جنيه مصرى .

٤) أدت تلك المناشدة فى نفس الوقت الى أن وفرت دولة الكويت مقرا للاتحاد «فيلا» من دورين فى مدينة نصر ـ ٧ شارع بدوانى ـ الحى الثـامن ٠٠

٥) بعد استخدام بعض الاثاث القديم فى الفيللا كقاعة استقبال كان مطلوبا اعادة تأثيثها على نحو يسمح بعقد الاجتماعات والندوات فضلا عن تزويدها بخطوط التليفون (خطان) والفاكس مما أدى الى نفقات مثلت الجانب الأكـبر من مصروفات الاتحـاد خـلال الفترة الماضية (٣٧٠٨٥ جنيها) ٠

أما الجانب الثانى من الجهد فكان يقوم على الوفاء بالاحتياجات اليومية وحاولنا قدر طاقتنا خلال هذه الفترة الانشائية التقليل ما أمكن من المصروفات الادارية التى اقتصرت على حارس مقيم فى مبنى الاتحاد فضلا عن موظف بعض الوقت ، ثلاثة أيام فى الأسبوع ، الأمر الذى لم تزد معه قيمة المـكافآت الادارية خـلال العامين المذكورين عن سـبعة آلاف جنيه ٠

والجانب الأخير من الجهـد يبدو فى سـعى أمناء الاتحاد على الا يعفى الانصراف الى الجانب التأسيسى الى عدم قيام الاتحاد بما يفترض أن يقوم به من نشاطات كان أبرزها اصدار عددين من المجلة (بند الطباعة ٦٢٢٥ جنيها)، ثم اقامة ندوتين (بند الضيافة والاستقبال ٧٣٦٢ جنيها) وها نحن بصـدد اقامة ندوة ثالثة متمنين أن ينتعش الاتحاد فى دورته القادمة بعد أن استقرت أحواله المالية خلال الفترة الماضية ذات الطابع التأسيسى ، على الأقل فى الجانب الذى يكفل استمرار ما هو قائم ، وأن يبقى الاتحاد فى حاجة الى الدعم المالى للتوسع ٠٠ بناء مكتبة ، هيئة موظفين للارشفة وجهاز الاتصالات وما الى ذلك مما يمكن أن تقرره الأمانة الجديدة للاتحاد ٠٠

والله من وراء القصـد ٠٠

أمين صندوق الاتحاد

أ٠د٠ يونان لبيب رزق

١٩٩٤/١١/٢٠

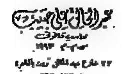


جمعية المؤرخين العرب
قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة
مشهرة تحت رقم ١٠٤٢
بتاريخ ٢٢/٣/١٠٩٢

حساب الايرادات والمصروفات

عن الفترة المالية المنتهية في ٣١/١٢/١٩٩٢

		المصروفات				الايرادات
		كافآت	٢٠٠٠	٠٠٠	٤٢٢ ٫ ٥٠٠	اشتراكات
		مصروفات تأسيس واشهار	١٤٧٠	٠٠٠	٢١٦١٤٧٥ ٫ ٧٢٠	تبرعات
		مصروفات وعمولات بنك	٧٢	٠٠٠	١١١٨٠ ٫ ٤٨٠	فوائد بنك
		استهلاك كهرباء ومياه	٣٥	١٨٠		
		بريد وفاكس	٢١٧	١٧٥		
		أدوات كتابية ومطبوعات	٢٦	٥٠٠		
		انتقالات	٤٥	٠٠٠		
		أدوات نظافة	٢٤	٣٠٠		
٤٤٨٤	٠٠٠					
٢٢٠٧٤٤	٩١٠	فائض				
٢٢٥٢٢٢	٧٦٠				٢٢٥٢٢٢ ٫ ٧٦٠	



٢٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

ت ٣٩٢٥١٣٢

جمعية المؤرخين العرب

قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مشهـــرة تحت رقم ١٠٩٢

بتاريخ ٢٢/٣/١٩٩٤

الميزانيـــة العموميـــة فـي ٣١/١٢/١٩٩٢

مليم	جنيه	
١٢٠	٤٥٠٦٦	بنك القاهرة ـ فرع مدينة نصر ـ جـــارى (حساب رقم ٧٩٠١)
٢٨٠	٨٥٦٨٢	المعادل لرصيد بنك القاهرة باركليز ـ فرع مدينة نصر (حساب رقم ٥٠٣٠/١٨٠٠١٩٢ بالدولار الامريكـــى)
٠٠٠	١٤٠٠٠٠	بنك القاهرة ـ فرع مدينة نصـــر (ودائع لاجـــل)
٢١٠	٢٧٠٧٤١	

مليم	جنيه	
٢١٠	٢٧٠٧٤١	زيادة الايرادات عن المصروفـــات
٢١٠	٢٧٠٧٤١	

تقرير مراقب الحسابات

راجعنا الميزانية العمومية لجمعية المؤرخين العرب في ٣١/١٢/١٩٩٢ وكذا حسابي الشيكات والدفعات والايرادات والمصروفات المرفقين عن الفترة المنتهية في ٣١/١٢/١٩٩٢ وذلك على دفاتر الجمعية ومستنداتها فوجدت مطابقة وقد حصلنا على الايضاحات التي طلبناها

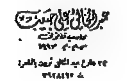
وفي رأينا أن هذه الميزانية تعبر عن المركز المالي الصحيح للجمعية في التاريخ المذكور طبقا للمستندات والدفاتر التي قدمت لنـــا .

عبد الخالق علي حبيب

محاسب ومراجع قانونـــى

١٩٩٣

جمعية المؤرخين المصريين
٢ شارع فؤاد بدراوي ـ الحي الثامن
مشهره تحت رقم ٢٠٩٢
بتاريخ ٢٢/٣/١٩٩٢



حساب الايرادات والمصروفات

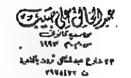
عن الفترة المالية المنتهية في ٣١/١٢/١٩٩٢

المبلغ		* المصروفات
٩٨٠٠٠	٠٠٠	مكافآت
٥٤	٢٨٠	مصروفات وعمولات بنك
٧	٦١٠	استهلاك كهرباء ومياه
١٣٤٦	٤٤٠	بريد وتلكس
٢٠٦	٥٠٠	أدوات كتابية ومطبوعات
٢٠٠٠	٠٠٠	ندوات علمية
٧٢٦٢	٣٠٠	ضيافة واحتفال
٦٢٢٥	٠٠٠	طباعة
١٣١١	٧٠٠	مصروفات نثرية متنوعة
١٨٥	٨٠٠	استهلاك الاثاث
٤١١٣٣٤	٩٢٠	فائض
٤٣٤٩٤٤	٨٨٠	

المبلغ		* الايرادات
٢٥٣٦	٨٨٠	اشتراكات
٤١١٤٩٩	٥٩٠	تبرعات
٢٠٤٦٦	٨٤٠	فوائد بنكية
٤٤١	٥٧٠	ايرادات اخرى (فروق عملة)
٤٣٤٩٤٤	٨٨٠	

جمعية المؤرخين العرب
٢ شارع فؤاد بدواني ـ الحي الثامن
مشهرة تحت رقم ٢٠٩٢-١
بتاريخ ١٩٩٢/٣/٢٢

الميزانيــة العموميــة فى ١٩٩٣/١٢/٣١



٣٣ شارع عبدالخالق ثروت بالقاهرة
ت ٣٩٧٨١٢٢

	٨٠٠	٣٢٠٨٠	الاصـــــــــول
	٨٠٠	١٨	(ـ) الاستهــــــلاك
٠٠٠	٣١٩٩٠٠		
١٦٠	٥٥٠٨٢		بنك القاهرة/ مدينة نصر / جارى علة طلب (حساب رقم ١-٢٩)
٠٠٠	٤٧٥٣٠١		بنك القاهرة / مدينة نصر / ودائع لأجل
٩٨٠	١١٤٧٤٤		المعادل لرصيد بنك القاهرة / باركليز فرع مدينة نصر (حساب رقم ١٩٩٢/١٨٠٠ ٥٠٠٢٠) بالدولار الامريكــــــى
١٤٠	٦٨٢٠٨٤		

١١٠	٢٧٠٢٤٤	مـــــال الجمعيـــــــة*
١٢٠	٤١١٢٢٤	زيادة الايرادات عن المصروفــــات
١٤٠	٦٨٢٠٨٤	

*تقرير مراقب الحسابات
==============

راجعنا الميزانيه العموميه لجمعية المؤرخين العرب فى ١٩٩٣/١٢/٣١ وكذا حسابى المقبوضات والمدفوعات والايرادات والمصروفات المرفقين عن الفتره المنتهيه فــى ١٩٩٣/١٢/٣١ وذلك على دفاتر الجمعيه ومستنداتها فوجدت مطابقه وقد حصلنا على جميع الايضاحات التــى طلبناهـــــا .

ورأينا أن هذه الميزانيه تعبرعن المركـــــز المالى الحقيقى للجمعيه فى التاريخ المذكور طبقـــا للمستندات والدفاتر التى قدمت لنـــــا .

عبد الخالق على حبيب
محاسب ومراجــــع قانونــــى

س م م ١٩٩٣

بســم الله الرحمن الرحيم

محضر الاجتماع الثانى للجمعية العمومية

بناء على أحكام اللائحة الأساسية لاتحاد المؤرخين العرب الصادرة فى جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ ، الموافق شــهر ديسمبر سنة ١٩٩١ تم دعوة أعضاء الاتحاد لحضور الجمعية العمومية الثانية . وتم انعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يومى ٢٣ ، ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ/٢٦ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤م ، وحضرها نحو مائتين من الأعضاء المسجلين فى قوائم الاتحــــاد .

وفى هذين اليومين ناقش أعضــــاء الاتحاد التقارير المقـــدمة من الأساتذة الدكاترة رئيس الاتحاد وأمين الصندوق وأمين مجلس الاتحاد. وقد أوضحت هذه التقارير الانجازات التى حققها الاتحاد فى السنوات الثلاث التى انقضت منذ انعقاد الجمعية العمومية الأولى للاتحاد ، كما أوضح التقرير المالى ميزانية الاتحاد فى ضوء الايرادات والمصروفات بعـــد أن أعتمدها المحاسب القانونى الذى قام بمراجعتها .

وبعد أن ناقش المجتمعون هذه التقارير على مـــدى أربع جلسات طويلة ، واستمعوا الى الملاحظات والتعليقات والمقترحات التى أبداها بعض الأعضاء ، أوصوا باتخاذ القرارات الآتية :

١ ـ الموافقة على التقارير المقدمة من الأساتذة الدكاترة رئيس الاتحاد وأمين الصندوق والأمين العام لمجلس الاتحاد ، وتوجيه الشـكر اليهم على ما بذلوه ويبذلونه من جهد فى خدمة الاتحاد ..

٢ ـ استبدال عبارة « مجلس الأمنـــاء » فى النظام الأساسى لاتحـــاد المؤرخين العرب بعبارة « مجلس الاتحاد » .

٣ ـ تجــديد انتخاب رئيس الاتحــاد ونواب الرئيــس وأمين مجلس الاتحاد وأمين الصندوق وأعضاء مجلس الاتحـــاد وهيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى وأعضاء كافة أجهزة الاتحاد . ويكون هـــذا التجديد لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ختام شهر ديسمبر ١٩٩٧م وتم التجديد بالتزكية وباجماع كافة الأعضاء .

٤ ـ يدعى مجلس الاتحاد للانعقاد مرة واحدة كل ستة أشهر ، ويعتبر

الاجتماع قانونيا بحضور الأغلبية ممثلة فى ستة أعضاء بالاضافة الى الرئيس ٠

٥ ـ تعديل الفقرة الأخيرة من البند « ٥ » من المادة السادسة فى النظام الأساسى للاتحاد ، بحيث تصبح مدة العضوية فى مجلس الاتحاد ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، على أن تنتهى بعد كل دورة عضوية نصف أعضاء المجلس وتجرى الانتخابات لاختيار غيرهم ٠

٦ ـ بذل المزيد من الاهتمام بمجلة الاتحاد من حيث الاخراج والشكل والمحتوى والعمل على توسيع دائرة انتشارها بشتى الوسائل والطرق ٠

٧ ـ الشروع فى وضع نواة مكتبة تاريخية للاتحاد ، تضم أمهات المصادر ودوائر المعارف والقواميس، وتسهيل الافادة منها للأعضاء والباحثين ٠

٨ ـ الاستفادة بوسائل التقنية الحديثة فى اعداد قوائم بأسماء أمهات كتب التراث العربى فى مجال التاريخ وأسماء مؤلفيها ، بالاضافة الى قوائم بأسماء الرسائل العلمية فى مجال التاريخ التى أجيزت وسجلت فى الجامعات والمعاهد العربية ٠

٩ ـ حث الزملاء المشتغلين بالدراسات التاريخية فى المغرب العربى للانضمام الى عضوية الاتحاد ٠

١٠ ـ وضع موسوعة فى تاريخ الأمة العربية على أن يعهد الى الأستاذ الدكتور سهيل زكار بالتخطيط لهذا المشروع والاشراف على تنفيذه٠

١١ ـ مناشدة الحكومات العربية والمؤسسات والأفراد على مد يد العون لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ـ أدبيا وماديا ـ حتى يتمكن من النهوض برسالته الكبرى فى دعم الأمة العربية ٠

١٢ ـ توجيه شكر الاتحاد لحضرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وأعضاء حكومته ، ولدولة الكويت أميرا وحكومة ، ولسمو الشيخ الأستاذ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة ، على ما قدموه ويقدمونه من دعم أدبى ومادى للاتحاد ٠

أ٠د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور

رئيس الاتحاد

رقم الايداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 3 March, 1995 Cairo - Egypt